

«تفسير ابن عطية»

المحرر الوجيز

في

تفسير الكتاب العزيز

لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي

الجزء الثالث عشر

تحقيق وتعليق

عليه براهيم الأنصاري

السيد الفاضل السيد المصطفى

طبع على نفقة

صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني
أمير دولة قطر

حشأ،
رجح

الحق
بحري

الطبعة الأولى

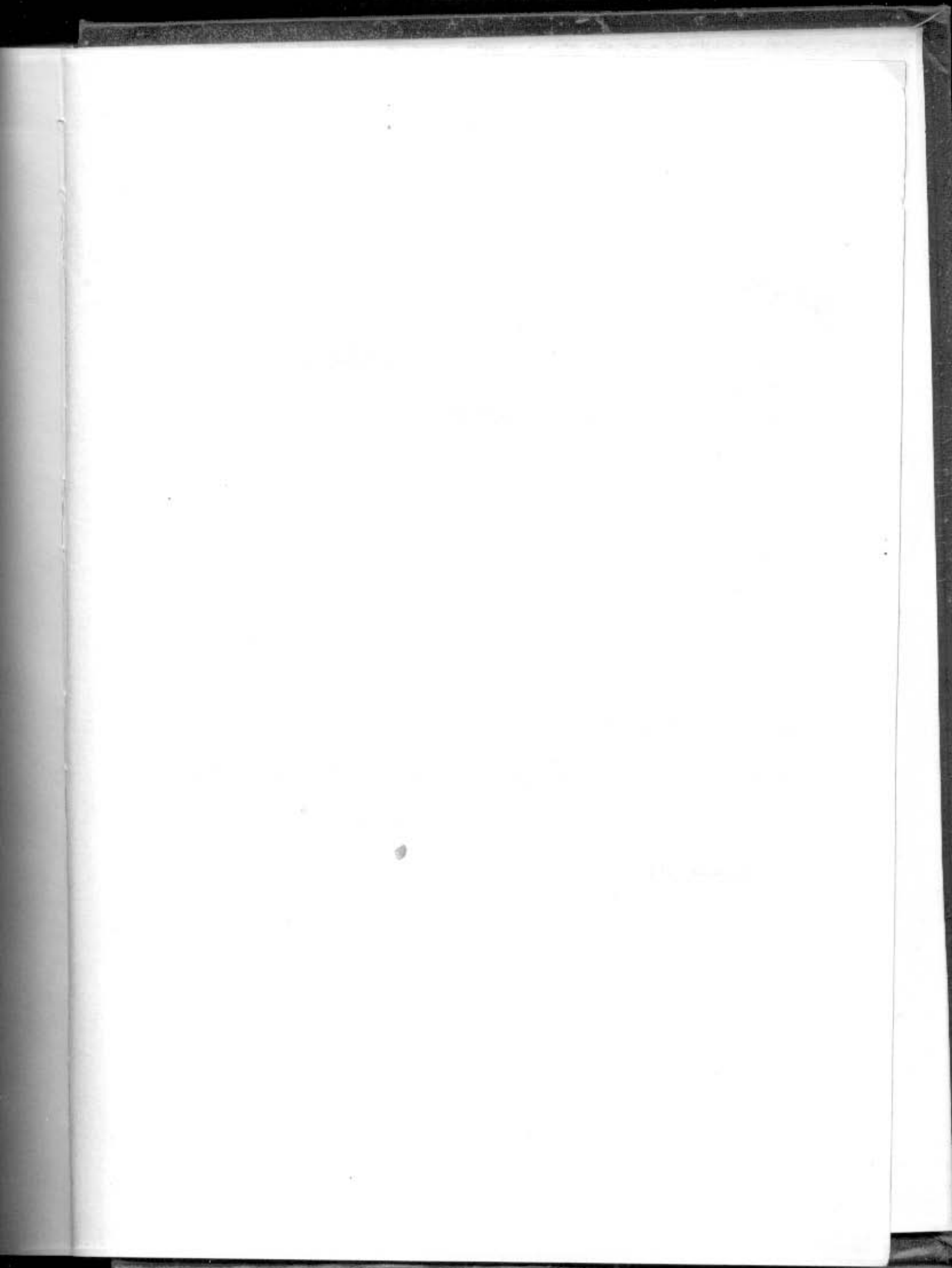
غرة رمضان ١٤٠٩ هـ
الدوحة في: نيسان - ابريل ١٩٨٩ م

« تفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشري ، وأصح نقلاً وبحثاً ،
وأبعد عن البدع بل هو خير منه بكثير ، بل لعله أرجح
هذه التفاسير » .

(ابن تيمية)

« لما رجع الناسُ إلى التحقيق والتَّحْيِص ، وجاء أبو محمد عبد الحق
ابن عطية من المتأخرين بالمغرب ، فلَخَّص تلك التفاسير كلها ، وتَحَرَّى
ما هو أقرب إلى الصحة منها » .

(ابن خلدون)



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

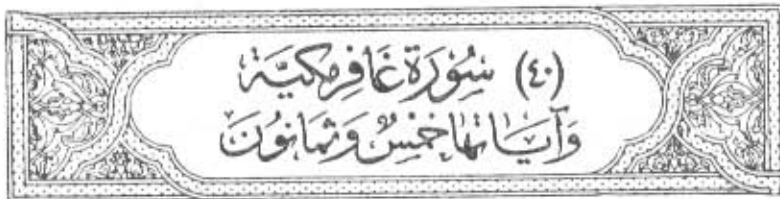
الجزء الثالث عشر

ويبدأ بقوله تبارك وتعالى :

﴿ حَمْدُكَ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾
غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴿٣﴾ ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



تفسير سورة غافر (*)

هذه السورة مكّية بإجماع ، وقد روي في بعض آياتها أنها مدنية (١) ،
وذلك ضعيف ، والأول أصح ، وهذه الحواميم التي روى أنس

(*) وتُسَمَّى سورة (المؤمن) ، وأيضاً تُسَمَّى سورة (الطَّوْل) . وعدد آياتها خمس
وثمانون آية ، وقيل : ثنتان وثمانون آية .

(١) حكي عن ابن عباس رضي الله عنهما : وعن قتادة أن فيها آيتين نزلتا بالمدينة ، قوله
تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ ﴾ والتي بعدها ، وهما الآيتان (٥٦ : ٥٧) ،
وقال الحسن : هي مكّية إلا قوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ ؛ لأن الصلوات نزلت
بالمدينة .

وابن عطية يرى أن ذلك ضعيف ، ويؤيد هذا ما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله
عنهما أنه قال : « أنزلت سورة لحم المؤمن بمكة » ، وأيضاً ما أخرجه ابن مردويه عن ابن الزبير
رضي الله عنهما أنه قال : « نزلت سورة المؤمن بمكة » ، وما أخرجه ابن الضريس ، والنحاس ،
والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما ، من أنه قال : « أنزلت الحواميم السبع
بمكة » ، وما أخرجه ابن مردويه ، والديلمى ، عن سمرّة بن جندب رضي الله عنه ، قال :
نزلت الحواميم جميعاً بمكة .

رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنها ديباج القرآن (١) ،
 ووقفه الزجاج على ابن مسعود رضي الله عنه ، ومعنى هذه العبارة
 أنها خلت من الأحكام ، وقُصرت على المواعظ والزجر وطرق الآخرة
 محضاً (٢) ، وأيضاً فهي قصارٌ لا يلحق لقارئٍ فيها سآمة . ورؤي
 أن ابن مسعود روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من أراد أن
 يرتع في رياض مونة من الجنة فليقرأ الحواميم) (٣) ، وهذا نحو
 الكلام الأول في المعنى . وقال عليه الصلاة والسلام : (مثل الحواميم
 في القرآن مثل الحَبَرَات في الثياب) (٤) .

(١) أخرجه أبو الشيخ ، وأبو نعيم ، والدَيْلمي ، عن أنس رضي الله عنه . (الدر المنثور) ،
 أما وقف الحديث على ابن مسعود رضي الله عنه فقد أخرجه أبو عُبَيْد ، وابن الضريس ،
 وابن المنذر والحاكم ، والبيهقي في شعب الإيمان .

(٢) يريد أنها قصرت على المواعظ والزجر قصراً خالصاً ، والمحض : الخالص ، وفي
 اللسان عن الأزهري : كل شيء خلص حتى لا يشوبه شيء يخالطه فهو محض ، وفي حديث
 الوسوسة : (ذلك محض الإيمان) ، أي : خالصه وصريحه .

(٣) أخرجه ابن الضريس ، عن إسحق بن عبد الله رضي الله عنه ، قال : بلغنا أن رسول الله
 صلى الله عليه وسلم قال : (لكل شجرة ثمر ، وإن ثمرات القرآن ذوات لحم ، هن روضات
 مخصبات معشبات متجاورات ، فمن أحب أن يرتع في رياض الجنة فليقرأ الحواميم) .. الحديث ،
 وله بقية ذكرها الإمام السيوطي في الدر المنثور ، وأخرج الديلمي ، وابن مردويه ، عن سَمُرَةَ
 ابن جندب رضي الله عنه مرفوعاً : (الحواميم روضة من رياض الجنة) .

(٤) الحَبَرَات جمع حَبْرَةٍ وحَبْرَةٍ . وهي نوع من البرود اليمينية المخططة ، وتمتاز
 بأنها ناعمة ، وقد أخذ ذلك من قولهم : « ثوبٌ حَبِيرٌ » ، بمعنى ناعم جديد . راجع اللسان
 والتاج . والحديث ذكره الثعلبي ، ونقله عنه في القرطبي .

قوله عز وجل :

﴿ حَمْدٌ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝ غَافِرِ الذَّنْبِ ۝ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ۝ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ۝ مَا يُجَدِّدُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبَلَدِ ۝ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ۝ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۝ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۝ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝ ﴾

قد تقدم القول في الحروف المقطعة في أوائل السور ، وتلك الأقوال كلها تترتب في [حم] ، ويختص هذا الموضع بقول آخر قاله الضحاك ، والكسائي : إن [حم] هجاء (حَمْ) بضم الحاء وشد الميم المفتوحة ، كأنه يقول : «حَمْ الأَمْرُ وَوَقَعَ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ» (١) ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : «الْأَمْرُ ، وَحَمْ ، وَنَ هِيَ حُرُوفُ (الرَّحْمَنِ) مُقَطَّعَةٌ فِي سُورِ» ، وقال القرطبي : أقسم الله تعالى بِحِلْمِهِ وَمُلْكِهِ (٢) ،

(١) وعلى هذا المعنى جاء قول كعب بن مالك :

فَلَمَّا تَلَقَيْنَا وَدَارَتْ بَيْنَا الرَّحَى وَلَيْسَ لِأَمْرِ حَمَّةُ اللَّهِ مَدْفَعُ
أي : ليس لأمر قضاء الله وأرادته .

(٢) ذكر الشوكاني هذه الأقوال وغيرها ، ثم عقَّب عليها بقوله : «والحق أن هذه الفاتحة لهذه السور وأمثالها من المتشابه الذي استأثر الله تعالى بعلم معناه» . والقرطبي هو محمد بن عبد الله القرطبي ، وفي النسخة التونسية : «وقال القرطبي» ، وهو خطأ من الناسخ .

وسأل أعرابي النبي صلى الله عليه وسلم عن [حَمْ] ما هو؟ فقال :
(بدء أسماء وفواتح سور) .

وقرأ ابن كثير بفتح الحاء ، ورؤي عن أبي عمرو (١) كسرهما
على الإمالة ، ورؤي عن نافع الفتح ، ورؤي عنه الوسط بينهما ،
وكذلك اختلف عن عاصم ، ورؤي عن عيسى كسر الحاء على الإمالة ،
وقرأ جمهور الناس بفتح الحاء وسكون الميم ، وقرأ عيسى بن عمر
أيضاً بفتح الحاء وفتح الميم الأخيرة في النطق ، ولذلك وجهان :
أحدهما التحريك للالتقاء مع الياء الساكنة ، والآخر أن تكون حركة
إعراب ، وذلك نصب بفعل مضمر تقديره : اقرأ حَمْ ، وهذا على
أن يجري مجرى الأسماء ، والحُجَّة فيه قول شريح بن أوفى العبسي :
يُذَكِّرني حاميمَ والرُّمَحُ شاجرٌ فهَلَّا تلاَ حاميمَ قَبْلَ التَّقَدُّمِ ؟ (٢)

(١) في النسخة التونسية : « عن ابن عمر » ، وهو خطأ من الناسخ .

(٢) البيت في اللسان (حَمَمَ) ، وقد نقل عن أبي عبيدة نسبته لشريح بن أوفى ، وقال :
« وأنشده غيره للأشتر النخعي » ، والضمير في (يُذَكِّرني) هو لمحمد بن طلحة ، وقد قتله
الأشتر أو شريح في موقعة الجمل ، ومعنى قول الشاعر : « والرمح شاجر » أنه ناشب فيه ،
يقال : شجره بالرمح : طعنه ، وفي حديث الشراة : « فشجرناهم بالرمح » أي : طعنناهم
بها حتى اشتبكت فيهم . والبيت شاهد على أن (حاميم) تكون اسماً معرباً ، وعلى هذا جاءت
قراءة عيسى بن عمر بفتح الميم الأخيرة . وهذا قول الجرمي ، (صالح بن إسحق) وقد أنكر
بعض العلماء ذلك ، ومنهم يونس الذي قال : من قال هذا القول فهو منكر عليه ؛ لأن السورة
[حَمْ] ساكنة الحروف ، فخرجت مخرج التهججي ، وهذه أسماء سور خرجن متحركات .

وقال الكميت :

وَجَدْنَا لَكُمْ فِي آلِ حَامِيمٍ آيَةً تَأْوَلَهَا مِنَّا تَقِيٌّ وَمُعْزِبٌ (١)
 وقرأ أبو السمال بكسر الميم الأخيرة ، وذلك لالتقاء الساكنين ،
 و [حم] آية .

و [تَنْزِيلُ] رفع بالابتداء ، والخبر قوله تعالى : ﴿ مِنْ اللَّهِ ﴾ ،
 وعلى القول بأن [حم] إشارة إلى حروف المعجم يكون قوله : [تَنْزِيلُ]
 خبر ابتداء ، و [أَلْكِتَابِ] : القرآن ، وقوله تعالى : [غَافِرٍ] بدل
 من المكتوبة (٢) ، وإن أردت بـ [غَافِرٍ] الْمُضِيَّ - أي غُفْرَانَهُ في الدنيا
 وقضائه بِالْغُفْرَانِ وَالسَّتْرِ عَلَى الْمَذْنِبِينَ - فيجوز أن تكون [غَافِرٍ]

(١) البيت للكميت بن زيد الأسدي ، وهو في الديوان ، واللسان ، ومجاز القرآن ،
 و (آل حاميم) هي السور التي أولها [حم] ، وقد نصَّ الحريري في (درة الغواص) على
 أنه يقال : آل حاميم ، وذوات حاميم . وآل طميم . ولا يقال : حواميم ولا طواسيم . والآية
 التي يشير إليها الكميت هي قوله تبارك وتعالى في سورة الشورى : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
 أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ - ٢٣ الشورى - والتَّقِيُّ : الساكت عن التفضيل والتشيع
 لآل النبي صلى الله عليه وسلم ، والمُعْرِبُ : الذي أبان وأعربَ عَمَّا في نفسه من تشيع
 وتفضيل لآل البيت ، وهذه هي رواية أبي عمرو للبيت : (مُعْرِب) بالراء ، ولكن الأموي
 رواها بالزاي كما قال أبو عبيدة ، ورواية البيت كما في مجاز القرآن هي :

وَجَدْنَا لَكُمْ فِي آلِ حَامِيمٍ آيَةً وَفِي غَيْرِهَا آيٌ وَأَيُّ يُعَرَّبُ

وقوله : « وفي غيرها » يشير به إلى قوله تعالى في سورة الأحزاب : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ
 عَنْكُمْ الْرِجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ - (٣٣) الأحزاب - .
 (٢) أي : لفظ الجلالة (الله) في قوله تعالى : ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ ﴾ .

صفة ؛ لأن إضافته إلى المعرفة تكون محضة ، وهذا يترجح جداً ،
 وإذا أردت بـ [غافر] الاستقبال - أي غفرانه يوم القيامة - فلاضافة
 غير محضة ، و [غافر] نكرة ، فلا يجوز أن تكون نعتاً ؛ لأن المعرفة
 لا تُنعت بالنكرة ، وفي هذا نظر . وقال الزجاج : [غافر] و [قابل] ^(١)
 صفتان ، و (شديد العقاب) بدل^(٢) ، و [الذنب] اسم الجنس ،
 وأما [التوب] فيحتمل أن يكون مصدرًا كالعوم والنوم فيكون اسم
 جنس ، ويحتمل أن يكون جمع توبة ، كتمررة وتمر ، وساعة وساع .
 وقبول التوبة من الكافر مقطوع به ؛ لإخبار الله تعالى ، وقبولها من
 العاصي في وجوبها قولان لأهل السنة ، وحكى الطبري عن أبي بكر
 ابن عياش أن رجلاً جاء إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال :
 إني قتلت ، فهل لي من توبة ؟ فقال : نعم ، اعمل ولا تيأس ،
 ثم تلا هذه الآية إلى قوله تعالى : (وقابل التوب) . [و شديد
 العقاب] صفة ، وقيل : بدل^(٣) .

(١) قال أبو حيان الأندلسي : «إنما جعل غافر وقابل صفتين وإن كانا اسمي فاعل لأنه فهم من ذلك أنه لا يرادُ بهما التجدد ولا التقييد بزمان ، بل أريد بهما الاستمرار والثبوت ، وإضافتهما محضة فتعرف ، وصح أن يوصف بهما المعرفة ، وإنما أعرب (شديد العقاب) بدلاً لأنه من باب الصفة المشبهة ، ولا يتعرف بالإضافة إلى المعرفة ، وقد نص سيبويه على أن كل ما إضافته غير محضة إذا أضيف إلى معرفة جاز أن ينوي بإضافته التمهحض فيتعرف وينعت به المعرفة ، إلا ما كان من باب الصفة المشبهة فإنه لا يتعرف » . (البحر المحيط ٤٤٧-٧)

(٢) هكذا في جميع الأصول ، وأعتقد أن ما بين العلامتين [.....] مكرر ، أو أنه في غير موضعه ، فقد سبق الحديث عن إعراب كل من (غافر ، وقابل ، وشديد العقاب) .

ثم عَقَّبَ تعالى هذا الوعيد بوعد ثانٍ في قوله سبحانه : ﴿ذِي الطُّوْلِ﴾ ،
أي : ذِي التَّطَوُّلِ وَالْمَنْ بِكُلِّ نِعْمَةٍ ، فلا خير إلا منه ، فترتب في
الآية وعيدٌ بين وعدين ، وهكذا رحمة الله تعالى تغلب غضبه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

سمعت هذه النزعة من أبي رضي الله عنه ، وهي نحو من قول
عمر رضي الله عنه : «لَنْ يَغْلِبَ عُسْرُ يُسْرَيْنِ» ، يريد قوله تعالى :
﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (١) . و «الطُّوْلُ» : الإِنْعَامُ ،
ومنه «ما حَلَيْتُ بِطَائِلٍ» (٢) ، وحكى الثعلبي عن أهل الإشارة أنه تعالى
غافر الذنب فضلاً ، وقابل التَّوْبَ وعداً ، وشديد العقاب عدلاً .
وقال ابن عباس رضي الله عنهما : الطُّوْلُ : السَّعَةُ وَالْغِنَى . ثم صدق
تعالى بالتوحيد في قوله : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ، وبالبعث والحشر في قوله :
﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ يريد : جدالاً باطلاً ،
لأنَّ الجدال فيها يقع من المؤمنين لكن في إثباتها وشرحها ، وقوله
تعالى : ﴿فَلَا يَغُرُّكَ﴾ أنزله منزلة : «فَلَا يَحْزُنُكَ وَلَا يَهْمُنُكَ» لتدل
الآية على أنهم ينبغي ألاَّ يَغْتَرُّوا بِإِمْلَاءِ اللَّهِ تعالى لهم ، فالخطاب له

(١) الآيتان (٥ : ٦) من سورة (الشَّارْح) .

(٢) أي : لم أظفر ولم أستفد بفائدة ، ولا يستعمل إلا في النفي ، (راجع اللسان) .

والإشارة إلى من يقع منه اغترار ، ويحتمل أن يكون [يَغُرُّكَ] بمعنى :
تظن أن وراء تقلبهم وإمهالهم خيراً لهم ، فتقول : عسى ألا يُعَذِّبُوا .
وحل الفعل من الإدغام لسكون الحرف الثاني ، وحيث هما متحركان
لا يجوز الحل ، لا تقول : زيد يَغُرُّكَ (١) . وتقلبهم في البلاد عبارة
عن تمتعهم بالمساكن والمزارع والأسفار وغير ذلك .

ثم مثل لهم بمن تقدمهم من الأمم ، أي : كما حلَّ بأولئك
كذلك ينزل بهؤلاء . و [الْأَحْزَابُ] يريد بهم عاداً وثموداً وأهل مدين
وغيرهم ، وفي مصحف ابن مسعود : « بِرَسُولِهَا » ردّاً على « الْأُمَّة » ،
وضمير الجماعة هو على معنى الآية لا على لفظها . وقوله تعالى :
[لِيَأْخُذُوهُ] معناه : ليهلكوه ، كقوله سبحانه : [فَأَخَذَتْهُمْ] (٢) ،
والعرب تقول للقتيل : أَخِيذُ ، وللأسير : أَخِيذُ ، ومنه قولهم :
« أَكْذَبُ مِنَ الْأَخِيذِ الصَّبْحَانِ » (٣) ، وقال قتادة : [لِيَأْخُذُوهُ] معناه :

(١) فك الإدغام لغة أهل الحجاز ، والإدغام لغة تميم ، وقد قرأ بها زيد بن علي ،
وعبيد بن عمير .

(٢) من الآية (٣٢) من سورة (الرعد) ، وتكررت في الآية (٢٤) من سورة (الحج) ،
والأخذ بمعنى القتل والإهلاك كثير متكرر في القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿ وَكَذَّبُوا عَنْ
مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا ﴾ ، وقال : ﴿ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ
كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ ، وقال : ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ أَلْرَجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ
جَائِعِينَ ﴾ ، وقال : ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ أَلصَّبْحَةَ مُشْرِقِينَ ﴾ .

(٣) الأخيذ : الأسير المأخوذ ، والصَّبْحَانِ : الذي شرب الصُّبُوح ، وهو اللبن الذي
يشرب في الصباح ، وأصل هذا المثل أن رجلاً خرج من حيه وقد اصطبح ، فلقبه جيش من =

ليقتلوه . و [لِيُدْحِضُوا] معناه : لِيُزْلِقُوا وليُذهَبُوا ، والمُدْحِضَةُ :
الزَّلَّةُ والمَزْلَقَةُ (١) . وقوله تعالى : (فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ) تعجيب وتعظيم ،
وليس باستفهام عن كيفية وقوع الأمر .

قوله عز وجل :

﴿ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ
الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ
وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ
تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ
عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ
أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ
رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾

= الأعداء يقصدون قومه ، فأخذوه وسألوه عن الحَيِّ ، فقال : إنما بُتُّ في القَفَرِ ولا عهد لي بقومي ،
وبينما هم يتنازعون غلبه البول فبال ، فعلموا أنه قد اصطبغ وشرب اللبن ولولا ذلك لم يَبْلُ ،
فقطعنه واحد منهم في بطنه فبدره اللبن ، فمضوا غير بعيد فعثروا على الحَيِّ . وفسر القراء المثل
تفسير آخر : قال : الأخيد الصَّبْحَانِ هو الفصيل يقال : أخذ يأخذ أخذاً إذا أكثر من شرب
اللبن ، بأن يتفلت على أمه فيمتهك لبنها فيأخذه : أي : يتخَم منه ، وكذبه أن التَّخْمَةَ
تُكْسِبُه جوعاً كاذباً ، فهو لذلك يحرص على اللبن ثانياً .

(١) في اللسان (دَحَضَ) : « الدَّحَضُ » : الزَّلَقُ ، والإدحاض : الإزلاق ، وفي حديث
الجمعة : كرهتُ أن أخرجكم فتمشون في الطين والدَّحَضُ ، أي : الزَّلَقُ .

في مصحف عبد الله بن مسعود : « وكذلك سبقت كلمة ربك » ، والمعنى : وكما أخذت أولئك المذكورين وأهلكتهم فكذلك حقت كلماتي على جميع الكفار ، من تقدم منهم ومن تأخر ، أنهم أهل النار وسكانها . وقرأ نافع ، وابن عامر : [كَلِمَاتُ] على الجمع ، وهي قراءة الأعرج ، وأبي جعفر ، وابن نصاح . وقرأ الباقر على الأفراد ، وهي للجنس ، وهي قراءة أبي رجاء ، وقتادة ، وهذه كلها عبارة عن حتم القضاء عليهم . وقوله : [أَنَّهُمْ] بدل من [كَلِمَةُ] .

ثم أخبر تعالى بخبر يتضمن تشريف المؤمنين وتعظيم الرجاء لهم ، وهو أن الملائكة الحاملين للعرش والذين حول العرش - وهم أفضل الملائكة - يستغفرون للمؤمنين ، ويسألون الله تبارك وتعالى لهم الجنة والرحمة ، وهذا معنى قوله تعالى في غير هذه الآية : ﴿ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴾ (١) ، أي : سأله الملائكة ، وفسر تعالى في هذه الآية المُجْمَل الذي في قوله تعالى في غير هذه الآية : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ (٢) ، لأنه معلوم أن الملائكة لا يستغفرون لكافر ، وقد يجوز أن يقال : معنى ذلك أنهم يستغفرون للكفار بمعنى طلب هدايتهم والمغفرة لهم بعد ذلك ، وعلى هذا النحو هو استغفار إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه ، واستغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم للمنافقين ،

(١) من الآية (١٦) من سورة (الفرقان) .

(٢) من الآية (٥) من سورة (الشورى) .

وبلغني أن رجلاً قال لبعض الصالحين : ادْعُ لي واستغفر لي ، فقال له :
 تُبِّ واتَّبِع سبيلي يستغفر لك من هو خير منِّي ، وتَلَا هذه الآية .
 وقال مطرف بن الشَّخِير : وجدنا أنصح العباد للعباد الملائكة ، وأغش
 العباد للعباد الشياطين ، وتَلَا هذه الآية ، وروى جابر بن عبد الله
 أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (أَذِنَ لي رَبِّي أَن أُحَدِّثَ عن مَلَكٍ
 من حَمَلَةِ العرش بين شحمة أذنه وعاتقه مسيرة خمسمائة سنة) (١) .
 وقرأت فرقة : [الْعُرْشَ] بضم العين ، والجمهور على فتحها .

قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً ﴾ . نصب
 [رَحْمَةً] على التمييز ، وفيه حذف تقديره : يقولون ، ومعناه : وَسِعَتْ
 رَحْمَتُكَ وَعِلْمُكَ كُلَّ شَيْءٍ ، وهذا نحو قولهم : «تَفَقَّأتُ شحماً» (٢) ،
 وتصببت عرقاً ، وطبت نفساً . و «سبيلُ الله المُتَّبَعَةُ» هي الشرائع .
 وقرأ جمهور الناس : ﴿ جَنَّاتٍ عَدْنٍ ﴾ على جمع الجنَّات ، وقرأ
 الأعمش - في رواية المفضل - : ﴿ جَنَّةٍ عَدْنٍ ﴾ على الإفراد ، وكذلك
 هو في مصحف ابن مسعود رضي الله عنه ، و «الْعَدْنُ» : الإقامة .

(١) أخرجه أبو داود ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ في (العظمة) ، وابن مردويه ،
 والبيهقي في (الأسماء والصفات) ، بسند صحيح ، عن جابر رضي الله عنه ، (ذكره في الدر
 المنثور) ، وفيه : مسيرة سبعمائة سنة .

(٢) تَفَقَّأَ : مطاوع فَقَّأَ ، وهي مبالغة في فَقَّأَ ، والمعنى أن الجسم تشقق فخرج
 منه الشحم .

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ .
 روي عن سعيد بن جبير رضي الله تعالى عنه في تفسير ذلك أن الرجل
 يدخل الجنة قبل قرابته ، فيقول : أين أبي ؟ أين أمي ؟ أين زوجتي ؟
 فيلحقون به لصلاحتهم ، ولتنبيهه عليهم وطلبه إياهم ، وهذه دعوة
 الملائكة ، وقرأ عيسى بن عمر : [وَذُرِّيَّتَهُمْ] بالإنفراد .
 وقوله تعالى : [وَقِهِمْ] أصله : أوقهم ، حذفت الواو إتباعاً لحذفها

في المستقبل ، واستغني عن ألف الوصل لتحرك القاف ، ومعناه :
 اجعل لهم وقاية تقيهم السيئات ، واللفظ يحتمل أن يكون الدعاء
 في أن يدفع الله عنهم نفس السيئات حتى لا ينالهم عذاب من أجلها ،
 ويحتمل أن يكون الدعاء في رفع العذاب اللاحق من السيئات ، فيكون
 في اللفظ - على هذا - حذف مضاف ، كأنه قال : وقهم جزاء السيئات .
 قوله عز وجل :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ
 تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ۝١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا أَفْنَتَيْنِ وَأُحْيَيْنَا أَفْنَتَيْنِ
 فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ۝١١﴾ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ
 كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَمَّنُوا ۝ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ۝١٢﴾

أخبر الله تعالى بحال الكفرة ، وجعل ذلك عقب حال المؤمنين
 ليتبين الفرق ، وروي أن هذه الحال تكون للكفار عند دخولهم النار ،

فإنهم إذا أدخلوا فيها مقتوا أنفسهم ، أي : مَقَتَ بعضهم بعضاً ،
ويحتمل أن يمقت كل واحد نفسه ، فإن العبارة تحتمل المعنيين ،
و « المَقْتُ » هو احتقارٌ وبُغْضٌ عن ذنب وريبة ، هذا حده ، وإذا
مقت الكفار أنفسهم نادتهم ملائكة العذاب - على جهة التوبيخ -
فيقولون لهم : مَقَتُ الله إياكم في الدنيا - إذ كنتم تُدْعَوْنَ إلى الإيمان
فتكفرون - أكثر من مقتكم أنفسكم اليوم ، هذا هو معنى الآية ،
وبه فسر مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد . وأضاف تعالى المصدر إلى
الفاعل في قوله سبحانه : ﴿ لَمَقَتُ اللَّهُ ﴾ والمفعول محذوف لأن القول
يقتضيه . واللام في قوله تعالى : ﴿ لَمَقَتُ ﴾ يحتمل أن تكون لام
الابتداء أو لام القسم ، وهو أصوب . و [أَكْبَرُ] خبر الابتداء .
والعامل في [إِذْ] فعل مضمر تقديره : « مَقَتَكُمْ إِذْ » ، وقدره قوم :
« اذكروا إِذْ » ، وذلك ضعيف يحلُّ ربط الكلام ، اللهم إلا أن يُقدَّرَ
أن مَقَتَ الله لهم هو في الآخرة ، وأنه أكبر من مقتهم أنفسهم ،
فيصح أن يُقدَّرَ المضمر : « اذكروا » ، ولا يجوز أن يعمل فيه قوله
تعالى : ﴿ لَمَقَتُ ﴾ لأن خبر الابتداء قد حال بين « المَقَتِ » وبين [إِذْ] ،
إذ هي في صلته ، ولا يجوز ذلك .

واختلف المفسرون في معنى قولهم : ﴿ رَبَّنَا أَمَتْنَا أَثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْنَا
أَثْنَتَيْنِ ﴾ - فقال ابن عباس رضي الله عنهما ، وقتادة ، والضحاك ،

وابن مالك : أرادوا بموتهم كونهم ماءً في الأصلاب ، ثم إحياءهم في الدنيا ، ثم إماتتهم الموت المعروف ، ثم إحياءهم يوم القيامة ، فالواو هي كالتي في سورة البقرة ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ (١) ، وقال ابن زيد : أرادوا أنه أحياهم نسماً عند أخذ العهد عليهم وقت أخذهم من صلب آدم عليه السلام ، ثم أماتهم بعد ذلك ، ثم أحياهم في الدنيا ، ثم أماتهم ثم أحياهم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول ضعيف لأن الإحياء فيه ثلاث مرات .
وقال السدي : أرادوا أنه أحياهم في الدنيا ثم أماتهم ، ثم أحياهم في القبور وقت سؤال منكر ونكير ثم أماتهم فيه ، ثم أحياهم في الحشر .
وهذا أيضاً يدخله الاعتراض الذي في القول قبله ، والأول أثبت الأقوال .
وقال محمد بن كعب القرظي : أرادوا أن الكافر في الدنيا هو حيُّ الجسد ميت القلب ، فكان حالهم في الدنيا جمعت إحياء وإماتة ، ثم أماتهم حقيقة ، ثم أحياهم في البعث .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والخلاف في هذه الآية مقول كله في آية سورة البقرة ، وهذه الآية يظهر منها أن معناها منقطع من معنى قوله تعالى : ﴿ إِذْ تُدْعَوْنَ

(١) من الآية (٢٨) من سورة (البقرة) .

إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ) ، وليس الأمر كذلك ، بل الآيتان مُتَّصِلَتَا
 المعنى ، وذلك أَنَّ كفرهم في الدنيا كان أيضاً بإنكارهم البعث ،
 واعتقادهم أَنَّهُ لا حشر ولا عذاب ، ومقتهم لأنفسهم إِنَّمَا عَظَّمَهُ لِأَنَّ
 هذا المعتقد كَذَّبُهُمْ ، فلما تقرر مقتهم لأنفسهم ورأوا خزيّاً طويلاً
 عريضاً رجعوا إِلَى المعنى الذي كان كفرهم به وهو البعث ، وخرج
 إِلَى الوجود مقترناً بعذابهم ، فَأَقْرَبُوا بِهِ عَلَى أَتَمِّ وجوهه ، أَي : كُنَّا
 قد كفرنا بإنكارنا البعث ، ونحن اليوم نُقَرُّ أَنَّكَ أَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ
 وَأَمَتْنَا اثْنَتَيْنِ ، كَأَنَّهُمْ قَصَدُوا تَعْظِيمَ قُدْرَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، واسترضاءه
 بذلك ، ثم قالوا عَقِبَ ذَلِكَ الإِقْرَارِ طَمَعاً مِنْهُمْ : فَمَا نَحْنُ مُعْتَرِفُونَ
 بِذُنُوبِنَا ، فهل إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ؟ وهذا كَمَا تَكَلَّفَ إِنْسَاناً أَنْ
 يُقَرَّ لَكَ بِحَقِّ وَهُوَ يَنْكُرُ ، فَإِذَا رَأَى الْغَلْبَةَ وَصُرِعَ أَقَرَّ بِذَلِكَ الْأَمْرِ
 مُتَمِّماً أَوْفَى مِمَّا كُنْتَ تَطْلُبُهُ بِهِ أَوَّلًا ، وفيما بعد قولهم : «فَهَلْ إِلَى
 خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ» محذوف من الكلام يدل عَلَيْهِ الظاهر ، تقديره :
 لا إِسْعَافَ لَطَلْبَتِكُمْ ، أَوْ نَحْوَ هَذَا مِنَ الرَّدِّ وَالزَّجْرِ .

وقوله تعالى : (ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ) يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ إِشَارَةً إِلَى مَقْتِهِمْ
 أَنْفُسَهُمْ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ إِشَارَةً إِلَى الْعَذَابِ الَّذِي هُمْ فِيهِ ، أَوْ إِلَى
 الْمَنْعِ وَالزَّجْرِ وَالْإِهَانَةِ الَّتِي قُلْتُ إِنَّهَا مَقْدَرَةٌ مَحْذُوفَةٌ الذِّكْرُ لِدَلَالَةِ ظَاهِرِ
 الْقَوْلِ عَلَيْهَا ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ إِشَارَةً إِلَى مَقْتِ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّاهُمْ ،
 وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ الْمَخَاطَبَةُ بِ [ذَلِكُمْ] لِمُعَاصِرِي مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

إحياءهم
 نيامة ،
 أمواتاً
 أرادوا
 دم عليه
 حياهم .

أحياءهم
 لحشر .
 قوال .
 ما هو
 مائة ،

وهذه
 ندعون

وسلم في الدنيا ، ويحتمل أن تكون للكفار عامة . وقوله تعالى : ﴿ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَخُدَّهٖ ﴾ معناه : بحالة توحيد ونفي لما سواه من الآلهة والأنداد . وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا ﴾ أي : إذا ذكرت اللات والعزى وغيرهما صدقتم واستقرت نفوسكم ، والحكم اليوم بعذابكم وتخليدكم في النار لله لا لتلك التي كنتم تشركونها معه في الألوهية ، و « الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ » صفتا مدح لا في المكان ومضادة السفلى والصغر .

قوله عز وجل :

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّل لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ۚ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝١٤﴾
 رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ۝١٥ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۝١٦ الْيَوْمَ نُجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝١٧﴾

هذا ابتداء مخاطبة في معنى توحيد الله تعالى وتبيين علامات ذلك .
 وآيات الله تعظم آيات قدرته وآيات قرآنه والمعجزات الظاهرة على أيدي

رسله ، وتنزيلُ الرزق هو في تنزيل المطر وفي تنزيل القضاء والحكم
بنيل ما يناله المرء في تجارة وغير ذلك . وقرأ جمهور الناس : [وَيُنْزِلُ]
بالتخفيف ، وقرأ الحسن ، والأعرج ، وعيسى وجماعة بالتشديد .
وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴾ معناه : وما يتذكر تذكرًا
يُعتد به وينفع صاحبه ؛ لأننا نجد من لا يُنِيب يتذكر لكن لما كان ذلك
غير نافع عُدَّ كأنه لم يكن .

وقوله تعالى : ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ ﴾ مخاطبة للمؤمنين أصحاب
محمد صلى الله عليه وسلم ، و [آدْعُوا] معناه : اعبدوا .

وقوله تعالى : ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ﴾ يحتمل أن يريد بالدرجات
صفاته العلى ، وعبر تعالى بما يقرب لأفهام السامعين ، ويحتمل أن
يريد : رفيع الدرجات التي يعطيها للمؤمنين ، ويتفضل بها على عباده
المخلصين في جنته . و « العرش » هو الجسم المخلوق الأعظم الذي
السموات السبع والأرضون فيه كالدنانير في الفلاة من الأرض .

قوله تعالى : ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ ﴾ . قال الضحاك : الروح هنا هو
الوحي والقرآن وغيره مما لم يُتَلَّ ، وقال قتادة والسدي : الروح النبوة
ومكانتها ، كما قال : ﴿ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ﴾ (١) ، وسمى هذا روحاً لأنه

(١) من الآية (٥٢) من سورة (الشورى) .

إلى : ﴿ إِذَا
من الآلهة
وت اللات
بعذابكم
الأنلوهية ،
والصغر .

تَذَكَّرُ إِلَّا
وَنَ (١٤)
لِيُنْذِرَ
لِكُ الْيَوْمِ
بِئْسَ يَوْمٌ إِنَّ

ت ذلك .
على أيدي

يُحيي به الأُمم والأزمان كما يُحيي الجسد بروحه ، ويحتمل أن يكون إلقاء الروح عاماً لكل ما ينعم الله تعالى به على عباده المهتدين في تفهيمه الإيمان والمعقولات الشرعية . والمقدر - على هذا التأويل - هو الله تعالى . وقال الزجاج : الروح كل ما به حياة الناس ، وكل مهتد حي ، وكل ضال كاليت . وقوله تعالى : ﴿ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ إن جعلته جنساً للأُمور ف [مِنْ] للتبعض ، أو لابتداء الغاية ، وإن جعلنا الأمر من معنى الكلام ف [مِنْ] إما لابتداء الغاية ، وإما بمعنى الباء ، ولا تكون للتبعض بنة .

وقرأ أبي بن كعب وجماعة : [لِيُنْذِرَ] بالياء وكسر الذال ، وفي الفعل ضمير يحتمل أن يعود على الله تعالى ، أو على الروح ، أو على [مَنْ] في قوله تعالى : ﴿ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ ، وقرأ محمد بن السميع اليماني : [لِيُنْذِرَ] بالياء وفتح الذال وضم الميم من [يَوْمٌ] ، وجعل اليوم منذراً على الاتساع ، وقرأ جمهور الناس : [لِيُنْذِرَ] بالتاء على المخاطبة لمحمد صلى الله عليه وسلم ، و [يَوْمٌ] بالنصب ، وقرأ أبو عمرو ، ونافع ، وجماعة : [أَلْتَلَّاقِ] بدون ياء ، وقرأ أبو عمرو أيضاً ، وعيسى ، ويعقوب : [أَلْتَلَّاقِي] بالياء ، والخلاف فيها كالخلاف الذي مرَّ في ﴿ يَوْمَ أَلْتَّنَادِ ﴾ (١) ، ومعناه : تلاقي جميع العالم بعضهم ببعض ،

(١) من الآية (٣٢) من هذه السورة . ونلاحظ أنه لم يمر ، بل سيأتي .

وذلك أمرٌ لم يتفق قطُّ قبل ذلك اليوم . وقال السدي : معناه : تلاقي أهل السماء والأرض ، وقيل : معناه : تلاقي الناس مع بارئهم ، وهذا المعنى الأخير هو أشدها تخويفاً ، وقيل : يلتقي المرء وعمله .

وقوله تعالى : ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾ معناه : في براز من الأرض يَنْفُذُهُمُ البصر (١) وَيُسْمِعُهُمُ الداعي ، ونُصب [يَوْمَ] على البدل من الأول ، فهو نصب المفعول ، ويحتمل أن ينصب على الظرف ويكون العامل فيه قوله تعالى : ﴿لَا يَخْفَى﴾ ، وهي حركة إعراب لا حركة بناء ؛ لأن الظرف لا يُبْنَى إِلَّا إذا أُضِيفَ إلى غير متمكن كيومئذ ، وكقول الشاعر :
عَلَى حِينٍ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصَّبَا وَقُلْتُ أَلَمَّا أَصْبَحُ وَالشَّيْبُ وَازِعٌ ؟ (٢)
وكقوله تعالى : ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ (٣) ، وأما في

(١) يعني : يشملهم ويتجاوزهم كلهم ، يقال : نَفَذَ الْقَوْمَ نَفْذاً : جازهم وخلَقَهُمْ ، وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه : (إِنَّكُمْ مَجْمُوعُونَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يَنْفُذُكُمْ الْبَصَرُ) .
(٢) البيت للناطقة الذبياني ، وهو من قصيدة له يمدح النعمان ، ويعتذر إليه مما وشت به بنو قُرَيْبٍ بن عوف ، ويهجو مرة بن ربيعة لما قذف في حقه عند النعمان ، و (على) بمعنى (في) ، كقوله تعالى : ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا﴾ ، والجار والمجرور متعلقان بقوله في البيت السابق : ﴿فَكَفَّكَتْ مِنِّْي عَبْرَةٌ﴾ ، و (على الصَّبَا) متعلق بـ (عَاتَبْتُ) ، والمعنى : كَفَّكَتْ الدمع في وقت عتابي نفسي لنفسي على فعل التصابي في حالة مشيبيها ، والعتاب للمشيب مجازاً . والشاهد هو بناء (حين) على الفتح لأنها مضافة إلى مبني غير متمكن ، والبيت في الديوان ، وابن الشجري ، وابن يعيش ، والإنصاف ، وشرح شواهد المغني ، وخزانة الأدب ، والعيني ، والهمع . وقد سبق الاستشهاد به في غير هذا الموضع من هذا التفسير .

(٣) من الآية (١١٩) من سورة (المائدة) .

هذه الآية فالجملة أسمٌ متمكن ، كما تقول : « جئتُ يومَ زيدٍ أميرٌ »
فلا يجوز البناء ، فتأمل (١) .

وقوله تعالى : ﴿ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ﴾ أي : من بواطنهم
وسرائرهم وذوات صدورهم ، وفي مصحف أبي بن كعب : « لَا يَخْفَى
عَلَيْهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ » بضمير بدل المكتوبة (٢) .

قوله تعالى : ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾ . روي أن الله تعالى يُقرر هذا
التقرير ويسكت العالم هيبَةً وجزعاً ، فيجيب هو نفسه : ﴿ لِلَّهِ الْوَاحِدِ
الْقَهَّارِ ﴾ ، قال الحسن : هو تعالى السائل وهو المجيب ، وقال ابن مسعود :
إنه تعالى يقرر فيجيب العالم بذلك ، وقيل : يُنادي بالتقرير ملك
فيجيب الناس .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإذا تأمل المؤمن أنه لا حول لمخلوق ولا قوة إلا بالله ، فالزمان
كله وأيام الدهر أجمع إنما الملك فيها للواحد القهار ، لكن ظهور ذلك
للكفرة والجهلة يتضح يوم القيامة . وإذا تؤمل تسخير أهل

(١) ذكر أبو حيان كلام ابن عطية هذا في البحر المحيط ، ثم عقب عليه بقوله : « أما قوله :
(لا يبيى إلا إذا أضيف إلى غير متمكن) فالبناء ليس متحتماً . بل يجوز فيه البناء والإعراب ،
وأما تمثيله بقوله تعالى : ﴿ يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ فمذهب البصريين أنه لا يجوز
فيه إلا الإعراب ، ومذهب الكوفيين جواز الإعراب والبناء فيه ، وأما إذا أضيف إلى جملة
اسميه كما مثل من قوله : (جئت يومَ زيدٍ أميرٌ) فالنقل عن البصريين تحتمل الإعراب
كما ذكر ابن عطية ، والنقل عن الكوفيين جواز الإعراب والبناء .
(٢) أي : بدلاً من لفظ الجلالة (الله) .

السموات وعبادتهم ونفوذ القضاء في الأرض فأَيُّ مُلْكٍ لغير الله؟
ثم يُعلم الله تبارك وتعالى أهل الموقف بأنه يوم المجازاة بالأعمال
صالحها وسيئها ، وهذه الآية نصٌّ في أن الثواب والعقاب على اكتساب
العبد ، وأنه يومٌ لا يوضع فيه أمرٌ في غير موضعه ، وذلك قوله تعالى :
(لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ) . ثم أخبرهم عن نفسه بسرعة الحساب ، وتلك عبارة
عن إحاطته بالأشياء علماً ، فهو يحاسب الخلائق في ساعة واحدة
كما يرزقهم ؛ لأنه لا يحتاج إلى عدٍّ وفكر . ورؤي أن يوم القيامة
لا ينتصف حتى يقبل المؤمنون في الجنة والكافرون في النار .

قوله عز وجل :

﴿ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينَ مَالٍ لِلظَّالِمِينَ
مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ ۝١٨ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ
۝١٩ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ
السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝٢٠ ﴾ * أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ
بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ۝٢١﴾

أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالإنذار للعالم والتحذير
من يوم القيامة وأهواله ، وهو الذي أراد بـ «يوم الآزفة» ، قاله مجاهد ،

وابن زيد ، وقتادة ، ومعنى [الآزفة] : القريبة ، من
أزف الشيء إذا قَرُب ، والآزفة في الآية صفة لمحذوف قد علم
واستقر في النفوس هوله ، فعبر عنه بالقرب تخويفاً ، والتقدير:
يوم الساعة الآزفة ، أو الطامة الآزفة ، ونحو هذا ، فكما لو
قال : « وأنذرهم الساعة » لَعَلِمَ هولها بما استقر في النفوس من
أمرها ، فكذلك علم هنا إذا جاء بصفتها التي تقتضي حُلُولها
واقترابها .

وقوله تعالى : ﴿ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ ﴾ معناه : عند الحناجر ،
قد سعدت من شدة الهول والجزع ، وهذا أمر يحتمل أن يكون حقيقة
يوم القيامة من انتقال قلوب البشر إلى حناجرهم وتبقى حياتهم ،
بخلاف الدنيا التي لا تبقى لأحد فيها حياة مع تنقل قلبه ، ويحتمل
أن يكون تجوُّزاً عبر به عما يجده الإنسان من الجزع وصعود نفسه
وتضايق حنجرتة بصعود القلب ، وهذا كما تقول العرب : كادت
نفسي أن تخرج ، وهذا المعنى يجده المفرط الجزع كالذي يساق
إلى القتل ونحوه .

وقوله تعالى : [كَاطِمِينَ] حالٌ مما أبدل منه قوله تعالى : ﴿ إِذِ الْقُلُوبُ
لَدَى الْحَنَاجِرِ ﴾ ، أو مما ينضاف إليه [الْقُلُوبُ] ؛ إذ المراد : إذ قلوب

الناس لدى حناجرهم ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ، مُهْطِعِينَ ﴾ (١) ، أراد تعالى : تشخص فيه أبصارهم . و « الْكَأْظَمُ » : الذي يردُّ غيظه وجزعه في صدره .

فمعنى الآية أنهم يطمعون بردَّ ما يجدونه في الحناجر والحال تغالبهم ، ثم أخبر تعالى أن الظَّالِمِينَ ظلم الكفرهم في تلك الحال ليس لهم حميم ، أي قريب يهتم لهم ويتعصب ، ولا لهم شفيع يُطَاع فيهم ، وإن همَّ بعضهم بالشفاعة لبعض فهي شفاعة لا تُقبل . ويروى أن بعض الكفرة يقولون لإبليس يوم القيامة : اشفع لنا ، فيقوم ليشفع فتبدو منه أُنْتَن ريح يؤذي بها أهل المحشر ، ثم ينحصر ويكع ويخزي . و [يُطَاع] في موضع الصفة لـ [شَفِيع] ؛ لأن التقدير : ولا شفيع مطاع ، وموضع [يُطَاعُ] يحتمل أن يكون خفضاً حملاً على اللفظ ، ويحتمل أن يكون رفعاً عطفاً على الموضع قبل دخول [مِنْ] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه كلها عندي اعتراضٌ في الكلام بليغ .

(١) من الآية (٤٢ ، ٤٣) من سورة (إبراهيم) .

وقوله تعالى : ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ متصل بقوله : ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ؛ لأن سرعة حسابه تعالى للخلق إنما هي بعلمه الذي لا يحتاج معه إلى رؤية وفكرة ، ولا لشيء مما يحتاجه الحاسبون ، وقالت فرقة : ﴿يَعْلَمُ﴾ متصلة بقوله تعالى : ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ ، وهذا قول حسن ، يُقَوِّيه تناسب المعنيين ، وَيُضَعِّفه بُعْدُ الْآيَةِ مِنَ الْآيَةِ وكثرة الحائل . والخائنة مصدر كالخيانة ، ويحتمل في الآية أن أن تكون [خَائِنَةٌ] اسم فاعل ، كما تقول : ناظرة الأعين ، أي : يعلم الأعين إذا خانت في نظرها ، وهذه الآية عبارة عن علم الله تعالى بجميع الخفيات ، فمن ذلك كسر الجفون ، والغمز بالعين . والنظرة التي تفهم معنى ، أو يريد بها صاحبها معنى ، ومن هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم حين جاءه عبد الله بن أبي سرح ليُسَلِّمَ بعد رِدَّتِهِ بشفاعة عثمان رضي الله عنه . فتلكاً عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بايعه ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : هَلَّا قَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ حِينَ تَلَكَّاتٍ فَضْرَبَ عُنُقَهُ ؟ فقالوا : يا رسول الله ، أَلَا أَوْمَأْتُ إِلَيْنَا ، فقال عليه الصلاة والسلام : (ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة أعين) (١) ، وفي بعض الكتب المنزلة من قول الله عز وجل : «أنا مرصاد

(١) أخرج أبو داود . والنسائي . وابن مردويه ، عن سعد رضي الله تعالى عنه ، قال : (لما كان يوم فتح مكة آمن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلا أربعة نفر وامرأتين ، =

الهمم ، أنا العالم بمجال الفكر وكسر الجفون » ، وقال مجاهد :
خائنة الأعين : مسارقة النظر إلى ما لا يجوز .

ثم قوى الله تعالى هذا الإخبار بأنه يعلم ما تخفي الصدور ، مما لم
يظهر على عين ولا غيرها ، ومثل المفسرون في هذه الآية بنظر الرجل
إلى امرأة هي حرمة لغيره فقالوا : خائنة الأعين هي النظرة الثانية ،
وما تخفي الصدور ، أي عند النظرة الأولى التي لا يمكن المرء دفعها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا المثال جزء من خائنة الأعين .

ثم قدح تعالى في جهة الأصنام ، فأعلم أنه لا ربَّ لغيره ، يقضي
بالحق ، أي يُجازي الحسنة بعشر والسيئة بمثلها ، وينصف المظلوم
من الظالم ، إلى غير ذلك من أقضية الحق والعدل ، والأصنام لا تقضي
شيئاً ولا تنفذ أمراً . و [يَدْعُونَ] معناه : يعبدون ، وقرأ جمهور القراء :
[يَدْعُونَ] بالياء على ذكر الغائب ، وقرأ نافع - بخلاف عنه - وأبو

= وقال : اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة ، منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح ،
فاختبأ عند عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فلما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس إلى
البيعة جاء به ، فقال : يا رسول الله ، بايع عبد الله ، فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثاً ، كل ذلك
يأبى أن يبايعه ، ثم بايعه ، ثم أقبل على أصحابه فقال : أما كان فيكم رجلٌ رشيدٌ يقوم إلى هذا
حين رأيته كففت يدي عن بيعته فيقتله ؟ فقالوا : ما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك ؟ هلاً
أومات إلينا بعينك ، قال : إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين .

جعفر ، وشيبة : [تَدْعُونَ] بالثناء ، على معنى : قل لهم يا محمد :
والذين تدعون أنتم . ثم ذكر تعالى لنفسه صفتين بَيْنَ عُرُو الْأَصْنَامِ
عنهما ، وهي (١) في جهة الله تعالى عبارة عن الإدراك على إطلاقه .

ثم أحال كفار قريش - وهم أصحاب الضمير في [يَسِيرُوا] -
على الاعتبار بالأئمة القديمة التي كذبت أنبياءها فأهلكها الله تعالى ،
وقوله تعالى : [فَيَنْظُرُوا] يحتمل أن يجعل في موضع نصب جواب
الاستفهام ، ويحتمل أن يكون مجزوماً عطفاً على [يَسِيرُوا] ، و [كَيْفَ]
في قوله تعالى : (كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ) خبر [كَانَ] مقدم ، وفي [كَيْفَ]
ضمير ، وهذا على أن تكون [كَانَ] الناقصة ، وأما إن جعلناها تامة
بمعنى حَدَثَ وَوَقَعَ فـ [كَيْفَ] ظرف ملغى لا ضمير فيه .

وقرأ ابن عامر وحده : (أَشَدَّ مِنْكُمْ) بالكاف ، وكذلك هي في
مصحف أهل الشام ، وذلك على الخروج من غيبة إلى الخطاب ،
وقرأ الباقر : (أَشَدَّ مِنْهُمْ) ، وكذلك هي في سائر المصاحف ، وذلك
أوفق لتناسب ذكر الغائب ، و «الآثار في الأرض» هي المباني والآثار
والصِّيت الدنيوي . و «ذنوبهم» كانت تكذيب الأنبياء عليهم الصلاة

(١) هكذا في الأصول ، وقد وافق بها قوله جواباً عنها : «عبارة عن الإدراك» .

والسلام ، و «الواقي» : الساتر المانع ، مأخوذ من الوقاية (١) .
قوله عز وجل :

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٢٢) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَزْنَ وَقُرُونِ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ ﴿

قوله تعالى : [ذَلِكَ] إشارة إلى أخذه إياهم بذنوبهم وإن لم يكن لهم منه واقٍ ، ثم ذكر تعالى أن السبب في إهلاكهم هو ما قرئش عليه من أن جاءهم رسول من الله تعالى ببينات من المعجزات والبراهين فكفروا به ، وذكر أن الله تعالى أخذهم ، ووصف نفسه بالقوة وشدة العقاب ، وهذا كله بيان في وعيد قرئش .

ثم ابتداءً تبارك وتعالى قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملئه ، وهي قصة فيها للنبي صلى الله عليه وسلم تسلية وأسوة ، وفيها لقرئش

(١) و [وَاَقِي] في موضع خفض معطوف على اللفظ ، ويجوز أن يكون في موضع رفع عطفاً على الموضع ، والرفع والخفض واحد ؛ لأن الياء تحذف وتبقى الكسرة دالة عليها .

والكفار به وعيدٌ ومثال يخافون منه أن يحلَّ بهم ما حلَّ بأولئك من النعمة ، وفيها للمؤمنين وعدٌ ورجاءٌ بالنصر والظفر وحمد عاقبة الصبر. وآيات موسى كثيرة ، وعُظُمها (١) والذي عرضه على جهة التحدي : العصا واليد ، فوقعت المعارضة في العصا وحدها . ثم انفصلت القضية عن إيمان السحرة وغلبة الكافرين . و « السُّلْطَانُ » : البرُّهَانُ . وقرأ عيسى بن عمر : [سُلْطَانٍ] بضم اللام ، والناسُ على سكونها . وخصَّ تعالى هامان وقارون بالذكر تنبيهاً على مكانهما من الكفر ، ولكونهما أشهر رجال فرعون ، وقيل : إن قارون هذا ليس بقارون بني إسرائيل ، وقيل : هو ذلك ولكنه كان منقطعاً إلى فرعون خادماً له مستعيناً معه . وقوله : [سَاحِرٌ] أي في أمر العصا ، [كَذَّابٌ] في قوله : إني رسول من الله .

ثم أخبر عنهم أنهم لما جاءهم موسى عليه السلام بالأنبؤة والحق من عند الله قال هؤلاء الثلاثة وأجمع رأيهم على أن يقتل أبناء بني إسرائيل أتباع موسى عليه السلام وشبانهم وأهل القوة منهم ، وأن تُسْتَحْيَى النساء للخدمة والاسترقاق ، وهذا رجوع منهم إلى نحو القتل الأول الذي كان قبل ميلاد موسى عليه السلام ، ولكن هذا الأخير لم يتمَّ لهم عزمهم فيه ، ولا أعانهم الله تعالى على شيء منه ، وقال

(١) أي : وأعظمها وأهمها ، وهو الذي عرضه على فرعون وقومه متحدياً لهم .

قتادة : هذا قتل غير الأول الذي كان حذر المولود ، وسموا من ذكرنا من بني إسرائيل أبناءاً كما تقول لأفخاذ القبيلة أو المدينة وأهل الظهور فيها : هؤلاء أبناء فلانة .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ عبارة وجيزة تعطي قوتها أن هؤلاء الثلاثة لم يقدرهم الله تعالى على قتل أحد من بني إسرائيل ، ولا نجحت لهم سعاية فيهم ، بل أضل الله سعيهم وكيدهم .

قوله عز وجل :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ (٢٦) وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ (٢٧) وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ^ط وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ^ط وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ^ط إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴾ (٢٨)

الظاهر من أمر فرعون أنه لما بهرت آيات موسى عليه السلام انهذه ركنه ، واضطربت معتقدات أصحابه ، ولم يفقد منهم من

يجاذبه الخلاف في أمره ، وذلك بين من غير ما موضع من قصتهما ،
وفي هذه الآية على ذلك دليلان : أحدهما قوله : ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى ﴾ ،
فليست هذه من ألفاظ الجبارة المتمكنين من إنفاذ أوامرهم ، والدليل
الثاني مقالة المؤمن وما صدع به ، وأن مكاشفته لفرعون أكبر من
مساترته ، وحكمه بنبوته موسى عليه السلام أظهر من توريته في أمره ،
وأما فرعون فلأنما لجأ إلى المخرقة والاضطراب والتعاطي ، ومن ذلك
قوله : ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ ، أي : إني لا أبالي عن
رب موسى ، ثم رجع إلى قومه يريهم النصيحة والحماية لهم فقال :
﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ ، والدين : السلطان ، ومنه قول زهير :
لئن حلت بجو في بني أسدٍ في دين عمرو وحالت بيننا فدك^(١)

(١) البيت من قصيدة قالها زهير حين أغار الحارث بن ورقاء الصداوي الأسدي على بني
عبد الله بن غطفان واستاق لإبل زهير وراعي هذه الإبل واسمه يسار ، وبعد هذا البيت يقول
مخاطباً الحارث : وهو جواب قوله هنا : لئن حلت :

لِيَأْتِيَنَّكَ مِنِّي مَنَظِيقٌ قَدْ ذَعُ^١ باقٍ كما دَنَسَ القُبُطِيَّةَ الْوَدَكُ^٢

والمراد بقوله : دين عمرو : سلطان عمرو وطاعته ، وأراد عمرو بن هند ملك العراق ،
وفدك : قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان ، أفاءها الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم
في سنة سبع للهجرة صلحاً ، والقَدْع : الشاتم أقبح شتم ، والقُبُطِيَّة ثياب بيضاء كانت معروفة
عندهم ، والودك : الدَّسَم يسيل من اللحم والشحم ، يقول له : لئن نزلت في حماية عمرو
ابن هند ، ونزلت بعيداً عني وحالت بيننا البلاد فلن تسلم من لساني وهجائي لك : لأنه سيتبعك
إلى أبعد مكان ، وسيبقى على الدهر تردده أفواه الرواة .

وقراً ابن عامر ، وابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : [وَأَنْ] ،
 وقراً عاصم ، وحمزة ، والكسائي : (أَوْ أَنْ) ، ورجعها أبو عبيدة
 بزيادة الحرف ، فعلى الأولى خاف أمرين ، وعلى الثانية خاف أحد
 أمرين ، وقراً نافع ، وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم ، والحسن ،
 وقتادة ، والجحدري ، وأبو رجاء ، ومجاهد ، وسعيد بن المسيب ،
 ومالك بن أنس : [يُظْهِرَ] بضم الياء وكسر الهاء [الْفَسَادُ] نصباً ،
 وقراً ابن كثير ، وابن عامر : [يَظْهَرُ] بفتح الياء والهاء [الْفَسَادُ]
 بالرفع على إسناد الفعل إليه ، وهي قراءة حمزة ، والكسائي ، وأبي
 بكر عن عاصم ، والأعرج ، وعيسى ، والأعمش ، وابن وثاب ،
 وروي عن الأعمش أنه قرأ : [وَيَظْهَرُ] برفع الراء ، وفي مصحف ابن
 مسعود رضي الله عنه : [وَيَظْهَرُ] بفتح الياء .

ولما سمع موسى عليه السلام مقالة فرعون - لأنه كان معه في
 مجلس واحد - دعا ربه تعالى وقال : (إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ) الآية ،
 وقراً ابن كثير ، وعاصم ، وابن عامر : [عُذْتُ] ببيان الدال ، وقراً
 أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : [عُذْتُ] بالإدغام ، واختلف عن
 نافع ، وفي مصحف أبي بن كعب : [عُتُّ] على الإدغام في الخط .
 ثم حكى الله تعالى مقالة رجل مؤمن من آل فرعون ، وشرّفه بالذكر ،
 وخلّد ثنائه في الأئمة ، سمعت أبي رحمه الله تعالى يقول : سمعتُ

أبا الفضل الجوهري على المنبر يقول - وقد سئل أن يتكلم في شيء من فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم - فأطرق قليلاً ثم رفع رأسه وقال :

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلُ وَسَلُّ عَنْ قَرِينِهِ فَكُلُّ قَرِينٍ بِالمَقَارِنِ يَقْتَدِي (١)
 ماذا تريدون من قوم قرنهم الله تعالى بنبيه صلى الله عليه وسلم ، وخصهم بمشاهدته وتلقي الوحي منه ؟ وقد أثنى الله عز وجل على رجل مؤمن من آل فرعون يكتُم إيمانه ، فجعله الله تعالى في كتابه وأثبتته في المصاحف لكلام قاله في مجلس من مجالس الكفر ، وأين هو من عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ جرد سيفه بمكة وقال : والله لا أعبد الله سراً بعد اليوم ؟ وقرأت فرقة : [رَجُلٌ] بسكون الجيم كعَضُد وعَضُد ، وسَبْع وسَبْع ، وقرأ الجمهور : [رَجُلٌ] بضم الجيم .

واختلف الناس في هذا الرجل - فقال السدي وغيره : كان من آل فرعون ، وكان يكتُم إيمانه ، ف [يَكْتُمُ] - على هذا - في موضع الصفة دون تقديم ولا تأخير ، وقال مقاتل : كان ابن عم فرعون . وقالت فرقة : لم يكن من أهل فرعون بل من بني إسرائيل ، وإنما

(١) يستشهد ابن عطية بهذا البيت على أن الصحابة كان لهم من الفضل أنهم عاشوا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وتعلموا منه ، وكانوا قرناء له ، والمرء يعرف بقريته . والقارين في اللغة هو صاحبك الذي يقارنك ، والجمع قرناء .

المعنى : وقال رجل مؤمن يكتنم إيمانه من آل فرعون ، ففي الكلام تقديم وتأخير . والأول أصح ، ولم يكن لأحد من بني إسرائيل أن يتكلم بمثل هذا عند فرعون ، ويحتمل أن يكون من غير القبط ويقال فيه : من آل فرعون إذ كان في الظاهر على دين فرعون ومن أتباعه ، وهذا كما قال أراكة الثقفى يرثي أخاه ويتعزى برسول الله صلى الله عليه وسلم :

فَلَا تَبْكُ مَيْتًا بَعْدَ مَيْتٍ أَجَنَّهُ عَلِيٌّ وَعَبَّاسٌ وَآلُ أَبِي بَكْرٍ (١)

يعني المسلمين إذ كانوا في طاعة أبي بكر رضي الله عنه . وقوله تعالى : ﴿أَنْ يَقُولَ﴾ مفعول من أجله ، أي لأجل أن يقول ، وجلَّح (٢) معهم هذا المؤمن في هذه المقالات ، ثم غالطهم بعد في أن جعله في احتمال الصدق والكذب ، وأراهم أنها نصيحة . وحذفت النون من [يَكُ] تخفيفاً على ما قال سيبويه ، وتشبيهاً بالنون في «يفعلون ويفعلان» على مذهب المبرد ، وتشبيهاً بحرفي العلة - الياء والواو - على مذهب أبي

(١) وهذا شاهد على أنه يقال للمرء : «إنه من آل فلان» إذا كان على دينه ومن أتباعه ؛ لأن الشاعر يقول : وآلُ أبي بكر ويعني بذلك كل من كان على دين أبي بكر رضي الله عنه ، وهو في البيت يتعزى عن فقد أخيه بأن هناك من هو أفضل منه وأعظم ، وقد مات ، فلا يحق لنا أن نبكي عليه بعد أن مات هذا الإنسان العظيم الذي تولى دفنه علي بن أبي طالب والعباس وجميع المؤمنين الذين كانوا في طاعة الصديق رضي الله عنه .
(٢) جلَّح في الأمر : أقدم ومضى .

علي الفارسي ، وقال : كَانَ الجازم دخل على « يكن » وهي مجزومة
بعد فأشبهت النون الياء من « يقضي » والواو من « يدعو » لأن حقها
على اللسان سواء .

واختلف المتأولون في قوله : (يُصَبِّكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُم) -
فقال أبو عبيدة وغيره : [بَعْضُ] بمعنى « كُلُّ » ، وأنشدوا قول القطامي
عُمَيْرُ بْنُ شَيْمٍ :

قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الزَّلَلُ (١)
وقال الزجاج : هو إلزامُ الحُجَّةِ بأيسر ما في الأمر ، وليس فيه نفي
إصابة الكل ، وقالت فرقة : أراد : يصببكم بعض العذاب الذي يذُكر ،
وذلك كاف في هلاككم ، ويظهر لي أن المعنى : يصببكم القسم الواحد

(١) القطامي اسمه عُمَيْرُ بْنُ شَيْمٍ ، وهو من بني تغلب ، والبيت مما يُتَمَثَّلُ به من
شعره ، وهو في البحر المحيط ، وفي القرطبي وفي اللسان ، وقوله :
وَالنَّاسُ مَنْ يَلْتَقَ خَيْرًا قَائِلُونَ لَهُ مَا يَشْتَهِي ، وَلَأُمُّ الْمُخْطِئِ الْهَبَلُ
وَالْمُتَأَنِّي فِي الْأَمْرِ : الْمُتَرَفَّقُ فِيهِ الْمُتَمَهِّلُ ، وَالزَّلَلُ : الْخَطَأُ وَالسَّقُوطُ . وقد نقل في اللسان
عن أبي إسحق قوله : « مِنْ لَطِيفِ الْمَسَائِلِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا وَعَدَ وَعْدًا وَقَعَ الْوَعْدُ
بَأَسْرِهِ وَلَمْ يَقَعْ بَعْضُهُ ، فَمَنْ أَيْنَ جَازَ أَنْ يَقُولَ : (بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ) ؟ » وهذا باب
من النظر يذهب فيه المناظر إلى إلزام حجته بأيسر ما في الأمر ، وليس في هذا معنى الكل ،
ولأنما ذكر البعض ليوجب له الكل ؛ لأن البعض هو الكل ، ومثل هذا قول الشاعر : (قد
يدرك المتأني ... البيت) ؛ لأن القائل إذا قال : أقل ما يكون للمتأني إدراك بعض الحاجة ،
وأقل ما يكون للمستعجل الزلل ، فقد أبان فضل المتأني على المستعجل بما لا يقدر الخصم أن
يدفعه . فكأن مؤمن آل فرعون قال لهم : أقل ما يكون في صدقه أن يصيبكم بعض الذي يعدكم ،
وفي بعض ذلك هلاككم .

مما يعد به ، وذلك هو بعض ما يعد ؛ لأنه عليه السلام كان وعدهم
 إن آمنوا بالنعيم ، وإن كفروا بالعذاب ، فإن كان صادقاً فالعذاب
 بعض ما وعد به ، وقالت فرقة : أراد ببعض ما يعدكم : عذاب الدنيا
 لأنه بعض عذاب الآخرة ، أي : وتصيرون بعد ذلك إلى الباقي ،
 وفي البعض كفاية في الإهلاك .

ثم وعظهم هذا المؤمن بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ
 كَذَّابٌ ﴾ ، قال السدي : مُسْرِفٌ بالقتل ، وقال قتادة : بالكفر .

قوله عز وجل :

﴿ يَنْقُومُ لَكُمْ أَلْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ
 اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ
 ٢٩ ﴾ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَنْقُومُ إِلَيَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ٣٠ مِثْلَ دَابِ
 قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلْمًا لِلْعِبَادِ ٣١ وَيَنْقُومُ
 إِلَيَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ٣٢ يَوْمَ تُنْزَلُ السُّجُودُ مَذِيرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ
 عَاصِمٍ ٣٣ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ٣٤

قول هذا المؤمن : ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمْ أَلْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾
 استنزاع لهم ووعظ من جهة شهواتهم ، وتحذير من زوال ترفهم ،

ونصيحة لهم في أمر دنياهم ، وقوله : ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ يريد أرض مصر وما والاها من مملكتهم . ثم قررهم على من هو الناصر لهم من بأس الله تعالى ، وهذه الأقوال تقتضي زوال هيبة فرعون ، ولذلك استكان هو ورجع يقول : ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ﴾ كما يقول من لا تحكم له . وقوله : [أُرِيكُمْ] من رأى ، وقد عُدِّي بالهمزة ، فللفعل مفعولان : أحدهما الضمير في [أُرِيكُمْ] ، والآخر ما في قوله : ﴿ إِلَّا مَا أَرَى ﴾ ، وكان الكلام : « أُرِيكُمْ ما أَرَى » ، ثم أدخل في صدر الكلام (ما) النافية وقلب معناها بـ (إِلَّا) الموجبة تخصيصاً وتأكيذاً للأمر ، كما تقول : « قام زيد » ، فإذا قلت : « ما قام إِلَّا زيد » فقد أفدت تخصيصه وتأكيده أمره ، و (أَرَى) متعدية إلى مفعول واحد ، وهو الضمير الذي فيه ، العائد على (ما) ، تقديره : إِلَّا ما أراه ، وحذف هذا المفعول من الصلة حسنٌ لطول الصلة .

وقرأ الجمهور : [الرَّشَاد] مصدر (رشد) ، وفي قراءة معاذ بن جبل رضي الله عنه : ﴿ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ بشد الشين ، قال أبو الفتح : وهو اسم فاعل في بنيته مبالغة ، وهو من الفعل الثلاثي (رَشَدَ) ، فهو كَعَبَادٍ من عَبَدَ (١) ، وقال النحاس : هو وهم ، وتوهمه من الفعل

(١) الذي قاله أبو الفتح بشيء من التفصيل هو : « ينبغي أن يكون هذا من قولهم : رَشِدَ يَرُشِدُ ، كَعَلِمَ يَعْلَمُ ، أو من رَشَدَ يَرُشِدُ ، كَعَبَادٍ من عَبَدَ =

الرباعي . وقوله رحمه الله مردود ، قال أبو حاتم : كان معاذ بن جبل يفسرها : سبيل الله ، ويبعد عندي هذا على معاذ رضي الله عنه . وهل كان فرعون يدعي إلا أنه إله ؟ ويقلق بناء اللفظة على هذا التأويل . واختلف الناس في المراد بقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ ﴾ - فقال الجمهور : هو المؤمن المذكور أولاً ، قص الله تبارك وتعالى أقاويله إلى آخر الآيات . وقالت فرقة : بل كلام ذلك المؤمن قديم ، وإنما أراد الله تعالى بالذي آمن موسى عليه السلام ، واحتجت هذه الفرقة بقوة كلامه ، وأنه جَلَّحَ معهم بالإيمان ، وذكر عذاب الآخرة ، وغير ذلك ، ولم يكن كلام الأول إلا بملاينة لهم .

وقوله تعالى : ﴿ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴾ أي : مثل يوم من أيامهم ؛ لأن عذابهم لم يكن في يوم واحد ولا عصر واحد ، و « الأحزاب » : المتحزبون على أنبياء الله تعالى عليهم الصلاة والسلام ، و [مِثْلَ] الثاني بدل من الأول ، و « الدَّأْبُ » : العادة ، وقوله : ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴾ أي : من نفسه ، أي : يظلمهم هو ، فالإرادة هنا على بابها لأن الظلم منه لهم لا يقع البتة ، وليس معنى الآية أن الله لا يريد

= يَعْبُدُ ، ولا ينبغي أن يحمل على أنه من أرشَد يُرْشِدُ ؛ لأن فعلاً لم يأت إلا في أحرف محفوظة ، وهي أَجْبَرُ فهو جَبَّارٌ ، وأَقْصَرُ فهو قَصَّارٌ ، وأَدْرَكَ فهو دَرَّاكٌ ، وحديثه في ذلك طويل ، راجع المحْتَسَب .

ظَلَمَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ، والبرهان وقوعه ، ومحال أن يقع إلا ما يريد الله تعالى ، وقوله : ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ معناه : ينادي قوم قوماً ويناديهم الآخرون .

واختلف المتأولون في التَّنَادِ المشار إليه - فقال قتادة : هو نداء أهل الجنة أهل النار : ﴿هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ (١) الآية . ونداء أهل النار لهم : ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ (٢) الآية ، وقالت فرقة : بل هو النداء الذي يتضمنه قوله تعالى : ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ (٣) ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : هو التنادي الذي يكون بالناس عند النفخ في الصور نفخة الفزع في الدنيا ، وأنهم يفرون على وجوههم للفزع الذي ينالهم ، وينادي بعضهم بعضاً ، وروي هذا التأويل عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم (٤) ، ويحتمل أن يكون المراد التذكير بكل نداء

(١) من الآية (٤٤) من سورة (الأعراف) .

(٢) من الآية (٥٠) من سورة (الأعراف) .

(٣) من الآية (٧١) من سورة (الإسراء) .

(٤) ذكر هذا الحديث علي بن معبد ، والطبري ، وغيرهما ، وهو عن أبي هريرة ، وفيه : (فتكون الأرض كالسفينة في البحر تضربها الأمواج فيميد الناس على ظهرها ، وتذهل المراضع ، وتضع الحوامل ما في بطونها ، وتشيب الولدان ، وتتطاير الشياطين هاربة فتلقاها الملائكة تضرب وجوهها ، ويولّي الناس مدبرين ينادي بعضهم بعضاً ، وهي التي يقول الله تبارك وتعالى : ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ ، يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) ، الحديث بكماله .

في القيامة فيه مشقة على الكفار والعصاة ولها أجوبة بندا ، وهي كثيرة ، منها ما ذكرناه ، ومنها : يَأْهَلُ النَّارِ خُلُودٌ لَا مَوْتَ ، يَأْهَلُ الْجَنَّةِ خُلُودٌ لَا مَوْتَ ، ومنها نداء أهل الغدرات ، والنداء ﴿لَمَقْتُ اللَّهَ﴾ (١) ، والنداء ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ (٢) ، إلى غير ذلك .

وقرأت فرقة : [التَّنَادُ] بسكون الدال في الوصل ، وهذا على إجرانهم الوصل مجرى الوقف في غير ما موضع ، وقرأ نافع ، وابن كثير : [التَّنَادِي] بالياء في الوصل والوقف ، وهذا على الأصل ، وقرأ الباقر : [التَّنَادِ] بغير ياء فيهما ، وروي ذلك عن نافع ، وابن كثير ، وحذفت الياء مع الألف واللام حملاً على حذفها مع معاقبها وهو التنوين ، وقال سيبويه : حذفت الياء تخفيفاً ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما ، والضحاك ، وأبو صالح ، والكلبي : [التَّنَادُ] بشد الدال ، وهذا معنى آخر ليس من النداء ، بل هو من البعير إذا هرب (٣) ، وبهذا المعنى فسّر ابن عباس والسدي هذه الآية ، وروت هذه الفرقة في هذا المعنى

(١) من قوله تعالى في الآية (١٠) من هذه السورة : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهَ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ الآية .

(٢) من الآية (١٦) من هذه السورة (غافر) .

(٣) قال أبو الفتح ابن جني : « والتَّنَادُ تَفَاعُلٌ ، مصدر تَنَادَ القومُ ، أي تفرقوا ، من قولهم : نَدَّ البعيرُ يَنْدُ ، كَنَفَرَ يَنْفِرُ ، والتَّنَادُ كالتنافر ، وأصله التَّنَادُ ، فأسكت الدال الأولى وأدغمت في الثانية استقلاً لاجتماع مثلين متحركين » .

حديثاً أن الله تعالى إذا طوى السموات نزلت ملائكة كل سماء فكانت صفّاً بعد صف مستديرة بالأرض التي عليها الناس للحساب ، فإذا رأى العالم هول القيامة وأخرجت جهنم عنقاً إلى أهلها فرّ الكفار وندّوا مدبرين إلى كل وجهة ، فتردهم الملائكة إلى المحشر خائبين لا عاصم لهم (١) ، قالت هذه الفرقة : ومصدق هذا الحديث في كتاب الله تعالى قوله سبحانه : ﴿وَأَمَّا لَكَ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾ (٢) ، وقوله تعالى : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَأَمَّا لَكَ صَفّاً صَفّاً﴾ (٣) ، وقوله تعالى : ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ (٤)

(١) أخرج هذا الحديث ابن المبارك ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، عن الضحاك رضي الله عنه : قال : (إذا كان يوم القيامة أمر الله السماء الدنيا فتشقت بأهلها ، فتكون الملائكة على حافتها حتى يأمرهم الرب فينزلون فيحيطون بالأرض ومن بها ، ثم الثانية ، ثم الثالثة ، ثم الرابعة ، ثم الخامسة ، ثم السادسة ، ثم السابعة ، فصفوا صفّاً دون صف ، ثم ينزل الملك الأعلى من مجنبيه اليسرى جهنم ، فإذا رآها أهل الأرض ندّوا فلا يأتون قطراً من أقطار الأرض إلا وجدوا سبعة صفوف من الملائكة ، فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه ، فذلك قول الله : ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ، يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ﴾ ، وذلك قوله : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَأَمَّا لَكَ صَفّاً صَفّاً ، وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ ، وقوله : ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ ، وذلك قوله : ﴿وَأَنشَقَّتِ السَّمَاءُ فَفُتِحَتْ يَوْمَئِذٍ أَبْوَابُهَا وَأُصْبِحَ لِلْكَافِرِينَ آلُهُمْ عِشْرَتُ الَّذِينَ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ ، يعني ما تشقق فيها ، فبينما هم كذلك إذ سمعوا الصوت فأقبلوا إلى الحساب) .

(٢) من الآية (١٧) من سورة (الحاقة) .

(٣) من الآية (٢٢) من سورة (الفجر) .

(٤) من الآية (٣٣) من سورة (الرحمن) .

وقوله تعالى : ﴿يَوْمَ تُؤْلَوْنَ مُدْبِرِينَ﴾ معناه على بعض الأقاويل في التنادي : تفرون هروباً من الفرع ، وعلى بعضها : تفرون مُدْبِرِينَ إلى النار . والعاصم : المنجي .

قوله عز وجل :

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ۚ
حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ
مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ۝٤٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كِبَرُ مَقْتًا
عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ۝٤٥﴾

قدمنا الخلاف في هذه الأقوال كلها ، هل هي من قول مؤمن آل فرعون أو من قول موسى عليه السلام ؟ وقالت فرقة من المتأولين منهم الطبري : يوسف المذكور هو يوسف بن يعقوب عليه الصلاة والسلام ، وقالت فرقة : بل هو حفيده يوسف بن إبراهيم بن يوسف بن يعقوب عليهم السلام . و «البَيِّنَات» التي جاء بها يوسف عليه السلام لم تُعَيَّنْ لنا حتى نقف على معجزاته ، وروى عن وهب بن مُنبه أن فرعون موسى لحق يوسف ، وأن هذا التقرير كان له . وروى أشهب عن مالك أنه بلغه أن فرعون عمّر أربعمائة وأربعين سنة ، وقالت فرقة : بل هو فرعون آخر .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ﴾ حكاية حال
لريبة قولهم لأنهم إنما أرادوا : لن يجيء بعد هذا من يدعي مثل ما ادعى ،
ولم يُقرَّ أولئك قطُّ برسالة الأول ولا الآخر ولا بأن الله تعالى يبعث
الرُّسل ، فحكى ريبة قولهم ، وجاءت عبارتهم مشنعة عليهم ، ولذلك
قال لهم بآثر هذا : ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴾ ،
أي : كما صيركم من الكفر والضلالة بهذا الحد فنحو ذلك هو إضلاله
لصنفكم أهل السرف في الأمور وتعدّي الطور والارتباب بالحقائق ،
وفي مصحف أبي بن كعب ، وابن مسعود : « قُلْتُمْ أَلَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ » .
ثم أنحى لهم على قومٍ صفتهم موجودة في قوم فرعون ، فكانه
أرادهم فزال عن مخاطبتهم حُسْنُ أدب واستخلاصاً ، فقال : ﴿ الَّذِينَ
يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ ﴾ ، أي بالإبطال لها والردّ بغير برهان ولا حجة
أتتهم من عند الله . ﴿ كَبُرَ مَقْتًا ﴾ جدالهم ﴿ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ ، فاختصر
ذكر الجدل لتقدم الدلالة فيما ذكر عليه ، وردّ الفاعل بـ [كَبُرَ]
نصباً على التمييز ، كقولك : تَفَقَّاتُ شَحْمًا (١) وَتَصَبَّبْتُ عَرَقًا ، و [يَطْبَعُ]
معناه : يختم بالضلال ويحجب عن الهدى .

وقرأ أبو عمرو ، والأعرج - بخلاف عنه - : ﴿ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ ﴾
بالتنوين [مُتَكَبِّرٍ] على الصفة ، وقرأ الباقر بالإضافة إلى [مُتَكَبِّرٍ] ،
قال أبو علي : المعنى : يطبع الله على القلوب إذا كانت قلباً قلباً من كل

(١) معناها أن الجسم تشقق فخرج منه الشحم ، (وتَفَقَّأَ) مطاوع (فَقَّأَ) .

متكبر ، ويؤيد ذلك أن في مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :
« عَلَى قَلْبِ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ » (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويتجه أن يكون المراد عموم قلب المتكبر الجبار بالطبع ، أي
لا ذرة فيه من الإيمان ولا مقاربة ، فهي عبارة عن شدة إطلاقه .

قوله عز وجل :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنُ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ
السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَذِبًا ۚ وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ
سُوءُ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِي
ءَامَنَ يَقُومِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَقُومِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ
وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ
صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ
حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

(١) وكأن تقدير الكلام : يطبع الله على كل قلب كل متكبر جبار ، فحذفت (كل) الثانية لتقدم ما يدل عليها ، ولو لم نقدرها لصار المعنى إلى ما ذكره ابن عطية بعد ذلك من أنه يتجه أن يراد عموم القلب المتكبر بالطبع ، بمعنى أن الله يطبع على كل قلب فلا يبقى فيه جزء بدون طبع .

ذكر الله عز وجل مقالة فرعون حين أعيته الحيل في مقاومة موسى عليه السلام بحجة ، وظهر لجميع المشاهدين أن ما يدعو إليه موسى عليه السلام هو عبادة إله السماء ، فنادى فرعون هامان - وهو وزيره والناظر في أموره - فأمره أن يبني له بناءً عالياً نحو السماء ، و « الصَّرْحُ » كل بناء عظيم شنيع القدر ، مأخوذ من الظهور والصراحة ، ومنه قولهم : « صريح النسب » وصرح بقوله ، فيروى أن هامان طبخ الآجر - ولم يطبخ قبله - وبناه ارتفاع اربعمائة ذراع ، فبعث الله تبارك وتعالى جبريل عليه السلام فمسحه بجناحه فكسره ثلاث كسر ، تفرقت اثنتان ووقعت ثالثة في البحر ، وروي أن هامان لم يكن من القبط ، وقيل : كان منهم ، و « الأسباب » : الطرق ، قاله السدي ، وقال قتادة : الأبواب ، وقيل : عني : لعله يجد مع قربته من السماء سبباً يتعلق به ، وقرأ الجمهور : [فَاطْلَعُ] رفعا عطفاً على [أْبْلُغُ] ، وقرأ حفص عن عاصم ، والأعرج : [فَاطْلَعُ] نصباً بالفاء في جواب التمني . ولما قال فرعون بمحضر من ملئيه : ﴿ فَاطْلَعْ إِلَى إِلِهِ مُوسَى ﴾ اقتضى كلامه الإقرار بإله موسى ، فاستدرك ذلك استدراكاً قلقاً بقوله : ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ زُيِّنَ ﴾ أي أنه كما تَخَرَّقَ (١) فرعون في بناء الصرح والأخذ في هذه الفنون المقصرة ، كذلك جرى جميع أمره ،

(١) تَخَرَّقَ : اختلق الكذب وبالغ فيه .

وزَيْنَ له ، أي زين الشيطان سوء عمله في كل أفعاله ، وقرأ الجمهور : ﴿وَصَدَّ عَنْ السَّبِيلِ﴾ بفتح الصاد ، بإسناد الفعل إلى فرعون ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم ، وجماعة بضم الصاد وفتح الدال المشددة : [وَصَدَّ] عطفاً على [زَيْنَ] وحملاً عليه ، وقرأ يحيى بن وثاب : [وَصِدَّ] بكسر الصاد على معنى صَدَّ أصله صُدِدَ ، فنقلت الحركة ثم أدغمت الدال في الدال ، وقرأ ابن أبي إسحق ، وعبد الرحمن بن أبي بكرة : [وَصَدَّ] بفتح الصاد ودال مهملة مُشَدَّدة مرفوعة منونة عطفاً على قوله : ﴿سُوْءَ عَمَلِهِ﴾ . و «السَّبِيلُ» : سبيل الشرع والإيمان ، و «التَّبَابُ» : الخُسران ، ومنه : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (١) ، وبه فسر مجاهد وقتادة ، وتَبَّ فرعون ظاهراً لأنه خسر ماله في الصَّرح وغيره ، وخسر مُلكه ، وخسر نفسه ، وخُلِدَ في جهنم .

ثم وعظ الذي آمن فدعا إلى اتباع أمر الله تعالى ، وقوله : ﴿اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ﴾ يَقْوِي أن المتكلم موسى عليه السلام ، وإن كان الآخر يحتمل أن يقول ذلك ، أي : اتبعوني في اتباع موسى عليه السلام .

ثم زهد في الدنيا وأخبر أنها شيء يُتَمَتَّع به قليلاً ، ورغب في الآخرة ، إذ هي دار الاستقرار . وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحمزة ،

والكسائي ، وحفص عن عاصم ، وأبو رجاء ، وشيبة ، والأعمش :
 [يَدْخُلُونَ] بفتح الياء وضم الخاء ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ،
 وأبو بكر عن عاصم ، والأعرج ، والحسن ، وأبو جعفر ، وعيسى :
 [يَدْخُلُونَ] بضم الياء وفتح الخاء .

قوله عز وجل :

* وَيَقَوْمَ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾
 تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ
 الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ
 وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ
 وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَّهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَمَكُرُوا
 وَحَاقَ بِعَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ *

قد تقدم ذكر الخلاف ، هل هذه المقالة لموسى عليه السلام أو
 لمؤمن آل فرعون . والدعاء إلى طاعة الله تعالى وعبادته وتوحيده هو
 الدعاء إلى سبب النجاة ، فجعله دعاءً إلى النجاة اختصاراً واقتضاباً ،
 وكذلك دعاؤهم إياه إلى الكفر واتباع دينهم هو دعاء إلى سبب دخول
 النار ، فجعله دعاءً إلى النار اختصاراً ، ثم بيّن عليهم ما بين الدعوتين

من البَوْنِ في أَنَّ الواحدة كُفِّرَ وشِرْكٌ ، والأخرى دعوة إلى الإسناد إلى عِزَّةِ اللَّهِ تعالى وغفرانه .

وقوله : ﴿ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ ليس معناه أَنِّي جاهل به ، بل معناه أَنَّ العلم بَأَنَّ الأوثان وفرعون وغيره ليس لهم مدخل في الألوهية ، وليس لأحد من البشر علمٌ بوجه من وجوه النظر بَأَنَّ لهم في الألوهية مدخلاً ، بل العلم اليقين بغير ذلك من حدوثهم متحصل .

و ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ مذهب سيبويه والخليل أنها (لا) النافية دخلت على (جَرَمَ) ، ومعناها : ثَبَتَ وَوَجَبَ ، ومن ذلك جَرَمَ بمعنى كَسَبَ ، كقول الشاعر :

وَلَقَدْ طَعَنْتَ أَبَا عُيَيْنَةَ طَعْنَةً جَرَمْتَ فَزَارَةً بَعْدَهَا أَنْ يَغْضَبُوا (١)

(١) البيت للفزاري ، أبي أسماء بن الضَّرِيَّة ، وقيل هو لعطية بن عُفَيْف . وهو في الكتاب لسيبويه ، وفي الخزانة ، واللسان (جرم) ، والاشتقاق ، والمقتضب . والبيت يقرأ بضم التاء في (طَعَنْتَ) وهو غلط والصواب فتحها ؛ لأن الشاعر خاطب بها كُرُزاً العقيلي ورثاه ، وكان كُرُزٌ قد طعن أبا عُيَيْنَةَ وهو حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري في يوم الحاجر ، ويدل على ذلك قوله قبله : (يَا كُرُزُ إِنَّكَ قَدْ فَتَكْتَ بِفَارِسٍ) ، وفي الخزانة قال سيبويه : « إن جرم في البيت فعل ماض بمعنى حَقَّ ، وفزارة فاعل ، وأن يغضبوا بدل اشتغال ، أي حق غَضِبُ فزارة بعده » ، وقال الفراء : « إن الرواية هي بنصب فزارة ، أي كسبت الطعنة فزارة الغَضَبِ ، أي جرمتم لهم الغَضَبَ » ، وليس في كلام سيبويه ما يؤدي هذا المعنى ، بل إن كلامه يقتضي أن (جرم) فعل يرفع الفاعل ، والفاعل في البيت ضمير الطعنة . والكلام في البيت طويل كثير ، والخلاف بين النحويين فيه متعدد ، والمهم أن (جَرَمَ) عند سيبويه فعل ، وعند الفراء اسم . وسيبويه يرى أن (لا) زائدة قبل (جرم) إلا أنها لزمتهما لأنها كالمثل ، ويرى الخليل أن ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ إنما تكون جواباً لما قبلها من الكلام ، تقول : الرجل كان كذا وكذا ، فتقول : لا جرم أنهم سيئذمون ، أو أنه سيكون كذا وكذا .

أي أوجبت لهم ذلك وثبتته لهم ، فكان الكلام نفي للكلام المردود عليه بـ (لا) ، وإثبات لمستأنف بـ (جرم) ، و [أن] - على هذا النظر - في موضع رفع بـ [جرم] ، وكذلك [أن] الثانية والثالثة ، ومذهب جماعة من أهل اللسان أن (لا جرم) هي بمعنى (لا بُدَّ) و (لا محالة) فـ [أن] - على هذا النظر - في موضع نصب بإسقاط حرف الجر ، أي : لا محالة بأنَّ ما ، و [ما] بمعنى (الذي) واقعة على الأصنام وما عبدوه من دون الله تبارك وتعالى .

وقوله : (لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا) أي ليس له قدرٌ وحقٌ يجب أن يدعى أحدٌ إليه ، فكانه قال : تدعونني إلى ما لا غناء له وبين أيدينا خطب جليل من الردِّ إلى الله تعالى . وأهل الإسراف والشرك هم أصحاب النار بالخلود والملازمة ، أي : وكيف أطيعكم مع هذه الأمور الحقائق وفي طاعتكم رفض العمل بحسبها والخوف منها ؟ قال ابن مسعود ومجاهد : المسرفون سَفَاكُوا الدَّمَاءَ بغير حِلِّهَا (١) ، وقال قتادة : هم المشركون .

ثم توعدهم بأنهم سيذكرون قوله هذا عند حلول العذاب بهم ، وسوف بالسَّيْنِ (١) إذ الأمر يحتمل أن يخرج الوعيد في الدنيا أو في الآخرة ،

(١) في القرطبي : « بغير حقها » .

(٢) أي قال : فَسَتَذْكُرُونَ بالسَّيْنِ . وهي سين التسويف ، أي التأخير والتطويل .

وهو تأويل ابن زيد ، وروى اليزيدي وغيره عن أبي عمرو فتح الياء من [أمرِي] ، والضمير في [فَوْقَاهُ] يحتمل أن يعود على موسى عليه السلام أو على مؤمن آل فرعون ، وقال قائلوا ذلك : إن ذلك المؤمن نجا مع موسى عليه السلام وفرّ في جملة من فرّ معه ، وكان من المتبعين . وقرأ عاصم : [فَوْقَاهُ] بالإمالة . و [حَاقَ] معناه : نزل ، وهي مستعملة في المكروه ، وسوء العذاب : الغرق وما بعده من النار وعذابها .

قوله عز وجل :

﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ٤٦ ﴾ وَإِذْ يَخَاجُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ٤٧ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ٤٨ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ أَدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ٤٩ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ٥٠ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاتُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ٥١

قوله تعالى : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ ، [النَّارُ] رفع على البدل من [سوء] ، وقالت فرقة : [النَّارُ] رفع بالابتداء ، وخبره [يُعْرَضُونَ] .

وقالت فرقة : هذا الغدو والعشي هو في الدنيا ، أي : في كل غدو وعشي من أيام الدنيا يعرض آل فرعون على النار (١) ، وروي في ذلك عن الهذيل بن شرحبيل ، والسدي أن أرواحهم في أجواف طير سود تروح بهم وتغدو إلى النار ، وقاله الأوزاعي حين قال له رجل : إني رأيت طيوراً بيضاً تغدو من البحر ثم ترجع بالعشي سوداً مثلها ، قال الأوزاعي : تلك هي التي في حواصلها أرواح آل فرعون ، يحترق ريشها ويسود بالعرض على النار ، وقال كعب بن محمد القرظي وغيره : أراد تعالى أنهم يُعرضون في الآخرة على النار على تقدير ما بين الغدو والعشي ؛ إذ لا غدو ولا عشي في الآخرة ، وإنما ذلك على التقدير بأيام الدنيا .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴾ يحتمل أن يكون [يَوْمَ] عطفاً على [عَشِيًّا] والعامل فيه [يُعرضون] ، ويحتمل أن يكون كلاماً مقطوعاً والعامل في [يَوْمَ] [أَدْخِلُوا] ، والتقدير على كل قول : «يقال أَدْخِلُوا» . وقرأ نافع ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم ،

(١) خرَّج البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة . وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة) .

والأعرج ، وأبو جعفر ، وشيبة ، والأعمش ، وابن وثاب ، وطلحة :
 [أَدْخُلُوا] بقطع الألف ، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ،
 وابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم ، والحسن ،
 وقتادة : [أَدْخُلُوا] بصلة الألف على الأمر لآل فرعون ، و [آل] -
 على هذه القراءة - منادى مضاف ، و [أَشَدَّ] نصب على الظرفية .
 والضمير في قوله : [يَتَحَاجُّونَ] لجميع كفار الأُمم ، وهذا ابتداء
 قصص لا يختص بآل فرعون ، والعامل في [إِذْ] فعل مضمر تقديره :
 واذكر ، وقال الطبري : و [إِذْ] هذه عطف على قوله تعالى : ﴿إِذْ
 أَلْقَيْنَا لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا بعيد ، و «المُحَاجَّةُ» : التَّحَاوُرُ بالحجة والخصومة .
 و «الضُّعَفَاءُ» يريد : في القَدْر والمنزلة في الدنيا ، و «الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا»
 هم أشرف الكفار وكبرائهم ، ولم يصفهم بالكِبَر إِلَّا من حيث
 استكبروا ، لا أنهم في أنفسهم كبراء ، ولو كانوا كذلك في أنفسهم
 لكانت صفتهم الكبراء أو نحوه مما يوجب الصفة لهم ، و «التَّبَعُ»
 قيل : هو جمعٌ واحد تابعٌ كغائبٌ وغَيْبٌ (٢) ، وقيل : هو مفرد يوصف

(١) من الآية (١٨) من هذه السورة .

(٢) أوضح منها أنه مثل خادمٍ وخَدَمَ ، وعاسٌ وعَسَسَ ، ورأصدٌ ورَصَدَ ، وهَامِلٌ
 وهَمَلٌ ، وهذه الأخيرة تقال للبعير إذا ضلَّ وأهمل .

به الجمع كعدل وزور وغيره . وقولهم : ﴿مُغْنُونَ عَنَّا﴾ أي تحملون عنا كله (١) ومَشَقَّتَهُ ، فأخبرهم المستكبرون بأن الأمر قد انجزم بحصول الكل منهم فيها ، وأن حكم الله تعالى قد استمر بذلك .

وقولهم : ﴿كُلٌّ فِيهَا﴾ ابتداءً وخبر ، والجملة خبر [إِنَّ] ، وقرأ ابن السميع : ﴿إِنَّا كُلًّا فِيهَا﴾ بالنصب على التأكيد ، ثم قال جميع من في النار لخزنتها وزبانياتها : ادعوا ربكم عسى أن يخفف عنا مقدار يوم من أيام الدنيا من العذاب ، فراجعتهم الخزنة - على معنى التوبيخ والتقدير - ﴿أَوْ لَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ﴾ الآية ، فأقر الكفار عند ذلك وقالوا : [بَلَى] ، أي قد كان ذلك ، فقال لهم الخزنة عند ذلك : فادعوا أنتم إذاً ، وهذا على معنى الهُزء بهم ، أي : فادعوا أيها الكافرون الذين لا معنى لدعائكم ، وقالت فرقة : ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ هو من قول الخزنة ، وقالت فرقة : هو من قول الله تعالى إخباراً منه لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وجاءت هذه الأفعال على صيغة الماضي - ﴿قَالَ الَّذِينَ أَسْتَكَبَرُوا﴾ ، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ﴾ - لأنها وصف حال متيقنة الوقوع فحسُنَ ذلك فيها .

(١) من معاني الكل : المصيبة تحدث ، فالمعنى : تحملون عنا مصيبتنا التي حدثت لنا .

قوله عز وجل :

﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ٥١ ﴾
 يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ٥٢ ﴾ وَلَقَدْ
 ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ٥٣ ﴾ هُدًى وَذِكْرَى
 لِأُولَى الْأَلْبَابِ ٥٤ ﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ
 رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ٥٥ ﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ
 أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِّغِيهِ فَاستَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
 الْبَصِيرُ ٥٦ ﴾

أخبر الله تعالى أنه ينصر رسله عليهم السلام والمؤمنين في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، قال بعض المفسرين : وهو خاص فيمن أظهره الله تعالى على أمته كنوح وموسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام . وليس بعام لأننا نجد من الأنبياء عليهم السلام من قتله قومه كيحيى عليه السلام ولم ينصر عليهم . وقال السدي : الخبر عام على وجهه . وذلك أن نصرة الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام واقعة ولا بُدَّ ، إما في حياة الرسل المنصورين كنوح وموسى عليهما السلام ، وإما فيما يأتي به الزمان بعد موتهم ، ألا ترى ما صنع الله تبارك وتعالى

ببني إسرائيل بعد قتلهم يحيى عليه السلام بتسليط بختنصر عليهم حتى انتصر يحيى عليه السلام ؟ ونصر المؤمنين داخل في نصر الرسل عليهم السلام ، وأيضاً فقد جعل الله تعالى للمؤمنين الفضلاء ودّاً ، ووهبهم نصراً إذا ظلموا ، وحضت الشريعة على نصرتهم ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (من ردّ عن أخيه المسلم في عرضه كان حقاً على الله أن يردّ عنه نار جهنم) (١) ، وقوله صلى الله عليه وسلم : (من حمى مؤمناً من منافق يغتابه بعث الله ملكاً يحميه يوم القيامة) (٢) .

وقوله تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ ، يريد يوم القيامة ، وقرأ الأعرج ، وأبو عمرو - بخلاف - : [تَقُومُ] بالتاء ، وقرأ نافع ، وأبو جعفر ، وشيبة : [يَقُومُ] بالياء ، و [الْأَشْهَادُ] يحتمل أن يكون من الشهادة ، ويحتمل أن يكون من المشاهدة بمعنى المصدر ، وقال الزجاج : أَشْهَادُ جمع شاهد كصاحب وأصحاب ، وقالت فرقة :

(١) أخرجه أحمد ، والترمذي وحسنه ، وابن أبي الدنيا في ذم الغيبة ، والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي في شعب الإيمان : عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، وفي آخره كما ذكره الإمام السيوطي في الدر المنثور : (ثم تلا : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ الآية) ، وفي القُرطبي أن هذا الخبر عن أبي الدرداء ، وأن بعض المحدثين يقول إنه عن النبي صلى الله عليه وسلم .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣-٤٤١) ، وأبو داود في الأدب ، ولفظه كما في مسند أحمد ، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من حمى مؤمناً من منافق يعيبه بعث الله تبارك وتعالى ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم ، ومن بغى مؤمناً بشيء يريد شينه حبسه الله تعالى على جسر جهنم حتى يخرج مما قال) .

أَشْهَادُ جَمْعُ شَهِدَ ، وَشَهِدَ جَمْعُ شَاهِدٍ كَصَاحِبٍ وَصَاحِبٍ وَتَاجِرٍ وَتَجَرٍ ،
وَقَالَ الطَّبْرِيُّ : أَشْهَادُ جَمْعُ شَهِيدٍ كَشَرِيفٍ وَأَشْرَافٍ .

و {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ} بدل من الأول ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو :
وَقَتَادَةُ ، وَعَيْسَى ، وَأَهْلُ مَكَّةَ : {لَا تَنْفَعُ} بِالتَّاءِ مِنْ فَوْقَ ، وَقَرَأَ
الْبَاقُونَ : {لَا يَنْفَعُ} بِالْيَاءِ ، وَهِيَ قِرَاءَةُ أَبِي جَعْفَرٍ ، وَطَلْحَةَ ، وَعَاصِمٍ ،
وَأَبِي رَجَاءٍ ، وَهَذَا لِأَنَّ تَأْنِيثَ الْمَعْدَرَةِ غَيْرُ حَقِيقِي . وَلِأَنَّ الْحَائِلَ
قَدْ وَقَعَ ، وَ «الْمَعْدَرَةُ» مُصْدَرٌ كَالْعُدْرِ . وَ [الْلَّغْنَةُ] : الْإِبْعَادُ ، وَ {سَوْءُ
الدَّارِ} فِيهِ حَذْفٌ مُضَافٌ تَقْدِيرُهُ : سَوْءُ عَاقِبَةِ الدَّارِ .

ثُمَّ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِقِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَا آتَاهُ اللَّهُ تَعَالَى
مِنَ النَّبُوءَةِ تَأْنِيْسًا لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَضَرْبَ أُسْوَةٍ ، وَتَذْكِيرًا
بِمَا كَانَتِ الْعَرَبُ تَعْرِفُهُ مِنْ أَمْرِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَيُبَيِّنُ ذَلِكَ أَنَّ
مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ بِبَدْعٍ مِنَ الرُّسُلِ . وَ «الْهُدَى» :
النُّبُوءَةُ وَالْحِكْمَةُ ، وَالتَّوْرَةُ تَعْمُّ ذَلِكَ جَمِيعَهُ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : [وَأَوْرَثْنَا]
عِبْرَةَ عَنْ أَنَّ طَوَائِفَ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَرَنًا بَعْدَ قَرْنٍ تَصِيرُ فِيهِمُ التَّوْرَةُ
إِمَامًا ، فَكَانَ بَعْضُهُمْ يَرِثُهَا عَنْ بَعْضٍ . وَتَجِيءُ الْوَرَاثَةُ فِي حَقِّ الصَّدْرِ
الْأَوَّلِ مِنْهُمْ عَلَى تَجَوُّزٍ . وَ «الْكِتَابُ» : التَّوْرَةُ .

ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالصَّبْرِ وَانْتِظَارِ إِنْجَازِ
الْوَعْدِ ، أَيْ : فَسَتَكُونُ عَاقِبَةُ أَمْرِكَ كَعَاقِبَةِ أَمْرِهِ ، وَقَالَ الْكَابِيُّ :
نَسَخَتْ آيَةُ الْقِتَالِ الصَّبَرَ حَيْثُ وَقَعَ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : {وَاسْتَغْفِرْ}

لِذَنْبِكَ) يحتمل أن يكون ذلك قبل إعلام الله إياه أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؛ لأن آية هذه السورة مكية وآية سورة الفتح مدنية متأخرة، ويحتمل أن يكون الخطاب في هذه الآية له والمراد أمته، أي أنه إذا أمر هو بهذا فغيره أخرى بامثاله. و«الإبكار» والبكور بمعنى واحد، وقال الطبري: الإبكار من طلوع الفجر الثاني إلى طلوع الشمس، وحكى عن قوم أنه من طلوع الشمس إلى ارتفاع الضحى. وقال الحسن: [بِالْعِشِيِّ] يريد صلاة العصر، [وَالْإِبْكَارَ] يريد به صلاة الصبح.

ثم أخبر تعالى عن أولئك الكفار الذين يجادلون في آيات الله بغير حجة ولا برهان، وهم يريدون بذلك طمسها والرد في وجهها، أنهم ليسوا على شيء بل في صدورهم وضمايرهم كبر وأنفة عليك حسداً منهم على الفضل الذي آتاك الله تعالى، ثم نفى أن يكونوا يبلغون آمالهم بحسب ذلك الكبر فقال: (مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ) ، وهنا حذف مضاف تقديره: ببالغي إرادتهم فيه، وهذا النفي الذي يتضمن أنهم لا يبلغون أملاً تأنيساً لمحمد صلى الله عليه وسلم. ثم أمره بالاستعاذة بالله في كل أمره من كل مُسْتَعَاذٍ منه لأن الله يسمع أقواله وأقوال مخالفيه، وهو بصير بمقاصدهم ونياتهم ومجازٍ كلاً بما استوجبه، والمقصد بأن يُسْتَعَاذَ منه عند قوم الكبر المذكور، كأنه قال: هؤلاء لهم كبر لا يبلغون منه أملاً، فاستعذ بالله من حالهم في ذلك. وذكر

الثعلبي أن هذه الاستعاذة من الدجال وفتنته ، والأظهر ما قدمناه من العموم في كل مُستعاذٍ منه .

قوله عز وجل :

﴿لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ٥٧ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مِمَّا تَذَكَّرُونَ ٥٨ إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ٥٩ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية توبيخٌ لهؤلاء الكفار المتكبرين ، كأنه تعالى قال : مخلوقات الله تعالى أكبر وأجل قدراً من خلق البشر ، فما لأحد منهم أن يتكبر على خالقه ، ويحتمل أن يكون الكلام في معنى البعث والإعادة ، فأعلم تعالى أن الذي خلق السموات والأرض قويٌّ قادر على خلق الناس تارةً أخرى ، و «الخلق» - على هذا التأويل - مصدرٌ مضاف إلى المفعول . وقال النقاش : المعنى : مما يخلق الناس ؛ إذ هم في الحقيقة لا يخلقون شيئاً ، فالخلق في قوله تعالى : ﴿مَنْ خَلَقَ النَّاسَ﴾ مضاف إلى الفاعل على هذا التأويل .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ ﴾ يقتضي أن الأقل منهم يعلم ذلك ، ولذلك مثل الأكثر الجاهل بالأعمى ، والأقل العالم بالبصير ، وجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات يعادلهم قوله : [المُسيء] ، وهو اسم جنس يُعمُّ المسيئين . وأخبر تعالى أن هؤلاء لا يستوون . فكذلك الأكثر الجهلاء من الناس لا يستوون مع الأقل الذين يعلمون .

وقرأ أكثر القراء ، والأعرج ، وأبو جعفر ، وشيبة ، والحسن : [يَتَذَكَّرُونَ] بالياء على الكناية عن الغائب ، وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وقتادة ، وطلحة ، وعيسى ، وأبو عبد الرحمن : [تَتَذَكَّرُونَ] بالتاء من فوق على المخاطبة ، والمعنى : قل لهم يا محمد .

ثم جزم تعالى الإخبار بأن الساعة آتية ، وهي القيامة المتضمنة للبعث من القبور ، والحساب بين يدي الله تعالى ، وافتراق الجمع إلى الجنة وإلى النار . وقوله تعالى : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ أي في ذاتها ونفسها ، وإن وُجد من العالم من يرتاب فيها فليست فيها في نفسها ريبة .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ آية تفضل ونعمة ووعد لأئمة محمد صلى الله عليه وسلم بالإجابة عند الدعاء ، وهذا وعد مقيّد بشرط المشيئة وهي موافقة المقدور لمن شاء الله تعالى ، لا أن الاستجابة عليه حتم لكل داعٍ لا سيما من تعدى في دعائه ، فقد غاب رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاء الذي قال : اللهم أعطني

القصر الأبيض الذي عن يمين الجنة (١). وقالت فرقة : معنى [أَدْعُونِي] :
اعبدوني ، و [أَسْتَجِبْ] معناه : بالثواب والنصر ، ويدل على هذا
التأويل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ ، ويحتاج
له بحديث النعمان بن بشير أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (الدعاء
هو العبادة) ، وقرأ هذه الآية (٢). وقال ابن عباس رضي الله عنهما :

(١) أخرجه أبو داود في الطهارة ، وابن ماجه في الدعاء ، وأحمد في مسنده (٤-٨٧) ،
عن أبي نعامة أن عبد الله بن مغفل سمع ابناً له يقول : اللهم إني أسألك القصر الأبيض من الجنة
إذا دخلتها عن يميني . قال : فقال له : يا بني سل الله الجنة وتعوذ من النار ، فلم يسمع
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (سيكون بعدي قوم من هذه الأمة يعتدون في الدعاء
والطهور) .

(٢) أخرجه سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري
في الأدب المفرد ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن جرير ، وابن المنذر ،
 وابن أبي حاتم ، والطبراني . وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه . وأبو نعيم
في الحلية ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه ، قال : قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : (الدعاء تلوي العبادة) . ثم قرأ : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي
أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ - قال : عن دعائي -
﴿ سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ ، هل تدرون ما عبادة الله ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ،
قال : هو إخلاص الله مما سواه . (الدر المنثور) .

هذا وقد روي عن عبادة بن الصامت أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول : (أُعْطِيتُ أُمِّي ثَلَاثًا لَمْ تُعْطَ إِلَّا لِلْأَنْبِيَاءِ ، كَانَ اللَّهُ تَعَالَى إِذَا بَعَثَ النَّبِيَّ قَالَ : ادْعُنِي
أَسْتَجِبْ لَكَ ، وَقَالَ لَهُذِهِ الْأُمَّةُ : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾) ، وكان الله إذا بعث النبي
قال : ما جعل عليك في الدين من حرج ، وقال لهذه الأمة : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي
الْدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾) ، وكان الله إذا بعث النبي جعله شهيداً على قومه ، وجعل هذه الأمة
شهداء على الناس . ذكره الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » .

المعنى : وحدوني أغفر لكم ، وقيل للثوري : ادع الله تعالى فقال :
إن ترك الذنوب هو الدعاء .

وقرأ ابن كثير ، وأبو جعفر ، [سَيَدْخُلُونَ] بضم الياء وفتح
الخاء ، وقرأ نافع ، وحمزة ، والكسائي ، وابن عامر ، والحسن ،
وشيبة : [سَيَدْخُلُونَ] بفتح الياء وضم الخاء ، واختلف عن أبي عمرو ،
وعن عاصم ، و «الداخر» : الصاغر الدليل .

قوله عز وجل :

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَدُوٌّ
فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ (١١) ذَلِكَُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ
كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا إِلَهًا إِلَّا هُوَ فَاتَى تُؤْفَكُونَ ﴾ (١٢) كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِعَايَةِ اللَّهِ
يَجْحَدُونَ ﴾ (١٣) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ
فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ
الْعَالَمِينَ ﴾ (١٤)

هذا تنبيه على آيات الله تعالى ، وعبر متى تأملها العاقل أدته
إلى توحيد الله تبارك وتعالى والإقرار بربوبيته ، وقوله تعالى : ﴿ وَالنَّهَارَ

مُبْصِرًا) مجازة : يُبْصِرُ فيه ، كما تقول : نهارٌ صائمٌ وليلٌ قائمٌ ،
 وقوله تعالى : ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ معناه : خالق كل شيء مخلوق ،
 وما يستحيل أن يكون مخلوقاً كالقرآن والصفات فليس يدخل في
 هذا العموم ، وهذا كما قال تعالى : ﴿ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (١) معناه :
 كل شيء بعثت لتدميره . وقرأت فرقة : [تُؤَفِّكُونَ] بالتاء ، وفرقة :
 [يُؤَفِّكُونَ] بالياء ، والمعنى في القراءة الأولى : قُلْ لَهُمْ ، و [تُؤَفِّكُونَ]
 معناه : تُصَرِّفُونَ عن طريق النظر والهدى ، وهذا تقرير بمعنى التوبيخ
 والتقريع .

ثم قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ كَذَلِكَ يُؤَفِّكُ ﴾ أي : على
 هذه الهيئة وبهذه الصفة صرف الله الكفار الجاحدين بآياته سبحانه
 وتعالى من الأمم المتقدمة عن طريق الهدى ، ثم بين نعمته سبحانه
 وتعالى في أن جعل الأرض قراراً ومهاداً للعباد ، والسماء بناءً وسقفاً .
 وقرأ الناس : [صُورَكُمْ] بضم الصاد ، وقرأ أبو رزين بكسرها (٢) ،

(١) من الآية (٢٥) من سورة (الأحقاف) .

(٢) وهذا فرارٌ من الضمة قبل الواو ، لأنها ثقيلة ، قال بعض اللغويين : إن جمع (فُعْلَةٌ)
 على فِعْلٍ شاذٌّ ، وهذا كما قالوا شاذَّ آ (قِيَوِي) بكسر القاف في جمع (قوة) بضم القاف —
 لكن الجوهري قال : والصُّورُ — بكسر الصاد — لغة في الصُّور جمع صورة ، وأنشد على هذه =

وقرأت فرقة : [صُورَكُمْ] بسكون الواو على نحو بُسْرَةٍ وبُسْرٍ .
 وقوله تعالى : ﴿ مِنْ الطَّيِّبَاتِ ﴾ يريد : من المستلذات طعاماً ولبساً
 ومكاسب وغير ذلك ، ومتى جاء ذكر الطَّيِّبَاتِ بقرينة «رَزَقَكُمْ»
 ونحوه فهذا هو المُسْتَلَذُّ ، ومتى جاء بقرينة تحليل أو تحريم - كما
 قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ
 الرِّزْقِ ﴾ (١) ، وكما قال : ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ ﴾ (٢) - فالطَّيِّبَاتُ
 في مثل هذا : الحلال ، وعلى هذا النظر تخرج مذهب مالك رحمه الله
 تعالى في الطَّيِّبَاتِ والخبائث ، وقول الشافعي رحمه الله تعالى : إن الطَّيِّبَاتِ
 هي المُسْتَلَذَّات والخبائث هي المُسْتَقْدَرَات ضعیفٌ ينكسر بِمُسْتَلَذَّاتٍ
 مُحَرَّمَةٍ وَمُسْتَقْدَرَاتٍ مُحَلَّلَةٍ لا ردُّ له في صدرها ، وأما حيث وقعت
 الطَّيِّبَاتُ مع الرِّزْقِ فإنما هي تعدید نعمة فيما يستحسنه البشر ولا سيما
 هذه الآية التي هي مخاطبة للكفار ، فإنما عُدَّت عليهم النعمة التي
 يعتقدونها نعمة . وباقي الآية بَيِّن .

= اللغة هذا البيت الذي يصف الجواري :

أَشْبَهْنَ مِنْ بَقْرِ الْخُلُصَاءِ أَعْيُنَهَا وَهُنَّ أَحْسَنُ مِنْ صَيْرَانِهَا صَوْرًا
 والصَّيرَان : القطيع من البقر . (راجع الصحاح للجوهري) وغيره .

(١) من الآية (٣٢) من سورة (الأعراف) .

(٢) من الآية (١٥٧) من سورة (الأعراف) .

قوله عز وجل :

﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿٦٥﴾ * قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا
جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي
خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا
أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يَتُوفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلِتَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى
وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿٦٧﴾

لما سردت الآيات صفات الله التي تبين فساد حال الأصنام كان
من أبينها أن الأصنام مواتٌ جمادٌ ، وأنه عز وجل الحي القيوم ،
وصدور الأمر من لدنه وإيجاد الأشياء وتدبير الأمر كله وعلمه بالكل ،
دليل قاطع على أنه حي لا إله إلا هو .

وقوله تعالى : ﴿ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾
كلام متصل مقتضاه : ادعوه مخلصين بالحمد ، وبهذه الألفاظ قال
ابن عباس رضي الله عنهما : من قال : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » فليقل أثرها :
« الحمد لله رب العالمين » ، وقال نحو هذا سعيد بن جبير ثم قرأ
هذه الآية .

ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يصدع بأنه نهى
عن عبادة الأصنام التي عبدها الكفار من دون الله سبحانه وتعالى ،
ووقع النهي لما جاءه الوحي والهدى من ربه ، وأمر بالإسلام الذي هو
الإيمان والأعمال : وقوله تعالى : ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي أن أسلم
لرب العالمين وأخضع له بالطاعة (١) .

ثم بين تعالى أمر الوجدانية والألوهية بالعبرة في ابن آدم وتدرج
خلقه ، فأوله خلق آدم من تراب من طين لازب (٢) ، فجعل البشر
من تراب لما كان منسلاً من المخلوق من التراب ، وقوله : ﴿مِنْ نُّطْفَةٍ﴾
إشارة إلى التناسل من آدم فمن بعده و«النطفة» [هي] (٣) الماء الذي خلق
المرء منه ، و«العلقة» : الدم الذي يصير من النطفة ، و«الطفل»
هنا اسم جنس ، و«بُلُوغُ الْأَشَدِّ» اختلف فيه - فقليل : ثلاثون ،
وقيل : ستة وثلاثون ، وقيل : أربعون ، وقيل : ستة وأربعون ، وقيل :
عشرون ، وقيل : ثمانية عشر ، وقيل : خمسة عشر ، وهذه الأقوال
الآخيرة ضعيفة في الأشد .

(١) أخرج ابن جرير الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الوليد بن المغيرة وشيبة
ابن ربيعة قالا : يا محمد ارجع عما تقول ، وعليك بدين آبائك وأجدادك ، فأنزل الله تعالى :
﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ
مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

(٢) في بعض النسخ : «من تراب ثم من طين لازب» .

(٣) ما بين علامتين [.....] زيادة لتوضيح المعنى واستقامة العبارة .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ ﴾ عبارة تتردد في الأدراج المذكورة كلها ، فمن الناس من يموت قبل أن يخرج طفلاً ، وآخرون قبل الأشد ، وآخرون بعد الشيخوخة . وقوله تعالى : ﴿ وَلَتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى ﴾ أي : هذه الأصناف كلها مخلوقة مُيسَّرة ليلبغ كل واحد منها أجلاً مُسمى لا يتعداه ولا يتخطاه ، وليكون معتبراً ، ولعلكم أيها البشر تعقلون الحقائق إذا نظرتم في هذا وتدبرتم حكمة الله فيه .

قوله عز وجل :

﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾
 ﴿ ٧٨ ﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنِّي يُصْرَفُونَ ﴿ ٧٩ ﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلًا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿ ٨٠ ﴾ إِذِ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿ ٨١ ﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿ ٨٢ ﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ إِنَّ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿ ٨٣ ﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿ ٨٤ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا ﴾ عبارة عن إنفاذ الإيجاد وإخراج المخلوق من العدم ، وإيجاد الموجودات هو بالقدرة ، واقتران الأمر بذلك هو عظمة في الملك وتخضع للمخلوقات وإظهار للقدرة ،

بأنه نهي

وتعالى ،

الذي هو

أستسلم

وتدرج

على البشر

نظفة

الذي خلق

الطفل

لائون ،

وقيل :

الأقوال

يرة وشية

الله تعالى :

البينات

والأمر للموجد إنما يكون في حين تلبس القدرة بإيجاده ، لا قبل ذلك لأنه حينئذ لا يخاطب في معنى الوجود والكون ، ولا بعد ذلك لأن ما هو كائن لا يقال له : كُنْ .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ ﴾ الآية . ظاهرها أنها في الكفار المجادلين في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم والكتاب الذي جاء به ، بدليل قوله : ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ ﴾ الآية ، وهذا قول ابن زيد وجمهور المفسرين ، وقال محمد بن سيرين وغيره : قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ ﴾ الآية إشارة إلى أهل الأهواء من هذه الأمة ، وروت هذه الفرقة في نحو هذا حديثاً (١) ، وقالوا : هي في أهل القدر ومن جرى مجراهم ، ويلزم قائل هذه المقالة أن يجعلوا قوله : ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا ﴾ الآية ... كلاماً مقطوعاً مستأنفاً في الكفار ، [الَّذِينَ] ابتداء ، وخبره ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ، ويحتمل أن يكون خبر الابتداء محذوفاً ، والفاء متعلقة به . وقوله تعالى : ﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ ﴾ يعني يوم القيامة ، والعامل في الظرف [يَعْلَمُونَ] ، وعبر عن ظرف الاستقبال بظرف لا يقال إلا في الماضي ، لأنه لما تيقن وقوع الأمر حسن تأكيده بالإخراج في صيغة الماضي ، وهذا كثير في القرآن ،

(١) ذكره المهدي ، عن عقبة بن عامر أنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (نزلت هذه الآية في القدرية) .

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى﴾ (١)، قال الحسن بن أبي الحسن: لم تجعل السلاسل في أعناق الكفار لأنهم أعجزوا الرب تعالى ولكن لترسبهم إذا أطفاهم الله (٢). وقرأ الجمهور: [وَالسَّلَاسِلُ] رفعاً عطفاً على [الْأَغْلَالُ] ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما ، وابن مسعود رضي الله عنه [وَالسَّلَاسِلُ] بالنصب [يُسْحَبُونَ] بفتح الياء وإسناد الفعل إليهم وإيقاع الفعل على السلاسل ، وقرأت فرقة: [وَالسَّلَاسِلِ] بالخفض على تقدير: إذ أعناقهم في الأغلال والسلاسل ، فعطف على المراد من الكلام لا على ترتيب اللفظ ؛ إذ ترتيبه فيه قلب ، وهو على حد قول العرب: «أَدْخَلْتَ الْقَلَنْسُوَّةَ فِي رَأْسِي» ، وفي مصحف أبي ابن كعب رضي الله عنه: «وفي السلاسل يسحبون» ، و [يُسْحَبُونَ] معناه: يُجْرُونَ ، وَالسَّحْبُ: الجر . و «الحميم»: الذائب الشديد الحر من النار ، ومنه يقال للماء السخن: حميم . و [يُسْحَرُونَ] قال مجاهد: معناه: توقد النار بهم ، والعرب تقول: «سَجَرْتُ النَّارَ» إذا ملأتها ناراً ، وقال السدي: [يُسْحَرُونَ]: يُحْرَقُونَ .

(١) من الآية (١١٦) من سورة (المائدة) .

(٢) في اللسان (رسب): «رَسَبَ الشَّيْءُ فِي الْمَاءِ يَرَسِبُ رَسْباً: ذَهَبَ سُفْلاً ، وفي حديث الحسن يصف أهل النار: إذا طفت بهم النار أَرَسَبَتْهُمْ الْأَغْلَالُ ، أي إذا رفعتهم وأظهرتهم حطتهم الأغلال بثقلها إلى أسفلها» .

ثم أخبر تعالى أنهم يوقفون يوم القيامة على جهة التوبيخ والتقريع ،
 فيقال لهم : أين الأصنام التي كنتم تعبدون في الدنيا ؟ فيقولون :
 ضلُّوا عنا ، أي تلقوا النار وغابوا واضمحلوا ، ثم تضطرب أقوالهم
 ويفزعون إلى الكذب فيقولون : بل لم نكن نعبد شيئاً ، وهذا من
 أشد الاختلاط وأبين الفساد في الذهن والنظر ، فقال الله تعالى لنبيه
 صلى الله عليه وسلم : ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴾ ، أي بهذه الصفة
 المذكورة وبهذا الترتيب .

قوله عز وجل :

﴿ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ
 ٧٥ ﴾ أَدْخِلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿ ٧٦ ﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّ
 وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فِيمَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِينَكَ فَإِنَّا يَرْجِعُونَ ﴿ ٧٧ ﴾
 وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ
 عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِشَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا أَمَرَ اللَّهُ قُضِيَ
 بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿ ٧٨ ﴾

المعنى : يقال للكفار المعذبين : ذلكم العذاب الذي أنتم فيه بما
 كنتم تكفرون وتفرحون في الدنيا بالمعاصي والكفر وتمرحون ، قال

مجاهد : معناه : الأشرُّ والبَطَرُ . وقال ابن عباس رضي الله عنهما :
 الفخر والخيلاء . وقوله تعالى : [أَدْخُلُوا] ، يقال لهم قبل هذه المحاورة
 في أول الأمر : ادخلوا . لأن هذه المخاطبة إنما هي بعد دخولهم وفي
 الوقت الذي فيه الأغلال في أعناقهم ، وأبواب جهنم هي السبعة المؤدية
 إلى طبقاتها وأدراكها السبعة . و «المثوى» : موضع الإقامة .

ثم آنس الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ووعدته بقوله تعالى :
 ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ في نصرك وإظهار أمرك ، فإنَّ ذلك إما
 أن ترى بعضه في حياتك فتقر به عينك ، وإما أن تموت قبل ذلك
 فإلى أمرنا وتعذيبنا يصيرون ويرجعون . وقراءة الجمهور : [يُرْجَعُونَ]
 بضم الياء ، وقرأ أبو عبد الرحمن . ويعقوب : [يَرْجَعُونَ] بفتح
 الياء ، وقرأ طلحة بن مصرف . ويعقوب - في رواية الوليد بن حسان - :
 [تَرْجَعُونَ] بفتح التاء منقوطة من فوق .

وقوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ﴾ الآية ردُّ على العرب
 الذين قالوا : إن الله تعالى لا يبعث بشراً رسولاً ، واستبعدوا ذلك ،
 وقوله تعالى : ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ . قال النقاش : هم أربعة
 وعشرون ، وقوله تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ روي من
 طريق أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم :

(إن الله عز وجل بعث ثمانية آلاف رسول) (١) ، وروي عن سلمان ،
عن النبي عليه الصلاة والسلام قال : (بعث الله أربعة آلاف نبي) (٢) ،
وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وابن عباس رضي الله عنهما
أنه قال : (بعث الله تعالى رسولا من الحبشة أسود) (٣) وهو الذي لم
يُقصَّ على محمد صلى الله عليه وسلم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا ساقه على أن هذا الحبشي مثال لما لم يقص ، لا أنه هو

المقصود وحده ، فإن هذا بعيد .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ ﴾ ردُّ على قريش في إنكارهم
أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، وقولهم : إنه كاذب على الله تعالى ،
والإذن يتضمن علماً وتمكيناً ، فإذا اقترن به أمر قوي كما هو في إرسال
النبي . ثم قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ أي إذا أراد إرسال رسول
وبعثة نبي قضى ذلك وأنفذه بالحق ، وخسر كلُّ مبطل ، وحصل

(١) أخرجه ابن جرير الطبري عن أنس بن مالك ، ولفظه كما جاء فيه : (بعث النبي
صلى الله عليه وسلم بعد ثمانية آلاف من الأنبياء . منهم أربعة آلاف من بني إسرائيل) : فلم
يرفعه أنس إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري .

(٣) أخرجه ابن جرير ، وزاد السيوطي في (الدر المنثور) نسبته إلى الطبراني في الأوسط ،

وابن مردويه .

على فساد آخرته ، وتحتمل الآية معنى آخر وهو أن يريد بـ «أمر الله»
القيامة ، فتكون الآية توعداً لهم .

قوله عز وجل :

﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٨﴾
وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ
تَحْمَلُونَ ﴿٧٩﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨٠﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا
فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ
قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

هذه آياتٌ عبر وتعدد نِعَم ، و «الأنعام» : الأزواج الثمانية .
و [مِنْهَا] الأولى للتبويض ؛ لأن المذكور ليس كل الأنعام ، بل الإبل
خاصة ، و [مِنْهَا] الثانية لبيان الجنس ؛ لأن الجميع منها يؤكل ،
وقال الطبري في هذه الآية : إن الأنعام تعم الإبل والبقر والغنم والخيول
والبغال والحمير وغير ذلك مما يُنتفع به من البهائم ، ف [مِنْهَا]
في الموضعين للتبويض - على هذا - لكنه قول ضعيف ، وإنما الأنعام :
الأزواج الثمانية التي ذكر الله تعالى فقط ، ثم ذكر الله تعالى المنافع
ذكرًا مُجْمَلًا لأنها أكثر من أن تحصى .

وقوله تعالى : ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ يريد قطع
 الْمَهَامَه (١) الطويلة والمشاق البعيدة ، و «الْفُلُك» : السفن ، وهو هنا
 جمع ، و [تُحْمَلُونَ] يريد : براً وبحراً ، وذكر تعالى الحَمْلَ عليها
 وقد تقدم ذكر ركوبها لأن المعنى مختلف في الأمرين وبينهما تغاير ؛
 لأن الركوب هو المتعارف فيما قُرِب ، ويستعمل دأباً في القرى والمواطن ،
 فهو نظير الأكل منها وسائر المنافع ، ثم خصص بعد ذلك السفر الأطول
 وحوائج الصدور مع البعد ، وهذا هو الحمل الذي قرنه بشبيهه من
 أمر السفن .

ثم ذكر الله تعالى آياته عامة جامعة لكلِّ عِبْرَةٍ وموضع نظر ،
 وهذا غير منحصر لاتساعه . ولأن في كل شيء له آية تدلُّ على وحدانيته ،
 ثم قرَّره - على جهة التوبيخ - بقوله : ﴿فَإِنَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنَكِّرُونَ﴾ ؟
 ثم احتجَّ تعالى على قريش بما يظهر في الأمم السالفة من نقمات
 الله في الكفرة الذين كانوا أكثر عدداً ، وأشدَّ قُوَّةً أبدانٍ وممالك ،
 وأعظم آثاراً في المباني والأفعال من قريش والعرب ، فلم يُغْنِ عنهم
 كَسْبُهُمْ ولا حالهم شيئاً حين جاءهم عذاب الله وأخذهُ . و [مَا] في
 قوله : ﴿فَمَا أَغْنَى﴾ نافية ، قال الطبري : وقيل : هي توقيف وتقرير .

(١) جمع مهمه وهو المفازة البعيدة والبلد المقفر .

قوله عز وجل :

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرْنَا لِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ *

الضمير في [جَاءَتْهُمْ] عائد على الأئمة المذكورين الذين جعلوا مثلاً وعبرة. واختلاف المفسرون في الضمير في [فَرِحُوا] ، على من يعود ؟ فقال مجاهد وغيره : هو عائد على الأئمة المذكورين ، أي : بما عندهم من العلم في ظنهم ومعتقدهم من أنهم لا يُبعثون ولا يُحاسبون ، وقال ابن زيد : اغتروا بعلمهم بالدنيا والمعاش ، وظنوا أنه لا آخرة ففرحوا ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (١) ، وقالت فرقة : الضمير عائد على الرُّسل ، وفي هذا التأويل حذف تقديره : كذبوهم ففرحوا - أي الرُّسل - بما عندهم من العلم بالله تعالى والثقة به وبأنه سينصرهم .

و [حَاقَ] معناه : نزل وثبت ، وهي مستعملة في الشر ، و [مَا] في قوله تعالى : ﴿ مَا كَانُوا بِهِ ﴾ هو العذاب الذي كانوا يُكذِّبون به

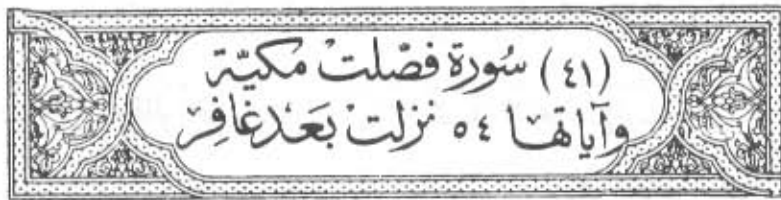
(١) من الآية (٧) من سورة (الروم) .

ويستهزئون بأمره ، والضمير في [بِهِمْ] عائذ على الكفار بلا خلاف .
ثم حكى تعالى حالة بعضهم مِمَّنْ آمن بعد تلبس العذاب بهم فلم ينفعهم ذلك ، وفي ذكر هذا حُضُّ للعرب على المبادرة ، وتخويف من التَّائِي ، لئلا يدركهم عذاب لا تنفعهم توبة بعد تلبسه بهم ،
وأما قصة قوم يونس عليه السلام فقد رأوا العذاب ولم يكن تلبس بهم ، وقد مرَّ تفسيرها مُستقصى في سورة يونس عليه السلام . و [سُنَّة] نصب على المصدر ، و [خَلَّتْ] معناه : مضت واستمرت وصارت عادة .
وقوله تعالى : [هُنَالِكَ] إشارة إلى أوقات العذاب ، أي ظهر خسرانهم وحضر جزاء كفرهم .

كامل تفسير سورة (غافر) والحمد لله رب العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



هذه السُّورة مَكِّيَّةٌ بإجماع من المفسرين (١) ، ويُروى أن عتبة بن ربيعة ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليُبَيِّنَ عليه أمر مخالفته لقومه ، وليحتجَّ عليه فيما بينه وبينه ، وليُبْعِدَ ما جاء به ، فلما تكلم عتبة قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : [حَم] ، ومر في صدر هذه السُّورة حتى انتهى إلى قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ (٢) ، فَأَرْعَدَ الشَّيْخُ وَقَفَّ شعره (٣) ، وأمسك على فم رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده وناشده بالرحم أن يُمسك ، وقال حين فارقَهُ : « والله لقد سمعتُ شيئاً ما هو بالشَّعر ولا بالسَّحر ولا بالكهانة ، ولقد ظننت أن صاعقة العذاب على رأسي (٤) .

(١) وتسمى هذه السورة (فُصِّلَتْ) ويقال لها سجدة المؤمن ، ويقال لها أيضاً: المصاييح ، وآياتها ٥٤ آية ، وقيل : ٥٣ آية .

(٢) وهي الآية رقم (١٣) من السورة .

(٣) أَرَعِدَ فلان : أَخَذَتْهُ الرعدةُ ، وَقَفَّ شعره : قام من الفزع .

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وأبو يعلى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم ، والبيهقي ، كلاهما في الدلائل ، وابن عساكر ، عن جابر بن عبد الله =

قوله عز وجل :

﴿ أَحَدٌ ۝ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۝ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ ۝ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فَاغْمِلْ إِنَّا عَمِلُونَ ۝ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَٰهُ وَاحِدٌ ۖ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۖ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَنُفُرُونَ ۝ ﴾

رضي الله عنه ، وفيه كما ذكره في الدر المنثور : (اجتمعت قريش يوماً فقالوا : انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر ، فليأت هذا الرجل الذي قد فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وعاب ديننا ، فليبينكم ما الذي ينظر ماذا يرؤ عليه ، فقالوا : ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة ، قالوا : أنت يا أبا الوليد ، فأنا فقال : يا محمد أنت خير أم عبد الله ؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت ، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع لك ... إلخ) - وفي آخره أيضاً - كما رواه أبو بكر بن الأنباري - : (فانصرف عتبة إلى قريش في ناديبها ، فقالوا : والله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي مضى به من عندكم ، ثم قالوا : ما وراءك أبا الوليد ؟ قال : والله لقد سمعت كلاماً من محمد ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ، فأطبعوني في هذه وأنزلوها بي ، خلوا محمداً وشأنه واعتزلوه ، فوالله ليكونن لما سمعت من كلامه نبأ ، فإن أصابته العرب كُفيتموه بأيدي غيركم ، وإن كان ملكاً أو نبياً كنتم أسعد الناس به ، لأن ملكه ملككم وشرفه شرفكم ، فقالوا : هيهات ، سحرك محمد يا أبا الوليد ، وقال : هذا رأيي لكم ، فاصنعوا ما شئتم) .

تقدم القول في أوائل السور وفيما تختص به الحواميم ، وأمال الأعمش [حَمْ] في كلها ، و [تَنْزِيلٌ] خبر الابتداء ، إمّا على أن يقدر الابتداء في [حَمْ] على ما تقتضيه بعض الأقاويل فيها ، إذا جعلت إسمًا للسورة أو للقرآن أو إشارة إلى حروف المعجم ، وإمّا على أن يكون التقدير : هذا تنزيل ، ويجوز أن يكون [تَنْزِيلٌ] ابتداءً وخبره في قوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ ﴾ ، على معنى : ذو تنزيل . و ﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ صفتا رجاء ورحمة لله تعالى ، و [فُصِّلَتْ] قال السدي : معناه : بُيِّنَتْ آياته ، أي فُسِّرَتْ معانيه ، ففصل بين حلاله وحرامه ، وزجره وأمره ونهييه ، ووعدته ووعيدته ، وقيل : فُصِّلَتْ في التنزيل ، أي نزل نجوماً ولم ينزل مرة واحدة ، وقيل : فصلت المواقف وأنواع أواخر الآي ، ولم يكن يرجع إلى قافية واحدة ونحوها كالشعر والسجع ، و [قُرْآنًا] نصب على الحال عند قوم ، وهي مؤكدة لأن هذه الحال ليست مما تنتقل . وقالت فرقة : هو نصب على المصدر ، وقالت فرقة : [قُرْآنًا] توطئة للحال و [عَرَبِيًّا] حال ، وقالت فرقة : [قُرْآنًا] نصب على المدح ، وهذا قول ضعيف .

وقوله تعالى : ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ قالت فرقة : معناه : يعلمون الأشياء ويعقلون الدلائل وينظرون على طريق النظر ، فكأن القرآن فُصِّلَتْ آياته لهؤلاء إذ هم أهل الانتفاع بها فحُصِّوا بالذكر تشريفاً ،

ومن لم ينتفع بالتفصيل فكأنه لم يُفَصِّل له ، وقالت فرقة : [يَعْلَمُونَ] متعلق في المعنى بقوله تعالى : [عَرَبِيًّا] ، أي : جعلناه بكلام العرب لقوم يعلمون ألفاظه ، ويحققون أنها لم يخرج شيء منها عن كلام العرب ، وكان الآية رادة على من زعم أن في كتاب الله تعالى ما ليس في كلام العرب ، فالعلم - على هذا التأويل - أخص من العلم على التأويل الأول ، والأول أشرف معنى ، وبين أنه ليس في القرآن إلا ما هو من كلام العرب ، إما على أصل لغتها ، وإما ما عربته من لغة غيرها ثم ذكر في القرآن وهو معرب مستعمل .

وقوله تعالى : ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ نعت للقرآن ، أي يبشر من آمن بالجنة ويُنذر من كفر بالنار ، والضمير في [أَكْثَرُهُمْ] عائد على القوم المذكورين . وقوله تعالى : ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ نفي لسمعهم النافع الذي يعتد به سمعاً . ثم حكى تعالى عنهم مقالتهن التي باعدوا فيها كل المباحة ، وأرادوا بها أن يؤيسوه من قبولهم دينه ، وهي : ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ ، و [أَكِنَّةٍ] : جمع كنان ، وهو بابُ فَعَالٍ وَأَفْعَلَةٍ ، والكنان : ما يجمع الشيء ويضمه ويحول بينه وبين غيره ، ومنه الكن ، ومنه كنانة النبيل ، وبها فسر مجاهد هذه الآية ، و [من] في قولهم : ﴿مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ لابتداء الغاية ، وكذلك هي في قولهم : ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ مؤكدة ولابتداء

الغاية (١) ، و «الْوَقْر» الثَّقَلُ في الأُذُن الذي يمنع السَّمْع ، وقرأ ابن
مصرف : [وَقُرْ] بكسر الواو ، و «الْحِجَابُ» الذي أشاروا إليه هو
مخالفته إِيَّاهم ، ودعوته إلى الله تبارك وتعالى دون أصنامهم ، أي :
هذا أمر يحجبنا عنك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه مقالة يحتمل أن تكون معها قرينة الجِدِّ في المحاورة وتتضمن
المباعدة ، ويحتمل أن تكون معها قرينة الهَزَل والاستخفاف ، وكذلك
قولهم : ﴿فَاعْمَلْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾ يحتمل أن يكون القول تهديداً ،
ويحتمل أن يكون متاركة محضة . وقرأ الجمهور : ﴿قُلْ إِنَّمَا﴾
على معنى الأمر لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقرأ يحيى بن وثاب ،
والأعمش : ﴿قَالَ إِنَّمَا﴾ على معنى المُضَيِّ والخبر عنه ، وهذا هو
الصدع بالتوحيد والرسالة .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ ، قال الحسن : علَّمه الله
تعالى التواضع ، و [أَنَّ] في قوله تعالى : ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُم﴾ رفع على المفعول
الذي لم يُسَمَّ فاعله ، وقوله : ﴿فَاسْتَقِيمُوا﴾ أي على محجة الهدى

(١) في بعض النسخ : «مؤكد لابتداء الغاية» .

وطريق الشرع والتوحيد ، وهذا المعنى مُضْمَنٌ في قوله : [إِلَيْهِ] ،
و «الْوَيْلُ» : الحزن والشبور ، وفسره الطبري وغيره في هذه الآية
بقبيح أهل النار وما يسيل منهم . وقوله تعالى : ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ
الزَّكَاةَ﴾ قال الحسن ، وقتادة : وغيرهما (١) : هي زكاة المال . وروي
أن الزكاة قنطرة الإسلام ، من قطعها نجا ومن جانبها هلك (٢) ،
واحتج لهذا التأويل بقول أبي بكر رضي الله عنه في الزكاة وقت الردة (٣) ،
وقال ابن عباس رضي الله عنهما ، والجمهور : الزكاة في هذه الآية :
«لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» التوحيد ، كما قال موسى عليه السلام لفرعون :
﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى﴾ (٤) ، ويُرجَّح هذا التأويل أن الآية من أول
المكيّ وزكاة المال نزلت بالمدينة ، وإنما هذه زكاة القلب والبدن ،
أي تطهيرهما (٥) من الشُّرك والمعاصي ، وقاله مجاهد والربيع ، وقال
الضحّاك ومقاتل : معنى الزكاة هنا النفقة في الطاعات ، وأعاد الضمير
في قوله تعالى : ﴿هُمْ كَافِرُونَ﴾ توكيداً .

(١) في الأصول : « وغيره » .

(٢) أخرجه عبد الرزاق ، وعبد بن حميد . عن قتادة ، أنه قال : « كان يقال : الزكاة قنطرة الإسلام ... الخ » . وهكذا أيضاً أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره .

(٣) كان أهل الردّة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم يقولون : « أما الصلاة فنصلي . وأما الزكاة فوالله لا تغصب أموالنا » . فقال أبو بكر رضي الله عنه : « والله لا أفرّق بين شيء جمع الله بينه . والله لو منعوني عيلاً ما فرض الله ورسوله لقاتلتهم عليه » .

(٤) من الآية (١٨) من سورة (النازعات) .

(٥) في الأصول : « أي تطهيره » .

قوله عز وجل :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝۱ ﴾
 * قُلْ أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِاللَّهِ خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ ۞ أَنْدَادًا ۚ ذَلِكَ
 رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝۲ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا
 أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ لَيْلٌ ۝۳ ﴾

ذكر عز وجل حالة الذين آمنوا معادلاً بذلك حالة الكفار المذكورين
 ليتبين الفرق ، وقوله تعالى : ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ ، قال ابن عباس رضي الله
 عنهما : معناه : غير منقوص ، وقالت فرقة : معناه : غير مقطوع ،
 يقال : مَنَنْتُ الحبلَ إِذَا قَطَعْتَهُ (١) ، وقال مجاهد : معناه : غير محسوب ؛
 محصور ، فهو مُعَدٌّ لِأَن يُمَنَّ بِهِ ، ويظهر في الآية أنه وصفه بعدم
 المن والأذى ، ومن حيث هو من جهة الله تعالى فهو تشریف لا مَنْ فِيهِ ،
 وأعطيات البشر هي التي يدخلها المن ، وقال السدي : نزلت هذه الآية
 في المرضى والزَّمَنِي (٢) إِذَا عَجَزُوا عَنْ إِكْمَالِ الطَّاعَاتِ كُتِبَ لَهُمْ مِنَ الْأَجْرِ
 كَأَصَحِّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

(١) قال ذو الإصبع العدواني :

إِنِّي لَعَمْرُكَ مَا بَكَى بِيَذِي غَلَقٍ عَلَى الصَّدِيقِ وَلَا خَبِيرِي بِمَمْنُونٍ

(٢) الزَّمَنِي : المرضى مرضاً يدوم طويلاً ، أو الضعاف بكبر السن .

ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يوقفهم موبخاً على كفرهم بخالق الأرض والسماء ومخترعهما ، ووصف صورة الخلق ومدته ، والحكمة في خلق هذه المخلوقات في مدة مُمتدة مع قدرته على إيجادها في حين واحد هي إظهار القدرة في ترتيب ذلك حسب شرف الإيجاد أولاً أولاً ، قال قوم : ليعلم عباده الثاني في الأمور والمهل . وقد تقدم القول غير مرة في نظير قوله : [أَنْتُمْ] ، واختلف رواة الحديث في اليوم الذي ابتداء الله تعالى فيه خلق الأرض ، فروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وغيره أن أول يوم هو الأحد ، وأن الله تبارك وتعالى خلق فيه وفي الاثنين الأرض ، ثم خلق الجبال ونحوها يوم الثلاثاء ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : فمن هنا قيل : هو يوم ثقيل ، ثم خلق الثمار والشجر والأنهار يوم الأربعاء ، ومن هنا قيل : هو يوم راحة وتفكر في هذه التي خلقت فيه ، ثم خلق السموات وما فيها يوم الخميس ويوم الجمعة ، وفي آخر ساعة منه خلق آدم عليه السلام ، قال السدي : وسُمي يوم الجمعة لاجتماع المخلوقات فيه وتكاملها . فهذه رواية فيها أحاديث مشهورة ، ولما لم يخلق الله تعالى يوم السبت شيئاً امتنع بنو إسرائيل من الشغل فيه ، ووقع في كتاب مسلم أن أول يوم خلق الله فيه البرية يوم السبت ، ثم رتب المخلوقات على ستة أيام ، وجعل يوم الجمعة عارياً من المخلوقات إلا من آدم وحده . والظاهر من القصص في طينة آدم عليه السلام

أن الجمعة التي خلق فيها آدم قد تقدمتها أيام وجمع كثيرة ، وأن هذه الأيام التي خلق فيها المخلوقات هي أول الأيام ، لأن بإيجاد الأرض والسماء والشمس وجد اليوم ، وقد يحتمل أن يجعل قوله تعالى [يَوْمِينَ] على التقدير وإن لم تكن الشمس خلقت بعد وكان تفصيل الوقت يعطى أنها الأحد ويوم الاثنين كما ذكر .

و «الْأَنْدَاد» : الأشباه والأمثال ، وهذه إشارة إلى كل ما عبد من الملائكة والأصنام وغير ذلك ، قال السدي : أكفاء من الرجال يطيعونهم . و «الرَّوَّاسِي» هي الجبال الثوابت ، رَسَا الجبل إذا ثبت ، وقوله تعالى : ﴿وَبَارَكْ فِيهَا﴾ أي جعلها مُنْبِتَةً للطيبات والأطعمة ، وجعلها طهوراً ، إلى غير ذلك من أنواع البركة ، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه : «وَقَسَمَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا» ، وفي مصحف عثمان رضي الله تعالى عنه : «وَقَدَّرَ» .

واختلف الناس في معنى قوله تعالى : [أَقْوَاتَهَا] - فقال السدي : هي أقوات البشر وأرزاقهم ، وأضافها إلى الأرض من حيث هي فيها وعنهما ، وقال قتادة : هي أقوات الأرض من الجبال والأنهار والأشجار والصخور والمعادن والأشياء التي بها قوام الأرض ومصالحها ، وروى ابن عباس رضي الله عنهما في هذا حديثاً مرفوعاً ، فشبَّهها بالقوت الذي به قوام الحيوان ، وقال مجاهد : أراد أقواتها من المطر والمياه ، وقال عكرمة ، والضحاك ، ومجاهد أيضاً : أراد تبارك وتعالى بقوله :

[أَقْوَاتَهَا] : خصائصها التي قسمها في البلاد ، فجعل في اليمين أشياء ليست في غيره ، وكذلك في العراق والشام والأندلس وغيرها من الأقطار ليجتاح بعضها إلى بعض ، ويتقوت من هذه في هذه من الملابس والمطعوم ، وهذا نحو القول الأول إلا أنه بوجه أعم منه .

وقوله تعالى : ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ﴾ يريد تعالى : باليومين الأولين (١) ، وهذا كما تقول : بنيتُ جدار داري في يوم ، وأكملتُ جميعها في يومين ، أي بالأول .

وقرأ الحسن البصري ، وأبو جعفر ، وجمهور الناس : [سَوَاءً] بالنصب على الحال ، أي : سواء هي وما انقضى فيها ، وقرأ أبو جعفر ابن القعقاع : [سَوَاءً] بالرفع ، أي هي سواء ، وقرأ الحسن ، وابن أبي إسحق ، وعيسى ، وعمرو بن عبيد : [سَوَاءً] بالخفض على نعت «الأيام» . واختلف المتأولون في معنى [لِلْسَائِلِينَ] - فقال قتادة ، والسدي : معناه : سواء لمن سأل عن الأمر واستفهم عن حقيقة وقوعه وأراد العبرة فيه ، فإنه يجده كما قال عز وجل . وقال ابن زيد وجماعة : معناه : مُسْتَوٍ مُّهِياً أمر هذه المخلوقات ونفعها للمحتاجين إليها من البشر ، فعبّر عنهم بالسائلين ، بمعنى الطالبين ، لأنهم من شأنهم ولابد طلب ما ينتفعون به ، فهم في حكم من سأل هذه الأشياء ؛

(١) يعني : في تِسْمَةِ أربعة أيام .

إذ هم بحال حاجة إليها . ولفظة «سواء» تجري مجرى «عدل» و «زور»
في أن ترد على المفرد والجمع والمذكر والمؤنث .

قوله عز وجل :

﴿ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا
أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ
وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ
تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾

(أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ) معناه : بقدرته واختراعه ، أي : إلى خلق
السموات وإيجادها . وقوله تعالى : ﴿ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ روي أنها كانت
جسمًا رخوًا كالدخان أو البخار ، وروي أنه مما أمره الله أن يصعد
من الماء ، وهنا لفظ متروك يدل عليه الظاهر ، وتقديره : فأوجدتها وأتقنها
وأكمل أمرها ، وحينئذ قال لها وللأرض : ﴿ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ .
وقرأ الجمهور : [ائْتِيَا] ، من أتى يأتي ، ﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ على
وزن فعلنا ، وذلك على معنى : ائْتِيَا أوامري وإرادتي فيكما ، وقرأ
ابن عباس ، وابن جبير ، ومجاهد : [آتِيَا] (١) ، من آتى يؤتي ، ﴿ قَالَتَا

(١) ضبطه القرطبي بقوله : « بالمد والفتح » ، وقال أيضًا إنها قراءة عكرمة ، ويفهم
من الهامش التالي أنهما من : (آتَى يُؤَاتِي) ، لا من (آتَى يُؤْتِي) .

آتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١﴾ على وزن أَفْعَلْنَا (١)، وذلك بمعنى أَعْطَيْنَا من أنفسكما من الطاعة ما أَرَدْتُهُ مِنْكُمَا ، والإشارة بهذا كله إلى تسخيرهما وما قدره الله تعالى من أعمالهما . وقوله تعالى : ﴿ أَوْ كَرِهًا ﴾ فيه محذوف ومقتضب ، والتقدير : أَتَيْنَا طَوْعًا وَإِلَّا أَتَيْنَا كَرْهًا ، وقوله تعالى : [قَالَتَا] أراد الفرقتين المذكورتين ، جعل تعالى السموات سماءً والأرضين أرضاً ، ونحو هذا قول الشاعر :

أَلَمْ يَحْزُنْكَ أَنَّ حِبَالَ قَوْمِي وَقَوْمِكَ قَدْ تَبَايَنَتَا انْقِطَاعًا ؟ (٢)

- (١) قال أبو الفتح ابن جني في المحتسب : « ينبغي أن يكون [آتَيْنَا] هنا : فاعلنا ، كقولك : سارعنا وسابقنا . ولا يكون : أَفْعَلْنَا ؛ لأن ذلك متعد إلى مفعولين ، وفاعلنا متعد إلى مفعول واحد . وحذف الواحد أسهل من حذف الاثنين ؛ لأنه كلما قل الحذف كان أمثل من كثرته ، ومثّل [آتَيْنَا] في أنه فاعلنا لا أَفْعَلْنَا القراءة الأخرى : ﴿ وَإِنْ كَانَ مَشْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ﴾ . أي : سارعنا بها . » والزمخشري من هذا الرأي أيضاً ، فقد قال : لأنها من المواتاة وهي الموافقة ، فيكون وزن [آتَيْنَا] : فاعلنا ، وتقدمه إلى ذلك أبو الفضل الرازي ، قال : « [آتَيْنَا] بالمد على فاعلنا ، من المواتاة ، ومعناه : سارعنا ، على حذف المفعول منه . ولا يجوز أن يكون من الإيتاء الذي هو الإعطاء لبعد حذف مفعوله . »
- (٢) البيت للقطامي الشاعر النصراني الذي عاش في العصر الإسلامي ، وهو من قصيدة له التمدّرقِ يا ضُبَاعَةً ، وضُبَاعَةٌ هذه هي بنت زفر ، والبيت في الطبري ، والبحر المحيط ، وفي الديوان . وفي (شعراء النصرانية في الإسلام) ، والرواية في أكثرها : (أَلَمْ يَحْزُنْكَ أَنْ حِبَالَ قَيْسٍ وَتَغْلِبَ ...) - والحبال : الصلاة والعهود ، والشاهد أن الشاعر قال : (تباينت) بالثنية مع أن حبال قيس وحبال تغلب جمع . وكان الظاهر يقتضي أن يقول : (تباينت) مراعاة لمعنى الجمعية في الحبال . هذا هو كلام ابن عطية هنا ، ولكن أبا حيان يخالفه في البحر المحيط ويقول : « وليس كما ذكر ابن عطية لأنه إنما تقدم ذكر الأرض مفردة والسماء =

جعلها فرقتين وعبرَ عنهما بتبائنتا . وقوله : [طَائِعِينَ] ، إما كان
ممن يقول - وهي حال من يعقل - جرى الضمير في [طَائِعِينَ] ذلك
المجرى ، وهذا كقوله تعالى : (رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ) (١) .

واختلف الناس في هذه المقالة من السماء والأرض - فقالت فرقة :
نطقنا حقيقة ، وجعل الله تعالى لهما حياة وإدراكاً يقتضي نطقهما ،
وقالت فرقة : هذا مجاز . وإنما المعنى أنهما ظهر فيهما من اختيار الطاعة
والخضوع والتذلل ما هو بمنزلة قول : (أَتَيْنَا طَائِعِينَ) . والقول الأول
أحسن لأنه لا شيء يدفعه . ولأن العبرة فيه أتم ، والقدرة فيه أظهر .
وقوله تعالى : [فَقَضَاهُنَّ] معناه : فأوجدهن ، ومنه قول أبي ذؤيب :
وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا دَاوُدُ أَوْ صَنَعُ السَّوَابِغِ تُبَعُ (٢)

= مفردة فحسّن التعبير عنهما بالثنية . والبيت هو من وضع الجمع موضع الثنية . كأنه قال :
ألم يحزنك أن جبال قومي وقومك ، ولذلك ثنّى في قوله : (تبائنتا) ، وأنث على معنى الحبل :
لأنه لا يريد به الحبل حقيقة ، وإنما عني به الذمة والمودة التي كانت بين قوميهما .

(١) من الآية (٤) من سورة (يوسف) .

(٢) البيت لأبي ذؤيب الهذلي ، وهو من قصيدته المشهورة التي بدأها بقوله :

أَمِنْ الْمُنُونِ وَرَيْبَهَا تَتَوَجَّعُ وَالْدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتَبَرٍ مِّنْ يَجْزَعُ

وبيت الشاعر يتحدث مع أبيات قبله عن معركة جرت بين فارسين كلاهما بطل ، وكلاهما
في كفه سنان ، وعليهما مسرودتان . فالضمير في (عليهما) يعود على البطلين ، والمسرودتان :
درعان صردت كل واحدة منهما ، والسرْدُ : الخرز في الأديم ، وقد أراد في الدرع مثل
هذا الذي يحدث في الأديم ، وقضاهُمَا : قرّغ من عملهما . وهو موضع الشاهد هنا ،
والصَّنْعُ : الحاذقُ بالعمل ، وهو هنا تَبَعٌ وهو واحد من أشهر ملوك اليمن قديماً . قال
الأصمعي : «سمع الشاعر أن داود عليه السلام كان قد سخر له الحديد فهو يصنع منه ما أراد ، =

وقوله تعالى : ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ قال مجاهد ، وقتادة :
أوحى إلى سكانها وعمرتها من الملائكة وإليها هي في نفسها ما شاء
الله تعالى من الأمور التي بها قوامها وصلاحتها ، قال السدي ، وقتادة :
من الأمور التي هي غيرها مثل ما فيها من جبال البرد ونحوها ، وأضاف
الله تعالى الأمر إليها من حيث هو فيها .

ثم أخبر الله تعالى أن الكواكب زين بها السماء الدنيا ، وذلك
ظاهر اللفظ بحسب ما يقتضيه حس البصر ، وقوله تعالى : [وَحِفْظًا]
منصوب بإضمار فعل ، أي : وحفظناها حفظاً . وقوله تعالى : [ذَلِكَ]
إشارة إلى جميع ما ذكر ، أي : أوجده بقدرته وعزته وأحكمه بعلمه .

قوله عز وجل :

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَنُوحٍ ۚ إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ
شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ۚ ۝١٤ قَالُوا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي
الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي
خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِعَايُنِنَا يُجْحَدُونَ ۚ ۝١٥﴾

= وسمع بأن تبعاً عملهما فقال : عملهما تبع ، والحقيقة أنه أمر بعملهما « . والسوابغ : الطويلة
التي تكسو الجسم من أعلاه إلى أسفله . والمعنى : إن على كل من البطلين درع سابعة مسرودة
فرغ من عملها داود عليه السلام ، أو صنعها تبع اليماني المشهور بهذه الصناعة .

المعنى : فإن أعرضت قريش والعرب الذين دعوتهم إلى الله تعالى عن هذه الآيات البينات فأعلمهم أنك تحذرهم أن يصيبهم مثل العذاب الذي أصاب الأمم التي كذبت كما تكذب هي الآن ، وقرأ جمهور الناس : ﴿صَاعِقَةٌ مِثْلَ صَاعِقَةٍ﴾ ، وقرأ النخعي ، وأبو عبد الرحمن : وابن محيصن : ﴿صَعَقَةٌ مِثْلَ صَعَقَةٍ﴾ ، فأما هذه القراءة الأخيرة ففيها المعنى بين ؛ لأن الصعقة : الهلاك للإنسان ، وأما الأولى فالمعروف في الصاعقة أنها الوقعة الشديدة من صوت الرعد ، وهي تكون معها في الأحيان قطعة نار ، فشبهت هنا وقعة العذاب بها لأن عاداً لم تُعَذَّبْ إِلَّا بِرِيحٍ ، وإنما هذا تشبيه واستعارة ، وبالوقعة فسر هنا الصاعقة قتادة وغيره . وخصَّ تعالى عاداً وثموداً بالذكر لوقوف قريش على بلادها في اليمن والحجر بطريق الشام .

وقوله تعالى : ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ ، أي : قد تقدموا في الزمن واتصلت نذارتهم إلى أعمار عادٍ وثمود . وبهذا الاتصال قامت الحجة ، وقوله تعالى : ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ ، أي : جاءهم رسولٌ بعد اكتمال أعمارهم وبعد تقدم وجودهم في الزمن ، فلذلك قال تعالى : ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ ، وجاء من مجموع العبارة إقامة الحجة عليهم في أن الرسالة والنذارة عمتهم خبراً ومباشرةً ، ولا يتوجه أن يُجعل ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ عبارة عما أتى بعدهم في الزمان ؛ لأن ذلك لا يلحقهم منه تقصير ، وأما

الطَّبري رحمه الله تعالى فقال : إن الضمير في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ عائد على الرُّسل ، والضمير في قوله تعالى : ﴿ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ﴾ على الأئمة ، وتابعه الثعلبي ، وهذا غير قوي لأنه يُفَرِّقُ الضمائر ويشعُّبُ المعنى .

و [أَنَّ] في قوله تعالى : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ نصب على إسقاط الخافض ، التقدير : «بأن» ، و [تَعْبُدُوا] مجزوم على النهي ، ويتوجه أن يكون منصوباً على أن تكون [لا] نافية ، وفيه بُعد ، وكان من مقالات تلك الأئمة إنكار بعثة البشر واستدعاء الملائكة ، وهذه أيضاً كانت من مقالات قريش ، وقولهم : ﴿ فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ ليس على جهة الإقرار بأنهم أرسلوا بشيء ، وإنما معناه : على زعمكم ودعواكم .

ثم وصف تعالى حالة القوم ، وأن عاداً طلبوا التكبر ووضعوا أنفسهم فيه بغير حق بل بالكفر والمعاصي ، وغرَّتهم قوتهم وعِظَم أبدانهم والنعم عليهم ، فقالوا - على جهة التقرير - : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ ؟ أي : لا أحد أشد منَّا قُوَّةً ، فعرض الله تعالى بقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ ، وهذا بين في العقل ، فإنَّ الموجدَ للشيء المخترع له المذهب متى شاء أقوى منه ، وأخبر تبارك وتعالى عنهم بجحودهم لآياته المنصوبة للنظر والمنزلة من عنده ؛ إذ لفظ الآية يعم ذلك .

قوله عز وجل :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ مَّحْسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ
الْآخِرَةِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ١٦ ﴾
وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةٌ
الْعَذَابِ أَهْلُونَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ١٧ ﴾ وَتَجَنَّبَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا
يَتَّقُونَ ١٨ ﴾

رُوي في الحديث أن الله تعالى أمر خزنة الريح ففتحوها على عادٍ
منها قدر حلقمة الخاتم ، ولو فتحوا قدر منخر الشور لهلكت
الدنيا ، ورُوي أن الريح كانت ترفع العير بأوقارها (١) فتطيرها
حتى تطرحها بالبحر ، وقال جابر بن عبد الله ، والتمي (٢) : حبس
عنهم المطر ثلاثة أعوام ، وإذا أراد الله بقوم شراً حبس

(١) العير : ما جلب عليه الطعام من قوافل الإبل والبغال والحمير ، والأوقار : الأحمال
الثقيلة ، جمع وقْر وهو الحمل الثقيل .

(٢) في الأصول : « جابر بن عبد الله التيمي » ، وهو خطأ ، والصواب أنهما شخصان ،
أما الأول فهو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري السلمي ، صحابي ابن صحابي ،
غزا تسع عشرة غزوة ، ومات بالمدينة بعد السبعين ، وكانت سنه عند وفاته أربعاً وتسعين سنة ،
وأما الثاني فهو عثمان بن عمر بن موسى التيمي ، قاض من أهل المدينة ، ولي قضاءها زمن مروان
ابن محمد ، ثم ولي القضاء للمنصور العباسي . (راجع تهذيب التهذيب ، وتقريب التهذيب) .

عنهم المطر ، وأرسل عليهم الريح . واختلف الناس في الصَّرَصِر - فقال قتادة ، والسدي ، والضحاك : هو مأخوذ من الصَّرُّ وهو البرد ، والمعنى : ريحاً باردة لها صوت ، وقال مجاهد : صَرَصِر : شديدة السموم عليهم ، وقال الطبري وجماعة من المفسرين : هو من صَرَصَرَ (١) إذا صَوَّت صوتاً يشبه الصداد والراء ، وكذلك يجيء صوت الريح في كثير من الأوقات بحسب ما تلقى .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، والأعرج ، والحسن ، والنخعي ، وعيسى : [نَحَسَاتٍ] بسكون الحاء ، وهي جمع نَحَسٍ ، يقال : يومٌ نَحَسٌ وقومٌ نَحَسٌ ، فهو مصدر يوصف به أحياناً ويضاف إليه «اليوم» أحياناً ، وعلى الصفة به جمع في هذه الآية ، واحتج أبو عمرو لهذه القراءة بقوله تعالى : ﴿ فِي يَوْمٍ نَحَسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴾ (٢) ، وقال النخعي : نَحَسَاتٍ وليست بِنَحَسَاتٍ بكسر الحاء ، وقرأ الباقون ، وأبو جعفر ، وشيبة ، وأبو رجاء ، وقتادة ، والجحدري ، والأعمش : [نَحَسَاتٍ] بكسر الحاء ، وهي جمع نَحَسٍ على وزن حَذِرَ ، فهو صفة اليوم مأخوذ من النَّحَس ، وقال الطبري : نَحَسٌ ونَحَسٌ لغتان .

(١) في الأصول : « من صَرَّ يَصُرُّ » ، والتصويب عن الطبري والبحر المحيط .

(٢) من الآية (١٩) من سورة (القمر) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وليس كذلك ، بل اللغة الواحدة تجمعهما ، أحدهما مصدر
والآخر من أمثلة اسم الفاعل ، وأنشد الفراء :

أَبْلَغُ جُذَامًا وَلَخْمًا أَنَّ إِخْوَتَهُمْ طِيًّا وَبَهْرَاءَ قَوْمٍ نَصْرُهُمْ نَحْسٌ (١)

وقالت فرقة : إن «نَحْسَاتٍ» بالسكون مخففة من «نَحِسَاتٍ»
بالكسر ، والمعنى في هذه اللفظة : مشائيم ، من النَّحْسِ المعروف ،
قاله مجاهد ، وقتادة ، والسدي . وقال الضحاك : معناه : شديدة ،
أي شديدة البرد حتى كان البرد عذاباً لهم ، قال أبو علي : وأنشد
الأصمعي في النَّحْسِ بمعنى البرد :

كَأَنَّ سُلَافَةً عُرِضَتْ لِنَحْسٍ يُحِيلُ شَفِيفُهَا الْمَاءَ الزُّلَالَا (٢)

(١) استشهد الفراء بهذا البيت في (معاني القرآن) على كسر الحاء في (نَحْسٍ) ، قال :
العوام على تثقيلها بكسر الحاء . وقد خفف بعض أهل المدينة (نَحْسَاتٍ) ، وقد سمعتُ
بعض العرب يُنشد : (أبلغ جذاماً ... البيت) ، وهذا لمن ثقل ، ومن خفف بناه على قوله :
(في يومٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ) ، « . والبيت في البحر والطبري واللسان ، وجذامٌ ولحمٌ »
وطيٌّ وبهراء قبائل معروفة .

(٢) البيت لابن أحمر ، وهو : عمرو بن أحمر بن قرأص ، وقيل : ابن العَمَرْد بن
قرأص ، وهو في اللسان (نَحْسٍ) ، قال : «النَّحْسُ : شدة البرد ، حكاه الفارسي وأنشد
لابن أحمر : (كأن مداماً عُرِضَتْ ... البيت) ، « . والسُّلَافَةُ : أفضل الخمر وأخلصها ،
والنَّحْسُ : الريح الباردة ، وهو موضع الشاهد هنا ، وعُرِضَتْ : وضعت في مهب هذه =

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : [نَحِسَاتٍ] معناه : متتابعات . وكانت آخر شوال من الأربعاء إلى الأربعاء .

و «عَذَابُ الْخِزْيِ فِي الدُّنْيَا» : الهلاك بسبب الكفر ومخالفة أمر الله تعالى ، ولا خِزْيَ أعظم من هذا إلا ما في الآخرة من الخلود في النار .

وقرأ جمهور الناس : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ﴾ بغير صرف ، وهذا على إرادة القبيلة ، وقرأ يحيى بن وثاب ، والأعمش ، وبكر بن حبيب : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ﴾ بالتنوين والإجراء ، وهذا على إرادة الحي ، وبالصرف كان الأعمش ، ويحيى بن وثاب يقرآن في جميع القرآن إلا في قوله تعالى : ﴿وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ﴾ (١) لأنه في المصحف بغير ألف . وقرأ ابن أبي إسحق ، والأعرج - بخلاف - والأعمش ، وعاصم : [ثَمُودَ] بالنصب ، وهذا على إضمار فعل يدل عليه قوله تعالى :

= الريح ، والشَّيْفُ : البرْدُ ، ومعنى يُحِيلُ : يصبُّ ، هكذا فسّر الأصمعي كما حكاه صاحب اللسان ، والمعنى عند الأصمعي : بَرَدُهَا يصبُّ الماء في الحلق ، ولولا بَرَدُهَا لم يشرب الماء . هذا وقد استشهدوا على أن الشَّيْفُ هو شدة البرد بقول الشاعر :

وَتَقْرِي الضَّيْفَ مِنْ لَحْمٍ غَرِيضٍ إِذَا مَا الْكَاتِبُ الْجَآءُ الشَّيْفُ
وبما جاء في حديث الطَّفِيلِ : (في لِيَاةِ ذَاتِ ظِلْمَةٍ وَشِفَافٍ) ، قالوا : الشَّفَافُ : جمع شَفِيفٍ ، وهو لدغ البرد .

(١) من الآية (٥٩) من سورة (الإسراء) .

[فَهَدَيْنَاهُمْ] ، وتقديره عند سيبويه : مهما يكن من شيء فهدينا
ثمود هديناهم ، والرفع عنده أوجه (١) ، ورؤي عن ابن أبي إسحق ،
والأعمش : [ثَمُوداً] منونة منصوبة ، وروى المفضل عن عاصم
الوجهين .

وقوله تعالى : [فَهَدَيْنَاهُمْ] معناه : بينا لهم ، قاله ابن عباس ،
وقتادة ، والسدي ، وابن زيد .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ليس الهدى هنا بمعنى الإرشاد ، وهذا كما هي الآن شريعة الإسلام
مبينة لليهود والنصارى المختلطين بنا ، ولكن يعرضون ويشغلون
بالضد ، فذلك استحباب العمى على الهدى (٢) . وقوله تعالى : ﴿ فَاسْتَحَبُّوا
الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ عبارة عن تكسبهم في العمى ، وإلا فهو بالاختراع
لله تعالى ، ويدلُّك على أنها إشارة إلى تكسبهم قوله تعالى : ﴿ بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ الْعَذَابِ الْهُونِ ﴾ وصف بالمصدر ، والمعنى :
الذي معه هوان وإذلال ، ثم قرن تعالى بذكرهم ذكر من آمن واتقى
ونجا به ليُبَيِّنَ الفرق .

(١) في بعض النسخ : « والرفع عنده أوجب » .

(٢) في بعض النسخ : « فلذلك يقال : استحبوا العمى على الهدى » .

قوله عز وجل :

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا
جَاءَ وَهَاشِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾
وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ
خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ ۖ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ
سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا
تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

[يَوْمَ] نصب بإضمار فعل تقديره : واذكر يوم . وقرأ نافع وحده ، والأعرج ، وأهل المدينة : [نَحْشَرُ] بالنون [أَعْدَاءُ] بالنصب ، إِلَّا أَنَّ الْأَعْرَجَ كَسَرَ الشَّيْنِ . وقرأ الباقر : [يُحْشَرُ] بالياء المرفوعة [أَعْدَاءُ] رفعا ، وهي قراءة الأعمش ، والحسن ، وأبي رجاء ، وأبي جعفر ، وقتادة ، وعيسى ، وطائفة : ونافع - فيما روي عنه - ، وحجتهم [يُوزَعُونَ] . و (أَعْدَاءُ اللَّهِ) هم الكفار المخالفون لأمره ، و [يُوزَعُونَ] قال قتادة وأهل اللغة : يُكْفُّ أَوْلَهُمْ حبساً على آخرهم (١) ،

(١) يعني : يُحْجَزُ أَوْلَهُمْ حتى يجتمع عليهم آخرهم ، ثم يُوزَعُونَ بعد ذلك على أنواع النار .

وفي حديث أبي قحافة يومَ الفتح : (ذلك الوازع) (١) ، وقال الحسن البصري : لا بُدَّ للقاضي من وَزَعَةٍ ، وقال أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه : إني لا أقيد من وَزَعِهِ اللهُ تعالى .

و [حتّى] غاية لهذا الحشر المذكور ، وهذا وصف حال من أحوالهم في بعض أوقات القيامة ، وذلك عند وصولهم إلى جهنم ، فإن الله تعالى سيقرّهم عند ذلك على أنفسهم ، ويُسألون سؤال توبيخ عن كفرهم ، فينكرون ذلك ويحسبون أن لا شاهد ، ويظنون السؤال سؤال استفهام واستخبار ، فينطق الله تعالى جوارحهم بالشهادة عليهم ، فروي عن النبي صلى الله عليه وسلم : (إنَّ أول ما ينطق من الإنسان فخذة اليسرى ، ثم تنطق الجوارح ، فيقول الكافر : تبا لك أيتها الأعضاء فعنك

(١) أخرجه أحمد في مسنده ، عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت : لما وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بذئ طوى قال أبو قحافة لابنة له من أصغر ولده : أي بُنَيَّة ، اظهري بي على أبي قبيس ، قالت : وقد كف بصره ، قالت : فأشرفتُ به عليه . فقال : يا بُنَيَّة ماذا تَرَيْنِ ؟ قالت : أرى سواداً مجتمعاً ، قال : تلك الخيل ، قالت : وأرى رجلاً يسعى بين ذلك السواد مقبلاً ومدبراً ، قال : يا بُنَيَّة ذلك الوازع ، يعني الذي يأمر الخيل ويتقدم إليها ... إلى آخر الحديث ، وهو حديث طويل . وفيه : فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ودخل المسجد أتاه أبو بكر بأبيه يعوده ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتية فيه) ؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه ، أنت إليه ، قال : فأجلسه بين يديه ثم مسح صدره ، ثم قال له : أسلم فأسلم .

كنت أدافع (١) ، وفي حديث آخر (يجيئون يوم القيامة وعلى أفواههم
القدام فيتكلم الفخذ والكف) (٢) .

ثم ذكر تعالى محاورتهم لجلودهم في قولهم : (لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا) .
أي : وعذابنا عذاب لكم ، واختلف الناس ، ما المراد بالجلود ؟ فقال
جمهور الناس : هي الجلود المعروفة ، وقال عبيد الله بن أبي جعفر :
كنى بالجلود عن الفروج وإياها أراد ، وأخبر الله تعالى أن الجلود

(١) أخرج ابن جرير عن عقبة أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (إن أول عظم
يتكلم من الإنسان يوم يحتم على الأفواه فخذُه من الرجل الشمال) . وأخرج أيضاً عن أنس
قال : (ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم حتى بدت نواجذه ، ثم قال : ألا
تسألوني مِمَّ ضحكتُ ؟ قالوا : مِمَّ ضحكتُ يا رسول الله ؟ قال : عجبت من مجادلة العبد
ربه يوم القيامة ، قال : يقول : يا رب أليس وعدتني ألا تظلمني ؟ قال : فإن لك ذلك ،
قال : فإنني لا أقبل عليَّ شاهداً إلا من نفسي ، قال : أو ليس كتفتي بي شهيداً وبالملائكة الكرام
الكاثرين ؟ قال : فيحتم على فيه ، وتتكلم أركانه بما كان يعمل ، قال : فيقول لهنَّ : بُعداً
لكُنَّ وسُحقاً ، عَنكُنَّ كنتُ أجادل) ، وفي ابن كثير أن الحافظ أبا بكر البزار أخرجه عن
أنس أيضاً ، وأن مسلم والنسائي أخرجاه عن الثوري ، وزاد السيوطي نسبته إلى ابن أبي الدنيا
في التوبة ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، وأخرج مثله
مسلم ، والترمذي ، وابن مردويه ، والبيهقي ، عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما .

(٢) أخرجه عبد الرزاق ، وأحمد ، والنسائي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم وصححه ،
والبيهقي في البعث عن معاوية بن حيدة رضي الله عنه ، ولفظه كما في الدر المنثور : قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : (تحشرون ها هنا - وأوماً بيده إلى الشام - مُشاةً ورُكبانا على وجوهكم ،
وتعرضون على الله وعلى أفواهكم القيدام ، وإن أول ما يُعربُ عن أحدكم فخذُه وكفه ،
وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ
سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ) . هذا والقيدام : ما يُشدُّ على فم الإبريق
والكوز من خرقه لتصفية الشراب الذي فيه ، أي أنهم يمتعون الكلام حتى تتكلم جوارحهم ،
فشبه ذلك بالقيدام .

ترد جوابهم بأن الله تعالى الخالق المبدئ المعيد هو الذي أنطقهم ،
وقوله تعالى : ﴿ أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ يريد : كل شيء ناطق ، مما هي
فيه عادة أو خرق عادة .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ ﴾ يحتمل أن يكون من كلام
الجلود ومحاورتها ، ويحتمل أن يكون من كلام الله عز وجل لهم ،
أو من كلام ملك بأمره ، وأما المعنى فيحتمل وجهين : أحدهما أن
يريد : وما كنتم تتصاوتون وتحجزون أنفسكم عن المعاصي والكفر
خوف أن يُشهد ، أو لأجل أن يُشهد ، ولكنكم ظننتم أن الله سبحانه
لا يعلم فانهمكتهم وجاهرتهم ، وهذا هو منحى مجاهد ، والستر ينصرف
على هذا المعنى ونحوه ، ومنه قول الشاعر :

والسُّرُّ دُونَ الْفَاحِشَاتِ وَمَا يَلْقَاكَ دُونَ الْخَيْرِ مِنْ سُرٍّ (١)
والمعنى الثاني أن يريد : وما كنتم تمتنعون وما يُمكنكم ولا يسعكم
الاختفاء عن أعضائكم والاستتار عنها بكفركم ومعاصيكم ، ولا تظنون
أنها تصل بكم إلى هذا الحد ، وهذا هو منحى السدي ، كأن المعنى :
وما كنتم تدفعون بالاختفاء والستر أن تشهد ؛ لأن الجوارح لزيمة

(١) يستشهد ابن عطية بهذا البيت على أن معنى السُّرُّ هو عدم التصون والتحرز من
المعاصي خيفة أن يُشهد أو لأجل أن يُشهد عليهم ، وفي اللسان أن السُّرُّ : الإخفاء . والستر
بالفتح مصدر سترت الشيء أستره إذا غطيته ، فاستر هو ، وتستر هو : تغطى ، والستر
بالكسر : ما ستر به . والفحشاء والفاحشة : القبيح من القول والفعل . أو كل ما يشتد قبحه
من الذنوب والمعاصي .

لكم ، وفي إلزامه إياهم الظن بأن الله لا يعلم إلزامهم الكفر والجهل بالله تعالى ، وهذا المعتقد يؤدي بصاحبه إلى تكذيب أمر الرسل ، واحتقار قدرة الله تعالى لا رباً غيره ، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه : « ولكن زعمتم أن الله » ، وحكى الطبري عن قتادة أنه عبر بـ [تَسْتَرُونَ] عن « تَظُنُّونَ » ، وذلك تفسير لم ينظر فيه إلى اللفظ ولا ارتبط فيه معه ، وذكر الطبري وغيره حديثاً عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : إِنِّي لَمُسْتَرٍ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ إِذْ دَخَلَ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ ، قَرَشِيَانِ وَثُقَفِي ، أَوْ ثُقَفِيَانِ وَقَرَشِي ، قَلِيلٌ فَقَهُ قُلُوبُهُمْ ، كَثِيرٌ شَحْمٌ بَطُونُهُمْ ، فَتَحَدَّثُوا بِحَدِيثٍ ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ : أَتَرَى اللَّهَ يَسْمَعُ مَا قُلْنَا ؟ قَالَ الْآخَرُ : إِنَّهُ يَسْمَعُ إِذَا رَفَعْنَا وَلَا يَسْمَعُ إِذَا أَخْفَيْنَا ، وَقَالَ الْآخَرُ : إِنْ كَانَ يَسْمَعُ شَيْئاً مِنْهُ فَإِنَّهُ يَسْمَعُهُ كُلَّهُ . فَجِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَخْبَرْتُهُ بِذَلِكَ ، فَنَزَلَتْ : ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ ﴾ الْآيَةَ ، فَقَرَأَ حَتَّى بَلَغَ ﴿ وَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ ، وَذَكَرَ النَّقَاشُ أَنَّ الثَّلَاثَةَ : صَفْوَانُ بْنُ أُمِيَّةَ ، وَفَرْقَدُ بْنُ ثُمَامَةَ ، وَأَبُو فَاطِمَةَ ، وَذَكَرَ الثَّعْلَبِيُّ أَنَّ الثَّقَفِيَّ عَبْدُ يَالِيلٍ ، وَالْقُرَشِيِّينَ خَتَنَاهُ : رَبِيعَةُ وَصَفْوَانُ ابْنَا أُمِيَّةَ بْنِ خَلْفٍ (١) .

(١) أخرجه سعيد بن منصور ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن ابن مسعود رضي الله عنه . وذكره الواحدي في أسباب النزول ، وقال : إن البخاري رواه عن طريق الحميدي ، وإن مسلم رواه عن أبي عمر ، وكلاهما عن سفيان : عن منصور .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويشبه أن يكون هذا بعد فتح مكة ، فالآية مدنية (١) ، ويشبه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ الآية متمثلاً بها عند إخبار عبد الله إياه ، والله تعالى أعلم .

قوله عز وجل :

﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٣﴾ * وَقَيِّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

[ذَلِكُمْ] رفع بالابتداء ، والإشارة به إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ ﴾ ، قال قتادة : الظَّنُّ ظَنَانٌ ، ظَنُّ مُنْجٍ وَظَنُّ مُهْلِكٍ (٢) .

(١) سبق أن ذكر هو وكل المفسرين أن هذه السورة مكية بإجماع . ولم يستثن أحد منها آية آية ، فتأمل ، ولعل ما ذكره بعد من تمثل الرسول صلى الله عليه وسلم بالآية هو الأشبه .
(٢) قال قتادة : الظَّنُّ هنا بمعنى العلم ، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله ، فإن قوماً أساءوا الظنَّ بربهم فأهلكهم ، فذلك =

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فالمُنْجِي هو أن يظنَّ الموحد العارف بربه تعالى أن الله تعالى يرحمه ،
والمُهْلِك ظنون الكفرة الجاهلين على اختلافها ، وفي هذا المعنى ليعحي
ابن أكثم رويًا حسنة مؤنسة ، و [ظَنُّكُمْ] خبر ابتداء (١) .
وقوله تعالى : [أَرَدَاكُمْ] يصح أن يكون خبراً بعد خبر ، وجوزَ
الكوفيون أن يكون في موضع الحال ، والبصريون لا يُجيزون وقوع
الماضي حالاً إذا اقترن بِقَدْ ، تقول : رأيت زيدا قد قام ، وقد يجوز
تقديرها عندهم وإن لم تظهر (٢) ، ومعنى [أَرَدَاكُمْ] : أهاككم ،
والرَدَى : الهلاك .

وقوله تعالى : (فَإِنْ يَصْبِرُوا) مخاطبة لمحمد صلى الله عليه وسلم ،
والمعنى : فإن يصبروا أو لا يصبروا ، واقتصر لدلالة الظاهر على ما ترك ،
و «المشوى» : موضع الإقامة . وقرأ جمهور الناس : [يَسْتَعْتِبُوا] بفتح

- قوله : (وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدَاكُمْ) ، أخرجه أحمد ،
والطبراني . وعبد بن حميد . ومسلم . وأبو داود . وابن ماجه ، وابن حبان ، وابن مردويه ،
عن جابر رضي الله عنه .

(١) قال أبو حيان في البحر المحيط تعقياً على هذا : «ولا يصح أن يكون [ظَنُّكُمْ]
الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ» خبراً ، لأن قوله تعالى : [وَذَلِكُمْ] إشارة إلى ظنهم السابق ،
فيصير التقدير : «وظَنُّكُمْ بأن ربكم لا يعلم ظَنُّكُمْ بربكم» فاستفيد من الخبر ما استفيد من
المبتدأ ، وهو لا يجوز . وصار نظير ما منعه النحاة من قولك : «سيد البخارية مالكاها» .

(٢) عَقَّبَ أبو حيان في البحر المحيط على هذا أيضاً بقوله : «وقد أجاز الأخفش من
البصريين وقوع الماضي حالاً بغير تقدير «قد» ، وهو الصحيح ، إذ كثر ذلك في لسان العرب
كثرة توجب القياس ويبعد فيها التأويل» .

الياء وكسر التاء الثانية على إسناد الفعل إليهم ، (فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ) بفتح التاء ، على : وإن يطلبوا العتبي - وهي الرضى - فما هم ممن يعطاها ويسترجبها ، وقرأ الحسن ، وعمرو بن عبيد ، وموسى الأسواري : [يُسْتَعْتَبُونَ] بضم الياء وفتح التاء الثانية ، (فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ) بكسر التاء ، على معنى : وإن طلب عندهم خير أو صلاح فما هم ممن يوجد عندهم ؛ لأنهم فارقوا الدنيا دار الأعمال ، كما قال عليه الصلاة والسلام : (ليس بعد الموت مُسْتَعْتَبٌ) (١) ، ويحتمل أن تكون هذه القراءة بمعنى : ولو رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ .

ثم وصف عز وجل حالهم في الدنيا وما أصابهم حين أعرضوا فحتم عليهم . و [قَيِّضْنَا] أي يسرنا لهم قرناء سوء من الشياطين وغواية الإنس ، وقوله سبحانه : (فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) ، أي : علموهم وقرروا في نفوسهم معتقدات سوء في الأمور التي تقدمتهم : من أمر الرسل عليهم السلام ، والنبؤات ، ومدح عبادة الأصنام ، واتِّباع فعل الآباء إلى غير ذلك مما يقال فيه : «إنه بين أيديهم» ، وذلك كل ما تقدمهم في الزمن واتصل إليهم أثره أو خبره ، وكذلك أعطوهم معتقدات سوء فيما خلفهم ، وهو كل ما يأتي بعدهم من أمر القيامة والبعث ونحو ذلك مما يقال فيه : «إنه خلف الإنسان» ،

(١) قال ابن الأثير في كتاب (النهاية في غريب الحديث والأثر) : «معناه : ليس بعد الموت من استرضاء ؛ لأن الأعمال بطلت وانقضت زمانها ، وما بعد الموت دار جزاء لا دار عمل» . ثم وجدتُ العبارة بنصها في لسان العرب بعد أن استشهد بالحديث .

فزينوا لهم في هذين كل ما يُرديهم ويفضي بهم إلى عذاب جهنم .
 وقوله تعالى : ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ أي : سبق القضاء الحتم
 وأمر الله بتعذيبهم في جملة أمم كفار مُعذِّبين من الجن والإنس ،
 وقالت فرقة : [في] بمعنى « مع » .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :
 والمعنى يتأذى بالحرفين ، ولا نحتاج إلى أن نجعل حرفاً بمعنى
 حرف إذ قد أبى ذلك رؤساء البصريين .
 وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ ﴾
 حكاية لما فعله بعض قريش كأبي جهل وغيره ، وذلك أن رسول الله
 صلى الله عليه وسلم كان يقرأ القرآن في المسجد الحرام ويُصغي إليه
 الناس من مؤمن وكافر . فخشي الكفار استمالة القلوب بذلك فقالوا :
 متى قرأ محمد فلننُغِظُ نحن بالمكاء والصفير والصياح وإنشاد الشعر
 والأرجاز حتى يخفى صوته ولا يقع الاستماع منه (١) ، وهذا الفعل
 منهم هو اللُّغُو ، وقال أبو العالية : أرادوا : قعوا فيه وعيبوه ، و « اللُّغُو »
 في اللغة : سقط القول الذي لا معنى له ، أو هو من الحاسة والتَّطَوُّل
 في حكم ما لا معنى له ، وقرأ جمهور الناس : [وَأَلْغُوا] بفتح الغين
 وجزم الواو ، وقرأ بكر بن حبيب السَّهْمِي : [وَأَلْغُوا] بضم الغين

(١) المكاء : الصفير ، يقال : مكأ مكاءً : صَفَرَ بفيه ، أو شَبَّكَ بأصابع يديه ثم أدخلهما
 في فيه ونفخ فيها . وهذا الخبر أخرجه ابن جرير عن مجاهد .

وسكون الواو ، ورويت عن عيسى ، وابن أبي إسحق - بخلاف
 عنهما - ، وهما لغتان ، يقال : لَغَا يَلْغُو ، ويقال : لَغِيَ يَلْغَى ،
 ويقال أيضاً : لَغَا يَلْغَى ، أصله يَفْعَل - بكسر العين - فردّه حرف
 الحلق إلى الفتح ، فالقراءة الأولى من يَلْغَى ، والقراءة الثانية من
 يَلْغُو ، قاله الأخفش . وقوله تعالى : ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ أي تطمسون
 أمر محمد صلى الله عليه وسلم وتميتون ذكره وتصرفون القلوب عنه ،
 فهذه الغلبة التي تمنوها .

قوله عز وجل :

﴿ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي
 كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ
 بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ
 أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلَهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ
 ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا نَنْزِلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَكُ الْأَوَّلُ نَخَافُوا
 وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴿

قوله تعالى : ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ، الفاء دخلت على لام
 القسم ، وهي آية وعيد لقريش ، و «العذاب الشديد» هو عذاب

الدنيا في بذرٍ وغيرها ، و «الجزاء بأسوأ أعمالهم» هو عذاب الآخرة .
 وقوله تعالى : [ذَلِكَ] إشارة إلى الجزاء المتقدم ، و [جَزَاءٌ] خبر
 الابتداء ، و [النَّارُ] بدل من قوله تعالى : [جَزَاءٌ] ، ويجوز أن يكون
 [ذَلِكَ] خبر ابتداءٍ تقديره : الأمر ذلك ، ويكون قوله تعالى : [جَزَاءٌ]
 ابتداءً و [النَّارُ] خبره . وقوله تعالى : ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ أي
 موضع البقاء وسكن العذاب الدائم ، فالظرفية فيه متمكنة على هذا
 التأويل ، ويحتمل أن يكون المعنى : هي لهم دار الخلد ، ففي قوله :
 [فِيهَا] معنى التحديد ، كما قال الشاعر :

..... وفي الله إن لم تنصفوا حكم عدل (١)
 وفي قراءة عبد الله بن مسعود : «ذلك جزاء أعداء الله النار دار الخلد» ،
 وسقط : ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ ، وجحودهم بآيات الله تعالى مطرد في علاماته

(١) يستشهد ابن عطية بهذا الشطر على أن «في» تعطي معنى التحديد ، وهذا للإجابة عن
 سؤال مقدر خلاصته في الآية : كيف قيل : [فيها] مع أنها هي نفسها دار الخلد ؟ والجواب
 أن الشيء قد يجعل ظرفاً لنفسه باعتبار متعلقه على سبيل المبالغة ، كأن ذلك المتعلق صار الشيء
 مستقراً له ، وهذا أبلغ من نسبة ذلك المتعلق إليه على سبيل الإخبار عنه ، فالنار نفسها قد
 صارت دار الخلد لهم ، والله سبحانه وتعالى هو الحكم العدل وتحدد ذلك فيه إذا فقد الإنصاف
 عند الذين يخاطبهم الشاعر ، ومثل هذا أيضاً قول الله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ
 أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ ، إذ قد يقال ، كيف يكون فيه أسوة حسنة مع أنه هو الأسوة الحسنة نفسها ،
 والجواب هو ما ذكرناه من أنه قد جعل هو نفسه صلى الله عليه وسلم الأسوة الحسنة وتحددت
 الأسوة الحسنة فيه . هذا والبيت بتمامه في اللسان ، أنشده ابن برّي ، وهو :
 أَفَادَتْ بَنُو مَرْوَانَ قَيْسًا دِمَاءَنَا وَفِي اللَّهِ إِنْ لَمْ يَحْكُمُوا حَكْمَ عَدْلٍ
 بلفظ (إن لم يحكموا) ، والحكم : الحاكم ، وفي المثل «في بيته يؤتى الحكم» .
 والقود : قتل النفس بالنفس ، يريد أن بني مروان أباحوا دماءهم والعدل عند الله وحده .

المنصوبة لخلقها ، وفي آيات كتابه المنزلة على نبيه صلى الله عليه وسلم .
ثم ذكر الله عز وجل مقالة كفار يوم القيامة إذ دخلوا النار ،
فإنهم يرون عظيم ما حل بهم وسوء منقلبهم ، فتجول أفكارهم فيمن
كان سبب غوايتهم وبادئ ضلالتهم ، فيعظم غيظهم وحنقهم عليه ،
ويودون أن يحصل في أشد العذاب ، فحينئذ يقولون : ﴿ رَبَّنَا أَرْنَا
الَّذِينَ أَضَلَّانَا ﴾ ، وظاهر اللفظ يقتضي أن « الذي » في قولهم : [الَّذِينَ]
إنما هو للجنس ، أي : أَرْنَا كُلَّ مُغْوٍ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، وهذا قول
جماعة من المفسرين ، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقتادة :
طلبوا ولد آدم الذي سنَّ القتل والمعصية من البشر ، وإبليس الأبالسة
من الجن .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وتأمل هذا ، هل يصح عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ؟
لأن ولد آدم مؤمن عاصٍ ، وهؤلاء إنما طلبوا المضللين بالكفر المؤدي
إلى الخلود ، وإنما القوي أنهم طلبوا النوعين ، وقد أصلح بعضهم
هذا القول بأن قال : يطلب ولد آدم كل عاصٍ دخل النار من أهل
الكبائر ، ويطلب إبليس كل كافر ، ولفظ الآية يزحم هذا التأويل ؛
لأنه يقتضي أن الكفار إنما طلبوا الَّذِينَ أَضَلَّ .

وقرأ نافع ، وحمزة ، والكسائي : [أَرْنَا] بكسر الراء ، وهي رواية عين ، ولذلك هو فعل متعدّد إلى مفعولين ، وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وأبو بكر عن عاصم : [أَرْنَا] بسكون الراء ، فقال هشام ابن عمار عن عامر : هي خطأ . وقال أبو علي : هي مخففة من [أَرْنَا] كما قالوا : ضحك وفخذ ، وقرأ أبو عمرو بإشمام الراء الكسر . ورويت عن أهل مكة . وقولهم : (نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا) يريدون : في أسفل طبقة في النار ، وهي أشدّ عذاباً . وهي دَرَكُ المنافقين (١) . وقوله تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا) الآية ... آية وَعْدٍ للمؤمنين ، قال سفيان بن عبد الله الثقفي : (قلتُ للنبي عليه الصلاة والسلام : أخبرني بأمر اعتصم به ، فقال : قل ربّي الله ثم استقم ، قلت : ما أخوف ما تخاف علي ؟ فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بلسان نفسه وقال : هذا (٢) .

(١) الدَرَكُ - بسكون الراء وفتحها - : أسفل كل شيء ذي عمق كالبرّ ونحوها ، قال تعالى : (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ) ، والجمع : أدراك .
(٢) أخرجه أحمد ، وعبد بن حميد ، والدارمي ، والبخاري في تاريخه ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن حبان ، عن سفيان الثوري ، ولفظه كما ذكره في الدر المنثور ، أن رجلاً قال : يا رسول الله ، مرني بأمر في الإسلام لا أسأل عنه أحداً بعدك ... الحديث .

واختلف الناس في مقتضى قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ - فذهب الحسن ، وقتادة ، وجماعة إلى أن معناه : استقاموا بالطاعات واجتناب المعاصي . وتلا عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الآية وهو على المنبر ثم قال : استقاموا - والله - لله تعالى بطاعته ، ولم يروغوا روغان الثعالب .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ذهب رضي الله عنه إلى حمل الناس على الأتم الأفضل ، وإلا فيلزم - على هذا التأويل - من دليل خطابه ألا تنزل الملائكة عند الموت على غير مستقيم على الطاعة . وذهب أبو بكر الصديق رضي الله عنه وجماعة معه إلى أن المعنى : ثم استقاموا على قولهم : «ربنا الله» ، فلم يختل توحيدهم ولا اضطرب إيمانهم ، وروى أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية وقال : (قد قالها الناس ثم كفر أكثرهم ، فمن مات عليها فهو ممن استقام) (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

المعنى : هو في أول درجات الاستقامة ، أمن الخلود ، فهذا كقوله عليه الصلاة والسلام : (من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة) (٢) ،

(١) أخرجه الترمذي ، والنسائي ، والبخاري ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن عدي ، وابن مردويه ، ذكر ذلك الإمام السيوطي في الدر المنثور .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، وأبو داود ، والحاكم في مستدركه ، عن معاذ رضي الله تعالى عنه ، ورمز له بالصححة الإمام السيوطي في الجامع الصغير .

وهذا هو المعتقد إن شاء الله تعالى ، وذلك أن العصاة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم وغيرها فرقتان : فأما من قضى الله تعالى بالمغفرة له وترك تعذيبه فلا محالة أنه ممن تنزل عليه الملائكة بالبشارة ، وهو إنما استقام على توحيده فقط ، وأما من قضى الله تعالى بتعذيبه مدة ثم بإدخاله الجنة فلا محالة أنه يلقي جميع ذلك عند موته ويعلمه ، وليس يصح أن تكون حاله كحالة الكافر اليائس من رحمة الله تعالى ، وإذا كان هذا فقد حصلت له البشارة بالألّا يخاف الخلود ولا يحزن منه ، وبأنه يصير آخرّاً إلى الخلود في الجنة ، وهل العصاة المؤمنون إلا تحت الوعد بالجنة ؟ فهم داخلون فيمن يقال لهم : ﴿ أَبَشِّرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ ، ومع هذا كله فلا يُختلف في أن الموحد المستقيم على الطاعة أتمّ حالاً وأكمل بشاراً ، وهو مقصد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، وعلى نحو ذلك قال سفيان الثوري : [أَسْتَقَامُوا] : عملوا بنحو ما قالوا ، وقال الربيع : أَعْرَضُوا عما سوى الله تعالى ، وقال الفضل : زهدوا في الفانية ورغبوا في الباقية ، وبالجمله فكلما كان المرء أشد استعداداً كان أسرع فوزاً بفضل الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ أمانة عامة في كل همٍّ مستأنف ، وتسليّة تامة عن كل فائت ماض ، وقد قال مجاهد :

المعنى : لا تخافوا ما تقدمون عليه ، ولا تحزنوا على ما خلفتم من دنياكم ،
وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه : « تنزل عليهم الملائكة لا تخافوا »
بإسقاط الألف (١) ، بمعنى : يقولون لا تخافوا .

قوله عز وجل :

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى
أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ۚ ﴿٣١﴾ تَزْلَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ۚ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ
قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۚ ﴿٣٣﴾ وَلَا
تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ
وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۚ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا
إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ ۚ ﴿٣٥﴾ ﴾

المتكلم بـ ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ ﴾ هم الملائكة القائلون : « لا تخافوا
ولا تحزنوا » ، أي : يقولون للمؤمنين عند الموت وعند مشاهدة الحق :
نحن كنا أولياءكم في الدنيا ونحن هم في الآخرة ، قال السدي :
المعنى : نحن حفظتكم في الدنيا وأولياؤكم في الآخرة . والضمير

(١) في بعض النسخ : « بإسقاط أن » .

في قولهم : [فِيهَا] عائد على الآخرة ، و [تَدْعُونَ] معناه : تطلبون .
و [نُزُلًا] نصب على المصدر (١) ، وقراءة الجمهور بضم الزاي ،
وقرأ أبو حيوة (٢) بإسكانها .

وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾ الآية ابتداء توصية لمحمد
صلى الله عليه وسلم ، وهو لفظ يعم كل من دعا قديماً وحديثاً إلى الله
تبارك وتعالى وإلى طاعته من الأنبياء عليهم السلام ومن المؤمنين ،
والمعنى : لا أحد أحسن ممن هذه حاله ، وإلى العموم ذهب الحسن ،
ومقاتل ، وجماعة ، وبين أن حالة محمد صلى الله عليه وسلم كانت
كذلك مبرزة ، وإلى تخصيصه في الآية ذهب السدي ، وابن زيد ،
وابن سيرين ، وقال قيس بن أبي حازم ، وعائشة أم المؤمنين رضي
الله عنها ، وعكرمة : نزلت هذه الآية في المؤذنين ، قال قيس : ﴿وَعَمِلَ
صَالِحًا﴾ هو الصلاة بين الأذان والإقامة ، وذكر النقاش ذلك عن
ابن عباس رضي الله عنهما .

(١) فالتقدير : أنزلناه نُزُلًا ، وقيل : هو منصوب على الحال ؛ لأن «النُّزْل» هو الرزق
المقدم للنزيل وهو الضيف ، فيكون المعنى : تعطون ذلك في حال كونه نُزُولا . وقيل : هو
جمع نازل ، فهو كشارف وشرُف ، فينتصب أيضاً على الحال . أي : نازلين ، ويكون صاحب
الحال هو الضمير المرفوع في [تَدْعُونَ] .

(٢) في بعض النسخ : «أبو جعفر» واختارنا ما يتفق مع ما في البحر المحيط .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ومعنى القول بأنها في المؤذنين أنهم داخلون فيها ، وأما نزولها
فمكيّة بلا خلاف ، ولم يكن بمكة أذان ، وإنما ترتّب بالمدينة ، وإن
الأذان لمن الدعاء إلى الله تعالى ، ولكنه جزء منه ، والدعاء إلى الله تعالى
بقوة كجهاد الكفار وردع الطغاة وكف الظّلمة وغيره أعظم عناء
من تولّي الأذان ؛ إذ لا مشقّة فيه ، والأصوب أن يعتقد أن الآية نزلت
عامّة ، قال زيد بن علي : المعنى : ممن دعا إلى الله تعالى بالسيف .
وقرأ الجمهور : ﴿ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ بنونين ، وقرأ ابن أبي عبلة :
﴿ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ بنون واحدة ، وقال الفضيل بن ربيعة (١) :
كنت مؤذناً في أصحاب ابن مسعود ، فقال لي عاصم بن هبيرة :
إذا أكملت الأذان فقل : إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، ثم تلا هذه الآية .

ثم وعظ الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام ، ونبهه على أحسن
مخاطبة ، فقرّر أن الحسنه والسيئة لا تستوي ، أي : فالحسنة أفضل ،
وكرّر [لَا] في قوله تعالى : ﴿ وَلَا السَّيِّئَةُ ﴾ تأكيداً ليدل على أن المراد :
«ولا تستوي الحسنه والسيئة ولا السيئة والحسنة» فحذف اختصاراً
ودلت [لَا] على هذا الحذف . وقوله تعالى : ﴿ أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾
آية جمعت مكارم الأخلاق وأنواع الحلم ، والمعنى : ادفع أمورك
وما يعرض لك مع الناس ومخالطتك لهم بالفعلة أو بالسيرة التي هي

(١) في القرطبي : «فضيل بن ربيعة» .

أحسن الفعلات والسير ، فمن ذلك بذل السلام ، وحسن الأدب ، وكظم الغيظ ، والسماحة في القضاء والاقتضاء ، وغير ذلك . قال ابن عباس رضي الله عنهما : إذا فعل المؤمن هذه الفضائل عصمه الله تعالى من الشيطان ، وخضع له عدوه ، وفسر مجاهد وعطاء هذه الآية بالسلام عند اللقاء .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولا شك أن السلام هو مبدأ الدفع بالتي هي أحسن ، وهو جزء منه . ثم قال تعالى : ﴿ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ ، فدخل كاف التشبيه لأن الذي عنده عداوة لا يعود ولياً حميماً ، وإنما يحسن ظاهره فيشبه بذلك الولي الحميم ، و «الحميم» هو القريب الذي يحتم للإنسان (١) ، والضمير في قوله تعالى : [يُلَقَّاهَا] عائد على هذه الخلق التي يتضمنها قوله تعالى : ﴿ أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ، وقالت فرقة : المراد : وما يلقى لا إله إلا الله ، وهذا تفسير لا يقتضيه اللفظ . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ مدح بليغ للصبر ، وذلك بين للمتأمل : لأن الصبر على الطاعات وعن الشهوات جامع لخصال الخير كلها . و «الحظ العظيم» يحتمل أن يريد : من العقل والفضل ، فتكون الآية مدحاً ، وروي أن

(١) يحتمل للإنسان : بهتم له . جاء في اللسان : واحتتم له : اهتم ، الأزهرى : أحتمى هذا الأمر واحتتمت له كأنه اهتمام بحميم قريب . وأنشد :
تَعَزَّ عَلَى الصَّبَابَةِ لَا تُسْلَمُ كَأَنَّكَ لَا يَلِيمُ بِكَ احْتِمَامُ

رجلاً شتم أباً بكر الصديق رضي الله عنه بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم ، فسكت أبو بكر ساعة ، ثم جاش به الغضب فردّ على الرجل ، فقام النبي صلى الله عليه وسلم ، فاتّبعه أبو بكر وقال : يا رسول الله قمت حين انتصرت ؟ فقال : إنه كان يردّ عنك ملك ، فلما قرّبت تنتصر ذهب الملك وجاء الشيطان ، فما كنت لأجالسه (١) ، ويحتمل أن يريد : ذو حظ من الجنة وثواب الآخرة ، فتكون الآية وعداً ، وبالجنة فسر قتادة «الحظّ» هنا .

قوله عز وجل :

﴿ وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ وَمِنَ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۚ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ۝ وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ ۚ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ ﴾

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤٣٦-٢ ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وفي آخره زيادة على ما هنا (ثم قال : يا أبا بكر ثلاث كلهن حق : ما من عبد ظلم بمظلمة فيغضي عنها لله عز وجل إلا أعز الله بها نصره ، وما فتح رجل باب عطية يريد بها صلة إلا زاده الله بها كثرة . وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله عز وجل بها قلة) .

[إِذَا] شرط ، وجواب الشرط قوله تعالى : [فَاسْتَعِذْ] ، و «النَّزْعُ» :
 فعل الشيطان في قلب أو يد ، من إلقاء غضب أو حقد أو بطش
 في اليد ، فمن الغضب هذه الآية ، ومن الحقد قوله تعالى : ﴿نَزَعَ
 الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ (١) ، ومن البطش قول النبي صلى الله
 عليه وسلم : (لا يُشْر أحدكم على أخيه بالسلاح لا ينزع الشيطان
 في يده فيلقيه في حفرة من حُفر النار) (٢) ، وندب الله تعالى في هذه
 الآية المتقدمة إلى مكارم الأخلاق بالدفع بالتي هي أحسن ، ثم أثنى
 تعالى على من لُقِّيها (٣) ووَعَدَهُ ، وعَلِمَ أَنَّ خَلْقَةَ الْبَشَرِ تَغْلِبُ أَحْيَانًا
 وتشور بهم ثورة الغضب ونزع الشيطان ، فدلَّهم على مُذْهِبِ ذَلِكَ
 وهي الاستعاذة به عز وجل .

ثم عدد الله تعالى آياته ليعتبر فيها من صدف عن التوحيد ،
 فذكر الليل والنهار ، وذكرهما يتضمن ما فيهما من الطول والقصر
 والتداخل والاستواء في مواضع وسائر عبرهما ، وكذلك ذكر الشمس

(١) من الآية (١٠٠) من سورة (يوسف) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الفتن ، ومسلم في البير ، وأحمد في مسنده ٢-٣١٧ ،
 عن أبي هريرة رضي الله عنه . ولنظمه كما في البخاري ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
 (لا يُشْر أحدكم على أخيه بالسلاح ، فإنه لا يدري لعلَّ الشيطان ينزع في يده فيقع في حفرة
 من النار) . فالفعل فيه «ينزع» بالعين المهملة ، وكذلك هو في مسند أحمد ، وفي صحيح
 مسلم . وعلى هذا فلا شاهد فيه .

(٣) لُقِّيَ الشَّيْءُ : عَلِمَهُ وَنُبِّهَ عَلَيْهِ ، وَتَلَقَّاهُ : تَعَلَّمَهُ وَفَهَمَهُ .

والقمر مُتَضَمِّنٌ عجائبهما وحكمة الله تعالى فيهما ونفعه عباده بهما .
ثم قال تعالى : لا تسجدوا لهذه المخلوقات وإن كانت تنفعكم ؛ لأن
النفع بها إنما هو بتسخير الله تعالى إياها فهو الذي ينبغي أن يُسجد له ،
والضمير في [خَلَقَهُنَّ] قالت فرقة : هو عائد على الآيات المتقدم ذكرها .
وقالت فرقة : الضمير عائد على الشمس والقمر ، والاثنان جمع ،
وجمع ما لا يعقل يؤنث . فلذلك قال : [خَلَقَهُنَّ] .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ومن حيث يقال : شمسٌ وأقمارٌ لاختلافهما بالأيام ساغ أن يعود
الضمير مجموعاً . وقالت فرقة : هو عائد على الأربعة المذكورة ،
وشأن ضمير ما لا يعقل إذا كان العدد أقل من العشرة أن يجيء هكذا .
فإذا زاد أفرد مؤنثاً . فتقول : الأجذاع انكسرن والجذوع انكسرت .
ومنه (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ) (١) الآية ، ومنه قول حسان بن ثابت :
وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمًا (٢)

(١) من الآية (٣٦) من سورة (التوبة) .

(٢) البيت من قصيدته التي يفخر فيها . والتي بدأها بقوله : (أَلَمْ تَسْأَلِ الرَّبَّعَ الْجَدِيدَ
التَّكَلُّمًا) ؟ والمذكور هنا شطره الثاني ، والبيت بتمامه :

لَنَّا الْجَفَنَاتُ الْغُرُ يُكْمَعْنَ بِالضُّحَى وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمًا
وهو بيت مشهور تكلم عنه كثير من النقاد قديماً وحديثاً ، وأُخِلُّوا عليه الكثير ، والجفَنَاتُ :
جمع جفنة وهي القصعة التي يوضع فيها الطعام ، ويقطرون : يسيل منهن الدم . والشاهد أن
(أسياف) جمع قلعة ، ولهذا أعاد الضمير عليها جمعاً مؤنثاً فقال : « يقطرن » ، والنجدة :
سرعة الإغاثة والشجاعة في القتال . يفخر بأنهم أهل كرم وشجاعة على عادة العرب في ذلك .

وقال السموأل :

وَلَا عَيْبَ فِينَا غَيْرَ أَنَّ سِيُوفَنَا
بِهَا مِنْ قِرَاعِ الدَّارِعِينَ فُلُولٌ (١)

(١) اضطرب النسخ في كتابة هذا البيت في الأصول ، ولعلَّ السبب هو وجود تشابه كبير بينه وبين بيت آخر مشهور للناطقة الذبياني ، أما بيت السموأل فهو :

وَأَسْيَافُنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ كَرِيهَةٌ
بِهَا مِنْ قِرَاعِ الدَّارِعِينَ فُلُولٌ

ويوم الكريهة هو يوم القتال ، والقِرَاع : المضاربة بالسيوف ، والدارعون : لابسو الدروع في الحرب ، والفُلُول : جمع قُلٍّ ، والقُلُّ : الثَّلَم في السيف ، وهو من قصيدة مشهورة قال عنها النقاد : إنها من أجمع قصائد الفخر التي جمعت ضروب الممدوح ، ولهذا فهي من أجود ما قيل في الفخر . وقد بدأها السموأل بن عادية بقوله :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنْ الدُّوْمِ عِرْضُهُ
فَكُلُّ رِداءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيْلٌ

والشاهد في البيت أن (سيوف) جمع كثرة ولهذا عاد الضمير عليها مفرداً مؤنثاً - وهذا على الرواية التي ذكرها ابن عطية والتي أثبتناها في موضعها من تفسيره مع أنها رواية غير صحيحة ، والرواية الصحيحة التي ذكرناها في هذا الطامش ليس فيها شاهد ، بل هي على عكس ما ذكر ابن عطية حيث عاد الضمير مفرداً مؤنثاً على جمع القِائَة وهو (أسياف) - فتأمل الفرق بين الروایتين .

وأما بيت الناطقة الذبياني فهو :

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سِيُوفَهُمْ
بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

وهو من قصيدته المعروفة التي مدح بها عمرو بن الحارث الأصغر ، والتي قال في مطلعها :

كَلَيْبَنِي لِيَهْمٌ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبٍ
وَلَيْلٍ أَقَاسِيَهُ بِطَيِّءِ الْكُؤَاكِبِ

وهو متداول في كتب النحو وكتب البلاغة ، أما علماء النحو فأولهم سيبويه الذي جعل الاستثناء فيه منقطعاً ولهذا نصبت (غير) لكنه جعل كالم متصل ، وذلك لصحة دخول البدل في المبدل منه ، وأما كتب البلاغة فقد أورده العلماء شاهداً في البديع على تأكيد المدح بما يشبه الذم ، فإن الشاعر نفى العيب عن الممدوحين على جهة الاستغراق ، ثم أثبت لهم عيباً هو تشكُّم سيوفهم من كثرة المضاربة بها في الحروب . وهذا في الحقيقة ليس بعيب ، بل هو غاية المدح ، وعلى هذا فالشاعر أكد المدح بما يشبه الذم ، وهذا البيت في الديوان ، والكتاب ، والهمع ، والكامل ، وشرح شواهد المغني ، ومعاهد التنصيص .

وهذا مهيج كثير وإن كان قد يوجد الأمر متداخلاً بعبضه على بعض .

ثم خاطب الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بما يتضمن وعيدهم وحقارة أمرهم ، وأن الله تعالى غير محتاج إلى عبادتهم بقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا ﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ يعني بهم الملائكة وهم صافقون يسبحون ، و [عِنْدَ] في هذه الآية ليست بظرف مكان ، وإنما هي بمعنى المنزلة والقربة ، كما تقول : زيد عند الملك جليل ، وفي نفسه رفيع ، ويروى أن تسبيح الملائكة قد صار لهم كالنفس لابن آدم ، و [يَسْأُمُونَ] معناه : يملئون .

ثم ذكر تعالى آية منصوبة ليُعتبر بها في أمر البعث من القبور ، ويستدل بما شوهد من هذه الآية على ما لم يشاهد بعد من تلك ، وهي آية يراها عياناً كل مفطور على عقل . و «خشوع الأرض» هو ما يظهر عليها من استكانة وشعث بالجذب وصيْلَم السَّمُوم (١) ، فهي عابسة كما الخاشع عابس يكاد يبكي ، و «الماء المنزل» هو المطر ، و «اهتزاز الأرض» هو تخلخل أجزائها بالماء وتشققها للنبات ، و «ربوها» هو انتفاخها بالماء وعلو سطحها به . وقرأ الجمهور : [رَبَتْ] ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع : [وَرَبَّات] بألف مهموزة ، ورواها الرواسي عن أبي عمرو ، وهو أيضاً بمعنى : عَلَتْ وارتفعت ، ومنه الربیئة وهو

(١) الصَّيْلَم : الأمر المستأصل ، والسَّمُوم : الريح الحارة والحر الشديد الذي ينفذ في المسام ، يريد أن ریح السَّمُوم تستأصل كل ما على وجه الأرض من زرع وخضرة .

الذي يرتفع حين يرصد للقوم ، ثم ذكر تعالى بالأمر الذي ينبغي أن يقاس على هذه الآية والعبرة ، وذلك إحياء الموتى ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ عموم . و « الشئ » في اللغة : الموجود .

قوله عز وجل :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾
 ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالَّذِ كَرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾

هذه آية وعيد ، و « الإلحاد » : الميل ، وهو هنا عن الحق ، ومن « الإلحاد » لحد الميت لأنه في جانب ، يقال : لحد الرجل وألحد بمعنى ، وقرأ الجمهور : [يُلْحِدُونَ] بضم الياء من ألحد ، وقرأ ابن وثاب ، وطلحة ، والأعمش : [يَلْحَدُونَ] بفتح الياء والحاء من لحد . واختلف المفسرون في الإلحاد الذي أشير إليه ، ما هو ؟ فقال قتادة وغيره : الإلحاد بالتكذيب ، وقال مجاهد وغيره : الإلحاد بالمكاء والصفير واللغو الذي ذهبوا إليه . وقال ابن عباس رضي الله عنهما :

الإحادهم هو أن يوضع الكلام غير موضعه ، ولفظة الإلحاد تعم هذا كله .
 وقوله تعالى : ﴿ لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾ أي : فنحن بالمرصاد لهم
 وسنُعذبهم ، ثم قررهم تعالى على هذين القسمين أيهما خير ؟ وهذا
 التقرير هم المراد به ، أي : فقل لهم يا محمد : [أَفَمَنْ] ، قال مقاتل :
 نزلت هذه الآية في أبي جهل ، وفي عثمان بن عفان رضي الله عنه ،
 وقيل : في عمار بن ياسر رضي الله عنه ، وحسن التفضيل هنا بين
 الإلقاء في النار والأمن يوم القيامة - وإن كانا لا يشتركان في صفة
 الخير - من حيث كان الكلام تقريراً لا مجرد خبر ، لأن المقرر
 قد يُقرر خصمه على قسمين أحدهما بين الفساد حتى يرى جوابه ،
 فعساه يقع في الفاسد المعنى فيبين جهله ، وقد تقدم نظير هذه الآية
 واستيعاب القول في هذا المعنى ، ولا يتجه هنا أن يقال : خاطب
 على معتقدهم كما يتجه ذلك في قوله تعالى : ﴿ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا ﴾ فتأمل (١) .
 وقوله تعالى : ﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾ وعيد في صيغة الأمر بإجماع من
 أهل العلم ، ودليل الوعيد ومبينه قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .
 ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ ، يريد
 تعالى قريشاً ، و « الذِّكْرُ » : القرآن بإجماع ، واختلف الناس في
 الخبر عنهم ، أين هو ؟ فقالت فرقة : هو في قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ

(١) من قوله تعالى في الآية (٢٤) من سورة (الفرقان) : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ .

يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (١) ، ذكر النقاش أن بلال بن أبي بُردة (٢) سأل
عن هذا في مجلسه وقال : لم أجد لها نفاذاً ، فقال أبو عمرو بن العلاء (٣) :
إنه منك لقريب ، (أُولَئِكَ يُنَادُونَ) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويردُّ هذا النظر كثرة الحائل ، وأن هناك قوماً قد ذكروا يَحْسُنُ
ردُّ قوله تعالى : (أُولَئِكَ يُنَادُونَ) عليهم . وقالت فرقة : الخبر مضمّر
تقديره : إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم هاكوا أو ضلُّوا . وقال
بعض نحاة الكوفة : الجواب في قوله تعالى : (وإنه لكتابٌ عزيزٌ) ،
حكى ذلك الطبري ، وهو ضعيف لا يتَّجه . وسأل عيسى بن عمر
عمرو بن عبيد عن هذا فقال عمرو : معناه في التفسير : إن الذين كفروا
بالذكر لما جاءهم كفروا به وإنه لكتابٌ عزيزٌ ، فقال عيسى بن عمر :
أَجَدْتَ يَا أبا عثمان .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والذي يَحْسُنُ في هذا هو إضمار الخبر ، ولكنه عند قوم في غير
هذا الموضع الذي قدره هؤلاء فيه ، وإنما هو بعد (حَكِيمٍ حَمِيدٍ) ،

(١) ستأتي في الآية (٤٤) .

(٢) هو بلال بن أبي بُردة بن أبي موسى الأشعري ، قاضي البصرة ، مقل ، قال عنه
الحافظ ابن حجر العسقلاني في تقريب التهذيب : « من الخامسة ، مات سنة نيف وعشرين » .

(٣) أبو عمرو بن العلاء بن عمار بن العُريان المازني النحوي ، اسمه زيّان ، أو يحيى ،
أو العريان ، أو جزء ، قال عنه الحافظ ابن حجر العسقلاني في تقريب التهذيب : ثقة ، من
علماء العربية ، من الخامسة ، مات سنة أربع وخمسين وهو ابن ست وثمانين سنة .

وهو أَشَدُّ إِظْهَاراً لِمَذَمَّةِ الْكُفَّارِ بِهِ ؛ وذلك لِأَن قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ﴾ دَاخِلٌ فِي صِفَةِ الذِّكْرِ الْمَكْذُوبِ بِهِ فَلَمْ يَتِمَّ ذِكْرُ الْمَخْبِرِ عَنْهُ إِلَّا بَعْدَ اسْتِيفَاءِ وَصْفِهِ ، وهذا كما تقول : أَتَخَالَفُ زَيْدًا وَهُوَ الْعَالَمُ الْوُدُودِ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ وَمِنْ أَمْرِهِ ، فهذه كلها أوصاف . ووصف تَعَالَى الْكِتَابَ بِالْعِزَّةِ لِأَنَّهُ بِصِحَّةِ مَعَانِيهِ مُمْتَنِعٌ الطَّعْنُ فِيهِ وَالْإِزْرَاءُ عَلَيْهِ ، وهو مُحْفُوظٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : معناه : كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وقال مقاتل : منيعٌ مِنَ الشَّيْطَانِ ، وقال السَّدي : غير مخلوق .

وقوله تَعَالَى : ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ ، قال قتادة ، والسَّدي : يريد الشَّيْطَانُ ، وظاهر اللفظ يَعْمُ الشَّيْطَانُ وَأَنْ يَجِيءَ أَمْرٌ يُبْطِلُ مِنْهُ شَيْئاً ، وقوله تَعَالَى : ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ معناه : ليس فيما تقدمه من الكتب ما يُبْطِلُ شَيْئاً مِنْهُ ، وقوله تَعَالَى : ﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أي : ليس يَأْتِي بَعْدَهُ مِنْ نَظَرٍ نَاضِرٍ وَفِكْرَةٍ عَاقِلٍ ما يُبْطِلُ شَيْئاً مِنْهُ ، والمراد باللفظة عَلَى الْجُمْلَةِ : لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ جِهَةٍ مِنَ الْجِهَاتِ . وقوله تَعَالَى : [تَنْزِيلٌ] خبر ابتداء ، أي : هو تنزيل .
وقوله تَعَالَى : ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يحتمل معنيين : أحدهما أَنْ يَكُونَ تَسْلِيَةً لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ مَقَالَاتِ قَوْمِهِ ، أي : ما تلقى يا محمد من المكروه منهم ولا يقولون لك من الأقوال المؤلمة إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ وَلَقِيَ بِهِ مِنْ تَقْدَمِكَ مِنَ الرُّسُلِ ،

فَلْتَتَأَسَّ بِهِمْ ، وَلْتَمَاضِ لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَلَا يَهْمُكَ شَأْنُهُمْ ، وَالْمَعْنَى
الثَّانِي أَنَّ تَكُونَ الْآيَةَ تَلْخِيصًا لِمَعَانِي الشَّرْعِ ، أَي : مَا يَقَالُ لَكَ مِنَ
الْوَحْيِ وَتُخَاطَبُ بِهِ مِنْ جِهَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرَّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ .
ثُمَّ فَسَّرَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ الَّذِي قِيلَ لِجَمِيعِهِمْ وَهُوَ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾
لِلطَّائِعِينَ ، ﴿ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ لِلْكَافِرِينَ . وَفِي هَذِهِ الْكَلِمَاتِ جَمَاعُ
الزَّجْرِ وَالنَّهْيِ وَالْمَوْعِظَةِ ، وَإِلَيْهَا يَرْجِعُ كُلُّ نَظَرٍ .

قوله عز وجل :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ
وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ
وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ۝٤٤ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى
الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ
لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ۝٤٥ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا
رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٤٦ ﴾

الْأَعْجَمِيُّ هُوَ الَّذِي لَا يُفْصَحُ عَرَبِيًّا كَانَ أَوْ غَيْرَ عَرَبِيٍّ ، وَالْعَجْمِيُّ :
الَّذِي لَيْسَ مِنَ الْعَرَبِ فَصِيحًا كَانَ أَوْ غَيْرَ فَصِيحٍ . وَهَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ
بِسَبَبِ تَخْلِيطِ كَانَ مِنْ قَرِيشٍ فِي أَقْوَالِهِمْ مِنْ أَجْلِ الْحُرُوفِ الَّتِي وَقَعَتْ

في القرآن وهي مما عُرِبَ من كلام العجم كالسَّجِّينَ والإِشْبِرْقَ ونحوه ،
فقال عز وجل : ولو جعلنا هذا القرآن أعجمياً لا يبين لقالوا واعترضوا :
لولا بُيِّنَتْ آياته ، واختلف القراء في قوله : (أَعْجَمِي وَعَرَبِي) ،
فقراءة الجمهور على الاستفهام وهمزة ممدودة قبل الألف ، وقرأ حمزة ،
والكسائي ، وحفص عن عاصم ، والأعمش : [أَعْجَمِي] بهمزتين ،
وكانهم كانوا ينكرون ذلك فيقولون : لولا بُيِّنَ ، أَعْجَمِي وعربي
مختلط ؟ هذا لا يَحْسُنُ ، وتأول ابن جبير أَنَّ معنى قولهم : أَتَجِئُنَا
عُجْمَةً ونحن ومحمد عرب ؟ ما لنا وللعُجْمَةِ ، وقرأ الحسن البصري ،
وأبو الأسود ، والجحدري ، وسلام ، والضحاك ، وابن عباس ،
وابن عامر - بخلاف عنهما - : [أَعْجَمِي] دون استفهام وبسكون
العين ، كأنهم قالوا : أَعْجَمَةٌ وإعراب ؟ إن هذا لَشَاذٌ ، أو كأنهم
قالوا : لولا فصل فصلين فكان بعضه أعجمياً يفهمه العجم وبعضه
عربياً يفهمه العرب ؟ وهذا تأويل لابن جبير أيضاً ، وقرأ عمرو بن
ميمون : [أَعْجَمِي] بهمزة واحدة مقصورة وبفتح العين ، فأخبر الله
تبارك وتعالى عنهم أنه لو كان على أي وجه تُخَيَّلُ لكان لهم قولٌ
واعتراضٌ فاسد ، هذا مقصد الكلام .

وأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم : إن القرآن
هُدًى وشفاء للمؤمنين المبصرين للحقائق ، وإنه على الذين لا يؤمنون
ولا يُصِرُّون نظرهم في المصنوعات عَمًى ، لأنهم في آذانهم وقر ،

وعلى قلوبهم أقفال ، وعلى أعينهم غشاوة . واختاف الناس في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ - فقالت فرقة : يريد بـ [هُوَ] القرآن ، وقالت فرقة : [هُوَ] يريد به الوقْر ، والوقْر : الثقل في الأذن المانع من السمع ، وهذه كلها استعارات ، أي : هم لما لم يفهموا ولا حصلوا كالأعمى وصاحب الوقْر . وقرأ ابن عباس ، ومعاوية ، وعمرو بن العاص : ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمٍ ﴾ بكسر الميم مُنَوَّنة ، وقال يعقوب : لا أدري أنونوا أم فتحوا الياء على الفعل الماضي ، وبغير ياء رواها عمرو بن دينار ، وسليمان بن قتة عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وهذه القراءة أيضاً فيها استعارة (١) ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ يُنَادُونَ ﴾ يحتمل معنيين ، وكلاهما مقول للمفسرين : أحدهما أنها استعارة لقلّة فهمهم ، شبههم بالرجل يُنادى على بُعد يسمع منه الصوت ولا تفهم تفاصيله ولا معانيه ، هذا تأويل مجاهد ، والآخر أن الكلام على الحقيقة ، وأن المعنى : إنهم يوم القيامة يُنادون بكفرهم وقبيح أفعالهم من بُعد حتى يسمع ذلك أهل الموقف فتعظم السمعة عليهم ويجل المصاب ، وهذا تأويل الضحاك بن مزاحم .

ثم ضرب الله تعالى أمر موسى للنبي عليهما الصلاة والسلام ولقريش ، أي : فِعْلُ أُولَئِكَ كَأَفْعَالِ هَؤُلَاءِ حين جاءهم مثل ما جاء هؤلاء ،

(١) اختار أبو عبيدة القراءة الأولى لأن الناس أجمعوا عليها كما قال القرطبي ، ولأنها تناسب قوله تعالى : ﴿ هُدًى وَشِفَاءً ﴾ ، ولو كان « هادٍ وشافٍ » لكان الكسر في « عَمٍ » أجود ليكون نعتاً مثلهما .

و «الكلمة السابقة» هي حتم الله تأخير عذابهم إلى يوم القيامة ،
والضمير في قوله تعالى : ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ يحتمل أن يعود على موسى
عليه السلام أو على كتابه .

وقوله تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ الآية نصيحة بينة
للعالم وتحذير وترجية وصدع بأن الله تعالى لا يضع شيئاً من عقوبات عباده
في غير موضعها ، بل هو العادل المتفضل الذي يجازي كل عبد بتكسبه .

قوله عز وجل :

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ
مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَدْذَكَ مَا مِنَّا
مِنْ شَيْءٍ ۚ﴾ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ حَاجِبٍ
﴿لَا يَسْمَعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرْفُ فَيُؤْسَ قَنُوطُ
﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ
السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۚ﴾ (٤٨)

المعنى أن علم وقت الساعة ومجيئها يرده كل مؤمن متكلم فيه
إلى الله عز وجل ، وذكر تعالى الثمار وخروجها من الأكمام وحمل

الإناث مثلاً لجميع الأشياء ؛ إذ كُلُّ شيءٍ خفي فهو في حكم هذين .
 وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، والحسن ، وطلحة ،
 والأعمش : (مِنْ ثَمَرَةٍ) بالإفراد على أنه اسم جنس ، وقرأ نافع ،
 وابن عامر : (مِنْ ثَمَرَاتٍ) بالجمع ، واختلف عن عاصم ، وهي
 قراءة أبي جعفر ، وشيبة ، والأعرج ، والحسن - بخلاف - وفي
 مصحف عبد الله : « في ثمرة » . و « الأكمام » جمع كُمَّ (١) ، وهو غلاف
 الثمر قبل ظهوره .

وقوله تعالى : (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ) تقديره : واذكر يوم يناديهم ،
 والضمير في [يُنَادِيهِمْ] ظاهره والأسبق فيه أنه يريد به الكفار عبدة
 الأوثان ، ويحتمل أن يريد به كل من عبد من دون الله تبارك وتعالى
 من إنسان وغيره ، وفي هذا ضعف . وأما الضمير في قوله تعالى :
 (وَضَلَّ عَنْهُمْ) فلا احتمال لعودته إلا على الكفار . و [آذَنَّاكَ] قال
 ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : معناه : أَعْلَمْنَاكَ مَا مِنَّا مَنْ يَشْهَدُ

(١) جاء في اللسان : « والكُمَّ للطلع » ، وقد كُمَّت النخلة .. وكُمَّ كُلُّ نَوْرٍ :
 وعاءه ، والجمع أكمام وأكمام ، وبالضمَّ ثم ضَبَطَهُ أيضاً في المحكم والتهذيب . ولكن
 قال في المصباح والقاموس والنهاية : « كِمُّ الطَّلَعِ وكلُّ نَوْرٍ بالكسر » ، وفي القرطبي :
 « فالأكمامُ أوعية الثمرة ، واحداً كُمَّة . وهي كل ظرف لمال أو غيره . ولذلك سُمِّيَ
 قشر الطَّلَعِ أعني كُفْرَاهُ الذي ينشق عن الثمرة كُمَّة » ، وقال ابن عباس : الكُمَّة : الكُفْرَى
 قبل أن تنشق ، فإذا انشقت فليست بكُمَّة .

ولا شهد بأن لك شريكاً . و ﴿ ضَلَّ عَنْهُمْ ﴾ أي نسُوا ما كانوا يقولون في الدنيا ويدعون من الآلهة والأصنام ، ويحتمل أن يريد : وضلَّ عنهم الأصنام ، أي تَلَفَتْ عنهم فلم يجدوا منها نصراً وتلاشى لهم أمرها . وقوله تعالى : [وَظَنُّوا] يحتمل أن يكون متصلاً بما قبله ويكون الوقف عليه ، ويكون قوله سبحانه : ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ ﴾ استئناف ، نفى أن يكون لهم منجى وموضع روغان ، تقول : حاصَ الرجل إذا راغ يطلب النجاة من شيء ، ومنه في الحديث : (فحاصوا حيصة حُمُر الوحش إلى الأبواب) (١) ، ويكون الظن - على هذا التأويل - على بابه ، أي : ظنوا أن هذه المقالة ﴿ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴾ منجاة لهم أو أمرٌ يُمَوِّهُون به . ويحتمل أن يكون الوقف في قوله تعالى : ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ ، ويكون [وَظَنُّوا] متصلاً بقوله تعالى : ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ ﴾ ، أي

(١) جاء هذا في حديث طويل رواه الإمام البخاري في بدء الوحي ، وفي تفسير سورة النساء ، ورواه أبو داود في الجهاد ، وكذلك الترمذي رواه في الجهاد . ورواه أحمد في مسنده ٧٠-٣ . ١٠٠ . وهو عن ابن مسعود رضي الله عنه . قال : إن عبد الله بن عباس أخبره أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قریش ، وكانوا تجاراً بالشام ، وأن هرقل سأفهم عن نسب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعن أتباعه ، وعن صفاته ... وفي آخر الحديث أن هرقل اجتمع بعظماء الروم في دسكرة له بخص ، ثم أمر بأبوابها فغلقت ، ثم اطلع فقال : « يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي » . فحاصوا حيصة حُمُر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت ، فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان قال : ردوهم علي . وقال : إنني قلت مقالتي آتفاً أختبر بها شدتكم على دينكم ، فقد رأيت ، فسجدوا له ورضوا عنه ، فكان ذلك آخر شأن هرقل .

ظنوا ذلك ، ويكون الظن - على هذا التأويل - بمعنى اليقين ، وبه
فسر السدي .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه عبارة يطلقها أهل اللسان على الظن ، ولست تجد ذلك إلا فيما
علم علماً قوياً وتقرر في النفس ولم يتلبس به بعد ، وإلا فمتى تلبس
بالشيء وحصل تحت إدراك الحواس فلست تجدتهم يوقعون عليه
لفظة الظن .

وقوله تعالى : ﴿ لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ ﴾ آياتٌ نزلت في كفار ، قيل :
في الوليد بن المغيرة ، وقيل : في عتبة بن ربيعة ، وجُلُّ الآية يعطي
أنها نزلت في كفار وإن كان أولها يتضمن خلقاً ربما شارك فيها (١)
بعض المؤمنين . و «دُعَاءُ الْخَيْرِ» إضافته إضافة المصدر إلى المفعول ،
والفاعل محذوف تقديره : من دعاء الخير هو ، وفي مصحف ابن مسعود
رضي الله عنه : «مِنْ دُعَاءِ بِالْخَيْرِ» (٢) والخير في هذه الآية : المالُ
والصحة . وبذلك تليق الآية بالكافرين ، وإن قدرناه خير الآخرة

(١) الخلق مؤنثة ، لأنها حال للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال من خير أو شر من
غير حاجة إلى فكر وروية . (مجمع اللغة العربية) .

(٢) هكذا أيضاً في البحر المحيط ، وقد أكدته حين قال : بإدخال الباء على الخير ،
أما القرطبي فقد قال : وفي قراءة عبد الله : «لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْمَالِ» .

فهو المؤمنين ، وأما اليأس والقنط (١) على الإطلاق فمن صفة الكافر وحده .

وقوله : ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِى﴾ أي بفعلي وبما سعت ، ولا يرى أن النعم إنما هي بتفضل من الله تعالى ، ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ قول بين فيه الجحد والكفر ، ثم يقول هذا الكافر : ولئن كان ثم رجوع كما يقولون ليكون لي حال ترضيني من غنى ومال وبنين ، فتوعدهم الله تعالى بأنه سيعرفهم بأعمالهم الخبيثة مع إذاقتهم العذاب عليها ، فهو عذاب وخزي ، وغلظة العذاب : شدته وصعوبته ، وقال الحسن ابن محمد بن أبي طالب رضي الله عنهم : للكافر أُمْنِيَّتَان : أما في الدنيا فهذه : ﴿إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى﴾ ، وأما في الآخرة فـ ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ (٢) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والأُمَانِي على الله تعالى وترك الجد في الطاعة مذموم لكل أحد ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : (الكَيِّس من دان نفسه ،

(١) في اللسان : « قَنَطَ يَقْنِطُ وَيَقْنِطُ قُنُوطًا ، مثل جلس يجلس جلوسًا ، وقنِطَ قَنَطًا ... وفيه لغة ثالثة قَنِطَ يَقْنِطُ قَنَطًا ، مثل تعب يتعب تعبًا » ، فالقنط — على هذا — مصدر مثل القنوط .

(٢) من الآية (٤٠) من سورة (النبا) .

وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني (١).

قوله عز وجل :

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ۝٥١ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ۝٥٢ سُرِرْهُمْ أَيُّنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِئَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ ۝٥٤ إِلَّا إِلَهُهُم بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ۝٥٥ ﴾

ذكر الله تعالى الخلق الذميمة من الإنسان جملة ، وهي في الكفار بيّنة متمكنة ، وأما المؤمن في الأغلب فيشكر عند النعمة ، وكثيراً ما يصبر عند الشدة . وقرأ جمهور القراء والناس : [ونأى] ، الهمزة عين الفعل ، وقرأ ابن عامر : [وناء] ، الهمزة لام الفعل ، وهي قراءة أبي جعفر ، والمعنى فيهما واحد ، قال أبو علي : ناء قلب نأى ، (رجع فعل فلغ) ، ومنه قول الشاعر :

(١) أخرجه الترمذي في القيامة . وابن ماجه في الزهد . وأحمد في مسنده ٤-١٣٤ . عن شداد بن أوس رضي الله عنه .

وَكُلُّ خَلِيلٍ رَاعِنِي فَهُوَ قَائِلٌ مِنْ أَجْلِكَ هَذَا هَامَةٌ الْيَوْمِ أَوْ غَدٍ (١)
ومنه قول الآخر :

وَقَدْ شَاعَنِي أَهْلُ السَّبَاقِ وَأَمَعْنُوا (٢)
و « ناء » معناه : بُعد ولم يَمِلْ إلى شكر ولا طاعة .

وقوله تعالى : ﴿ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ ، أي طويل أيضاً ، فاستغنى
بالصفة الواحدة عن لزيمتها إذ العَرِض يقتضي الطول ويتضمنه ،

(١) البيت لكثير عزة . وهو كثير بن عبد الرحمن بن أبي جمعة ، وعزة صاحبه .
وقد نسب إليها ، وهي من صَمْرَةَ . وبشره فيها أصبح من عشاق العرب المشهورين .
والبيت في الديوان ، وفي اللسان (هوم) . والخليل : الصديق الخالص (فعيل بمعنى مفاعل)
وراعني : مقلوب رآني . وهو موضع الشاهد هنا ، والعرب تقول : رآني فلان بوزن رَعَانِي ،
وتقول : رَاعَنِي بوزن رَاعَنِي . كما تقول : نأى فلان عَنِّي يَنَأَى إذا بُعد ، وناء عَنِّي
بوزن باعَ عَلَى الْقَلْبِ . (راجع اللسان في المادتين) ، والهامة : الرأس ، والجمع : هَامٌ ،
وكانت العرب تزعم أن روح القتيل الذي لم يُدْرَك بثأره تصير هامة فتزحف عند قبره وتقول :
اسقوني ، اسقوني . فإذا أدرك بثأره طارت ، وكانوا يقولون : إن القتيل تخرج هامة من هامته
فلا تزال تقول : اسقوني ، اسقوني حتى يقتل قاتله . ومنه قول ذي الإصبع العدواني :
يَا عَمْرُو إِلَّا تَدْعُ شَتْمِي وَمَنْقَصِي أَضْرِبْكَ حَتَّى تَقُولَ الْهَامَةُ اسْقُونِي
ويقال : هذا هامة اليوم أو غداً ، أي يموت اليوم أو غداً ، وهذا معنى قول كثير في البيت :
(هذا هامة اليوم أو غداً) . والمعنى : إن كل صديق مخلص رآني يقول : إني لا محالة سأموت
اليوم أو غداً .

(٢) يستشهد ابن عطية بهذا الشطر من الشعر على أن (شاعني) مقلوب (شآني) . وهذا
موجود في القاموس المحيط . قال « شاعني : سَبَقَنِي ... يَشُوهُ وَيَشِيءُ ، قَلْبُ شَانِي » ،
ونفهم من هذا أن معنى (شاعني) هو سَبَقَنِي ، وأنه مقلوب (شآني) على وزن رَعَانِي ، وأنكر
صاحب التاج عليه حكاية القلب هذه فقال : « وزعم أنه مقلوب لـ شَأَى يَشْتَى — على وزن
رَمَى يَرْمِي — وهذا غلط لأن مادة (شَأَى) مهموز العين » . هذا ولم نجد هذا الشطر في كتب
المفسرين ولا في كتب اللغة التي بين أيدينا — ولم نقف على قائله .

ولم يقل : « طويل » لأن الطويل قد لا يكون عريضاً ، فعريضٌ أدلُّ على الكثرة .

ثم أمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام أن يقف قريشاً على هذا الاحتجاج وموضع تقريرهم بأنفسهم فقال تعالى : قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ هَذَا الشَّرْعُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَبِأَمْرِهِ وَخَالَفْتُمُوهُ أَنْتُمْ . أَلَسْتُمْ عَلَى هَلَكَةٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ؟ فَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَبْقَى عَلَى مِثْلِ هَذَا الْغَرَرِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى ؟ وَهَذَا هُوَ الشَّقَاقُ .

ثم وعد الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأنه سيُري الكفار آياته ، واختلف المتأولون في معنى قوله تعالى : ﴿ فِي آفَاقٍ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ - فقال أبو المنهال (١) ، والسدي ، وجماعة : هو وعد بما يفتحه الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم من الأقطار حول مكة وفي غير ذلك من الأرض كخيبر ونحوها ، و ﴿ فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ أراد به فتح مكة . قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا تأويل حسن ينتظم الإعلام بغيب ظهر وجوده كذلك بعد ، ويجري مع لفظ الاستئناف الذي في الفعل (٢) ، وقال الضحاك ، وقتادة :

(١) الذي في القرطبي أنه « المنهال بن عمرو » ، فإن كان هو الصحيح فاسمه المنهال بن عمرو الأسدي الكوفي ، قال عنه في تقريب التهذيب : « صدوق » ، من الخامسة .
(٢) الفِعْلُ هو « سَنَرِي » ، ودلَّ على الاستئناف فيه السَّيْنُ .

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ) هو ما أصاب الأمم المكذبة في أقطار الأرض قديماً ، (وَفِي أَنْفُسِهِمْ) يوم بدر . وقال ابن زيد . وعطاء : «الآفاق» هي آفاق السماء ، وأراد به الآيات في الشمس والقمر والرياح وغير ذلك ، و «في أنفسهم» عبرة الإنسان بجسمه وحواسه وغريب خلخته وتدریجه في البطن ونحو ذلك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه آياتٌ قد كانت مرتبة فليس المعنى يجري مع قوله تعالى : [سَنُرِيهِمْ] ، والتأويل الأول أرجحها ، والله أعلم .

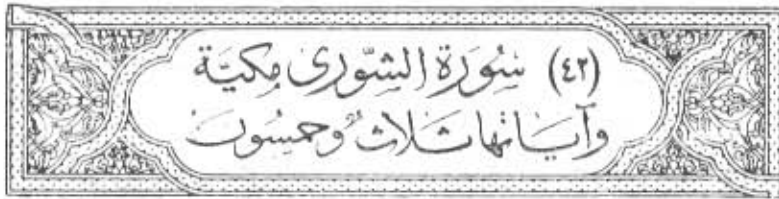
والضمير في قوله تعالى : (أَنَّهُ الْحَقُّ) عائد على الشرع والقرآن ، فبإظهار الله تعالى إياه وفتح البلاد عليه يَتَبَيَّنُ لهم أنه الحق ، ثم قال تعالى وعِذاً لِنَبِيِّهِ عليه الصلاة والسلام : (أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ) ، التقدير : أو لم يكف ربك ؟ والباء زائدة للتأكيد ، و [أَنَّ] يحتمل أنه في موضع رفع على البدل من الموضع ؛ إذ التقدير : أو لم يكف ربك ؟ ويحتمل أن يكون في موضع خفض على البدل من اللفظ . وهذا كله بدل الاشتمال ، ويصح أن تكون في موضع نصب على إسقاط حرف الجر ، أي : لأنه . وقرأ الجمهور : [أَنَّهُ] بفتح الألف ، وقرأ بعض الناس : [إِنَّهُ] بكسرها على الاعتراض أثناء القول .

وقوله تعالى : [أَلَا] استفتاحٌ يقتضي إقبال السامع على ما يقال له ، فاستفتح الإخبار عن أنهم في شك وريب وضلال أداهم إلى الشك في البعث . وقرأ جمهور الناس : (في مَرِيَّةٍ) بكسر الميم ، وقرأ أبو عبد الرحمن ، والحسن : (في مُرِيَّةٍ) بضم الميم . والمعنى واحد ، ثم استفتح تعالى الإخبار بإحاطته لكل شيء على معنى الوعيد لهم ، وإحاطته هي بالقدرة والساطان ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم .

كامل تفسير سورة (حم السجدة) والحمد لله رب العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



هذه السورة مكيّة بإجماع من أكثر المفسرين (١) ، وقال مقاتل :
فيها مدني [قوله تعالى : (٢) ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إلى قوله : ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٣) ، وقوله
تعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿مِنْ سَبِيلٍ﴾ (٤) ،
وقال ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب الثعلبي : إِنَّ ﴿حَمَّ ، عَسَقَ﴾

(١) هذا قول الحسن ، وعكرمة ، وعطاء ، وجابر ، وروي عن ابن عباس رضي الله
عنهما أنها مكيّة إلا أربع آيات منها أنزلت بالمدينة ، وهي قوله تعالى : ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ

(٢) ما بين علامتين [...] زيادة لتوضيح المعنى .

(٣) وهما الآيتان (٢٣ ، ٢٤) من السورة .

(٤) وهي الآيات (٣٩ ، ٤٠ ، ٤١) من السورة .

هذه الحروف بأعيانها نزلت في كل كتب الله تعالى المنزلة على كل نبي أنزل عليه كتاب ، ولذلك قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ ﴾ .

قوله عز وجل :

﴿ حَمْدٌ عَسَقٌ ﴾ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿ ٢ ﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿ ٣ ﴾
تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ
وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنْ اللَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿ ٤ ﴾

فُصِّلَتْ [حَم] من [عَسَق] ولم يفعل ذلك بـ [كَهَيْعَص] لتجري
هذه مجرى الحواميم أخواتها ، وقرأ الجمهور : ﴿ حَمَّ عَسَقٌ ﴾ ، وقرأ
ابن مسعود ، وابن عباس رضي الله عنهما ﴿ حَمَّ سَقٌ ﴾ بسقوط (عين) ،
والأقوال في هذا كالأقوال في أوائل السور ، وروى حذيفة حديثاً
في هذا مُضْمَنُهُ أَنَّهُ سَتَكُونُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ مَدِينَتَانِ يَشْقُهُمَا نَهْرٌ بِالْمَشْرِقِ ،
تَهْلِكُ إِحْدَاهُمَا لَيْلاً ثُمَّ تَصْبِحُ الْأُخْرَى سَالِمَةً ، فَيَجْتَمِعُ فِيهَا جَبَابِرَةُ
الْمَدِينَتَيْنِ مُتَعَجِّبِينَ مِنْ سَلَامَتِهَا ، فَتَهْلِكُ فِي اللَّيْلَةِ الْقَابِلَةِ ، وَأَنْ [حَم]
معناه : حُمَّ هذا الأمر ، و (عين) معناه : عدلاً من الله ، و (سين)

سيكون ذلك : و (قاف) معناه : يقع ذلك بهم (١) . وروى أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان يستفيد علم الفتن والحروب من هذه الحروف التي في أوائل السور .

والكاف من قوله تعالى : [كَذَلِكَ] نعت لمصدر محذوف ، والإشارة بـ [ذَلِكَ] تختلف بحسب الأقوال في الحروف ، وقرأ جمهور القراء : [يُوحِي] بالياء على إسناد الفعل إلى الله تعالى ، وهي قراءة الحسن ، والأعرج ، وأبي جعفر ، والجحدري ، وعيسى ، وطلحة ، والأعمش ، وقرأ أبو حيوة ، والأعشى عن أبي بكر عن عاصم : [نُوحِي] بنون العظمة ، ويكون قوله تعالى : [اللَّهُ] ابتداءً وخبره [الْعَزِيزُ] ، ويحتمل أن يكون خبره : (لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ) ، وقرأ ابن كثير وحده : [يُوحَى] بالياء وفتح الحاء على بناء الفعل للمفعول ، وهي قراءة

(١) أخرجه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، ونعيم بن حماد ، والخطيب . ذكر ذلك السيوطي في (الدُرُّ المُنثور) ، وفي تفسير الطبري أن هذا الخبر عن أرطاة بن المنذر ، وفي أوله أن رجلاً جاء إلى ابن عباس رضي الله عنهما . فقال له - وعنده حذيفة بن اليمان - : أخبرني عن تفسير قول الله : (لَحْمٌ عَسَقٌ) فأطرق ثم أعرض عنه - ثلاث مرات - فقال حذيفة للرجل : أنا أنبئك بها ... الخ ، قال القرطبي : « ونظير هذا التفسير ما روى جرير بن عبد الله البجلي ، قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (تُبنى مدينة بين دِجْلَةٍ ودُجَيْلٍ وقُطْرَبُلٍ والصَّرَاةُ ، يجتمع فيها جبابرة الأرض ، تجي إليها الخزائن يُخسف بها - وفي رواية بأهلها - فلكهي أسرع ذهاباً في الأرض من الودء الجيد في الأرض الرخوة) ، ولكن ابن كثير قال عن خبر حذيفة : « وقد روى ابن جرير هنا أنراً غريباً عجيلاً مُتكرراً » .

مجاهد ، والتقدير : يُوحَى إِلَيْكَ الْقُرْآنَ ، يوحيه الله تعالى ، وهذا كما قال الشاعر :

لِيُبَيِّنَكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِحُصُومَةٍ (١)

ومنه قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ، رِجَالٌ ﴾ (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ يريد : من الأنبياء الذين نزلت عليهم الكتب .

وقوله تعالى : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ ﴾ أي الملك والخلق والاختراع ، و [أَلْعَلِيُّ] من علو القدر والسلطان ، و [أَلْعَظِيمُ] كذلك ، وليس بَعْلُو مسافة ولا عِظَم جَرْم ، تعالى الله عن ذلك . وقرأ نافع ، والكسائي : [يَكَادُ] بالياء ، وقرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وحمزة ، وأبو عمرو ، وعاصم : [تَكَادُ] بالتاء ، وقرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، ونافع ، وابن عباس ، وأبو جعفر ، وشيبة ، وقتادة :

(١) هذا هو الشطر الأول من بيت نسبه سيبويه للحارث بن نُهَيْشِك ، ونسبه صاحب خزانة الأدب لِنَهْشَل بن حري ، والبيت بتمامه :

لِيُبَيِّنَكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِحُصُومَةٍ وَمُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطِيعُ الطَّوَائِفُ

وقد سبق الاستشهاد به عن تفسير قوله تعالى في سورة النور : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ ﴾ راجع الجزء العاشر صفحة (٥١٥ هامش ٤) من هذا التفسير . والشاهد في البيت أن (ضارع) فاعل لفعل مقدر يفهم من قوله : (لِيُبَيِّنَكَ) ، كما أن قوله تعالى [رِجَالٌ] في آية سورة النور فاعل لِفِعْلٍ مضمَر دلَّ عليه الظاهر ، تقديره : يُسَبِّحُهُ رِجَالٌ .

(٢) من الآيتين (٣٦ ، ٣٧) من سورة (النور) .

[يَتَفَطَّرْنَ] من «التَّفَطَّرَ»، وهو مطاوع «فَطَرَ»، وقرأ أبو عمرو ، وعاصم ، والحسن ، والأعرج ، وأبو رجاء ، والجحدري : [يَتَفَطَّرْنَ] من «الانفطار» ، وهو مطاوع «فَطَرَ» ، والمعنى فيهما : يتصدَّعن ويتشققن من سرعة جريهن خضوعاً وخشية من سلطان الله تعالى ، وتعظيماً له وطاعة ، وما وقع للمفسرين هنا من ذكر الثقل ونحوه مردود ، وذلك لأن الله تعالى لا يوصف به ، وقوله تعالى : ﴿مَنْ فَوْقَهُنَّ﴾ أي : من أعلاه ، وقال الأخفش علي بن سليمان : الضمير للكفار .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والمعنى : من فوق الفرق والجماعات الملحدة التي من أجل أقوالها تكاد السموات يتفطرن (١) ، فهذه الآية - على هذا - كآية التي في [كهيعص] (٢) ، وقالت فرقة : معناه : من فوق الأرضين إذ قد جرى ذكر الأرض ، وذكر الزجاج أنه قرئ : «يَتَفَطَّرْنَ بِمَنْ فَوْقَهُنَّ» . وقوله تعالى : ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ قيل : معناه : يقولون سبحان الله ، وقيل : معناه : يُصَلُّونَ لربهم ، وقوله تعالى : ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ

(١) إنما قدَّر ابن عطية هذا التقدير لأن الضمير مؤنث في [فَوْقَهُنَّ] ، وهو عائد على مذكر في هذا القول - وهم الكفار - وقد استبعد مكِّي هذا القول لهذا السبب ، ومال أبو حيان إلى كلامه هذا ، راجع البحر المحيط (٧-٥٠٨) .

(٢) وهي قوله تعالى في الآية (٩٠) من سورة (مريم) : ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدَأً﴾ .

لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴿١﴾ ، قالت فرقة . هذا منسوخ بقوله تعالى في آية أخرى : ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ (١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قول ضعيف ؛ لأن النسخ لا يتصور في الأخبار .

وقال السدي ما معناه : إن ظاهر هذه الآية العموم ، ومعناها الخصوص في المؤمنين ، فكأنه تعالى قال : ويستغفرون إن في الأرض من المؤمنين ، إذ الكفار عليهم لعنة الله تعالى والملائكة والناس أجمعين ، وقالت فرقة : بل هي على عمومها ، لكن استغفار الملائكة ليس بطلب غفران الله تعالى للكفرة على أن يبقوا كفرة . وإنما استغفارهم لهم بمعنى طلب الهداية التي تؤدي إلى الغفران لهم ، وكأن الملائكة تقول : اللهم اهد أهل الأرض واغفر لهم ، ويؤيد هذا التأويل تأكيده صفة الغفران والرحمة لنفسه بالاستفتاح ، وذلك قوله تعالى : ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ، أي : لما كان الاستغفار لجميع من في الأرض يبعد (٢) أن يجاب رجى عز وجل بأن استفتح الكلام تهيةً لنفس السامع ، فقال تعالى : ألا إن الله تعالى يطلب هذا منه إذ هذه أوصافه ، وهو سبحانه أهل المغفرة .

(١) من الآية (٧) من سورة (غافر) .

(٢) في بعض النسخ : « مُعَدُّ أَنْ يُجَابَ » .

قوله عز وجل :

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِظُ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ۝١٦ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ۝١٧ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝١٨ أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٩ ﴾

هذه آية تسليية للنبي صلى الله عليه وسلم ، ووعيد للكفار ، وإزالة عن النبي عليه الصلاة والسلام جميع الكُلف (١) سوى التبايغ فقط ، لئلاً يهتم بعدم إيمان قريش وغيرهم ، فقال تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام : إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْأَصْنَامَ وَالْأَوْثَانَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ هُوَ الْحَفِيزُ عَلَيْهِمْ كَفَرَهُمْ ، الْمُحْصِي لأَعْمَالِهِمْ ، الْمُجَازِي لَهُمْ عَلَيْهَا بِعَذَابِ الْآخِرَةِ ، وَأَنْتَ فَلَسْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ وَلَا مَلَاذِمَ لَأَمْرِهِمْ حَتَّى يُؤْمِنُوا ، و «الوكيل» : القيم على الأمر ، وما في هذا اللفظ من موادة فهو منسوخ بآية السيف .

(١) الكُلف : التكاليف . (اللسان - كلف) .

ثم قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ ، أي : وكما قضينا
 أمرك هذا وأمضيناه في هذه الصورة ، كذلك أوحينا إليك قرآناً
 عربياً مبيناً لهم ، لا يحتاجون معه إلى آخر سواه ؛ إذ فهمه مُتَاتٌ لهم ،
 ولم نُكَلِّفْكَ إِلَّا إِنْذَارَ مَنْ ذُكِرَ ، و « أُمُّ الْقُرَى » هي مكة ، والمراد
 أهل مكة ، ولذلك عطف [مَنْ] عليها ، وهي في الأغلب لمن يعقل ،
 و « يَوْمُ الْجَمْعِ » هو يوم القيامة ، واقتصر في [تُنْذِرَ] على المفعول
 الأول لأن المعنى : وتُنْذِرُ أُمَّ الْقُرَى العذاب وتُنْذِرُ النَّاسَ يومَ الجمع ،
 لاجتماع أهل الأرض بأهل السماء ، أو لاجتماع بني آدم للعرض ،
 وقوله تعالى : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أي في نفسه وذاته ، وارتباب الكفار
 به لا يُقَيَّدُ .

وقوله تعالى : [فَرِيقٌ] مرتفع على خبر الابتداء المضمَر ، كأنه
 تعالى قال : هم فريق في الجنة وفريق في السَّعِيرِ .
 ثم قَوَّى تبارك وتعالى تسليّة نبيّه صلى الله عليه وسلم بأن عرفه
 بأن الأمر موقوف على مشيئة الله تعالى من إيمانهم أو كفرهم ، وأنه
 تعالى لو أراد كونهم أُمَّةً واحدة على دين واحد لجمعهم عليه ، ولكن
 يُدْخِلُ مَنْ سَبَقَتْ لَهُ السَّعَادَةُ عنده في رحمته ، وَيُبَشِّرُهُ فِي الدُّنْيَا لعمل
 أهل السَّعَادَةِ ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بِالْكَفْرِ الْمَيَسَّرِينَ لعمل أهل الشَّقْوَةِ ما لهم
 من ولي ولا نصير .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ اتَّخَذُوا ﴾ كلام منقطع مما قبله ، وليست بمعادلة ، ولكن الكلام كأنه أضرب عن حجة لهم^١ أو مقالة مقررة فقال : بل اتخذوا ، هذا مشهور قول النحويين في مثل هذا ، وذهب بعضهم إلى أن « أَمْ » هذه بمنزلة أَلَف الاستفهام دون تقدير إضراب ، ثم أثبت تعالى الحكم بأنه عز وجل هو الولي الذي تنفع ولايته ، وأنه هو الذي يحيي الموتى ويحشرهم إلى الآخرة ويبعثهم من قبورهم ، وأن قدرته على كل شيء تعطي هذا وتقتضيه .

قوله عز وجل :

﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝ فَاطَرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّوكُمْ فِيهِ لَبَسَ كِمِثْلَهُ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ ﴾

المعنى : قل يا محمد : وما اختلفتم فيه أيها الناس من تكذيب وتصديق وإيمان وكفر وغير ذلك ، فالحكم فيه والمجازاة عليه ليست إلي ولا بيدي ، وإنما ذلك إلى الله تعالى الذي صفاته ما ذكر من إحياء

الموتى والقدرة على كل شيء ، ثم قال : ذلكم الله ربِّي ، عليه توكل ، وإليه إنابتي ورجوعي ، وهو فاطر السموات والأرض ، أي مخترعهما وخالقهما ، شقَّ بعضهما من بعض .

وقوله تعالى : ﴿ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ يريد تعالى زوج الإنسان الأنثى ، وبهذه النعمة اتفق الذرُّ ، وليست الأزواج ها هنا الأنواع ، وأما الأزواج المذكورة مع الأنعام فالظاهر أيضاً والمتسق أنه يريد إناث الذكران ، ويحتمل أن يريد الأنواع ، والأول أظهر .
وقوله تعالى : ﴿ يَذَرُوكُمْ فِيهِ ﴾ أي يخلقكم نسلًا بعد نسل ، وقرناً بعد قرن ، قاله مجاهد والناس ، فلفظة « ذراً » تزيد على لفظة « خلق » معنى آخر ليس في « خلق » ، وهو توالي الطبقات على مر الزمان ،
وقوله : [فِيهِ] الضمير على « الجعل » الذي تضمنه قوله تعالى : ﴿ جَعَلَ لَكُمْ ﴾ ، وهذا كما تقول : كلَّمتُ زيداً كلاماً أكرمته فيه ، وقال العتبي : الضمير للتزويج ، ولفظة « في » مشتركة على معانٍ وإن كان أصلها الوعاء ، وإليه يردُّها النظر في كل وجه .

وقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ ، الكاف مؤكدة للتشبيه ، فنفي التشبيه أوكد ما يكون ، وذلك أنك تقول : زيدٌ كعمرو ، وزيدٌ مثل عمرو ، فإذا أردت المبالغة التامة قلت : زيدٌ كمثل عمرو ،

ومن هذا قول أوس بن حجر :

وَقَتْلَى كَمِثْلٍ جُدُوعِ النَّخِيلِ تَغَشَّاهُمْ مُسِيلٌ مِنْهُمْ ——— (١)

ومنه قول الآخر :

سَعْدُ بْنُ زَيْدٍ إِذَا أَبْصَرْتَ فَضْلَهُمْ مَا إِنْ كَمِثْلِهِمْ فِي النَّاسِ مِنْ أَحَدٍ (٢)

فجرت الآية في هذا الموضع على عُرْفِ كلام العرب ، وتفترق الآية مع هذه الشواهد في أن الشواهد متى أردت أن تتبع بذهنك اللفظ فتقدر للجدوع مثلاً موجوداً وتشبه القتلى بذلك المثل أمكنك ، ولا يمكنك هذا في جهة الله تعالى إلا أن تجعل له ما يتحصل في الذهن من العلم بالله تعالى ، إذ المثل والمثال واحد .

(١) البيت من قصيدة قالها أوس بن حجر في حرب كانت بين قومه من بني تميم وبين أسدٍ وغنّى ، وفيه يصف نتيجة المعركة التي تركت القتلى من بني أسد كجدوع النخل التي غطاها السيل المنهمر من المطر ، والجدوع جمع جذع وهو ساق النخلة ، ومعنى تَغَشَّاهُمْ : غَطَّاهُمْ وغطرهم . والمُسِيلُ : المطر ، وفي الحديث : (فجاد بالماء جَوْنِيَّ لَهُ سَبِيلٌ) أي مَطَرٌ جَوْدٌ هَاطِلٌ . وابن عطية يستشهد بالبيت على أن التشبيه يكون بالكاف وبكلمة مِثْلٍ معاً عند إرادة المبالغة التامة ، وذلك أنه يجوز أن تُشَبَّه فتقول : قَتَلَى كَجُدُوعِ النَّخِيلِ ، ويجوز أن تقول : قَتَلَى مِثْلَ جُدُوعِ النَّخِيلِ ، فإذا أردت المبالغة التامة قلت : قَتَلَى كَمِثْلِ جُدُوعِ النَّخِيلِ . وهذا هو ما جاء في الآية الكريمة ، إذ اجتمع في التشبيه الكاف ومِثْلٌ زيادة في المبالغة مع نفي ذلك ، فالنَّفْيُ هنا أؤكد ما يكون .

(٢) وهذا أيضاً شاهد على أنه يُجْمَعُ في الكلام بين لفظين يؤيدان معنى واحداً للتأكيد ، وفي هذا البيت أدخل الشاعر على « ما » وهي حرف جَحْدٍ « إن » وهي حرف حَجْدٍ أيضاً ، وساغ ذلك لاختلاف لفظ كل منهما عن الآخر ، وإن اتفق المعنى . والشاعر في البيت يمدح « سعد بن زيد » . وينفي أن يكون في الناس أحد مثله .

وذهب الطبري وغيره إلى أن المعنى : « ليس كهو شيء » ، وقالوا :
لفظة « مثل » في الآية تأكيد وواقعة موقع هو (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :
ومما يؤيد دخول الكاف تأكيداً أنها قد تدخل على الكاف نفسها ،
وأشدد سيبويه :

* وصاليات ككماً يؤثفين * (٢)

(١) الفرق بين القولين أن كلمة « مثل » فيما ذكر الطبري هي التي دخلت للتوكيد ،
وأداة التشبيه الأصلية هي الكاف . أما القول الأول ففيه أن « الكاف » هي التي دخلت للتوكيد ،
وأداة التشبيه الأصلية هي « مثل » . على أن الطبري قد ذكر القولين . واستشهد لكل منهما ،
وقد اختلفت الرؤية بالنسبة للشواهد ، فما اعتبره بعضهم شاهداً للقول الأول اعتبره غيره شاهداً
للقول الثاني ، والشواهد تصلح لذلك .

هذا وقد ذكر صاحب البحر المحيط أن العرب تقول : « مثلك لا يفعل كذا » ، يريدون
به المخاطب ، كأنهم إذا نقّوا الوصف عن مثل المخاطب كان نقياً عن المخاطب نفسه ، وهو
من باب المبالغة ، فجرت الآية في ذلك على نهج العرب من إطلاق المثل على الشيء نفسه ،
ثم علّق على كلام الطبري الذي جعل كلمة « مثل » زائدة للتوكيد . وجعلها كالكاف في قول
الشاعر : (وصاليات ككماً يؤثفين) - علّق على هذا بقوله : « ليس بجيد ، لأن
« مثلاً » اسم والأسماء لا تزاد . بخلاف الكاف فإنها حرف فتصلح للزيادة .

(٢) هذا بيت من أبيات من بحر السريع ، نسبها في خزانة الأدب إلى خيطام المجاشعي ،
ونسبها الصقلي - في شرحه أبيات الإيضاح للفارسي - وكذلك الجوهري في الصحاح ، نسبها
إلى هميكان بن قحافة . والأبيات في خزانة الأدب ، وفي هوامش الجزء الأول من (سير
صناعة الإعراب) لابن جني . وقد قال محقق تفسير الطبري : إنها من مشطور الرجز ، وقال
في خزانة الأدب : « ربما حسب من لا يحسن العروض أنها من الرجز ، لأن الرجز لا يكون
فيه معولات فيردّ إلى معولات » . والصّاليات : أراد بها الأثافي لأنها صليت بالنار ، أي
أحرقت حتى اسودّت . وقد روي البيت « وماثلات » بدلا من « وصاليات » ، ومعنى ماثلات :
منتصبات . و « يؤثفين » وزنه « يؤفعّلن » والهمزة زائدة . وقيل : وزنه « يُفَعِّلِينَ »
فالهمزة أصل . ومعنى الكلمة : يُجْعَلُنْ أثنافي للقدر ، وهي جمع أنفيسة . وموضع الشاهد -

و «المَقَالِيدُ» : المفاتيح ، قاله ابن عباس ، والحسن . وقال مجاهد : أصلها بالفارسية ، وهي هنا استعارة لوقوع كل أمر تحت قدرته ، وقال السدي : المقاليد : الخزائن ، وفي العبارة - على هذا - حذف مضاف ، قال قتادة : من ملك مقاليد خزائن فالحزائن في ملكه ، وبسط الرزق وقدره بَيْنٌ ، وقد مضى تفسيره غير مرة .

قوله عز وجل :

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِمَّنْهُ مُرِيبٌ ﴿١٤﴾

= في البيت قوله : « كَكَمًا » ، والكاف الأولى جارة والثانية مؤكدة لها ، وقال الزمخشري : « وعلى هذا يجوز أن يكون الكافان اسميين أو حرفيين » ، وقال ابن السيد في شرح أدب الكاتب : « أجرى الكاف الجارة - وهي الثانية - مجرى « مثل » فأدخل عليها كافاً ثانية ، فكأنه قال : « كمثل ما يؤثفثن » و « ما » مع الفعل بتقدير المصدر ، كأنه قال : كمثل إثفثتها ، أي : لأنها على حالها حين أثفثت ، ويرى الفارسي أنها يجوز أن تكون موصولة ، وخلاصة القول أن الكاف دخلت على الكاف للتوكيد ، والذي أنشد البيت شاهداً على ذلك هو سيبويه في الكتاب .

المعنى : شرع الله تعالى لكم وبين من المعتقدات والتوحيد ما وصى به نوحاً من قبل ، وقوله تعالى : [وَالَّذِي] عطف على [مَا] ، وكذلك ما ذكر بعد من إقامة الدين مشروع اتفقت النبوات فيه ، وذلك في المعتقدات أو في جملة أمرها من أن كل نبوة فإنما مضمّنها معتقدات وأحكام ، فيجىء المعنى على هذا : شرع لكم شرعة هي كشرعة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام في أنها ذات المعتقدات المشهورة التي هي في كل نبوة ، وذات أحكام كما كانت تلك كلها ، وعلى هذا يتخرج ما حكاه الطبري عن قتادة فقال : ﴿ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ﴾ يريد به الحلال والحرام ، وعليه روي أن نوحاً عليه السلام أول من أتى بتحريم البنات والأئمّهات ، وأمّا الأحكام بانفرادها فهي في الشرائع مختلفة ، وهي المراد في قوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (١) . و [أَنْ] في قوله تعالى : ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ﴾ يجوز أن تكون في موضع نصب بدلاً من [مَا] ، أو في موضع خفض بدلاً من الضمير في [بِهِ] ، أو في موضع رفع على خبر ابتداءٍ تقديره : ذلك أن ، و [يجوز] (٢) أن تكون مفسّرة بمعنى « أي » لا موضع لها

(١) من الآية (٤٨) من سورة (المائدة) .

(٢) ما بين العلامتين [...] زيادة لتوضيح المعنى ، وكذلك زدنا ألفاً على الواو في قوله : « وفي موضع خفض ، وفي موضع رفع » حتى يصح التعبير .

من الإعراب ، و «إقامة الدين» هو (١) توحيد الله تعالى ورفض ما سواه .
 وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا﴾ نهي عن المُهْلِك من تَفَرُّق الأنحاء
 والمذاهب ، والخيرُ كُلُّه في الألفة واجتماع الكلمة . ثم أخبر الله
 تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بصعوبة موقع هذه الدعوة إلى إقامة
 الدين على المشركين بالله تعالى . العابدين للأصنام ، قال قتادة :
 كُبر عليهم «لا إله إلا الله» ، وأبى الله تعالى إلا نصرها وإظهارها .
 ثم سلّاه تعالى عنهم بقوله : ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي﴾ أي يختار ويصطفى ،
 قاله مجاهد وغيره . و [يُنِيبُ] معناه : يرجع عن الكفر . ويُحَرِّضُ
 على الخير ويطلبه .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا﴾ عبارة يجمع خطابها كفار العرب
 واليهود والنصارى وكل مدعو إلى الإسلام . فلذلك حُسِّن أن يقال :
 «مَا تَفَرَّقُوا» ، يعني بذلك أوائل اليهود والنصارى ، و «الْعِلْمُ» الذي
 جاءهم «هو ما كان حصل في نفوسهم من علم كُتِبَ الله تعالى ، فبغى
 بعضهم على بعض . وأدّاهم (٢) ذلك إلى الاختلاف في الرأي . و «الكلمة
 السابقة» قال المفسرون : هي حتمه تعالى القضاء بأن مجازاتهم إنما تقع
 في الآخرة ، فلولا ذلك لفَصَلَ بينهم في الدنيا وغلب المحقُّ على المبطل .

(١) جعل الضمير للمذكر مراعاة لما بعده وهو التوحيد .

(٢) أدّاهم : أوصلهم إلى الاختلاف .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ﴾ إشارة إلى معاصري محمد صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى ، وقيل : هي إشارة إلى العرب ، و «الكتاب» هو القرآن ، والضمير في قوله تعالى : ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾ يحتمل أن يعود على [الكتاب] ، أو على محمد صلى الله عليه وسلم ، أو على «الأجل المسمى» ، أي في شك من البعث على قول من رأى أن الإشارة إلى العرب ، ووصف الشك بـ [مريب] مبالغة فيه .

قوله عز وجل :

﴿فَلِذَلِكَ فَادَعُ أَصْنَافَكُمْ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حِجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ١٥﴾ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ رُجُوعُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ١٦﴾

اللام في قوله تعالى : [فَلِذَلِكَ] قالت فرقة : هي بمنزلة «إلى» كما قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَدْعُوَكُمْ إِلَى ذِكْرِهِ وَإِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١) أي إليها ، كأنه قال :

(١) الآية (٥) من سورة (الزلزلة) .

فإلى ما وصَّى به الأنبياء من التوحيد فادَّعُ ، وقالت فرقة : بل هي بمعنى : «من أجل» ، كأنه قال : فمن أجل أن الأمر كذا ولكونه كذا فادَّعُ أنت إلى ربك وبلغ ما أُرسلت به .

وخطب صلى الله عليه وسلم بأمر الاستقامة وهو عليه الصلاة والسلام قد كان مستقيماً بمعنى : دُم على استقامتك ، وهكذا الشأن في كل مأمور بشيء هو متلبس به إنما معناه الدوام ، وهذه الآية ونحوها كانت نصب عين النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانت شديدة الموقع من نفسه ، أعني قوله تعالى : ﴿وَاسْتَقِمُّ كَمَا أُمِرْتَ﴾ لأنها جملة تحتها جميع الطاعات وتكاليف النبوة ، وفي هذا المعنى قال عليه الصلاة والسلام : (شَيَّبَتْنِي هُوْدٌ وَأَخَوَاتُهَا) ، فقليل له : لم ذلك ؟ فقال : لأن فيها ﴿فَاسْتَقِمُّ كَمَا أُمِرْتَ﴾ (١) ، وهذا الخطاب له صلى الله عليه وسلم بحسب قوته في أمر الله تعالى ، وقال هو عليه الصلاة والسلام لأئمة بحسب ضعفهم : (اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا) (٢) .

(١) أخرجه الترمذي في سورة (الواقعة) .

(٢) أخرجه في الطهارة ابن ماجه ومالك في موطئه ، وأخرجه الدارمي في الوضوء ، وأحمد في مسنده (٥-٢٧٧ ، ٢٨٢) ، وهو عن ثوبان رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (استقيموا ولن تحصوا ، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولن يحافظ على الوضوء إلا مؤمن) . قال ابن الأثير في النهاية : « أي : استقيموا في كل شيء حتى لا تميلوا ، ولن تطيقوا الاستقامة) من قوله تعالى : ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ﴾ ، أي لن تطيقوا عدّه وضبطه » .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ يعني قريشاً فيما كانوا يَهْوُونَهُ من أن يعظم محمد صلى الله عليه وسلم آلهتهم وغير ذلك ، ثم أمره الله تبارك وتعالى أن يؤمن بالكتب المنزلة قباه من عند الله تعالى ، وهو أمر يعم سائر أمته . وقوله تعالى : ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ قالت فرقة : اللام في [لِأَعْدِلَ] بمعنى «أن» . لأن التقدير : أُمِرْتُ بِأَنْ أَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ، وقالت فرقة : المعنى : وأُمِرْتُ بما أُمِرْتُ من التبايغ والشرع لكي أعدل ، فحذف من الكلام ما يدل الظاهر عليه . وقوله تعالى : ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ إلى آخر الآية منسوخ ما فيه من موادة بآية السيف . وقوله : ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي : لا جدال ولا مناظرة ، قد وضع الحق وأنتم تعاندون ، وفي قوله : ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ وعيد .

وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ ، قال ابن عباس رضي الله عنهما ، ومجاهد : إنها نزلت في طائفة من بني إسرائيل همّت برّد الناس عن الإسلام وإضلالهم ومجادلتهم بأن قالوا : كتابنا قبل كتابكم ، ونبيّنا قبل نبيّكم ، وديننا أفضل . فنزلت الآية في ذلك ، وقيل : بل نزلت في قريش لأنها كانت أبداً تجادل هذا المعنى ، وتطمع في ردّ الجاهلية ، و ﴿يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ معناه : في توحيدده ، أي بالإبطال والإلحاد وما أشبهه ، والضمير في ﴿مَنْ بَعْدَ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾

يحتمل أن يعود على الله تعالى ، أي : بعد ما دخل الناس في دينه ،
ويحتمل أن يعود على الشرع والدين ، ويحتمل أن يعود على محمد
صلى الله عليه وسلم . و [دَاحِضَةٌ] معناه : زاهقة ، والدَّحْضُ : الزَّلَق (١) ،
وباقى الآية وعيدٌ .

قوله عز وجل :

﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ
قَرِيبٌ ۝١٧ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا
وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ۚ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ۝١٨
اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ۝١٩ مَنْ كَانَ
يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۚ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا
وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ۝٢٠ ﴾

لَمَّا أَنهى الله تعالى القول على الذين يحتاجون في توحيد الله تعالى
ويرومون إخفاء نوره ، صدع في هذه الآية بصفته تعالى من إنزال
الكتاب الهادي للناس ، والكتاب هنا اسم جنس يعم جميع الكتب

(١) ويقال : دحضت رجله : زلقت ، ودحضت حجته : بطلت . ودحضت الشمس :
زالت عن كبد السماء كأنها زلقت .

المنزلة ، وقوله تعالى : [بِالْحَقِّ] يحتمل أن يكون المعنى : بأن كان ذلك حقاً واجباً للمصلحة والهدى ، ويحتمل أن يكون المعنى : مُضْمَناً الحق ، أي : بالحق في أحكامه وأوامره ونواهيه . و [الْمِيزَان] هنا : العدل ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والناس ، وحكى الثعلبي عن مجاهد أنه قال : هو هنا الميزان الذي بأيدي الناس .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولا شك أنه داخل في القول وجزء منه ، وكل شيء من الأمور فالعدل فيه إنما هو بتقدير ووزن مستقيم ، فيحتاج في الأجرام إلى آلة وهي العمود والكفتان التي بأيدي البشر ، ويحتاج في المعاني إلى هيئات في النفوس وفهوم توازن بين الأشياء .

وقوله تعالى : (وَمَا يُذَرِّكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ) وعيد للمشركين ، أي : فانظر في أي غرر هم ، وجاء لفظ [قَرِيبٌ] مذكراً من حيث تأنيث الساعة غير حقيقي ؛ وإذ هي بمعنى الوقت . ثم وصف تعالى حالة الجهلة المكذبين بها ، فهم لذلك يستعجلون بها ، أي يطلبون تعجيلها ليبيّن العجز من تحققها ، فالمصدق بها مشفق خائف ، والمكذب مستعجل مقيم لحجته على تكذيبه بذلك المستعجل به . ثم استفتح تعالى الإخبار عن الممارين في الساعة في أنهم في ضلال قد بعد بهم ،

فرجوعهم عنه صعب متعذر ، وفي هذا الاستفتاح مبالغة وتأكيد
وتهيئة لنفس السامع .

ثم رَجَى تبارك وتعالى عباده بقوله سبحانه : ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾ ،
و [لَطِيفٌ] هنا بمعنى رفيقٌ مُتَحَفٌّ (١) ، والعباد هنا : المؤمنون ومن سبق
له الخلود في الجنة ، وذلك أَنَّ الأعمال بخواتمها ، ولا لُطْفَ إِلَّا مَا آلَ
إِلَى الرحمة ، وأما الإنعام على الكافر في الدنيا فليس بلُطْفٍ بل هو
إملاءٌ واستدراج ، قال الجنيد : لطف بأوليائه حتى عرفوه ، ولو
لطف بالكفار لما جحدوه ، وقيل : لطفٌ بَأَنْ نشر عنهم المناقب
وستر عنهم المثالب (٢) ، وقيل : هو الذي لا يخاف إِلَّا عدله ، ولا يُرْجَى
إِلَّا فضله .

وقوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ﴾ معناه : إرادة عاملٍ مستعدٍّ
عارفٍ لا إرادة مُتَمَنٍّ لم يَدِنْ نفسه ، و «الْحَرْثُ» هنا عبارة عن
السعي والتَّكْسُبِ والإعداد ، ولما كان حرث الأرض أصلاً من أصول
المكاسب استُعير لكلُّ تَكْسُبٍ ، ومنه قول ابن عمر رضي الله عنهما :
« احرث لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » ،
وقوله تعالى : ﴿ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ وعُدُّ منتجز ، وقوله تعالى في حرث

(١) من التَّحَفِّي وهو الاهتمام والإكرام ، وفي اللسان : اللُطْفُ : البرُّ والتَّكْرِمَةُ
والتَّحَفِّي .

(٢) المناقب : الأفعال الكريمة والصفات الحميدة التي يَفْتَخِرُ بها الإنسان ، والمثالب :
العيوب والصفات القبيحة التي يُلْذَمُ بها .

الدنيا: (نُؤْتِه مِنْهَا) معناه: ما شئنا ولمن شئنا، فَرُبَّ مُمْتَحَنٍ مَضِيقٍ عَلَيْهِ حَرِيصٌ عَلَى حَرْثِ الدُّنْيَا مَرِيدٌ لَهُ لَا يُحْسِنُ بغيره، نعوذ بالله من ذلك، وهذا الذي لا يعقل غير الدنيا هو الذي نفى أن يكون له نصيب في الآخرة. وقرأ سلام: [نُؤْتِه] برفع الهاء، وهي لغة أهل الحجاز، ومثله قراءة أهل الحجاز: (فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ) (١)، برفع الهاء فيها.

قوله عز وجل:

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢) ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ (٢٣)

[أَمْ] هذه منقطعة لا معادة، وهي بتقدير «بل وألف الاستفهام»، و«الشركاء» في هذه الآية يحتمل أن يكون المراد بهم الشياطين

والمُغْوِينَ من أسلافهم ، ويكون الضمير في [لَهُمْ] للكفار المعاصرين
 لمحمد صلى الله عليه وسلم ، أي : شرع الشركاء لهم ما لم يأذن به
 الله ، فلاشتراك هنا هو في الكفر والغواية ، وليس بشركة الإشراف
 بالله تعالى ، ويحتمل أن يكون المراد بالشركاء الأصنام والأوثان على
 معنى : أم لهم أصنام جعلوها شركاء لله في ألوهيته ؟ ويكون الضمير
 في [شَرَعُوا] لهؤلاء المعاصرين من الكفار ولآبائهم ، والضمير في
 [لَهُمْ] للأصنام الشركاء ، أي : شرع هؤلاء الكفار لأصنامهم وأوثانهم
 ما لم يأذن به الله تعالى ، و [شَرَعُوا] معناه : أثبتوا ونهجوا ورسموا .
 و «الدين» هنا : العوائد (١) والأحكام والسيرة ، ويدخل في ذلك أيضاً
 المعتقدات ؛ لأنهم في جميع ذلك وضعوا أوضاعاً ، فأما في المعتقدات
 فقولهم : إن الأصنام آلهة ، وقولهم : إنهم يعبدون الأصنام زُفَى ،
 وغير ذلك ، وأما في الأحكام فكأبَحِيرَةَ وَالْوَصِيلَةَ وَالْحَامِي ، وغير
 ذلك من السوائب ونحوها ، و «الإِذْنُ» في هذه الآية : الأمر .

و «كلمة الفصل» هي ما سبق من قضاء الله تعالى بأن يؤخر عذابهم
 إلى الآخرة ، و «القضاء بينهم» هو عذابهم في الدنيا ومجازاتهم .
 وقرأ جمهور الناس : ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ بكسر الهمزة على القطع والاستئناف ،

(١) العوائد : جمع عادة ، وهي كل ما اعتاد الناس وألفوه فأصبحوا يفعلونه بغير جهد .

وقرأ مسلم بن جندب بفتح الهمزة ، وهي في موضع رفع عطف على [كَلِمَةٌ] ، المعنى : وأن الظالمين لهم في الآخرة عذاب .

وقوله تعالى : ﴿ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ ﴾ هي رؤية بصر ، و [الظَّالِمِينَ] مفعول ، و [مُشْفِقِينَ] حال ، وليس لهم في هذا الإشفاق مدح ؛ لأنهم إنما أشفقوا حين نزل بهم ووقع ، وليسوا كالمؤمنين الذين هم في الدنيا مشفقون من الساعة كما تقدم ، وقوله تعالى : ﴿ وَهَرُ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ في موضع الحال ، و «الرَّوَضَاتُ» : المواضع المُنُونَةُ النَّصْرَةُ ، وهي مرتفعة في الأغلب من الاستعمال ، وهي الممدوحة عند العرب وغيرهم ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ ﴾ (١) ، ومن ذلك تفضيلهم روضات الحزن (٢) لجودة هوائها ، قال الطبري : ولا تقول العرب لموضع الأشجار : رياض .

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ ﴾ إشارة إلى قوله تعالى في آية أخرى : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ (٣) .
وقرأ جمهور الناس : [يُبَشِّرُ] بضم الياء وفتح الباء وشدّ الشين مكسورة ،

(١) من الآية (٢٦٥) من سورة (البقرة) .

(٢) الحزن : ما غلظ من الأرض . وقال الأصمعي : الحزن : الجبال الغليظة ، والمراد بالغلظة الخشونة .

(٣) من الآية (٤٧) من سورة (الأحزاب) .

وذلك على التعدية والتضعيف ، وقرأ مجاهد ، وحُمَيْدٌ : [يُبَشِّرُ] بضم الياء وسكون الباء وكسر الشين ، على التعدية بالهمزة ، وقرأ ابن مسعود ، وابن يَعْمَر ، وابن أَبِي إِسْحَق ، والجحدري ، والأعمش ، وطلحة : [يُبَشِّرُ] بفتح الياء وضم الشين ، ورويت عن ابن كثير ، وقال الجحدري في تفسيرها : ترى النظرة في الوجوه .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ ، اختلف الناس في معناه - فقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : هي آية مكية نزلت في صدر الإسلام ، ومعناها استِكْفاف شر الكفار ، ودفع أذاهم ، أي : ما أسألكم على القرآن والدعاء إلى الله تعالى إِلَّا أَنْ تَوَدُّونِي لقِرابَةٍ بيني وبينكم ، فتكفوا عني إذاكم ، قال ابن عباس ، وابن إِسْحَق ، وقتادة : ولم يكن في قريش بطن إِلَّا ولرسول الله صلى الله عليه وسلم فيه نسبٌ أو صِهْرٌ (١) فالآية - على هذا - هي استعطافٌ ما ، ودفعٌ أذى ، وطلبٌ سلامة منهم ، وذلك كله منسوخ بآية السيف .

(١) أخرج أحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وابن جرير ، وابن مردويه : من طريق طاوس ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن قوله : ﴿ إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ ، فقال سعيد بن جبير رضي الله عنه : قُرْبَى آل محمد ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما : عَجِلْتَ - إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة ، فقال : إِلَّا أَنْ تَصِلُوا ما بيني وبينكم من القرابة .

ويحتمل هذا التأويل أن يكون معنى الكلام استدعاء نصرهم ، أي : لا أسألكم غرامة ولا شيئاً إلا أن تودوني لقرايتي منكم ، وأن تكونوا أولى من غيركم ، وقال مجاهد : إلا أن تصلوا رحمي باتباعي ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً ما يقتضي أنها مدنية ، وسببها أن قوماً من شباب الأنصار فاخروا المهاجرين ، ومالوا بالقول على قريش ، فنزلت الآية بذلك على معنى : إلا أن تودوني فتراعوني في قرايتي وتحفظوني فيهم ، وقال بهذا المعنى في الآية علي بن الحسن بن علي ابن أبي طالب رضي الله عنهم ، واستشهد بالآية حين سيق إلى الشام أسيراً ، وهو تأويل ابن جبير ، وعمر بن شعيب ، وعلى هذا التأويل قال ابن عباس رضي الله عنهما : قيل : يا رسول الله ، من قرابتك الذين أمرنا بمودتهم ؟ فقال : (علي وفاطمة وابناهما) (١) ، وقيل : هم ولد عبد المطلب .

(١) أخرجه ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه بسند ضعيف ، من طريق سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما . (الدر المنثور) ، وذكر ابن كثير في تفسيره أيضاً أن إسناده ضعيف ، فيه مذهب لا يعرف عن شيخ شيعي مخترق وهو حسين الأشقر ، ولا يقبل خبره في هذا المحل . وذكر نزول الآية في المدينة بعيد ، فإنها مكية ، ولم يكن إذ ذاك لفاطمة رضي الله تعالى عنها أولاد بالكلية ، فإنها لم تتزوج بعلي رضي الله عنهما إلا بعد بدر من السنة الثانية من الهجرة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقريش كلها عندي قُرْبَى وإن كانت تتفاضل . وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (من مات على حب آل محمد مات شهيداً ، ومن مات على بُغضهم لم يشم رائحة الجنة) (١) ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً في كتاب الثعلبي : سبب هذه الآية أن الأنصار جمعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم مالا وساقته إليه . فردّه عليهم ونزلت الآية في ذلك ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً : معنى الآية من قُرْبَى الطاعة والتزلف إلى الله تعالى ، كأنه قال : إِلَّا أَنْ تَوَدُّونِي لِأَنِّي أَقْرَبُكُمْ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى ، وأريد هدايتكم وأدعوكم إليها . وقال الحسن بن أبي الحسن : معناه : إِلَّا أَنْ تَتَوَدَّدُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ ، وقال عبد الله بن القاسم في كتاب الطبري : معنى

(١) هذا الحديث ذكره الثعلبي ، ونقله عنه القرطبي بأطول من هذا ، ففيه (من مات على حب آل محمد مات شهيداً ، ومن مات على حب آل محمد جعل الله زُوراً قبره الملائكة والرحمة ، ومن مات على بُغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه : أيس اليوم من رحمة الله . ومن مات على بُغض آل محمد لم يَرَحْ رائحة الجنة ، ومن مات على بُغض آل محمد فلا نصيب له في شفاعتي) ، وذكر هذا الخبر بأطول من هذا الترمذ في تفسيره ، والأحاديث الكثيرة المذكورة في حب آل البيت ، وأشهرها ما قاله ﷺ في إحدى خطبه : (إني تارك فيكم ما إن تمسكنم به لن تضلوا بعدي . أحدهما أعظم من الآخر : كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض ، والآخر عِشْرَةُ أَهْلِ بَيْتِي ، ولن يفرقا حتى يردا على الخوض . فانظروا كيف تخلفوني فيهما) ، أخرجه الترمذي عن زيد بن أرقم ، وكذلك أخرجه عنه الإمام أحمد في مسنده ، وفيه زيادة .

الآية : إِلَّا أَنْ تَتَوَدَّوْا بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَتَصْلُوا قُرَابَتَكُمْ . فالآية -
على هذا - أمر بصلة الرحم .

وذكر النقاش عن ابن عباس ، ومقاتل ، والسدي ، والكلبي أن
الآية منسوخة بقوله تعالى في سورة سبأ : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ
فَهُوَ لَكُمْ ﴾ (١) ، والصواب أنها مُحْكَمَةٌ . وعلى كل قول فلاستثناء
منقطع ، و [إِلَّا] بمعنى « لكن » (٢) .

و [يَقْتَرِفُ] معناه : يكتسب ، ورجلٌ قرفة إذا كان محتالاً كسوباً ،
وقرأت فرقة : [يَزِدُّ] على إسناد الفعل لله تعالى ، وقرأ جمهور الناس :
[نَزِدُّ] على نون العظمة ، وزيادة الحُسْنِ هو التضعيف الذي وعد
الله تعالى به مؤمني عباده ، قاله الحسن بن أبي الحسن ، و [غَفُورٌ]
معناه : سائرُ عيوب عبده ، و [شَكُورٌ] معناه : مجاز على الدقيقة من
الخير ، لا يضيع عنده عمل العامل .

(١) من الآية (٤٧) من سورة (سبأ) .

(٢) قال الطبري : « فالمعنى : قل لا أسألكم عليه أجراً ، لكني أسألكم المودة في القربى » .
وقال : « وأولى الأقوال بالصواب قول من قال : معناه : قل لا أسألكم عليه أجراً يا معشر
قريش إلا أن تَوَدَّوْني في قرابتي منكم ، وتصلوا الرَّحِمَ التي بيني وبينكم ... وفي دخول [في]
في الكلام أوضح الدليل على أن معناه : إِلَّا مَوَدَّتْني في قرابتي منكم » .

قوله عز وجل :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشِئِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ
وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (٢٤)
وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ
(٢٥) وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ
وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ (٢٦) * وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا
فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ (٢٧)

[أم] هذه أيضاً مقطوعة مُضمَّنة إضراباً عن كلام متقدم .
وتقريراً على هذه المقالة منهم . وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ يَشِئِ اللَّهُ يَخْتِمْ ﴾
معناه في قول قتادة وفرقة من المفسرين : يُنْسِيكَ القرآن ، والمراد
الرَّدُّ على مقالة الكفار وبيان إبطالها ، وذلك كأنه يقول : وكيف يصح
أن تكون مفترياً وأنت بمراى من الله تعالى ومسمع ، وهو قادر لو شاء
أن يختم على قلبك فلا تعقل ولا تنطق ولا يستمرُّ افتراؤك ، فمقصد
اللفظ هذا المعنى ، وحذف ما يدل عليه الظاهر اختصاراً واقتصاراً .
وقال مجاهد في كتاب الثعلبي وغيره : المعنى : فَإِنْ يَشِئِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى

قلبك بالصبر لأذى الكفار ، ويربط عليه بالجلد ، فهذا تأويل لا يتضمن الرد على مقالتهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ ﴾ فعل مستقبل (١) ، خبر من الله تعالى أنه يمحو الباطل ولا بد . إما في الدنيا وإما في الآخرة ، وهذا بحسب نازلة نازلة ، وكتبت [يَمْحُ] في المصحف بحاء مرساة كما كتبوا ﴿ وَيَذْعُ الْإِنْسَانُ ﴾ (٢) إلى غير ذلك مما ذهبوا فيه إلى الحذف والاختصار (٣) . وقوله تعالى : [بِكَلِمَاتِهِ] معناه : بما سبق في قديم عامه وإرادته من كون الأشياء ، فالكلمات : المعاني القائمة القديمة . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ خبر مضمّن وعيد .

ثم ذكر تعالى النعمة في تفضله بقبول التوبة عن عباده ، وقبول التوبة فيما يستأنف العبد من زمنه وأعماله مقطوع به بهذه الآية ، وأما ما سلف من أعماله فينقسم : فأما التوبة من الكفر فمأخوذة كل ما تقدمها من مظالم العباد الفانية ، وغير ذلك ، وأما التوبة من المعاصي فلاهل السنة فيها قولان : هل تذهب المعاصي السابقة للعبد بينه وبين خالقه سبحانه ؟ فقالت فرقة : هي مذهبة لها ، وقالت فرقة : هو

(١) في بعض النسخ : « فعل مستأنف » .

(٢) من الآية (١١) من سورة (الإسراء) .

(٣) ومنه قوله تعالى في الآية (١٨) من سورة (العلق) : ﴿ سَتَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾ .

في مشيئة الله تعالى ، وأجمعوا على أنها لا تُذهب مظالم العباد ، وحقيقة التوبة : الإقلاعُ عن المعاصي والإقبالُ والرجوعُ إلى الطاعات . ويلزمها الندم على ما فات والعزم على ملازمة الخيرات ، وقال سري السقطي : التوبةُ : العزمُ على ترك الذنوب والإقبالُ بالقلب إلى علام الغيوب سبحانه وتعالى ، وقال يحيى بن معاذ : التائب من كسر شبابه على رأسه ، وكسر الدنيا على رأس الشيطان ، ولزم الفطام حتى أتاه الحمام . وقوله تعالى : ﴿ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ بمعنى : من عباده . وكأنه تعالى قال : التوبة الصادرة عن عباده . وقرأ جمهور القراء . والأعرج ، وأبو جعفر ، والجحدري ، وقتادة : [يَفْعَلُونَ] بالياء على الكناية عن غائب ، وقرأ حمزة . والكسائي . وحفص عن عاصم . وابن مسعود . وعلقمة : [تَفْعَلُونَ] بالتاء على المخاطبة ، وفي الآية توعد .

وقوله تعالى : [وَيَسْتَجِيبُ] ، قال الزجاج ، وغيره : معناه : يُجيب ، والعربُ تقول : أجاب واستجاب بمعنى ، ومنه قول الشاعر :
وداع دعا يا من يُجيبُ إلى الندى فلم يستجبه عند ذاك مُجيبُ (١)

(١) هذا البيت لكعب بن سعد الغنوي ، وهو من قصيدة طويلة ذكرها الأصمعي في الأصمعيات مَقْسَمَةً إلى قصيدتين . وفي جمهرة أشعار العرب منسوبة إلى « محمد بن سعد الغنوي » . وهو خطأ واضح ، وقد قالها كعب في رثاء أخيه أبي المغوار الذي قتل في وقعة ذي قار ، وفيها كلام كثير ، قال عنها الأصمعي : « ليس في الدنيا مثلاً » . وقال أبو هلال العسكري : « ليس للعرب مرثية أجود منها » . - راجع الموشح - وديوان المعاني . والأصمعيات ، =

و [الَّذِينَ] - على هذا القول - مفعولٌ بـ [يَسْتَجِيبُ] ، وروي هذا المعنى عن معاذ بن جبل رضي الله عنه (١) ، ونحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وقالت فرقة : المعنى : ويستدعي الذين آمنوا الإجابة من ربهم بالأعمال الصالحة ، - ودلّ قوله تعالى : ﴿ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ على أن المعنى : «فَيُجِيبُهُمْ» - ، وحملت هذه الفرقة «استجاب» على المعهود من باب «استفعل» : أي طلب الشيء ، و [الَّذِينَ] - على هذا القول - فاعل بـ [يَسْتَجِيبُ] . وقالت فرقة : المعنى : ويُجيب المؤمنون ربهم ، ف [الَّذِينَ] فاعل بمعنى : يعجبون دعوة شرعه ورسالته ، والزيادة من فضله هي تضعيف الحسنات ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (هي قبول الشفاعات في المؤمنين والرضوان) (٢) .

= والجمهرة . ومنتهى الطلب . والسَّمَطُ ، وغيرها - والبيت في لسان العرب : وبعده يقول : فَقُلْتُ ادْعُ أُخْرَى وارْفَعْ الصَّوْتَ دَعْوَةً لَعَلَّ أَبَا الْمَغُورِ مِمَّنْكَ قَرِيبُ قال في اللسان : «والإجابة : رجوع الكلام . تقول : أجابه إجابةً واستجابته واستجاب له ، قال كعب بن سعد الغنوي يرثي أخاه أبا المغوار ... ثم ذكر البيت» .

(١) روى ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، من حديث الأعمش ، عن سلمة بن سبرة ، قال : خطبنا معاذ رضي الله تعالى عنه بالشام فقال : «أنتم المؤمنون ، وأنتم أهل الجنة . والله إني لأرجو أن يدخل الله تعالى من تسبون من فارس والروم الجنة ، وذلك بأن أحدكم إذا عمل له - يعني أحدهم - عملاً قال : أحسنت رحمك الله . أحسنت بارك الله فيك ، ثم قرأ : ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ، ذكر ذلك ابن كثير في تفسيره . وزاد السيوطي في الدر المنثور نسبة الحديث إلى ابن المنذر . والحاكم ، وقال : إنه صحيح الحديث .

(٢) ذكر ابن كثير في تفسيره أن ابن أبي حاتم أخرجه من طريق الأعمش عن شقيق ، عن عبد الله رضي الله عنه . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : =

وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ ، قال عمرو بن حُرَيْث (١) وغيره : إنها نزلت لأن قوماً من أهل الصُّفة طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُغنيهم الله تعالى ، ويبسط لهم الأرزاق والأموال ، فأعلمهم تعالى أنه لو جاء الرزق على اختيار البشر واقتراحهم لكان سبب بغيهم وإفسادهم ، ولكنه عز وجل أعلم بالمصلحة في كل أحد . وله بعبيده خبرة وبصراً بأخلاقهم ومصالحهم ، فهو ينزل لهم من الرزق القدر الذي به صلاحهم ، فرب إنسان لا يصلح ولا تكتف عاديته إلا بالفقر ، وآخر بالغنى ، وروى أنس بن مالك في هذا المعنى والتقسيم حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال أنس رضي الله عنه : اللهم إني من عبادك الذين لا يصلحهم إلا الغنى فلا تفقرني (٢) . وقال خَبَّاب بن الْأَرْت : فينا نزلت لأنا نظرنا

= ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ قال : « الشفاعة لمن وجبت له النار ممن صنع إليهم معروفاً في الدنيا » .

(١) هو عمرو بن حُرَيْث بن عمرو بن عثمان بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، القرشي ، المخزومي . صحابي صغير ، قال عنه الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني : « مات سنة خمس وثمانين » . (تقريب التهذيب) .

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره دون ذكر الراوي . وذكره القرطبي بأطول من هذا ، عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى ، قال : (من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة . وإني لأسرع شيء إلى نصرته أوليائي ، وإني لأغضب لهم كما يغضب اللئيم الخرد . وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض روح عبدي المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره إساعته ، ولا بد له منه ، وما تقرب إلي عبدي المؤمن بمثل أداء ما افترضت عليه ، وما يزال عبدي المؤمن يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته =

إلى أخوال بني قريظة وبني النضير وبني قينقاع فتمنيهاها (١) .
قوله عز وجل :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ
الْحَمِيدُ ۝ (٢٨) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ
وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ۝ (٢٩) وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ
أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ۝ (٣٠) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ
مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝ (٣١) وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ
كَأَلَّاغْلَمٍ ۝ (٣٢) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝ (٣٣) ﴾

كنت له سمعاً وبصراً ولساناً ويداً ومؤيداً ، فإن سألتني أعطيته ، وإن دعاني أجبتني ، وإن من عبادي المؤمنين من يسألني الباب من العبادة وإني عليهم أن لو أعطيته إياه لدخله العجب فأفسده ، وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده الفقر ، وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده الغنى ، وإني لأدبر عبادي بقلوبهم فإني عليهم خير) ، ثم قال أنس : « اللهم إني من عبادك المؤمنين الذين لا يصلحهم إلا الغنى فلا تفقرني برحمتك » . وقد روى الجزء الأول من هذا الحديث البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب الرقاق . وأحمد في مسنده ٦-٢٥٦ عن عائشة رضي الله تعالى عنها . وتنتهي روايتهما عند قوله : (وأنا أكره إساءته) ، وإن كان اللفظ فيهما : (أكره مساءته) .

(١) ذكر الواحدي في « أسباب النزول » هذا السبب عن خباب بن الارت بدون سند ، وذكره أيضاً كل من الخازن والبغوي في تفسيرهما عن خباب بدون سند أيضاً ، وروى ابن جرير عن عمرو بن حريث أنه قال : « يقولون : إنما نزلت في أهل الصفّة » . وخباب رضي الله عنه صحابي جليل ، من السابقين إلى الإسلام ، عذب في الله فكان من الصابرين ، ومات بالكوفة سنة سبع وثلاثين .

هذا تعديد نعم الله تعالى الدالة على وحدانيته ، وأنه الإله الذي يستحق أن يعبد دون ما سواه من الأنداد ، وقرأ : [يُنَزَّلُ] بالثقل جمهور القراء ، وقرأ [يُنَزَّلُ] مخففة ابن وثاب ، والأعمش ، ورويت عن أبي عمرو ، ورجحها أبو حاتم ، وقرأ جمهور الناس : [قَنَطُوا] بفتح النون ، وقرأ يحيى بن وثاب عن الأعمش بكسر النون ، وقد تقدم ذكرها ، وهما لغتان ، يقال : قَنَطَ وقَنِطَ ، وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قيل له : أجذبت الأرض وقنط الناس ، فقال : مُطِرُوا إذا ، بمعنى : إن الفرج عند الشدة .

واختلف المتأولون في قوله تعالى : ﴿ وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ - فقالت فرقة : أراد بالرحمة المطر ، وعدد النعمة بعينها بلفظين الثاني منهما يؤكد الأول ، وقالت فرقة : الرحمة في هذا الموضع : الشمس ، فذلك تعديد نعمة غير الأولى . وذلك أن المطر إذا ألمَّ بعد القنط حسن موقعه ، فإذا دام سُمِّم فتجئ الشمس بعده عظيمة الموقع . وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ أي : من هذه أفعاله فهو الذي ينفع إذا والى ، وتُحمد أفعاله ونعمه ، لا كالذي لا يضر ولا ينفع من أوثانكم .

ثم ذكر تعالى الآية الكبرى ، والصنعة الدالة على الصانع ، وذلك خلقه السموات والأرض ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ يتخرج على وجوه : منها أن يريد أحدهما فيذكر الاثنين ، كما قال

تبارك وتعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ (١)، وذلك إنما يخرج من الملح وحده ، ومنها أن يكون تعالى قد خلق السموات وبث دواب لا نعلمها نحن ، ومنها أن يريد الحيوانات التي توجد في السحاب وقد تقع أحياناً كالضفادع ونحوها . فإن السحاب داخل في اسم السماء . وحكى الطبري عن مجاهد أنه قال في تفسير ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ هم الناس والملائكة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وبعيد غير جارٍ على عُرف اللغة أن تقع الدابة على الملائكة . وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ يريد : يوم القيامة عند الحشر من القبور .

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾ ، قرأ جمهور القراء : [فَبِمَا] بفاء ، وكذلك هي في جُلِّ المصاحف ، وقرأ نافع ، وابن عامر ، وأبو جعفر ، وشيبة : [بِمَا] دون فاء ، وحكى الزجاج أن أبا جعفر وغيره (٢) من المدنيين أثبت الفاء ، قال أبو علي الفارسي : [أَصَابَ] من قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَ﴾ يحتمل أن تكون في موضع

(١) الآية (٢٢) من سورة (الرحمن) .

(٢) في بعض النسخ : « أن أبا جعفر وحده » .

جزم وتكون [ما] شرطية ، وعلى هذا لا يجوز حذف الفاء عند سيبويه ، وجوز حذفها أبو الحسن الأخفش وبعض البغداديين على أنها مُرادَة في المعنى (١) ، ويحتمل أن يكون قوله : [أصابَ] صِلَةً لـ [ما] ، وتكون [ما] بمعنى «الذي» ، وعلى هذا يجوز حذف الفاء وثبوتها ، لكن معنى الكلام مع ثبوتها بالتلازم ، أي : لولا كَسْبُكُمْ لما أصابتكم مصيبة ، والمصيبة إنما هي بسبب كَسْبِ الأيدي ، ومعنى الكلام مع حذفها يجوز أن يكون التلازم ، ويجوز أن يُعرَى منه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وأما في هذه الآية فالتلازم مطرد مع الثبوت والحذف ، وأما معنى الآية فاختلف الناس فيه - فقالت فرقة : هي إخبارٌ من الله تعالى ، فإن الرزايا والمصائب في الدنيا إنما هي مجازاة من الله تعالى على ذنوب المرء . وتمحيص لخطاياهم ، وإنَّ الله تعالى يعفو عن كثير فلا يعاقب عليه بمصيبة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لا يصيب ابن آدم خدش عود أو عشرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب ، وما يعفو عنه أكثر) (٢) ، وقال عمران بن حصين وقد سئل عن مرضه : « إِنَّ أَحَبَّهُ

(١) ودليلهم على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ بدون فاء في [إِنَّكُمْ] .

(٢) أخرجه سعيد بن منصور ، وهناد ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن الحسن البصري رضي الله عنه ، ولفظه كما في الدر المنثور : قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : =

إِلَى أَحَبِّهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَهَذَا مِمَّا كَسَبَتْ يَدَايَ ، وَعَفُو رَبِّي سَبْحَانَهُ
 كَثِيرٌ » ، وَقَالَ مُرَّةُ الهمداني : رَأَيْتَ عَلَى ظَهْرِ كَفِّ شَرِيحَ قُرْحَةٍ ،
 فَقُلْتُ مَا هَذَا ؟ فَقَالَ : « هَذَا بِمَا كَسَبَتْ يَدَيَّ . وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ » ،
 وَقِيلَ لِأَبِي سُلَيْمَانَ الداراني : مَا بَالُ الْفَضْلَاءِ لَا يَلُومُونَ مِنْ أَسَاءَ إِلَيْهِمْ ؟
 فَقَالَ : لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي ابْتَلَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ، وَرَوَى
 عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 أَنَّهُ قَالَ : (إِنْ اللَّهُ أَكْرَمَ مِنْ أَنْ يُثْنِيَ عَلَى عَبْدِهِ الْعَقُوبَةُ إِذَا أَصَابَتْهُ
 فِي الدُّنْيَا مُصِيبَةٌ بِمَا اكْتَسَبَتْ يَدَاهُ) (١) ، وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ :
 مَعْنَى الْآيَةِ فِي الْحُدُودِ ، أَيُّ : مَا أَصَابَكُمْ مِنْ حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ تَبَارَكَ
 وَتَعَالَى - وَتِلْكَ مُصِيبَةٌ تَنْزِلُ بِشَخْصِ الْإِنْسَانِ وَنَفْسِهِ - فَإِنَّمَا هِيَ بِكَسْبِ
 أَيْدِيكُمْ ، وَيَعْفُو اللَّهُ سَبْحَانَهُ عَنْ كَثِيرٍ فَيَسْتَرِهِ عَلَى الْعَبْدِ حَتَّى لَا يُحَدِّثَ عَلَيْهِ .
 ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ قُصُورِ ابْنِ آدَمَ وَضَعْفِهِ ، وَأَنَّهُ فِي قَبْضَةِ الْقُدْرَةِ ،
 وَلَا يَعْبُزُ طَلَبُ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَلَا يُمْكِنُ الْفِرَارُ مِنْهُ .

= (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْ خَدَشٍ عَوْدَ . وَلَا اخْتِلَاجٍ عَرَقَ . وَلَا نَكْبَةٍ حَجَرَ . وَلَا عَثْرَةَ
 قَدَمٍ إِلَّا بِذَنْبٍ ، وَمَا يَعْفُو اللَّهُ عَنْهُ أَكْثَرُ) .

(١) أَخْرَجَ أَحْمَدُ ، وَابْنُ رَاهَوِيَةَ ، وَابْنُ مَنِيْعٍ ، وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ ، وَالْحَكِيمُ التِّرْمِذِيُّ ،
 وَأَبُو يَعْلَى ، وَابْنُ الْمُنْذِرِ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ . وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ ، وَالْحَاكِمُ ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ حَدَّثَنَا بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟
 ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ . وَسَأَفْسِرُهَا
 لَكُمْ يَا عَلِيُّ ، مَا أَصَابَكَ مِنْ مَرَضٍ أَوْ عَقُوبَةٍ أَوْ بَلَاءٍ فِي الدُّنْيَا فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ . وَاللَّهُ أَكْرَمُ
 مِنْ أَنْ يُثْنِيَ عَلَيْكُمْ الْعَقُوبَةُ فِي الْآخِرَةِ . وَمَا عَفَا اللَّهُ عَنْهُ فِي الدُّنْيَا فَاللَّهُ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَعُودَ بَعْدَ
 عَفْوِهِ . (الدَّرُ الْمَثُورُ) .

و «الجواري» : جمع جارية ، وهي السفينة ، وقرأ : [أَلْجَوَارِي] بالياء نافع ، وعاصم ، وأبو جعفر ، وشيبة ، ومنهم من أثبتتها في الوصل ووقف على الراء ، وقرأ أيضاً عاصم بحذف الياء في وصل ووقف ، وقال أبو حاتم : نحن نُثبتها في كل حال ، و «الأعلام» : الجبال ، ومنه قول الخنساء :

وإنَّ صَخْرًا لَتَأْتُمُ الْهُدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عِلْمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ (١)
ومنه المثل : «إذا قطعن علماً بدا علم» (٢) ، فَجَرِيُّ السفن في الماء آية عظيمة ، وتسخير الريح لذلك نعمة منه تعالى ، وهو لو شاء أن يُسكن الرياح عنها لركدت ، أي أقامت وقرت ولم يتم منها غرض . وقرأ

(١) هذا البيت يمثل في الشهرة ، وهو من قصيدة مشهورة قالتها الخنساء ، وهي أم عمرو ، تُماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد ، ويروى الشطر الأول : (أَغْرَأُ أَبْلَجُ تَأْتُمُ الْهُدَاةُ بِهِ) ، والعلم : الجبل ، وجمعه أعلام ، وهو موضع الاستشهاد هنا .
(٢) جاء في (مجمع الأمثال) للميداني : «إذا قَطَعْنَا علماً بدا علم» ، الجبل يقال له : علم ، أي : إذا فرغنا من أمر حدث أمر آخر ، هكذا بألف بعد النون في (قَطَعْنَا) .
(وفي المستقصى في أمثال العرب) للزمخشري : «إذا قَطَعْنَا علماً بدا علم» هو من قول جرير :

أَقْبَلْنَ مِنْ ثَهْلَانَ أَوْ وَادِي خَيْمٍ عَلَى قِلاصٍ مِثْلَ خَيْطَانِ السَّلَمِ
إِذَا قَطَعْنَا علماً بدا علم حَتَّى أَنْخَنَاهَا عَلَى بَابِ الْحَكَمِ
خَلِيفَةُ الْحَجَّاجِ غَيْرِ الْمُتَهَمِ فِي ضَيْضِي الْمَجْدِ وَبُحْبُوحِ الْكَرَمِ
والضمير للأبل ، وكلام الزمخشري أدق وأضبط من كلام الميداني ، وثهلان : جبل ، والقلاص : جمع قاوص وهي الناقة التي سمت في سنامها ، وكذلك الحمل ، أو هي الفتيّة من الإبل ، والضئضي : الأصل ، يقال : هو من ضئضي كريم .

أبو عمرو ، وعاصم : [الرَّيْحَ] واحدة ، وقرأ : [الرِّيَّاحَ] نافع ، وابن كثير ، والحسن . وقرأ الجمهور : [فَيَظْلِلْنَ] بفتح اللام ، وقرأ قتادة : [فَيَظْلِلْنَ] بكسر اللام . وباقي الآية بَيْنٌ ، فيه الموعظة ، وتشريف الصَّابِرِ الشُّكُورِ بالتخصيص ، والصبر والشكر فيهما الخير كله ، ولا يكونان إلا في عالم .

قوله عز وجل :

﴿أَوْ يُوقَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ ٣٤ ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّخِصٍ﴾ ٣٥ ﴿فَأُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَنَعَ الْحَبَوَّةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ٣٦ ﴿وَالَّذِينَ يَحْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ ٣٧ ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ٣٨ ﴿

أُوبَقْتُ الرجل : إذا أنشبت في أمر يهلك فيه ، فالإيقاق في السفن هو تغريقها ، والضمير في [كَسَبُوا] هو لركابها من البشر ، أي : بذنوب البشر ، ثم ذكر تعالى ثانية ﴿وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ مبالغة وإيضاحاً ، وقرأ نافع ، وابن عامر ، والأعرج ، وأبو جعفر ، وشيبة :

[وَيَعْلَمُ] بالرفع على القطع والاستئناف ، وحسن ذلك إذا جاء بعد
الجزاء ، وقرأ الباقون والجمهور : [وَيَعْلَمُ] بالنصب على تقدير
(أَنْ) ، وهذه الواو ونحوها هي التي يسميها الكوفيون «وَاوُ الصَّرْفِ» (١) ؛
لأن حقيقة واو الصرف هي التي تريد بها عطف فعل على اسم فتقدر
(أَنْ) لتكون مع الفعل بتأويل المصدر فيجيء عطفه على الاسم (٢) ،
وذلك نحو قول الشاعر :

..... تَقْضِي لُبَانَاتٍ وَيَسَامُ سَائِمٌ (٣)

(١) معنى الصرف أنه كان على جهة فصرف إلى غيرها فتَغَيَّرَ الإعرابُ لأجل الصرف ،
قال ذلك أبو عبيد ، ومثَّلَ له بقوله تعالى في سورة آل عمران : ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ
جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ ، وقال : إن العطف لا يعيِّن الاقتران في الوجود
كالعطف في الاسم نحو (جاء زيد وعمرو) ، ولو نصب فقيل : (وَعَمَرُوا) اقتضى الاقتران ،
وكذلك «واو الصرف» تفيد معنى الاقتران ، ولذلك أجمع على النصب في قوله تعالى : ﴿وَيَعْلَمُ
الصَّابِرِينَ﴾ أي : ويعلم المجاهدين والصابرين معاً .

(٢) نقل أبو حيان الأندلسي هذا الكلام ثم علّق عليه بقوله : «وليس قوله تعليلاً لقولهم :
«واو الصَّرْفِ» إنما هو تقدير لمذهب البصريين ، وأما عند الكوفيين فإن «واو الصرف»
ناصبية بنفسها لا بإضمار (أَنْ) بعدها » .

(٣) هذا عجز بيت قاله الأعشى من قصيدة له يهجو يزيد بن مسهر الشيباني ، والبيت بتمامه :

لَقَدْ كَانَ فِي حَوْلِ ثَوَاءٍ ثَوِيَّتُهُ تَقْضِي لُبَانَاتٍ وَيَسَامُ سَائِمٌ

وهو في الديوان ، وابن الشجري ، وابن يعيش ، وشرح شواهد المغني ، وكتاب سيبويه ،
والثَوَاءُ : طول الإقامة ، ثَوَى يَثْوِي ، وَلُبَانَاتٍ : جمع لُبَانَة وهي الحاجة ، وقضاء
اللُبَانَة هو تحقيق الغرض والغاية التي يسعى إليها الإنسان ، وقيل : اللُبَانَة : الحاجة من غير فاقة
ولكن من هِمَّة ، وَالسَّامُ : المسأل ، والشاهد فيه أن (تَقْضِي) اسم بمعنى قضاء ، ولهذا
نصبوا الفعل (يَسَامُ) ليتمكن العطف على الاسم ، ويكون تقدير الكلام : لقد كان في هذا
الحول الذي ثويته قضاء لبانات وسامة سائم ، قال هذا في شرح الأخفش ، وقد روي البيت
في كتاب سيبويه : (تَقْضِي لُبَانَاتٍ وَيَسَامُ سَائِمٌ) على أن (تَقْضِي) فعل مبني للمفعول =

فكأنه أراد : وسَامَةٌ سَائِمٌ ، فتقدر «وَأَنْ يَسَامَ» ليكون ذلك بتأويل المصدر الذي هو «سَامَةٌ» ، قال أبو علي : حسن النصب إذا كان قبله شرط وجزاء وكل واحد منهما غير واجب .

وقوله تعالى : ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ ﴾ هو معلومهم الذي أراد أن يعلمه المجادلون في آياته عز وجل ، و «المحيص» : المنجى وموضع الروغان ، يقال : حاص إذا راغ ، وفي حديث هرقل : (فحاصوا حِيصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَى الْأَبْوَابِ) (١) . ثم وعظ تعالى عباده وحَقَّرَ عندهم أمر الدنيا وشأنها ، ورَغَّبَهُمْ فيما عنده من نعيمهم والمنزلة الرفيعة لديه ، وعظَّم قدر ذلك في قوله تعالى : ﴿ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ الآية .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ ﴾ عطف على قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (٢) ، وقرأ جمهور القراء : [كَبَائِرَ] على الجمع ، قال الحسن :

= (لِبَانَاتٍ) نائب فاعل بها . و (يَسَامُ) فعل مرفوع وهو معطوف على (تُقَضَّى) ، ويكون الشاهد هو رفع (يَسَامُ) لأنه خبر واجب معطوف على (تُقَضَّى) ، واسم (كان) مضمرة فيها . والتقدير : لقد كان الأمر تقضى لبانات في الحول الذي ثويت فيه ويسام من أقام فيه لظوله ، وعلى هذا فلا شاهد فيه في بحثنا هنا .

(١) هذا جزء من حديث طويل رواه البخاري في كتاب بدء الوحي ، وفي تفسير سورة النساء ، وأبو داود ، والترمذي في الجهاد ، وأحمد في مسنده (٢-٧٠-١٠٠) ، عن أبي سفيان بن حرب ، وقد كان في تجارة مع بعض العرب في الشام ، وعلم هرقل بأمره وأمر أصحابه فجمعهم وسأهم عن النبي صلى الله عليه وسلم ، عن أصله ونسبه ودعوته ومبادئه ، واقتنع بها فجمع أهل حمص ، وجمع عظماء الروم ، ثم أمر بدسكرة له فغلقت أبوابها عليهم ، ودعاهم إلى متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام . كما جاء في الحديث (فحاصوا حِيصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ ، فلما رأى هرقل هذا منهم أخبرهم أنه كان يختبرهم) . راجع صفحة ١٢٩ من هذا الجزء .

(٢) فهو في موضع جر .

هي كلُّ ما تُوَعِّدُ فيه بالنار ، وقال الضحاك : أو كان فيه حدٌّ من الحدود ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : الكبائر من أول سورة النساء إلى رأس ثلاثين آية ، وقال علي بن أبي طالب ، وابن عباس رضي الله عنهم : هي كل ما ختمه الله تعالى بنارٍ أو غضب أو لعنة أو عذاب ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم (١) : [كَبِيرًا] على الإفراد الذي هو اسم الجنس ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كبير الإثم هو الشرك والفواحش ، وقال السدي : الزنى ، وقال مقاتل : موجبات الحدود ، ويحتمل أن يكون [كَبِيرًا] اسم جنس بمعنى « كبائر » فتدخل فيه الموبقات السبع على ما قد تفسر من أمرها في غير هذه الآية . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ حضٌّ على كسر الغضب والتدرب في إطفائه ؛ إذ هو جمرة من جهنم ، وباب من أبوابها ، وقال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم : أوصني ، قال : (لا تغضب) ، قال : زدني ، قال : (لا تغضب) (٢) ، ومن جاهد هذا العارض من نفسه حتى غلبه فقد كفي همًا عظيمًا في دنياه وآخرته .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ ﴾ مدحٌ لكل من آمن بالله تعالى وقبل شرعه ، ومدح تعالى القوم الذين أمرهم شورى بينهم

(١) أي في رواية أبي بكر عنه ؛ لأن رواية حفص عنه بالجمع [كَبَائِرًا] كما هي ثابتة في المصحف الشريف .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب ، والترمذي في البر ، ومالك في حسن الخلق ، وأحمد في مسنده (٣٤-٥ ، ١٧٥-٢ ، ٣٦٢ ، ٤٨٤-٣) ، وهو عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وفي البخاري أنه كرر ذلك مراراً .

لأن في ذلك اجتماع الكلمة ، والتحابُّ واتصال الأيدي ، والتعاضد على الخير ، وفي الحديث (ما تشاور قوم قط إلا هتدوا لأحسن ما بحضورتهم) (١) ، وقوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ معناه : في سبيل الله وبرسم الشرع وعلى حدوده في القوام الذي مدحه الله تعالى في غير هذه الآية .

وقال ابن زيد : قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ ﴾ الآية نزلت في الأنصار ، والظاهر أن الله تعالى مدح كل من اتصف بهذه الصفة كائناً من كان ، وهل حصل الأنصار في هذه الصفة إلا بعد سبق المهاجرين إليها ؟ رضي الله تعالى عن جميعهم بمنه .

قوله عز وجل :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ (٢٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٣٠) وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٣١) ﴿

مدح الله تعالى في هذه الآية قوماً بالانتصار من البغي ، ورجع ذلك قوم من العلماء ، وقالوا : الانتصار بالواجب تغيير

(١) قال في الدر المنثور : « أخرج عبد بن حميد ، والبخاري في الأدب ، وابن المنذر ، عن الحسن رضي الله عنه ، قال : ما تشاور قوم قط إلا هتدوا وأرشد أمرهم . ثم تلا ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ ، ومعنى هذا أنه غير مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

منكر ، ومن لم ينتصر مع إمكان الانتصار فقد ترك تغيير المنكر .
 واختلف الناس في المراد بالآية بعد اتّفاقهم على أن من بُغي عليه
 وظلم فجائز له أن ينتصر بيد الحق وحاكم المسامحين - فقال مقاتل :
 الآية في المجروح ينتصف من الجارح بالقصاص .

وقالت فرقة : إنها نزلت في بغي المشرك على المؤمن ، فأباح الله
 تعالى له الانتصار منه دون تعدٍّ ، وجعل العفو والإصلاح مقروناً
 بأجر ، ثم نسخ جميع ذلك بآية السيف ، وقالت هذه الفرقة -
 وهي الجمهور - : إن المؤمن إذا بغى على مؤمن وظلمه فلا يجوز للآخر
 أن ينتصف منه بنفسه ويُجَازيه على ظُلمه ، مثال ذلك أن يخون
 إنسان آخر ، ثم يتمكن الآخر من خيانة الأول ، فمذهب مالك رحمه
 الله تعالى ألا يفعل ، وهو مذهب جماعة عظيمة معه ، ولم يروا هذه
 الآية من هذا المعنى ، واحتجوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم : (أدِّ
 الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك) (١) ، وهذا القول أنزله
 وأقرب إلى الله تبارك وتعالى .

(١) أخرجه أبو داود ، والترمذي ، والدارمي في البيوع ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ،
 وفي مسند أحمد عن رجل من أهل مكة يقال له : يوسف ، قال : كنت أنا ورجل من قريش نلي
 مال أيتام ، قال : وكان رجل قد ذهب مني بألف درهم ، قال : فوقع له في يدي ألف درهم ،
 قال : فقلت للقرشي : إنه قد ذهب لي بألف درهم ، وقد أصبت له ألف درهم . قال : فقال
 القرشي : حدثني أبي أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (أدِّ الأمانة إلى من
 ائتمنك ، ولا تخن من خانك) .

وقالت طائفة من أهل العلم : هذه الآية عامة في المشركين والمؤمنين ، ومن بُغي عليه وظلم فجائز له أن ينتصف لنفسه . ويخون من خانه في المال حتى ينتصر منه . وقالوا : إن الحديث (ولا تَخُنْ من خالك) إنما هو في رجل سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل يزني بِحُرْمَةٍ من زنى بِحُرْمَتِهِ ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ذلك يريد به الزنى .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وكذلك ورد الحديث في معنى الزنى ، ذكر ذلك الرواة ، أما إنَّ عمومهُ ينسحب في كل شيء .
وقوله تعالى : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ ، قال الزجاج : سَمَّى العقوبة باسم الذنب .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا إذا أخذنا السيئة في حق الله تعالى بمعنى المعصية ، وذلك أن المجازاة من الله تعالى ليست سيئة إلا إن سُميت باسم موجبها ، وأما إن أخذنا السيئة بمعنى المصيبة (١) في حق البشر ، أي : يسوء هذا هذا ويسوؤه الآخر ، فلسنا نحتاج إلى أن نقول : « سَمَّى العقوبة باسم الذنب » ، بل الفعل الأول والفعل الآخر سيئة ، وقال ابن أبي نجيح ، والسدي : معنى هذه الآية أن الرجل إذا شتم بشتمه فله أن

(١) في بعض النسخ : « بمعنى المعصية » ، ولا معنى لها هنا .

يردها بعينها دون أن يتعدى ، وقال الحسن بن أبي الحسن : ما لم تكن حداً أو عوراء جداً ، واللام في قوله : ﴿ وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ ﴾ لام التقاء القسم (١) . وقوله تعالى : ﴿ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ يريد : من سبيل حرج ولا سبيل حكم . وهذا بلاغ في إباحة الانتصار والخلاف فيه ، هل هو بين المؤمن والمشرک أو بين المؤمنين على ما تقدم ؟

قوله عز وجل :

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ
بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٤٢ ﴾ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ
عَزْمِ الْأُمُورِ ٤٣ ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ ٤٤ ﴾ وَتَرَى
الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ٤٥ ﴾ وَتَرَى
يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الْإِنْسَانِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ
آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ
الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ٤٥ ﴿

المعنى : إنما سبيل الحكم والإثم على الذين يظلمون الناس ، أي الذين يضعون الأشياء غير مواضعها ، من القتل وأخذ المال والأذى باليد

(١) أي اللام التي يتلقى بها القسم ، والقسم قبلها محذوف .

وباللسان ، و «البَغْيُ» بغير الحق هو نوع من أنواع الظلم خصه بالذكر تنبيهاً على شدته وسوء حال صاحبه ، ثم توعدهم تعالى بالعذاب الأليم في الآخرة . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ اعتراض بين الكلامين ، ثم عاد في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ ﴾ إلى الكلام الأول ، كأنه تعالى قال : « وَلَمَنْ انتصر بعد ظلمه فأُولَئِكَ ما عليهم من سبيل ، ولمن صبر وعَفَرَ » ، واللام في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ ﴾ يصح أن تكون لام القسم ، ويصح أن تكون لام الابتداء ، و [مَنْ] ابتداء ، وخبره في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ ﴾ (١) . و «عَزَمُ الْأُمُورِ» : مُحْكَمُهَا وَمُتَقَنُّهَا والحميد العاقبة منها . ومن رأى أن هذه الآية هي فيما بين المؤمنين والمشركون وأن الصبر للمشركون كان أفضل قال : إن الآية نُسخت بآية السيف ، ومن رأى أن الآية إنما هي بين المؤمنين قال : هي محكمة ، والصبر والغفران أفضل إجماعاً ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا كان يوم القيامة نادى مناد : من كان له على الله أجر فليقم ، فيقوم عُنُقُ (٢) من

(١) وَضَحَ أَبُو حَيَّانٍ فِي الْبَحْرِ الْمَحِيطِ الْإِعْرَابَ عَنْ ابْنِ عَطِيَّةَ ، فَقَالَ : « وَاللَّامُ فِي [وَلَمَنْ] يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ اللَّامُ الْمُوْطِئَةُ لِلْقَسَمِ الْمَحْذُوفِ ، وَ [مَنْ] شَرْطِيَّةٌ ، وَجَوَابُ الْقَسَمِ قَوْلُهُ : [إِنَّ ذَلِكَ] . وَجَوَابُ الشَّرْطِ مَحْذُوفٌ لِدَلَالَةِ جَوَابِ الْقَسَمِ عَلَيْهِ ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ اللَّامُ لَامَ الْإِبْتِدَاءِ . وَ [مَنْ] مُوَصُولَةٌ مُبْتَدَأٌ ، وَالْحَمَلَةُ الْمُؤَكَّدَةُ بِـ [إِنَّ] فِي مَوْضِعِ الْخَبَرِ . »
(٢) جَمَاعَةٌ مِنَ النَّاسِ .

الناس كثير ، فيقول : ما أجركم ؟ فيقولون : نحن الذين عفونا
عمن ظلمنا في الدنيا (١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ تحقير
لأمر الكفرة فلا يبالي بهم أحد من المؤمنين ، فقد أصارهم كفرهم
وإضلال الله تعالى إياهم إلى ما لا فلاح لهم معه ، ثم وصف تعالى
لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم حالهم في القيامة عند رؤيتهم العذاب ،
فاجتزأ من صفتهم وصفة حالهم بأنهم يقولون : ﴿ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ
مِنْ سَبِيلٍ ﴾ ، وهذه المقالة تدل على سوء ما أطلعوا عليه ، و « المرء » :
موضع الرد إلى الدنيا ، والمعنى الذي قصدوه أن يكون رد فيكون منهم
استدراك للعمل والإيمان ، والروية في هذا رؤية عين .

والضمير في قوله تعالى : [عَلَيْهَا] عائد على النار ، وعاد الضمير
مع أنها لم يتقدم لها ذكر من حيث دل عليها قوله تعالى : ﴿ رَأَوْا الْعَذَابَ ﴾ ،

(١) أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وفيه زيادة على ما هنا (وذلك
قول الله : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ ، فيقال لهم : ادخلوا الجنة بإذن الله) .
وأخرج مثله ابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عن أنس رضي الله عنه ،
وأخرج مثله ابن مردويه عن الحسن رضي الله عنه . والأحاديث في حسن الجزاء للعافين عن الناس
كثيرة ، وقد سبق الكلام عنها في سورة آل عمران عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَالْكَافِرِينَ
الْغَافِلِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ . (الآية ١٣٤) . راجع الجزء الثالث صفحة ٣٢٧ .

وقوله تعالى : ﴿ مِنْ أَلْذَلِّ ﴾ يحتمل أن يتعاقب ب [خَاشِعِينَ] ، ويحتمل أن يتعلق بما بعده من قوله تعالى : ﴿ يَنْظُرُونَ ﴾ ، وقرأ طلحة بن مصرف : ﴿ مِنْ أَلْذَلِّ ﴾ بكسر الذال ، و « أَلْخُشُوعُ » : الاستكانة ، وقد يكون محموداً ، وإنما يخرج به إلى حالة الذمّ قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَلْذَلِّ ﴾ ، فيقوى - على هذا - تعلق [مِنْ] ب [خَاشِعِينَ] .
وقوله تعالى : ﴿ مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ ﴾ يحتمل ثلاثة معان . قال ابن عباس ومجاهد : [خَفِيٍّ] : ذليل .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :
لَمَّا كَانَ نَظَرُهُمْ ضَعِيفاً وَلَحْظُهُمْ بِمَهَانَةٍ وَصَفَ بِالْخَفَاءِ ، وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ الشَّاعِرِ :

فَغَضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ (١)

(١) هذا صدر بيت قاله جرير من قصيدة يهجو بها الراعي النميري ، وقال النقاد القدامى : إنه أهدى بيت قاله شاعر ، والبيت بتمامه :

فَغَضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فَلَا كَعْبًا بَلَغْتَ وَلَا كِلَابًا
وَعَضَّ طَرْفَهُ : خَفَضَهُ اسْتَحْيَاؤُهُ وَخِزْيًا : وَالطَّرْفُ : الْبَصَرُ ، وَفِي الْكَامِلِ لِلْمَبْرَدِ : فَغَضَّ بِكُسْرِ الضَّادِ ، وَفِي خَزَانَةِ الْأَدَبِ : بِالْكَسْرِ وَالْفَتْحِ وَالضَّمِّ ، وَنُمَيْرٌ وَكَعْبٌ وَكِلَابٌ : قِبَائِلُ عَرَبِيَّةٍ ، وَهُوَ يَجْعَلُ الْأَوَّلَى وَيَذِمُّهَا وَيَمْدَحُ الْآخِرَتَيْنِ . قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ الْبَيْتِ :

أَتَعْدِلُ دِمْنَةً خَبِئْتُ وَقَلْتُ إِلَى فَرْعَيْنِ قَدْ كَثُرَا وَطَابَا ؟

يريد بالدِّمْنَةِ الْحَبِيبَةِ نُمَيْرًا ، وَبِالْفَرْعَيْنِ الطَّيِّبَيْنِ كَعْبًا وَكِلَابًا ، وَيَسْتَنْكَرُ أَنْ تَكُونَ هُنَاكَ مَسَاوَاةٌ بَيْنَهَا فِي الْمَكَافَةِ وَالْعَدَدِ .

وقال قوم - فيما حكى الطبري - : لَمَّا كانوا يُحْشَرُونَ عُْمِيَاءً
وكان نظرهـم بعيـون قلوبهـم جعله طرفاً خفياً ، أي لا يبدو
نظرهـم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفي هذا التأويل تكلف.

وقال قتادة والسدي : المعنى : يسارقون النظر ، لَمَّا كانوا من الهـم
وسوء الحال لا يستطيعون النظر بجميع العين وإنما ينظرون من بعضها
قال : ﴿ مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ ﴾ أي قليل ، فالطَّرَف هنا - على هذا التأويل -
يحتمل أن يكون مصدراً ، أي : يطرف طرفاً خفياً .

و «قول الذين آمنوا» هو في يوم القيامة عندما عاينوا حال الكفار
وسوء منقلبهم . و «خُسران الأهلين» يحتمل أن يراد به أهلهم
الذين كانوا في الدنيا ، ويحتمل أن يراد به أهلهم الذين كانوا
يكونون لهم في الجنة إن لو دخلوها ، وقوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ
فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ يحتمل أن يكون من قول المؤمنين يومئذ ، حكاة
الله تعالى ، ويحتمل أن يكون استئنافاً من قول الله تعالى وإخباره
لمحمد صلى الله عليه وسلم .

قوله عز وجل :

﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ (٤٦) ﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ عَ لَيْكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴾ (٤٧) ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَفَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴾ (٤٨) ﴿

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ إنحاء على الأصنام والأوثان التي أظهر الكفار ولايتها ، واعتقدوا ذلك دينا ، المعنى : فما بالهم يُوالون هذه التي لا تضر ولا تنفع ، ولكن من يُضِلُّ الله فما له من سبيل هدى ونجاة .

ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأمرهم بالاستجابة لدعوة الله تعالى وشريعته ، وحذرهم إتيان يوم القيامة الذي لا يُردُّ أحدٌ بعده إلى عمل ، والذي لا ملجأ ولا منجى لأحد فيه ، إِلَّا إِلَى الْعِلْمِ بِاللَّهِ تعالى والعمل الصالح في الدنيا ، فأخبرهم أنه لا ملجأ لهم ولا نكير ، و « النكير » مصدر بمعنى الإنكار ، وهو بمنزلة « عذير

الحي» (١) ونحوه من المصادر ، ويحتمل أن يكون من أبنية اسم الفاعل من «نَكَرَ» ، وإن كان المعنى يبعد به ؛ لأن «نَكَرَ» إنما معناه : لم يُمَيِّزْ وظن الأمر غير ما عهد.

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ تأنيس لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وإزالة لهم بهم ، وأعلمه أنه ليس عليه إلا البلاغ إليهم وتوصيل الحجة ، ثم جاءت عبارة في باقي الآية هي بمنزلة ما تقول : والقوم قوم عتو وتناقض أخلاق واضطراب ، إذا أذيقوا رحمة فرحوا بها وبطروا ، وإن تُصِيبْهُمْ سيئة - أي مصيبة - تسوؤهم في أجسادهم أو في نفوسهم - وذلك بذنوبهم وقبيح فعلهم - فإنهم كُفِرَ عند ذلك غير صُبر ، وعبر بالإنسان الذي هو اسم عام ليدخل في الآية المتقدمة جميع الكفرة من المجاورين يومئذ ومن غيرهم ، وجمع الضمير في قوله تعالى : [تُصِيبْهُمْ] وهو عائد على لفظ «الإنسان» من حيث هو اسم جنس يعم كثيراً .

(١) قيل : هو بمعنى : هاتِ عُدْرًا فيما فعلَ ، قال ذو الإصبع العدواني :
عَذِيرَ الْحَيِّ مِنْ عَدُوِّكَ نَ كَانُوا حَيَّةَ الْأَرْضِ
بَعَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فَلَمْ يَرَعَوْا عَلَى بَعْضٍ
فَقَدْ أَضْحَوْا أَحَادِيثَ بَرَفَعِ الْقَوْلَ وَالْحَقْضَ

أي : هاتِ عُدْرًا فيما فعل بعضهم ببعض من التباعد والتباغض حتى صاروا أحاديث للناس بعد أن كانوا حيَّة الأرض التي يخشاها كل الناس ، وقد ذكر ابن عطية أن «النكير» مصدر مثل «عذير» ونحوه من المصادر .

قوله عز وجل :

﴿ اللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ
إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ۝٤٩ أَوْ يَزْوِجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ
مَنْ يَشَاءُ عَاقِبَةً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝٥٠ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا
وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ
حَكِيمٌ ۝٥١ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا
الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا
وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ۝٥٣ ﴾

الآية الأولى آية اعتبار دالة على القدرة والملك المحيط بالخلق ،
وأن مشيئته تعالى وجل نافذة في جميع خلقه . وفي كل أمرهم ،
وهذا لا مدخل لصنم فيه ، فإن الذي يخلق ما يشاء ويخترع إنما هو
الله سبحانه ، وهو الذي يُقسَّم الخلق ، فيهب الإناث لمن شاء أن يجعل
نسله (١) نساء ، ويهب الذكور لمن شاء على هذا الحد ، أو ينوعهم :
مرة يهب ذكراً ، ومرة أخرى أنثى ، وذلك معنى قوله تعالى : ﴿ أَوْ
يَزْوِجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا ﴾

(١) في بعض النسخ : « أن يجعل بنيه نساء » .

يُزَوِّجُهُمْ) ، وقال محمد بن الحنفية : يريد بقوله : (أَوْ يُزَوِّجُهُمْ) التَّوَام ، أي يجعل في بطن زوجاً من الذرية ذكراً وأنثى . و«العقيم» : الذي لا يُولد له ، وهذا كله مُدَبَّر (١) بالعلم والقدرة ، وهذه الآية تقضي بفساد وجود الخنثى المشكل .

وبدأ تعالى في هذه الآية بذكر الإناث تأنيساً بهن وتشريفاً لهن ، لِيَتَهَمَّ بصونهن والإحسان إليهن ، قال النبي عليه الصلاة والسلام : (من ابتلي من هذه البنات بشيءٍ فأحسن إليهن كنَّ له حجاباً من النار) (٢) ، وقال وائل بن الأسقع : «من يُمن المرأة تبكيها بالأنثى قبل الذكر ؛ لأن الله تعالى بدأ بالإناث» ، حكاه عنه الثعلبي ، وقال إسحق بن بشر : نزلت هذه الآية في الأنبياء عليهم السلام ثم عُمِّمت ، فلو طُ عليه السلام أبو بنات لم يولد له ذكر ، وإبراهيم عليه السلام ضده ، ومحمد عليه الصلاة والسلام وُلد له الصنفان ، ويحيى بن زكريا عليهما السلام عقيم .

(١) في بعض النسخ : «وهذا كله مؤيد بالعلم والقدرة» .
 (٢) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة ، ومسلم والترمذي في كتاب البر ، وأحمد في مسنده (٦ - ، ٨٨ ، ١٦٦) . ولفظه كما في مسند أحمد عن عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت : جاءت امرأة ومعها ابنتان لها تسألني ، فلم تجد عندي شيئاً غير تمر واحدة فأعطيتها إياها . فأخذتها فشقتها اثنتين بين ابنتيها ، ولم تأكل منها شيئاً ، ثم قامت فخرجت هي وابنتاها ، فدخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدثته حديثها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من ابتلي من البنات بشيءٍ فأحسن إليهن كنَّ له سنيراً من النار) .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ الآية نزلت بسبب خوضٍ كان للكفار في معنى تكليم الله تعالى موسى عليه السلام ونحو ذلك ، ذهبت قريش واليهود في ذلك إلى تجسيم ونحوه ، فنزلت الآية مُبَيِّنَةً صورة تكليم الله تبارك وتعالى عباده كيف هو ، فبيّن تعالى أنه لا يكون لأحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولا ينبغي له ولا يمكن فيه أن يكلمه الله تبارك وتعالى إلا بأن يوحى إليه أحد وجوه الوحي من الإلهام ، قال مجاهد : والنَّفْثُ في القلب (١) ، وقال النقاش : أو وحي في منام ، وقال إبراهيم النخعي : كان من الأنبياء عليهم السلام من يُخَطُّ له في الأرض ونحو هذا ، أو بأن يُسمعه كلامه دون أن يعرف هو للمتكلم جهة ولا خبراً كموسى عليه السلام ، وهذا معنى ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ ، أي : من خفاء عن المتكلم لا يحده ولا يتصور بذهنه عليه ، وليس كالحجاب في الشاهد ، أو بأن يرسل إليه ملكاً يشافهه بوحى الله تبارك وتعالى .

وقرأ جمهور القراء والناس : ﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾ بالنصب [فيُوحِي] بالنصب أيضاً ، وقرأ نافع ، وابن عامر ، وأهل المدينة : ﴿أَوْ يُرْسِلُ﴾

(١) كقوله صلى الله عليه وسلم : (إن روح القدس نفثت في روعي أن نفساً إن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب) ، رواه ابن حبان .

بالرفع [فِيُوحِي] بسكون الياء ورفع الفعل ، فأمّا القراءة الأولى فقال سيبويه : سألت الخليل عنها فقال : هي محمولة على « أَنْ » غير التي في قوله تعالى : ﴿ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ ﴾ ؛ لأن المعنى كان يفسد لو عطف على هذه ، وإنما التقدير في قوله تعالى : [وَحَيًّا] : إِلَّا أَنْ يُوحِي وَحِيًّا ، وقوله تعالى : ﴿ أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ [مِنْ] متعلقة بفعل يدل عليه ظاهر الكلام ، تقديره : أَوْ يُكَلِّمُهُ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، ثم عطف تعالى ﴿ أَوْ يُرْسِلَ ﴾ على هذا الفعل المقدر . وأما القراءة الثانية فعلى أَنْ [يُرْسِلُ] في موضع الحال أو على القطع ، كأنه تعالى قال : « أَوْ هُوَ يَرْسِلُ » ، وكذلك يكون قوله تعالى : ﴿ إِلَّا وَحْيًا ﴾ مصدراً في موضع الحال ، كما تقول : أَتَيْتُكَ رَكْضًا وَعَدْوًا ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ﴾ في موضع الحال أيضاً ، كما هو قوله تعالى : ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (١) في موضع الحال ، وكذلك [مِنْ] وما عملت فيه في هذه الآية أيضاً ، ثم عطف تعالى قوله : ﴿ أَوْ يُرْسِلُ ﴾ على هذه الحال المتقدمة ، وفي هذه الآية دليل على أن الرسالة من أنواع التكليم ، وأن الحالف المُرْسِلَ حانثٌ إذا حلف ألا يكلم إنساناً فأرسل وهو لا ينوي المشافهة وقت يمينه (٢) .

(١) الآية (٤٦) من سورة (آل عمران) .

(٢) إنما كان حانثاً لأن الله تعالى سمى المُرْسِلَ في الآية : مُكَلِّمًا لِلْمُرْسَلِ إِلَيْهِ ، أما

إذا نوى عند الحلف المشافهة فإنه لا يحنث .

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ ، المعنى : وبهذه الطرق
ومن هذا الجنس أوحينا إليك ، أي كالرُّسُل ، و « الرُّوحُ » في هذه
الآية : القرآن وهدى الشريعة ، سمَّاهُ روحاً من حيث يُحيي به البشر والعالم ،
كما يحيي الجسد بالروح ، فهذا على جهة التشبيه . وقوله تعالى :
﴿ مِنْ أَمْرِنَا ﴾ أي واحد من أمورنا ، ويحتمل أن يكون « الأمر » بمعنى
الكلام ، و [مِنْ] لابتداء الغاية . وقوله تعالى : ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي
مَا أَلْكَتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ توقيف على مقدار النعمة ، والضمير في
[جَعَلْنَاهُ] عائد على [أَلْكَتَابُ] ، و « نَهْدِي » معناه : نُرْشِدُ ، وقرأ
جمهور الناس : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُهْدَى ﴾ بفتح التاء وكسر الدال ، وقرأ
حوشب (١) : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُهْدَى ﴾ بضم التاء وفتح الدال على بناء الفعل
للمفعول ، وفي حرف أبي : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُو ﴾ (٢) ، وهي تعضد قراءة
الجمهور ، وقرأ ابن السميع ، وعاصم الجحدري : ﴿ وَإِنَّكَ لَتُهْدَى ﴾
بضم التاء وكسر الدال .

وقوله تعالى : ﴿ صِرَاطِ اللَّهِ ﴾ يعني صراط شرع الله تعالى ورحمته ،
فبهذا الوجه ونحوه من التقدير أضيف الصراطُ إلى الله تعالى ، واستفتح

(١) وهي أيضاً قراءة عاصم الجحدري ، قال ذلك القرطبي .

(٢) قال النحاس : « وهذا لا يقرأ به ؛ لأنه مخالف للسواد ، وإنما يحمل ما كان مثله

على أنه من قائله على جهة التفسير » .

تعالى القول في الإخبار بصيرورة الأمور إلى الله تعالى مبالغة وتخفيفاً
وتشبيهاً ، والأُمور صائرة على الدوام إلى الله تعالى ، ولكن جاءت
هذه العبارة مستقلة تقريراً لمن في ذهنه أن شيئاً من الأمور إلى البشر ،
وقال سهل بن أبي الجعد : احترق مصحف فلم يبق منه إلا قوله
تعالى : ﴿ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ .

كامل تفسير سورة الشورى والحمد لله رب العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



هذه السورة مكية بإجماع من أهل العلم (١).

قوله عز وجل :

﴿ حَمْدٌ ۝١ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدِينَا لَعَلِّي حَكِيمٌ ۝٤ أَفَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ۝٨ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝٩ ﴾

(١) - وقال مقاتل : « إلا قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَسْأَلُ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا ﴾ » ، وهي الآية (٤٥) من السورة (الزخرف).

تقدم القول في الحروف التي في أوائل السور ، وقوله تعالى :
 [وَالْكِتَابِ] خفض بواو القسم ، و [الْمُبِينِ] يحتمل أن يكون من
 «أَبَانَ» الذي هو بمعنى «بان» أي ظهر ، فلا يحتاج إلى مفعول ، ويحتمل
 أن يكون مُعَدَّى من «بان» . فهذا لا بُدَّ من مفعول تقديره : المبين
 الهدى والشرع ونحوه .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ ﴾ معناه : سَمِينَاهُ وصَيَّرْنَاهُ ، وهو
 إخبارٌ عليه وقع القسم . والضمير في [جَعَلْنَاهُ] عائد على [الْكِتَابِ] ،
 و [عَرَبِيًّا] معناه : بلسانكم لئلا يبقى لكم عذر . وقوله تعالى : [لَعَلَّكُمْ]
 ترجَّ بحسب معتقد البشر . أي : إذا أبصر المبصر من البشر هذا
 الفعل منا يُرجى منه أن يعقل ويفهم الكلام .

وقوله تعالى : [وَإِنَّهُ] عطف على قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ ﴾ .
 وهذا الإخبار الثاني واقع أيضاً تحت القسم ، و «أُمُّ الْكِتَابِ» :
 اللوح المحفوظ ، وهذا فيه تشريف للقرآن وترفيه ، واختلف المتأولون ،
 كيف هو في «أُمُّ الْكِتَابِ» ؟ - فقال قتادة ، وعكرمة ، والسدي ، وعطية
 ابن سعيد : القرآن بأجمعه فيه منسوخ . وكان جبريل صلى الله
 عليه وسلم ينزل ، وهنالك هو عليٌّ حكيم ، وقال جمهور الناس :
 إنما في اللوح المحفوظ ذِكْرُهُ ودرجته ومكانته من العُلُوِّ والحكمة ،
 وقرأ جمهور الناس : ﴿ فِي أُمِّ الْكِتَابِ ﴾ بضم الهمزة ، وقرأها

بكسر الهمزة يوسف بن عمر والي العراق ، وعيسى بن عمر (١) .
 وقوله تعالى : [أَفَنَضْرِبُ] بمعنى : أَفَنَتْرِكُ ، تقول العرب : أَضْرِبْتُ
 عن كذا وضربتُ إذا أَعْرَضْتُ عنه وتركته ، و «الذِّكْرُ» هو الدعاء
 إلى الله تعالى والتذكيرُ بعذابه والتخويفُ من عقابه ، قال أبو صالح :
 «الذكر» هنا أراد به العذابَ نفسه ، وقال مجاهد ، والضحاك :
 «الذكر» : القرآن ، وقوله تعالى : [صَفْحًا] انتصابه كانتصاب
 (صُنِعَ اللَّهُ) (٢) ، فيحتمل أن يكون بمعنى العفو والغفر للذنوب ، فكأنه
 تعالى يقول : أَفَنَتْرِكُ تذكيركم وتخويفكم عفواً عنكم وغفراً لإجرامكم
 أَنْ كُنْتُمْ ، أو من أَجْلِ أَنْ كنتم قوماً مسرفين ؟ هذا لا يصلح ، وهذا
 هو قول ابن عباس ، ومجاهد . ويحتمل قوله تعالى : [صَفْحًا]
 أن يكون بمعنى : مَغْفُولًا عنه ، أي نتركه يَمُرُّ (٣) لا تَتَوَخَّدُونَ بقوله
 ولا بِتَدَبُّرِهِ ، ولا تُنَبِّهُونَ عليه ، وهذا المعنى نظير قول الشاعر :
 تَمُرُّ الصَّبَا صَفْحًا بِسَاكِنِ ذِي الْغَضَى وَيَصْدَعُ قَلْبِي أَنْ يَهْبُ هُبُوبُهَا (٤)

(١) هو عيسى بن عمر الأسدي الهمداني ، أبو عمرو ، الكوفي القاري ، مات سنة
 ست وخمسين . وليس المراد عيسى بن عمر النحوي ، أو عيسى بن عمر التيمي .

(٢) من الآية (٨٨) من سورة (النمل) .

(٣) في بعض النسخ : « نتركه مهمولاً » ، والمهمّل من الكلام : المتروك الذي لا يستعمل .

(٤) هذا البيت شاهد هنا على أن معنى [صَفْحًا] : مغفولٌ عنه متروكٌ ، والصَّبَا :

ريح مَهَبَّتُهَا من مشرق الشمس إذا استوى الليل والنهار ، وهي مؤنث ، والغَضَى : شجر
 من الأثل خشبه من أصلب الخشب ، وجَمَرُهُ يبقى زمناً طويلاً لا ينطفئ ، واحدته : غصاة ، =

أي : تَمَرُّ مغفولاً عنها ، فكأن هذا المعنى : أَفَنَتَرَكُكُمْ سُدىً ؟ وهذا هو منحى قتادة وغيره : ومن اللفظة قول كثير :

صَفُوحاً فَمَا تَلْقَاكَ إِلَّا بِخَيْلَةٍ فَمَنْ مَلَّ مِنْهَا ذَلِكَ الْوَصْلَ مَلَّتْ (١)
وقرأ السميطة بن عمرو ، والسدوسي : [صَفْحاً] بضم الصاد .

وقرأ نافع ، وحمزة ، والكسائي : ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ بكسر الألف ، وهو جزاء دل ما تقدم على جوابه . وقرأ الباقون ، والأعرج ، وقاتدة : ﴿أَنْ كُنْتُمْ﴾ بفتح الألف ، بمعنى : من أجل أن كنتم (٢) ، وفي قراءة

= والمراد هنا مكان معين . سمي بذلك لكثرة ما فيه من أشجار الغضى ، والأرض الكثيرة أشجار الغضى يقال لها : غصياء . ويصدع معناه : يشق ، والصدع هو الشق في الشيء الصلب كالزجاجة والحائط ونحوها . ومعنى البيت أن ريح انصبأ تمر على الحبيب في ذي الغضى فلا تؤثر فيه . أما أنا فإن مجرد هبوبها يحطم قلبي ويشقه . يقارن بين حاله وحال المحبوب ، ويذكر إهماله في حبه وإعراضه عنه .

(١) البيت لكثير عزة ، وهو في الديوان ، وفي اللسان (صفح) . قاله يصف امرأة أعرضت عنه : قال صاحب اللسان نقلاً عن الأزهري : «يقال : صَفَحَ عَنِّي فلان ، أي أعرض عني مؤلئياً ، ومنه قول كثير» : فمعنى (صَفُوحاً) في البيت : كثيرة الإعراض أو دائمة الإعراض ، وهي لا تَلْقَى أحداً من الرجال إلا بالبخل في المودة وأنس اللقاء . وهذه طبيعتها ، فمن ملَّ منها هذه الصفة ملَّتْه .

(٢) قال الفراء في (معاني القرآن) : «وقرأ عاصم والحسن : ﴿أَنْ كُنْتُمْ﴾ بالفتح كأنهم أرادوا شيئاً ماضياً . ومثله ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ﴾ ، وأنشدوني :
أَتَجَزَّعُ أَنْ بَانَ الْخَلِيطُ الْمُودَعُ وحبل الصفا من عزة المتقطِّع ؟

ففي كل ذلك الكسر والفتح « ١ هـ يتصرف .

ابن مسعود : « إِذْ كُنْتُمْ » ، و « الْإِسْرَافُ » في الآية هو الكفر والضلال
البعيد في عبادة غير الله تعالى والتشريك به .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍِّّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴾ الآيات تسليّة
لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وذكره أسوة له ووعيد لهم وتهديد بأن
يصيبهم ما أصاب من هو أشد بطشاً منهم ، و « الْأَوَّلُونَ » هم الأئمة
الماضية كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ، والضمير في قوله تعالى :
﴿ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ظاهره العموم ، والمراد به الخصوص فيمن
استهزؤوا ، وإلا فقد كان في الأولين من لم يستهزئ ، والضمير في
[مِنْهُمْ] عائد على قريش ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴾
أي : سَلَفَ أَمْرهم وَسُنَّتْهم وصاروا عبرة غابر الدهر .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ ﴾ الآية ابتداء احتجاج على قريش
يوجب عليهم التناقض في أمرهم ، وذلك أنهم يُقِرُّونَ أَنَّ الخالق
الموجد لهم وللسموات والأرض هو الله تعالى ، وهم مع ذلك يعبدون
أصناماً ويدعونها آلِهَتهم ، ومقتضى جواب قريش أن يقولوا :
خلقهن الله ، فلما ذكر تعالى المعنى جاءت العبارة عن الله تعالى بـ « العزيز
العليم » ليكون ذلك توطئة لما عدد بعد ذلك من أوصافه التي ابتداءً
الإخبار بها وقطعها من الكلام الذي حكى معناه عن قريش .

قوله عز وجل :

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ ١٠ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا ۚ كَذَلِكَ نُخْرِجُونَ ﴿ ١١ ﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَكَ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿ ١٢ ﴾ لَتَسْتَبْدُوا عَلَى ظُهُورِهِ ۖ ثُمَّ تَذْكُرُونَ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿ ١٣ ﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿ ١٤ ﴾

هذه أوصاف فعل ، وهي نعم من الله تعالى على البشر تقوم بها الحجة على كل كافر مشرك بالله تعالى ، وقوله تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ﴾ ليس من قول المسؤولين ، بل هو ابتداء إخبار من الله تعالى ، وقرأ جمهور الناس : [مَهَادًا] ، وقرأ ابن مسعود ، وطلحة ، والأعمش : [مَهْدًا] ، والمعنى واحد ، أي يُتَمَهَّد ويُتَصَرَّف فيها ، و « السُّبُل » : الطُّرُق ، و [تَهْتَدُونَ] معناه : في المقاصد من بلد إلى بلد ومن قُطْر إلى قُطْر ، ويحتمل أن يريد : تهتدون بالنظر والاعتبار . وقوله تعالى : ﴿ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ هو المطر بإجماع ، واختلف المتأولون في معنى قوله تعالى : [بِقَدَرٍ] - فقالت فرقة : معناه : بقضاء

وحتم في الأزل ، وقال آخرون : المعنى : بقدر في الكفاية للصالح ،
لا إكثار فيفسد ، ولا قلة فيقصّر ، بل غيثاً مُغيثاً سيلاً نافعاً ، وقالت
فرقة : معناه : بتقدير وتحديد ، أي : قدراً ما معلوماً ، ثم اختلف
قائلوا هذه المقالة - فقال بعضهم : يُنزل كل عام ماءً قدراً واحداً ،
لا يَفْضُلُ عامٌ عاماً لكن يكثر مرة هنا ومرة هنا ، وقالت فرقة :
بل يُنزل الله تعالى تقديراً ما في عام ، ويُنزل في آخر تقديرٍ بحسب
ما سبق به قضاؤه لا إله غيره . و « أَنْشَرْنَا » معناه : أَحْيَيْنَا ، يقال :
نَشَرَ المِيتَ وَأَنْشَرَهُ غيره ، و [بَلَدَةً] اسم جنس ، ووصفها بـ [مَيْتاً]
دون ضمير من حيث هي واقعة موقع «قُطِرَ» ونحوه ؛ إذ التَّائِيثُ
فيها غير حقيقي ، وقرأ الجمهور : [مَيْتاً] بسكون الياء ، وقرأ أبو
جعفر بن القعقاع : [مَيْتاً] بياء مكسورة مشددة ، وهي قراءة عيسى
ابن عمر ، والأولى أرجح لِشَبَه لفظها بـ «زُورٍ وَعَدْلٍ» ، فَحَسُنَ وصف
المؤنث بها ، وقرأ أكثر السبعة ، والأعرج ، وأبو جعفر : ﴿كَذَلِكَ
تُخْرِجُونَ﴾ بضم التاء وفتح الراء ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وابن
عامر ، وابن وثاب ، وعبد الله بن جُبَيْر ، وعيسى : ﴿كَذَلِكَ تَخْرِجُونَ﴾
بفتح التاء وضم الراء (١) .

(١) هذا يوافق ما في كتب القراءات ، وما في البحر المحيط ، ولكن في القرطبي :
﴿كَذَلِكَ يَخْرِجُونَ﴾ بفتح الياء ، ولعله خطأ مطبعي .

و «الأزواج» : الأنواع من كل شيء ، و [من] في قوله تعالى :
 ﴿مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ﴾ للتبويض ، وذلك أنه لا يُركب من الأنعام
 غير الإبل ، وتدخل البغال والخيول والحمير فيما يُركب بالمعنى ،
 واللام في قوله تعالى : ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ لام الأمر ، ويحتمل
 أن تكون لام «كي» ، و [ما] في قوله تعالى : ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ واقعة
 على النوع المركوب ، والضمير في [ظُهُورِهِ] عائد على النوع الذي
 وقعت عليه [ما] ، وقد بَيَّنَّتْ آيَةٌ أُخْرَى ما يقال عند ركوب الفُلك
 وهو ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١) ، وإنما هذه
 خاصة فيما يركب من الحيوان ، ويقال عند النزول منها : اللهم
 أنزلنا منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين .

والسُّنَّةُ للراكب إذا ركب أن يقول : الحمد لله على نعمة الإسلام ،
 أو على النعمة بمحمد عليه الصلاة والسلام ، أو على النعمة في كل حال ،
 وقد روى هذا اللفظ علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه عن النبي
 صلى الله عليه وسلم (٢) ، ثم يقول : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾

(١) من الآية (٤١) من سورة (هود) .

(٢) حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه رواه الإمام أحمد عن علي بن ربيعة ،
 ورواه أبو داود ، والترمذي ، والنسائي من حديث أبي الأحوص ، وقال الترمذي : حَسَنٌ
 صحيح ، وزاد النسائي ومنصور عن علي بن ربيعة الوالبي به ، وزاد الإمام السيوطي نسبته إلى
 الطيالسي ، وعبد الرزاق ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، =

الآية ، وركب أبو مجاز لاحق بن حميد وقال : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي﴾
 الآية ، ولم يذكر نعمة ، وسمعه الحسن بن علي رضي الله عنهما فقال :
 ما هكذا أمرتم ، فقال أبو مجاز : فقلت له : فكيف أقول ؟ قال :
 قل : الحمد لله الذي هدانا للإسلام ، أو نحو ذلك ، ثم تقول بعد ذلك :
 ﴿سُبْحَانَ الَّذِي﴾ الآية ، وكان طاوس إذا ركب قال : اللهم هذا
 من منك وفضلك ، ثم يقول : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي﴾ الآية .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإن قدرنا أن ذكر النعمة بالقاب والتذكر بدأ الراكب بـ ﴿سُبْحَانَ
 الَّذِي﴾ ، وهو يرى نعمة الله تعالى في ذلك وفي سواه ، و «المُقرن» :
 الغالب الضابط المستولي على الأمر المطبق له ، وقد روي أن بعض
 الأعراب ركب جملاً ف قيل له قل : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا
 وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ ، فقال : أما والله إنني لمقرن تياه ، ف ضرب
 به الجمل فوقصه فقتله .

= والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، والحديث كما ذكره
 السيوطي : عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه أتى بدابة ، فلما وضع رجله في الركاب
 قال : بسم الله ، فلما استوى على ظهرها قال : الحمد لله ، ثلاثاً ، والله أكبر . ثلاثاً ، سبحان
 الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون ، سبحانك لا إله إلا أنت ،
 قد ظلمت نفسي فاغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، ثم ضحك ، فقلت : ميم
 ضحك يا أمير المؤمنين ؟ قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل كما فعلت ثم ضحك ،
 فقلت : يا رسول الله ميم ضحك ؟ فقال : يعجب الرب من عبده إذا قال رب اغفر لي ،
 ويقول : عليم عبدي أنه لا يغفر الذنوب غيري .

وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ أَمْرٌ بالإقرار بالبعث وترداد القول به . وذلك داعية إلى استشعار النظر فيه ، ورُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أَنَّ الإنسان إذا ركب ولم يقل ما في هذه الآية جاء الشيطانُ فقال له : تَغْنَّه ، فإن كان يحسن تَغْنًى ، وإِلَّا قال له : تَمَنَّه . فيتمنى الأباطيل ويقطع زمنه بذلك (١) .

قوله عز وجل :

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنْ الْإِنْسَانُ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ١٥﴾ أَمْ اتَّخَذَ مَا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَكُمْ بِالْبَنِينَ ١٦ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ١٧ أَوْ مَنْ يَنْشَأُ فِي الْحُلِيِّةِ ١٨ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ١٩ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ٢٠﴾

الضمير في [جَعَلُوا] لكفار قريش والعرب ، والضمير في [لَهُ] لله تعالى . و «الجزء» : القطع من الشيء ، وهو بعض الكل ، فكأنهم جعلوا جزءًا من عباده نصيباً له وحظاً ، وذلك في قول مجاهد وكثير

(١) ذكر القرطبي هذا الحديث مختصراً عما هنا ، وقال : «رواه ابن أبي نجیح عن مجاهد» ، ثم قال : «ذكره النحاس» .

من المتأولين قولُ العرب : الملائكة بناتُ الله ، وقال بعض أهل اللغة :
الجزء : الإناث ، يقال : أَجْزَأَتِ المرأةُ إذا ولدت أنثى ، ومنه قول
الشاعر :

إِنْ أَجْزَأَتْ حُرَّةٌ يَوْمًا فَلَا عَجَبٌ قَدْ تُجْزِي الحُرَّةُ المَذْكَارُ أَحْيَانًا (١)
وقد قيل : إن هذا البيت موضوع ، وقال قتادة : المراد بالجزء الأصنامُ
وفرعون وغيره ممن عُبد من دون الله ، أي جُزءًا نِدًّا ، فعلى هذا فتعنيف
الكفرة في فصلين : في أمر الأصنام ، وفي أمر الملائكة . وقوله تعالى :
(إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ) أتى بلفظ الجنس العام والمراد بعض الإنسان
وهو هؤلاء الجاعلون ومن أشبههم ، و [مُبين] في هذه الآية غير مُتَعَدٍّ (٢).

(١) هذا بيت من الشعر يسوقه ابن عطية للاستشهاد به على أن الجزء يكون بمعنى :
الإناث ، والبيت في اللسان ، جاء فيه : « قال أبو إسحق : وقد أنشدت بيتاً يدل على أن معنى
« جُزءاً » معنى الإناث ، ولا أدري البيت هو قديم أم مصنوع » ، وكان الزمخشري صريحاً
قاطعاً في نفي البيت ، قال : « ومن يدع التفسير تفسير الجزء بالإناث ، وادعاء أن الجزء
في لغة العرب اسم للإناث ، وما هو إلا كذب على العرب ، ووضع مستحدث متحول ، ولم
يقنعهم ذلك حتى اشتقوا منه : أَجْزَأَتِ المرأةُ ، ثم صنعوا بيتاً وبيتاً :

إِنْ أَجْزَأَتْ حُرَّةٌ يَوْمًا فَلَا عَجَبٌ قَدْ تُجْزِي الحُرَّةُ المَذْكَارُ أَحْيَانًا
زَوَّجْتُهَا مِنْ بَنَاتِ الأَوْسِ مُجْزِئَةً للعوسج اللدن في أبياتِها زَجَلٌ

وابن عطية يذكر أيضاً أنه قد قيل إن البيت مصنوع . ومعنى البيت أن الحُرَّة قد تلد البنات
ولا عجب في ذلك ، ومعنى البيت الثاني أنه تزوج امرأة من بنات الأوس تلد البنات ، وتغزل
بمغازل مويّت من شجر العوسج .

(٢) قال أبو حيان : « وليس يتعين ما ذكره ، بل يجوز أن يكون معناه ظاهراً لكفران
النعم ومظهره الجحود » .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ اتَّخَذَ ﴾ إضراباً وتقرير ، وهذه حجة بالغة عليهم ؛ إذ المحمود من الأولاد والمحبوب قد خوله الله تعالى بني آدم فكيف يتخذ هو لنفسه النصيب الأدنى ؟ و [أَصْفَاكُمْ] معناه : خصصكم وجعل ذلك لكم صفوة .

ثم قامت الحجة عليهم في هذا المعنى وكانت بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ ﴾ الآية ، و [مُسَوِّدًا] خبر [ظَلَّ] ، و « أَلْكَبِيمُ » : الممتلئ غيظاً قد ردَّ غيظه إلى جوفه فهو يتجرعه ويروم رده ، وهذا محسوس عند الغيظ ، ثم زاد توبيخهم وإفساد رأيهم بقوله تعالى : ﴿ أَوْ مَنْ يُنشَأُ ﴾ ، و [مَنْ] في موضع نصب بفعل يدل عليه [جَعَلُوا] ، كأنه تعالى قال : أَوْ مَنْ يُنشَأُ في الحلية جعلتم أو اتخذتم ؟ ويجوز أن يكون في موضع رفع كأنه تعالى قال : أَوْ مَنْ يُنشَأُ في الحلية هو الذي خصصتم به الله تعالى ؟ ونحو هذا ، والمراد بـ [مَنْ] النساء ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي ، و [يُنشَأُ] معناه : ينبت ويكبر ، وقرأ جمهور القراء : [يُنشَأُ] بفتح الياء وسكون النون ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما : [يُنشَأُ] بضم الياء وسكون النون على تعدية الفعل بالهمزة ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وعاصم - في رواية حفص - : [يُنشَأُ] بضم الياء وفتح النون وشد الشين على التعدية بالتضعيف ، وهي قراءة

ابن عباس أيضاً ، والحسن ، ومجاهد ، وفي مصحف ابن مسعود :
 « أَوْ مَنْ لَا يَنْشَأُ إِلَّا فِي الْحِلْيَةِ » ، و « الْحِلْيَةُ » : الحلي من الذهب
 والفضة والأحجار ، و « الْخِصَامُ » : المحاجة ومجادبة المحاور ، وقلما
 تجد امرأة إلا تفسد الكلام وتخلط المعاني ، وفي مصحف ابن مسعود :
 « وَهُوَ فِي الْكَلَامِ غَيْرُ مُبِينٍ » ، و « مُبِينٌ » في هذه الآية مُتَعَدٌّ ، والتقدير :
 غير مُبِينٍ غَرَضاً أَوْ مَنْزَعاً أَوْ نَحْوَ هَذَا ، وقال ابن زيد : المراد بـ (مَنْ
 يُنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ) الآية : الأصنام والأوثان ؛ لأنهم كانوا يتخذون
 كثيراً من الذهب والفضة ، وكانوا يجعلون الحلي على كثير منها .

ولما فرغ تَغْنِيفُهُمْ عَلَى مَا أْتَوْهُ فِي جِهَةِ اللَّهِ تَعَالَى بقولهم : « الْمَلَائِكَةُ
 بَنَاتُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ » بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى فساد مقالتهم ، فعينها بجهة أخرى
 من الفساد ، وذلك شنيع قولهم في عِبَادِ اللَّهِ تَعَالَى مختصين مُقَرَّبِينَ :
 « إِنَّهُمْ إِنَاثٌ » ، وقرأ أكثر السبعة ، وابن عباس ، وابن مسعود ،
 وابن جبير ، وعلقمة : (عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثٌ) ، وقرأ ابن كثير ،
 ونافع ، وابن عامر ، والحسن ، وأبو رجاء ، وأبو جعفر ، والأعرج ،
 وشيبة ، وقتادة ، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه : (عِنْدَ الرَّحْمَنِ
 إِنَاثٌ) ، وهذه القراءة أدلُّ على رفعة المنزلة وقربها في التكرمة ،
 كما قيل : « مَلِكٌ مُقَرَّبٌ » ، وقد تصرف المعنيان في كتاب الله تعالى

في الملائكة في غير هذه الآية ، فقال تعالى : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ (١) ،
وقال سبحانه في أخرى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ (٢) ، وفي مصحف
ابن مسعود : « وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ عِبَادَ الرَّحْمَنِ إِنَاءً » .

وقرأ نافع وحده : [أَشْهَدُوا] بهمزتين وبلا مدٍّ بينهما وبفتح
الأولى وضم الثانية وتسهيلها بين الهمزة والواو ، ورواها المفضل
عن عاصم بتخفيف الهمزتين ، وقرأ المسيبي عن نافع بمدة بين الهمزتين ،
وقرأ أبو عمرو ، ونافع أيضاً ، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ،
وابن عباس رضي الله عنهما ، ومجاهد : [أَوْشَدُوا] بتسهيل الثانية بلا
مدٍّ ، وقرأ جماعة من القراء بتسهيل الثانية ومدة بينهما ، وقرأ آخرون :
[أَشْهَدُوا] بهمزة واحدة بغير استفهام ، وهي قراءة الزهري ، وهي
في صفة الإناث ، أي : أشهدوا خلقهم ؟ ومعنى الآية التوبيخ وإظهار
فساد دعواهم وأنها مجردة من الحجة ، وهذا نظير الآية الرادة على
الْمُنَجِّمِينَ وأهل الطبائع في قوله تعالى : ﴿ مَا أَشْهَدُتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ ﴾ (٣) .

وقرأ جمهور الناس : ﴿ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ ﴾ برفع (شهادة) وبناء
الفعل للمفعول . وقرأ الأعرج ، وابن عباس ، وأبو جعفر ، وأبو
حيوة : ﴿ سَنَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ ﴾ بنون الجمع ، و [شَهَادَتُهُمْ] بالنصب ،

(١) من الآية (٢٦) من سورة (الأنبياء) .

(٢) من الآية (٢٠٦) من سورة (الأعراف) .

(٣) من الآية (٥١) من سورة (الكهف) .

وقرأت فرقة : [سَيَكْتُبُ] على معنى : سيكتب الله شهادتهم بالنصب ،
 وقرأ الحسن بن أبي الحسن : (سَتَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ) على بناء الفعل
 للمفعول وجمع الشهادات ، وفي قوله تعالى : [وَيُسْأَلُونَ] وعيد مفصح ،
 و [أَشْهَدُوا] في هذه معناه : أحضروا؟ وليس ذلك من شهادة تحمل
 المعاني التي يطلب أن تؤدى .

قوله عز وجل :

﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَاهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ
 إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ ٢٠ أَمْ أَتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَمُهِم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ
 قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَلِكَ
 مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا
 عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ * قُلْ أُولَٰئِكَ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ
 مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانْتَقَمْنَا
 مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ ٢٥ *

ذكر الله تعالى احتجاج الكفار بمذاهبهم ليبين فساد منزعهم ،
 وذلك أنهم جعلوا إلهال الله تعالى لهم وإنعامه عليهم - وهم يعبدون
 الأصنام - دليلا على أنه يرضى عبادة الأصنام ديناً ، وذلك كالأمر

به ، فنفى الله تعالى عن الكفرة أن يكون لهم علمٌ بهذا ، وليس عندهم كتاب منزل يقتضي ذلك ، وإنما هم يظنون ويحدثون ويخمنون ، وهذا هو الخرصُ والتخرصُ .

وقرأ الجمهور : ﴿ عَلَى أُمَّةٍ ﴾ بضم الهمزة ، وهي المِلَّةُ والديانة ، والآية - على هذا - تعيب عليهم التقليد ، وقرأ مجاهد ، والجحدري ، وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : ﴿ عَلَى إِمَّةٍ ﴾ بكسر الهمزة ، وهي بمعنى النعمة ، ومنه قول الأعشى :

وَلَا أَمْلِكُ النُّعْمَانَ يَوْمَ لَقِيْتُهُ بِإِمَّتِهِ يُعْطِي الْقُطُوطَ وَيَأْفِقُ (١)

ومنه قول عدي بن زيد :

ثُمَّ بَعْدَ أَلْفَ فَلَاحٍ وَالْمُلْكِ وَالْإِمَّةِ وَارْتَهُمُ الْقُبُورُ (٢)

(١) البيت من قصيدته المعروفة التي يمدح بها الملق بن خنثم ، والتي يقول في مطلعها : (أَرَقْتُ وَمَا هَذَا السُّهَادُ الْمُزْرَقُ) ، والملك النعمان هو النعمان الثالث أبو قابوس ، والإمَّةُ : النعمة ، وهي موضع الاستشهاد هنا ، والقُطُوطُ : الحظوظ والأنصبه ، واحداها قط بمعنى نصيب ، ويأفِقُ : يُعْطِي بعضاً أكثر من بعض .
(٢) هو عدي بن زيد العبادي ، والبيت من قصيدة له تُعد من روائع الشعر العربي ، وقد بدأها بقوله :

أَرْوَّاحُ مُودَّعٍ أَمْ بِكُورُ لَكَ ؟ فاعْمِدْ لَأَيِّ حَالٍ تَصِيرُ

وفيها يصور الحياة وكيف انتهت بالملوك إلى الفناء بعد النعمة والعزة ، يقول : أين كسرى وبنو الأصفر وصاحب الحصن العظيم المسمى بالخصر ؟ ثم يصل إلى بيت الشاهد فيقول : إنهم بعد الفلاح والملِك والعيش في غصارة ونعمة قد ذهبوا ووارثهم القبور ، والشاهد أن الإمَّة بكسر الهمزة هي : النعمة وغصارة العيش . هذا والبيت في اللسان .

فآلية - على هذا المعنى - استمرار في احتجاجهم ؛ لأنهم يقولون :
وجدنا آباءنا في نعمة من الله تعالى وهم يعبدون الأصنام ، فذلك دليل
رضاه عنهم . وكذلك اهتدينا نحن بذلك على آثارهم ، وذكر الطبري
عن قوم أن «الإمة» : الطريقة ، من قولك : أَمَمْتُ كذا إِمَّةً .
ثم ضرب الله تعالى المثل لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وجعل له
الأسوة فيمن مضى من النذر والرسل عليهم السلام ، وذلك أن المترفين
من قومهم - وهم أهل النعم والمال - قد قابلوهم بمثل هذه المقابلة .
وقرأ جمهور القراء : ﴿ قُلْ أَوْ لَوْ ﴾ ، والمعنى : قُلْنَا للنذير : « قُلْ
أَوْ لَوْ » ، وقرأ ابن عامر ، وحفص عن عاصم : ﴿ قَالَ أَوْ لَوْ ﴾ ، ففي
[قَالَ] ضمير يعود على النذير ، وباقي الآية يدل على أن [قُلْ] في
قراءة من قرأها ليست بأمر لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وإنما هي حكاية
لما قيل للنذير (١) ، وقوله تعالى : ﴿ أَوْ لَوْ ﴾ هي ألف الاستفهام دخلت
على واو عطفت جملة كلام على جملة متقدمة ، و [لَوْ] في هذا الموضع
كأنها شرطية بمعنى «إن» ، كأن معنى الآية : أَوْ إِنْ جِئْتُمْ بِأَبْيَنَ
وأوضح مما كان عليه آباؤكم يصحبكم لجأجكم وتقليدكم ؟ فأجاب
الكفار حينئذ لنذرهم : ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ .

(١) ذكر أبو حيان الأندلسي كلام ابن عطية هذا في البحر المحيط ، ثم علق عليه بقوله :
« ولا يتعين ما قاله ، بل الظاهر أن الضمير في [قَالَ] أو [قُلْ] للرسول صلى الله عليه وسلم ،
أي : قل يا محمد لقومك : اتَّبِعُوا آبَاءَكُمْ وَلَوْ جِئْتُمْ بِدِينٍ هُوَ أَهْدَى مِنَ الدِّينِ الَّذِي
وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ؟ وهذا تجهيل لهم حيث يقلّدون ولا ينظرون في الدلائل » .

وقوله تعالى : ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ الآية وعيد لقريش ، وضرب
 مثل بمن سلف من الأمم المعذبة المكذبة بأنبيائها . كما كذبت هي
 بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقرأ جمهور الناس : ﴿أَوْ لَوْ جِئْتُكُمْ﴾ .
 وقرأ أبو جعفر ، وأبو شيخ [الهنائي] (١) ، وخالد : ﴿أَوْ لَوْ جِئْنَاكُمْ﴾ .
 وقرأ الأعمش : ﴿قُلْ أَوْ لَوْ أُوتِيتُمْ﴾ .

قوله عز وجل :

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۖ إِلَّا
 الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ۖ﴾ وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون
 ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ۚ﴾ ولما
 جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٨﴾ *

المعنى : واذكر إذ قال إبراهيم ، ولما ضرب تعالى المثل لمحمد
 صلى الله عليه وسلم بالأنذر وجعلهم أسوة له ، خص إبراهيم عليه السلام
 بالذكر لعظم منزلته ، وذكر محمداً عليه الصلاة والسلام بمنازمة
 إبراهيم عليه السلام لقومه ، أي : فافعل أنت فعله ، وتجلد تجلده ،
 و [براء] صفة تجري على الواحد والاثنين والجمع ، كعدل وزور .

(١) ما بين علامتين [.....] زيادة للتوضيح وتحديد المراد .

وقرأ جمهور الناس : [بَرَاءً] بفتح الباء ، وقرأت فرقة : [بُرَاءً] بضم الباء ، وفي مصحف عبد الله وقراءة الأعمش : [إِنِّي] بنون واحدة [بَرِيءٌ] ، قال الفراء : «ومن الناس من يكتب شكل الهمزة المخففة ألفاً في كل موضع ولا يراعي حركة ما قبلها» ، قال : «فربما كان خط مصحف عبد الله بألف كما في مصحف الجماعة لكن كان يلفظ بها بكسر الراء .

وقوله تعالى : ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ قالت فرقة : الاستثناء متصل ، وكانوا يعرفون الله تعالى ويعظمونه . إِلَّا أَنَّهُمْ كانوا يشركون معه أصنامهم ، فكان إبراهيم عليه السلام قال لهم : أنا لا أوافقكم إِلَّا على عبادة الله الفاطر ، وقالت فرقة : الاستثناء منقطع ، والمعنى : لكن الذي فطرني معبودي ، وعلى هذا فلم يكونوا يعبدون الله تعالى لا قليلاً ولا كثيراً ، وعدل إبراهيم عليه السلام لقومه عبادته لله تعالى بأنه الهادي المنجي من العذاب ، وفي هذا استدعاء لهم وترغيب لهم في الله تعالى وتطميع في رحمته .

والضمير في قوله تعالى : [وَجَعَلَهَا] قالت فرقة : ذلك عائد على كلمته بالتوحيد في قوله : ﴿إِنِّي بَرَاءٌ﴾ ، وقال مجاهد ، وقتادة ، والسدي : ذلك مراد به «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» ، وعاد الضمير عليها وإن كانت

لم يجر لها ذكر لأن اللفظ يتضمنها ، وقال ابن زيد : المراد بذلك الإسلام ولفظته ، وذلك قوله عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ (٣) .
و « الْعَقَبُ » : الذرية وولد الولد ما امتد فرعهم .
وقوله تعالى : ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ ﴾ الآية كلام متصل بما قبله لأنه لما قال تعالى : ﴿ فِي عَتَبِهِ ﴾ وكانت قريش من عتبه اقتضى الكلام أن يقدر فيه : لكن هؤلاء ليسوا ممن بقيت الكلمة فيهم بل متعتهم ، والمعنى في الآية : بل أمهلت هؤلاء ومتعتهم بالنعمة مع كفرهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين . وذلك هو شرع الإسلام والرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، و [مَتَّعْتُ] بضم التاء هي قراءة الجمهور ، وقرأ قتادة : [مَتَّعَ] بفتح التاء الأخيرة على معنى : قل يا رب بل متعت ، ورواها يعقوب عن نافع ، وقرأ الأعمش : ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا ﴾ وهي تعضد قراءة الجمهور ، و [مُبِينٌ] في هذه الآية يحتمل التعدي وترك التعدي .

(١) من الآية (١٢٨) من سورة (البقرة) .

(٢) الآية (١٣١) من سورة (البقرة) .

(٣) من الآية (٧٨) من سورة (الحج) .

ثم أخبر تعالى عنهم على جهة التقرير بأنهم قالوا للقرآن : هذا سحر ، وأنهم كفروا به ، وإنما جعلوه بزعمهم سحراً من حيث كان عندهم يفرق بين المرء وولده وزوجه ، فجعلوه لذلك كالسحر ، ولم ينظروا إلى الفرق في أن المفارق بالقرآن يفارق عن بصيرة في الدين ، والمفارق بالسحر يفارق عن خلل في دينه .

قوله عز وجل :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهَمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ (٣٤) وَزُخْرَفًا (٣٥) وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥) ﴾

الضمير في [قَالُوا] لقريش ، وذلك أنهم استبعدوا أولاً أن يرسل الله تعالى بشراً ، فلما تقرر أمر موسى ، وعيسى ، وإبراهيم عليهم

السلام ولم يكن لهم في ذلك مدفع رجعوا (١) يناقضون فيما يخص
 محمداً صلى الله عليه وسلم بعينه فقالوا : لم كان محمداً - عليه الصلاة
 والسلام - ولم يكن نزول الشرع على رجل من إحدى القريتين عظيم ؟
 وقدر المبرد قولهم : على رجل من رجلين من القريتين ، والقريتان :
 مكة والطائف ، ورجل مكة الذي أشاروا إليه ، قال ابن عباس رضي الله
 عنهما : هو الوليد بن المغيرة المخزومي ، وقال مجاهد : هو عتبة بن
 ربيعة ، وقال قتادة : بلغنا أنه لم يبق فخذ من قريش إلا ادعاه ،
 ورجل الطائف ، قال قتادة : هو عروة بن مسعود ، وقال ابن عباس
 رضي الله عنهما : حبيب بن عبد بن عمير (٢) ، وقال مجاهد : كنانة
 ابن عبد يا ليل .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإنما قصدوا إلى من عظم ذكره بالسُّنِّ والقِدَم ؛ وإلا فرسول الله
 صلى الله عليه وسلم كان حينئذ أعظم من هؤلاء لكن لما عظم أولئك
 قبل مُدَّة النبي صلى الله عليه وسلم وفي صباه استمر ذلك لهم .
 ثم وقف تعالى - على جهة التوبيخ لهم - بقوله : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ
 رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ ، المعنى : أعلى اختيارهم وإرادتهم تنقسم الفضائل

(١) في بعض النسخ : « جعلوا يناقضون » .

(٢) الصواب : حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي كما جاء في كل التفاسير .

والمكانة عند الله تعالى ؟ و « الرَّحْمَةُ » اسم يُعْمُّ جميع هذا ، ثم أخبر تعالى خبراً جازماً بأنه تعالى قاسم المعاش والدرجات في الدنيا ليسخر بعض الناس بعضاً ، المعنى : فإذا كان اهتمامنا بهم أن نقسم هذا الحقير الفاني فالأحرى أن نقسم الأهم الخطير ، وفي قوله تعالى : (نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ) تزهيد في السعيات ، وعون على التوكل على الله تعالى ، والله درُّ القائل :

لَمَّا أَتَى « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ » زال المِراء (١)

وقرأ الجمهور : [مَعِيشَتَهُمْ] ، وقرأ ابن مسعود ، والأعمش : [مَعَايِشَهُمْ] .
 وقرأ جمهور الناس : [سُخْرِيًّا] بضم السين ، وقرأ أبو رجاء ، وابن محيصن : [سِخْرِيًّا] بكسر السين ، وهما لغتان في معنى التسخير ، ولا مدخل لمعنى الهُزء في هذه الآية .

وقوله تعالى : (وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) ، قال قتادة ، والسدي يعني الجنة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

لاشك أن الجنة هي الغاية ، ورحمة الله تبارك وتعالى في الدنيا بالهداية والإيمان خير من كل مال ، وهذا اللفظ تحقير للدنيا ، ثم

(١) المِراء : الشك والريب ، ويترتب عليهما الجدل .

استمر القول في تحقيرها بقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ الآية ، وذلك أن معنى الآية أن الله تعالى أبقي على عباده وأنعم بمراعاة بقاء الخير والإيمان وشاء حفظه على طائفة منهم بقية الدهر ، ولولا كراهية أن يكون الناس كفاراً كلهم وأهل حب في الدنيا وتجرد لها لوسع الله تعالى على الكفار غاية التوسعة ومكنهم من الدنيا ؛ إذ حقارتها عنده تقتضي ذلك ؛ لأنها لا قدر لها ولا وزن لفنائها وذهاب رسومها ، فقوله تعالى : ﴿ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ معناه : في الكفر ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، والحسن ، والسدي ، ومن هذا المعنى قال عليه الصلاة والسلام : (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء) (١) ، ثم يتركب معنى الآية على معنى هذا الحديث ، واللام في قوله تعالى : ﴿ لِمَنْ يَكْفُرْ ﴾ لام الملك ، واللام في قوله تعالى : ﴿ لِبُيُوتِهِمْ ﴾ لام تخصيص ، كما تقول : هذا الكساء لزيد لدابته ، أي : هو لدابته ^{حلس} (٢) ولزيد ملك ، قال المهدوي : ودلت هذه الآية على أن السقف لرب البيت الأسفل ؛ إذ هو منسوب إلى البيوت .

(١) أخرجه الترمذي وصححه ، وابن ماجه ، عن سهل بن سعد رضي الله عنه .

(٢) الحليس : كل ما ولي ظهر الدابة تحت الرحل والقشب والسرّج .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا تفقه واهن .

وقرأ جمهور القراء : [سُقْفًا] بضم السين والقاف . وقرأ مجاهد :
[سُقْفًا] بضم السين وسكون القاف ، وهذان جمعان ، وقرأ ابن كثير ،
وأبو جعفر : [سَقْفًا] بفتح السين وسكون القاف على الأفراد ، و « المعارج » :
الأدراج التي يطلع عليها ، قاله ابن عباس . وقتادة ، والناس ، وقرأ
طلحة : [وَمَعَارِجَ] بزيادة ياء ، و [يَظْهَرُونَ] معناه : يعلون . ومنه
حديث عائشة رضي الله تعالى عنها : (والشمس في حجرتها قبل أن
تظهر) (١) ، و « السُرُرُ » جمع سرير ، واختلف الناس في « الزُّخْرُفُ » -
فقال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والسدي : الزُّخْرُفُ : الذهب
نفسه ، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إياكم والحمرة
فإنها من أحب الزينة إلى الشيطان) (٢) .

(١) أخرجه البخاري في الواقيت ، ومسلم في المساجد ، وأبو داود ، والدارمي ، ومالك
- في الموطأ - في الصلاة ، والحديث طويل كما جاء في البخاري . وفيه أن عمر بن عبد العزيز
رضي الله تعالى عنه أخر الصلاة يوماً فدخل عليه عروة بن الزبير فأخبره أن المغيرة بن شعبة
أخر الصلاة يوماً وهو بالعراق فدخل عليه أبو مسعود الأنصاري يلومه ، وفي آخر الحديث
يقول عروة لعمر بن عبد العزيز : ولقد حدثني عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم كان يصلي العصر والشمس في حجرتها قبل أن تظهر .

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره بقوله : وذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم
كان يقول ... الحديث .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

الحُسْنُ أحمر والشهواتُ تتبعه . وقال ابن زيد : الزُّخْرُفُ : أثاثُ البيت وما يتخذ له من الستور والنمازق (١) ونحوه ، وقالت فرقة : الزُّخْرُفُ : التَّزَاوِيْقُ والنَّقْشُ ونحوه من التَّزْيِينِ ، وشاهد هذا القول ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ ﴾ (٢) . وقرأ جمهور القراء : ﴿ وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا ﴾ بتخفيف الميم من [لَمَّا] ، فتكون [إِنْ] مخففة من الثقيلة ، واللام في [لَمَّا] داخلة لِتَفْصِيلٍ بين النفي والإيجاب ، وقرأ عاصم ، وحمزة ، وهشام - بخلاف عنه - والحسن ، وطلحة ، والأعمش ، وعيسى : [لَمَّا] بتشديد الميم من [لَمَّا] ، ف [إِنْ] نافية بمعنى (ما) ، و [لَمَّا] بمعنى (إلَّا) ، وقد حكى سيبويه : « نشدتك إِنْ لَمَّا فعلت » ، وحمله على (إلَّا) ، وفي مصحف أبي بن كعب : « وما ذلك إِلَّا متاع الحياة الدنيا » ، وقرأ أبو رجاء : [لَمَّا] بكسر اللام وتخفيف الميم ، ف [مَا] بمعنى (الذي) والعائد عليها محذوف ، والتقدير : وإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لِلَّذِي هو متاع الحياة الدنيا ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَالْآخِرَةُ ﴾

(١) النَّمَارِقُ : جمع نَمْرُق ، وهي الوسادة الصغيرة يتكأ عليها ، وفي التنزيل العزيز :

﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴾ .

(٢) من الآية (٢٤) من سورة (يونس) .

عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ وَعْدٌ كَرِيمٌ وَتَحْرِيطٌ عَلَى التَّقْوَى إِذْ فِي الْآخِرَةِ
هُوَ التَّبَاطُؤُ فِي الْمَنَازِلِ .

قوله عز وجل :

﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ (٣٦) وَإِنَّهُمْ
لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ
يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْبَسُ الْقَرْيُنُ ﴿٣٨﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ
إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾

[مَنْ] في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ ﴾ شرطية ، و (عَشَا يَعْشُو)
معناه : قلَّ الإبصار ، كالذي يعترى في الليل وكالذي هو الأَعشى
من الرجال ، يقال : عَشَا الرجلُ يَعْشُو عَشْوًا إِذَا فَسَدَ بَصَرُهُ فَلَمْ يَرِ ،
أَوْ لَمْ يَرَ إِلَّا قَلِيلًا ، وقرأ قتادة ، ويحيى بن سلام البصري : ﴿ وَمَنْ
يَعْشُ ﴾ بفتح الشين ، وهي من قولهم : عَشِيَ يَعْشَى ، والأكثر عَشَا
يَعْشُو ، ومنه قول الشاعر :

مَتَى تَأْتِيهِ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ تَجِدُ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدٍ (١)

(١) هذا البيت للحطيئة ، أبو مليكة جرجول بن أوس - ، وهو من قصيدة له يمدح بها
قيس بن شماس ، والبيت في ديوانه ، وفي الكتاب ، ومجالس ثعلب ، وأما ابن الشجري : =

وفي شعر آخر :

..... تَجِدُ حَطَبًا جَزَلًا وَنَارًا تَأْجَجًا (١)

وقرأ الأعمش : « وَمَنْ يَعِشُ عَنِ الرَّحْمَنِ » ، وسقط « ذِكْر » ، فالمعنى في الآية : ومن يقل نظره في شرع الله تعالى ويغمض جفونه عن النظر في ذكر الرحمن ، أي فيما ذكّر به عباده ، فالمصدر مضاف إلى الفاعل ، ﴿ نَقِصُّ لَهُ شَيْطَانًا ﴾ ، أي نُيسِّرُ له ، وهذا هو العقاب على الكفر بالحنّ والطبع وعدم الفلاح ، وهذا كما يقال : إن الله تعالى يعاقب على المعصية بالتزديد في المعاصي ، ويُجازي على الحسنات بالتزديد

= وابن يعيش ، والعيني ، واللسان ، والصحاح ، والتاج ، ومجاز القرآن ، وغريب القرآن ، وهو هنا شاهد على أن (تعشو) بمعنى : تضعف عينك فلا ترى إلا قليلا ، وقد نقل صاحب اللسان خلافاً بين القراء والقتبي والأزهري في تحديد معنى (يعشو) ، كما نقل رأي أبي عبيدة ، وليس مجاله هنا ، والنحويون يستشهدون بالبيت على أن (تعشو) جاء مرفوعاً لا اعتراضه حالاً بين الشرط والجزاء ، وقد وقع كذلك بين مجزومين هما (تَأْتِ وتَجِدُ) .

(١) هذا عجز بيت لعبيد الله بن الحر ، والبيت بتمامه :

مَتَى تَأْتِنَا تُلْمِمُ بِنَا فِي دِيَارِنَا تَجِدُ حَطَبًا جَزَلًا وَنَارًا تَأْجَجًا

وهو في كتاب سيبويه ، وخزانة البغدادي ، وفي الجمع ، والأشموني ، وابن يعيش ، والإنصاف ، وقول ابن عطية : « وفي شعر آخر » إشارة مهذبة إلى ما وقع من خطأ في رواية البيت في الطبري ، حيث جاء بيت مركب من شطرين من بيتين مختلفين ، الصدر فيه من بيت الخطيئة السابق ذكره هنا ، والعجز فيه هو العجز المذكور هنا من شعر ابن الحر ، والصواب ما ذكرناه هنا ، والشاهد في هذا البيت كالشاهد في البيت السابق كما ذكر النحويون ، حيث جزم الفعل (تُلْمِمُ) لأنه بدل من قوله : (تَأْتِ) ، ولو أمكن رفعه على تقدير الحال لحاز ، كما رفع الفعل (تَعْشُو) في بيت الخطيئة على حال من وقوعه بين فعلين مجزومين ، بهذا يستشهد النحويون بهذا البيت . أما هنا فلا شاهد فيه ، وقد ذكره ابن عطية فقط ليبين أنه بيت آخر غير بيت الخطيئة .

في الحسنات ، وقد روي هذا المعنى مرفوعاً . وقرأ الجمهور : [نُقِيضُ] بالنون ، وقرأ عاصم (١) ، والأعمش ، وأبو عمرو - بخلاف عنه - : [يُقِيضُ] بالياء [شَيْطَاناً] ، أي : يُقِيضُ الله ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿يُقِيضُ لَهُ شَيْطَانٌ﴾ بفتح الياء الثانية وشدها ورفع النون من [شَيْطَانٌ] .

والضمير في [وَأَنَّهُمْ] عائد على الشياطين ، وفي [لِيَصُدُّوهُمْ] عائد على الكفار ، و «السَّبِيلُ» هي سبيل الهدى والفوز ، والضمير في [يَحْسُبُونَ] للكفار ، وقرأ نافع ، وابن كثير ، وعاصم - في رواية أبي بكر - وابن عامر ، وأبو جعفر ، وشيبة ، وقتادة ، والزهري ، والجحدري : ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا﴾ على التثنية ، يريد العاشي والقرين ، قاله سعيد الحريري ، وقتادة ، وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، والحسن ، وابن محيصن ، والأعرج ، وعيسى ، والأعمش ، وعاصم (٢) : [جَاءَنَا] ، يريد العاشي وحده ، وفاعل [قَالَ] هو العاشي .

وقوله تعالى : ﴿بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾ يحتمل ثلاثة معان : أحدها أن يريد : بُعْدَ المشرق من المغرب ، فسماهما مشرقين ، كما يقال : القمران ، والعمران ، قال الفرزدق :

(١) أي : في رواية أبي بكر عنه .

(٢) أي : في رواية حفص عنه .

لَنَا قَمَرَاهَا وَالنُّجُومُ الطَّوَالِعُ (١)

والثاني أن يريد مشرق الشمس في أطول يوم ومشرقها في أقصر يوم ، فكأنه أخذ نهايتي المشارق . والثالث أن يريد : بُعد المشرقين من المغربين فاكتفى بذكر المشرقين .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ ﴾ الآية حكاية عن مقالة يقال لهم يوم القيامة ، وهي مقالة موحشة حرمتهم روح النَّاسِي : لأنه يوقفهم بها على أنه لا ينفعهم النَّاسِي ، وذلك لعظم المصيبة وطول العذاب واستمرار مدته ؛ إذ النَّاسِي راحة لكل مصاب في الدنيا في الأغلب ، ألا ترى إلى قول الخنساء :

وَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ أَعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالنَّاسِي (٢)

(١) هذا عجز بيت قاله الفرزدق من قصيدة له في الفخر بآبائه ، والبيت بتمامه :

أَخَذْنَا بِأَفَاقِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمْ لَنَا قَمَرَاهَا وَالنُّجُومُ الطَّوَالِعُ
ويريد بالقمرين الشمس والقمر ، ثنائهما تغليبا ، وهذا هو موضع الشاهد هنا ، والآفاق : جمع أفق وهو الناحية ، وقد استشهد القراء بهذا البيت في (معاني القرآن) ، والتغليب أن يجمع بين الاسمين على تسمية أشهرهما ، وقد كثر ذلك في العربية ، فمنه ما ذكر هنا وهو التسميران للشمس والقمر ، ومنه العُمران لأنني بكر وعمر ، والبَصْرَتان للبصرة والكوفة ، والعَصْران للغداة والعصر ، قال القراء : وأنشدني رجل من طيبي :

فَبَصْرَةُ الْأَزْدِ مِنَّا وَالْعِرَاقُ لَنَا وَالْمَوْصِلَانِ ، وَمِنَّا مِصْرُ فَالْحَرَمُ

يريد : الجزيرة والموصل .

(٢) هذان البيتان من قصيدة تُعَدُّ من محاسن شعر الخنساء ، وقد قالتها ترثي أخاها

صخرأ ، ومطلعها :

يُؤَرْقِنِي التَّـذْكَرُ حِينَ أَمْسَى فَأَصْبَحُ قَدْ بُلِيتُ بِفَرْطِ نَكْسٍ =

فهذا التَّاسِيَّ قد كفاها مئونة قتل النفس ، فنفي الله تعالى عنهم الانتفاع بالتَّاسِيَّ ، وفي ذلك تعذيب لهم ويأسٌ من كل خير ، وفاعل [يَنْفَعُكُمْ] الاشتراك .

وقرأ جمهور القراء : [أَنْكُمْ] بفتح الألف ، وقرأ ابن عامر وحده : [إِنَّكُمْ] بكسر الألف ، وقد يجوز أن يكون فاعل [يَنْفَعُكُمْ] التَّبرُّؤ الذي يدل عليه قوله : ﴿ يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ ﴾ ، وعلى هذا يكون [أَنْكُمْ] في موضع نصب على المفعول من أجله ، وتخرج الآية عن معنى نفي الأُسوة .

قوله عز وجل :

﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٤٠ ﴾
 فَإِنَّمَا تَذَهَبُ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ٤١ ﴿ أَوْ زُرِينَا الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ٤٢ ﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٤٣ ﴿ وَإِنَّهُ لَدُرُّ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ٤٤ ﴾ وَسَعَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ٤٥ ﴾

= والبيتان غير متواليين ، بل بينهما بيتان آخران حذفهما ابن عطية ليصل إلى موضع الاستشهاد ، ومعنى أعزِّي : أصبر وأستكي ، والتَّصَبَّر : قال المبرد : التَّاسِي أن يرى ذو البلاء من به مثل بلائه فيكون قد ساواه فيه فيُسَكِّن ذلك من وجده .

لما ذكر الله تعالى حالة الكفار في الآخرة وما يقال لهم وهم في العذاب اقتضى ذلك أن تُشفق النفوس ، وأن ينظر كل سامع لنفسه ويسعى في خلاصها ، فلما كانت قريش مع هذا الذي سمعت لم تنزل عن عُتُوِّها وإِعْرَاضِها عن أمر الله تعالى رجعت المخاطبة إلى محمد صلى الله عليه وسلم على جهة التسلية له عنهم . وَشَبَّهَهُم بِالصَّمِّ وَالْعَمِيِّ إِذْ كَانَتْ حَوَاسِهِمْ لَا تَفِيدُ شَيْئاً .

وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ يريد بذلك قريشاً بأنفسهم ، ولذلك لم يقل : «أو من كان» ، بل جاء بالواو العاطفة كأنه تعالى يقول : «وهؤلاء» ، ويؤيد ذلك أيضاً عود الضمير عليهم في قوله تعالى : ﴿فَإِنَّا مِنْهُمْ﴾ ، ولم يَجْرِ لَهُمْ ذِكْرٌ إِلَّا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَمَنْ كَانَ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ﴾ الآية آية تتضمن وعيداً واقعاً ، وذهب جمهور العلماء إلى أن الْمُتَوَعِّدِينَ هم الكفار ، وأن الله تعالى أَرَى نَبِيَّهٖ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي وعدهم في بدر والفتح وغير ذلك ، وذهب الحسن ، وقتادة إلى أن الْمُتَوَعِّدِينَ هم في هذه الأمة ، وأن الله تعالى أَكْرَمَ نَبِيَّهٖ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أن ينتقم منهم بحضرته وفي حياته فوقعَتِ النِّقْمَةُ مِنْهُمْ بَعْدَ أَنْ ذَهَبَ بِهِ ، وذلك في الفتن

الحادثة في صدر الإسلام مع الخوارج وغيرهم ، وقال الحسن وقتادة :
 أَكْرَمَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ أَنْ يَرَى فِي أُمَّتِهِ
 مَا يَكْرَهُ كَمَا رَأَى الْأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللَّهِ تَعَالَى وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ ،
 فَكَانَتْ النِّقْمَةُ بَعْدَ ذَهَابِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقَدْ رُوِيَ حَدِيثٌ عَنْ
 جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ : ﴿ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴾ فَقَالَ : (بَعْلِي بْنُ أَبِي طَالِبٍ) (١) ،
 وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ فِي تَوَعُّدِ الْكَفَّارِ أَكْثَرُ .

ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْتَّمَسُّكِ بِمَا جَاءَهُ مِنْ
 عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الْوَحْيِ الْمَتْلُوِّ وَغَيْرِهِ ، وَ « الصُّرَاطُ » : الطَّرِيقُ .
 وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ : [أَوْحَى] عَلَى بِنَاءِ الْفِعْلِ لِلْمَفْعُولِ ، وَقَرَأَ الضَّحَّاكُ :
 [أَوْحَى] عَلَى بِنَاءِ الْفِعْلِ لِلْفَاعِلِ ، أَيِ : أَوْحَى اللَّهُ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يُرِيدَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى :
 وَإِنَّهُ لَشَرَفٌ وَحَمْدٌ فِي الدُّنْيَا - وَالْقَوْمُ عَلَى هَذَا - قَرِيشٌ ثُمَّ الْعَرَبُ .
 وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَقَتَادَةَ ، وَمُجَاهِدٍ ، وَالسَّيِّدِيِّ ، وَابْنِ زَيْدٍ ،

(١) قَالَ السَّيُّوطِيُّ فِي (الدَّر الْمَشْهُورِ) : « أَخْرَجَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ مِنْ طَرِيقِ مُحَمَّدِ بْنِ مَرْوَانَ ،
 عَنِ الْكَلْبِيِّ ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ :
 ﴿ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴾ : (نَزَلَتْ فِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ
 تَعَالَى عَنْهُ أَنَّهُ يَنْتَقِمُ مِنَ الْفَاسِقِينَ وَالْقَاسِطِينَ بَعْدِي) .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل ، فإذا قالوا له : لِمَنْ يكون الأمر بعدك ؟ سكت ، حتى إذا نزلت هذه الآية فكان إذا سُئِلَ عن ذلك قال : لقريش ، فكانت العرب لا تقبل ذلك حتى قبلته الأنصار رضي الله عنهم (١) ، وروى ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان) (٢) ، وروى أبو موسى الأشعري عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : (لا يزال هذا الأمر في قريش ما داموا إذا حكموا عدلوا ، وإذا استرحموا رحموا ، وإذا عاهدوا وفوا ، فمن لم يفعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) (٣) ، وروى معاوية أنه صلى الله عليه وسلم قال : (لا يزال

(١) أخرجه ابن عدي ، وابن مردويه ، عن علي بن أبي طالب ، وابن عباس رضي الله عنهم .

(٢) أخرجه البخاري في الأحكام والمناقب ، ومسلم في الإمارة ، عن ابن عمر رضي

الله عنهما .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في أكثر من موضع من مسنده ، عن بكير بن وهب الجزري قال :

قال لي أنس بن مالك : أحدثك حديثاً ما أحدثته كل أحد ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم

قام على باب البيت ونحن فيه فقال : (الأئمة من قريش ، إن هم عليكم حقاً ولكم عليهم

حقاً مثل ذلك ما إن استرحموا رحموا ، وإن عاهدوا وفوا ، وإن حكموا عدلوا ، فمن لم

يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) . وفي رواية أخرى أن أنساً قال :

« كنا في بيت رجل من الأنصار ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وقف فأخذ بعصاة =

هذا الأمر في قريش ما أقاموا الدين (١)، ويحتمل أن يريد تعالى :
وإنه لتذكيرة وموعظة ، و « القوم » - على هذا - أمته بأجمعها ، وهذا
قول الحسن بن أبي الحسن ، وقوله تعالى : ﴿ وَسَوْفَ تَسْأَلُونَ ﴾ قال
ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : معناه : عن أوامر القرآن ونواهيها ،
وقال الحسن بن أبي الحسن : معناه : عن شكر النعمة فيه : واللفظ
يحتمل هذا كله ويعمه .

واختلف المفسرون في المراد بالسؤال في قوله تعالى : ﴿ وَأَسْأَلُ مَنْ
أَرْسَلْنَا ﴾ - فقالت فرقة : أراد تعالى أن أسأل جبريل عليه السلام ،
ذكر ذلك النقاش .

= الباب « . فليس المقصود إذاً بالبيت ما يتبادر إلى الذهن من أنه الكعبة ، وبديل قوله في الحديث :
« ونحن فيه » .

(١) قال ابن كثير في تفسيره : « أورد الترمذي هنا حديث الزهري ، عن محمد بن جبير
ابن مطعم ، عن معاوية رضي الله عنه » . وبعد أن ذكر الحديث قال : « رواه البخاري » .
ونص الحديث كما رواه البخاري في كتاب الأحكام عن الزهري ، قال : كان محمد بن جبير
ابن مطعم يحدث أنه بلغ معاوية - وهو عنده في وفد من قريش - أن عبد الله بن عمرو
يحدث أنه سيكون ملك من قحطان ، فغضب فقام فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال :
أما بعد فإنه بلغني أن رجالاً منكم يحدثون أحاديث ليست في كتاب الله ولا تؤثر عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وأولئك جهالكم ، فإياكم والأمانى التي تضل أهلها ، فإني سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إن هذا الأمر في قريش ، لا يعاديه أحد إلا كبهه
الله على وجهه ما أقاموا الدين) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفيه بُعد ، وقال ابن زيد ، وابن جبير ، والزهرى : أراد تعالى :
 واسأل الرُّسُلَ إذا لقيتهم ليلة الإسراء ، أما إن النبي صلى الله عليه وسلم
 لم يسأل الرُّسُلَ عليهم السلام ليلة الإسراء عن هذا لأنه صلى الله عليه
 وسلم كان أثبت يقيناً من ذلك ولم يكن في شك . وقالت فرقة :
 أراد تعالى : واسألني أو اسألنا عما أرسلنا ، والأولى - على هذا التأويل -
 أن يكون ﴿ مَنْ أَرْسَلْنَا ﴾ استفهاماً أمره أن يسأل به . كأن سؤاله :
 يارب من أرسلت قبلي من رُسُلِكَ ؟ أجعلت في رسالته الأمر بآلهة
 يُعبدون ؟ ثم ساق السؤال محكي المعنى فردَّ المخاطبة إلى محمد صلى الله
 عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ ، وقال ابن عباس ، والحسن ،
 ومجاهد ، وقتادة ، والسدي ، وعطاء : أراد تعالى : واسأل تُبَّاع
 من أرسلنا وحملة شرائعهم ؛ لأن المفهوم أنه لا سبيل له إلى سؤاله
 الرُّسُلَ إلا بالنظر في آثارهم وكتبهم وسؤال من حفظها ، وفي قراءة
 ابن مسعود ، وأبي بن كعب : « واسأل الذين أرسلنا إليهم قبلك رسلنا » .
 فهذه القراءة تؤيد هذا المعنى ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ (١)
 مفهوم أنه لا يسأل إلا أهلها ، ومما ينظر إلى هذا المعنى قوله تعالى :

(١) من الآية (٨٢) من سورة (يوسف) .

(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ) (١) ، فمفهوم أن الرد إنما هو إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأن المحاورة في ذلك إنما هي لتباعهم وحفظه الشرع . وقوله تعالى : [يُعْبُدُونَ] أخرج الضمير على حد من يعقل مراعاة للفظ الآلهة .

قوله عز وجل :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهُ السَّاحِرُ الْكَذَّابُ لَنَا رَبُّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾

هذه آية ضرب مثل وأسوة لمحمد بموسى صلى الله وسلم عليهما ، ولكفار قريش بقوم فرعون وملئه ، والآيات التي أرسل بها موسى عليه السلام هي التسع وغير ذلك مما جاءت به الروايات ، وخص الله تعالى الملائكة بالذكر لأنهم يسُدُّون مسدَّ جميع الناس ، ثم وصفهم

تعالى بالضحك من آيات موسى عليه السلام كما كانت قريش تضحك
وتسخرون أخبار محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم وصف تعالى صورة عرض الآيات عليهم وأنها كانت شيئاً
بعد شيء ، وقوله تعالى : ﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ عبارة عن شدة
موقعها في نفوسهم بجدة أمرها وحدثه ، وذلك أن أول آية عرضها
موسى عليه السلام هي العصا واليد . وكانت أكبر آية ، ثم كل
آية بعد ذلك تقع فتعظم عندهم لحينها وتكبر لأنهم قد كانوا أنسوا
التي قبلها بها ، كما قال الشاعر :

عَلَى أَنَّهَا تَغْنُو الْكُلُّ — وَ إِنَّمَا تَوَكَّلُ بِالْأَذْنَى وَإِنْ جَلَّ مَا يَمْضِي (١)
وذهب الطبري إلى أن الآيات هنا هي الحجج والبيّنات . ثم ذكر
تعالى أخذهم بالعذاب في القمل والضفادع والدم وغير ذلك ، وهذا
كما أخذ قريشاً بالسنين والدخان . وقوله تعالى : [لَعَلَّهُمْ] تَرْجٌ بحسب
معتقد البشر وظنهم ، و [يَرْجِعُونَ] معناه : يتوبون ويُقلعون .

(١) يستشهد المؤلف بهذا البيت على أن الإنسان قد يُشغل بالأمر الجديد ولو كان هيناً
وينسى الأمر القديم ولو كان عظيماً ؛ لأن الحديد له وقعه وحدثه ولم تعتد عليه النفس بعد ،
والكلوم : الجراح ولعله يريد بها هنا كل ما يؤلم الإنسان حسياً كان أو معنوياً ، وتغفور :
تذهب بها وتزيل آثارها ، يقال : عفت الديار إذا درست ، والأدنى : القريب أو الأقل
قيمة أو أثراً ، وجَلَّ : عَظُمَ ، والتوكلُ بالأمر : الالتزام به والقيام عليه .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ﴾ ، جائز أن يكون قائل ذلك من أعلمهم بكفر السحرة فيكون قوله استهزاء وهو يعلم قدر السحر وانحطاط منزلته ، ويكون قوله : [عندك] بمعنى في زعمك وعلى قولك ، ويحتمل أن يكون القائل ليس من المتمرددين الحذاق منهم ، ويطلق لفظ الساحر لأحد وجهين : إما لأن السحر كان عند عامتهم علم الوقت ، فكأنه قال : يا أيها العالم ، وإما لأن هذه الاسمية قد كانت انطلقت عندهم على موسى عليه السلام لأول ظهوره فاستصحبها هذا القائل في مخاطبته قلة تحرير وغباوة ، ويكون القول - على هذا التأويل - جداً من القائل ، ويكون قوله : ﴿ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ ﴾ بمعنى : إن نفعتنا دعوتك ، وهذا التأويل أرجح ، أعني أن كلام هذا القائل مقترن بالجد . وقرأ ابن عامر وحده : [يأيّه] بهاء مضمومة فقط (١) .

ثم أخبر تعالى عنهم أنه سبحانه لما كشف عنهم العذاب نكثوا ، ولو كان الكلام هزلاً من أوله لما وقع نكث .

(١) عِلَّتْهَا أَنْ هَاءَ خُلِطَتْ بِمَا قَبْلَهَا وَأُلْزِمَتْ ضَمُّ الْيَاءِ ، وَالْيَاءُ مَضْمُومَةٌ وَجُوباً لِأَنَّهَا مَنَادَى مُفْرَدٌ ، وَأُنْشِدَ الْفَرَاءُ عَلَى ذَلِكَ :

يَا أَيُّهُ الْقَلْبُ اللَّجْجُ — وَجِ النَّفْسُ أَفِقْ عَنِ الْبَيْضِ الْحِسَانِ اللَّعْسُ
فَقَدْ ضَمَّ الشَّاعِرُ هَاءَ حَمَلًا عَلَى ضَمِّ الْيَاءِ ، وَاللَّعْسُ : جَمْعُ لَعَسَاءَ ، وَاللَّعْسُ : سَوَادٌ مُسْتَحْسَنٌ فِي بَاطِنِ الشَّفَةِ .

قوله عز وجل :

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَنْقُومُ آلِيسَ لِي مَلِكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ
تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا
يَكَادُ يَبِينُ ۝٥٢﴾ فَلَوْلَا أَلْتَقَىٰ عَلَيْهِ أَسُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَكُ
مُقْتَرِنِينَ ۝٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ۝٥٤﴾ فَلَمَّا
ءَاَسَفُونَا أُنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٥﴾ جَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا
لِّلْآخَرِينَ ۝٥٦﴾

نداء فرعون يحتمل أن يكون بلسانه في نادية ، ويحتمل أن يكون
بأن أمر من ينادي في الناس ، ومعنى هذه الحجة التي نادى بها أنه
أراد أن يبين فضله على موسى عليه السلام ؛ إذ هو ملك مصر وصاحب
الأنهار والنعم ، وموسى - عليه السلام - خامل متعلل لا دُنْيَا له ،
قال : فلو أن إله موسى يكون حقاً كما يزعم لما ترك الأمر هكذا ،
ومِصْر من بحر الإسكندرية إلى أسوان بطول النيل ، والأنهار التي
أشار إليها هي الخلجان الكبار الخارجة من النيل ، وعُظْمَاهَا نهر
الإسكندرية وتَنِيْس ودِمِيَاط ونهر طولون (١) .

(١) في بعض النسخ : «نهر ميزلون» .

وقوله : ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ ﴾ ، قال سيبويه : [أَمْ] هذه المعادلة ، والمعنى : « أفأنتم لا تبصرون أم تبصرون » ؟ فوضع موضع قوله : « أَمْ تبصرون » الأمر الذي هو حقيق أن يُبصر عنده وهو أنه خير من موسى عليه السلام ، و [لَا] - على هذا النظر - نافية ، وقالت فرقة : المعنى : أفلا تبصرون أم لا تبصرون ؟ ثم اقتصر على [أَمْ] لدلالة ظاهر الكلام على المحذوف منه . وابتدأ قوله : « أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ » إخباراً منه . فقوله : ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ - على هذا النظر - بمنزلة « هَلَّا » و « لَوْلَا » على معنى التحضيض . وقالت فرقة : [أَمْ] بمعنى « بَلْ » (١) .

وقرأ بعض الناس : ﴿ أَمَّا أَنَا خَيْرٌ ﴾ ، حكاه الفراء (٢) ، وكان مجاهد يقف على [أَمْ] ثم يبتدئ « أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ » ، قال قتادة : وفي مصحف أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه « أَمْ أَنَا خَيْرٌ أَمْ هَذَا » .

(١) هذا رأي السدي وأبي عبيدة ، فيكون المعنى أنه انتقل من هذا الكلام إلى إخباره بأنه خير ممن ذكر ، وهذا كقول الشاعر :

بَدَتْ مِثْلَ قَرْنِ الشَّمْسِ فِي رَوْثِ الضُّحَى وَصُورَتِهَا . أَمْ أَنْتِ فِي الْعَيْنِ أَمْ لَحْ

(٢) قال الفراء في (معاني القرآن) : « وقد أخبرني بعض المشيخة - أظنه الكسائي - أنه بلغه أن بعض الفراء قرأ : « أَمَّا أَنَا خَيْرٌ » ، وقال لي هذا الشيخ : لو حفظت الأثر فيه لقرأت به ، وهو جيد في المعنى » ، وقد علق الطبري على هذه القراءة فقال : « ولو كانت هذه القراءة قراءة مستفيضة في قراءة الأمصار لكانت صحيحة ، وكان معناها حسناً ، غير أنها خلاف ما عليه قُرَاءَةُ الأمصار فلا أُسْتَجِيزُ القراءة بها » .

و [مَهِينٌ] معناه : ضعيف ، وقوله : ﴿وَلَا يَكَادُ يُبَيِّنُ﴾ إشارة إلى ما بقي في لسان موسى عليه السلام من أثر الجمرة ، وذلك أنها كانت أحدثت في لسانه عقدة ، فلما دعا في أن تُحَلَّ لِيُفَقِّهَ قوله أُجِيبَتْ دعوته ، لكن بقي أثر كان البیان يقع معه . لكن فرعون عيَّر به ، وقوله : ﴿وَلَا يَكَادُ﴾ يقتضي أنه كان يُبَيِّن ، وقرأ أبو جعفر محمد ابن علي [يُبَيِّنُ] بفتح الياء الأولى .

وقوله تعالى : ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ﴾ يريد : من السماء تكرمة له ، وقرأ الجمهور [أُلْقِيَ] على بناء الفعل للمفعول ، وقرأ الضحاك : [أُلْقَى] بفتح الهمزة والقاف على بناء الفعل للفاعل [أَسَاوِرَةً] نصباً ، وقرأ جمهور القراء : [أَسَاوِرَةً] ، وقرأ حفص عن عاصم : [أَسُورَةً] ، وهي قراءة الأعرج ، والحسن ، وقتادة ، وأبي رجاء ، ومجاهد ، وقرأ أبي بن كعب : [أَسَاوِرُ] ، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه : [أَسَاوِيرُ] ، ويقال : سِوَارٌ وإِسْوَارٌ لما يجعل في الذراع من الحلي ، حكى أبو زيد اللغتين ، وأبو عمرو بن العلاء ، وهو كالْقَلْبِ (١) ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما والناس ، وكانت عادة الرجال يومئذ

(١) القَلْبُ : السَّوَارُ يكون نظماً واحداً . « المعجم الوسيط » .

حَبَسَ ذلك والتَّزَيْنَ (١) به ، و «أَسَاوِرُ» جمع «إِسْوَارٍ» ، ويجوز أن يكون جمع «أَسُورَةٍ» كَأَسْقِيَةٍ وَأَسَاقِي ، وكذلك «أَسَاوِرَةٍ» جمع «إِسْوَارٍ» والهَاءُ في «أَسَاوِرَةٍ» عِوَضٌ عن الياء المحذوفة ؛ لأن الجمع إنما هو «أَسَاوِير» كما في مصحف ابن مسعود ، فحذفوا الياء وجعلوا الهاء عِوَضاً منها ، كما قالوا ذلك في زنادقة وبطارقة (٢) وغير ذلك ، و «أَسُورَةٍ» جمع «سِوَارٍ» . وقوله : [مُقْتَرِنِينَ] أي : يحمونه ويشهدون له ويقيّمون حجته . ثم أخبر تعالى عن فرعون أنه استخف قومه بهذه المقالة ، أي طلب خِفَتَهُمْ وإِجَابَتَهُمْ إلى غرضه ، وأجابوه إلى ذلك وأطاعوه في الكفر لفسقهم ولِمَا كانوا بسبيله من الفساد .

و [آسَفُونَا] معناه : أغضبونا ، بلا خلاف ، وإغضاب الله تعالى هو أن تعمل الأعمال الخبيثة التي تظهر من أجلها أفعاله الدالة على إرادة السوء بمن شاء ، والغضب - على هذا - صفة فعل ، وهو مما يتردد ، فإذا كان مما يظهر من الأفعال فهو صفة فعل ، وإذا رُدَّ إلى الإرادة فهو صفة ذات ، وفي هذا نظر .

(١) يقال في اللغة : «حَبَسَ الشيءَ بالشيء» : سَتَرَهُ وأحاطه به ، فهو محبوسٌ وحبيسٌ ، وجاء في بعض نسخ الأصول : «والتَّزَيْنِيَّ به» بدلا من «والتَّزَيْنَ به» .

(٢) حيث يقال فيهما : «زناديق وزنادقة وبطاريق وبطارقة» .

وقرأ جمهور القراء : [سُلَفًا] بفتح السين واللام ، جمع سالف كحارِصٍ وحَرَسٍ ، والسلف هو الفارط من الأئمة المتقدم ، أي جعلناهم متقدمين للأئمة الكافرة عظةً ومثلاً لهم يعتبرون بهم أو يقعون فيما وقعوا فيه ، ومن هذه اللفظة قول النبي صلى الله عليه وسلم : (يذهب الصالحون أسلافاً) (١) ، وقوله في ولده إبراهيم عليهما السلام : (ندفنه عند سلفنا الصالح عثمان بن مظعون) ، وقرأ حميد الأعرج ، وحزمة ، والكسائي : [سُلَفًا] بضم السين واللام ، وهي قراءة عبد الله وأصحابه ، وسعيد بن عياض ، وابن كثير ، وهو جمع سليف ، وذكر الطبري عن القاسم بن معن أنه سمع العرب تقول : مضى سليفٌ من الناس ، بمعنى السلف (٢) ، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وحميد الأعرج أيضاً : [سُلَفًا] بضم السين وفتح اللام ، كأنه جمع سُلْفَةٍ بمعنى الأئمة والقطعة (٣) ، و «الآخِرُونَ» هم من يَأْتِي مِنَ الْبَشَرِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

(١) أخرجه الدارمي في كتاب الرقاق . عن الأسلمي . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يذهب الصالحون أسلافاً ويبقى حثالة كحثة الشعير) .
(٢) قال الفراء : سُلْفٌ جمع سليف نحو سُرُرٍ وسُرِيرٍ . وقال أبو حاتم : سُلْفٌ جمع سَلَفٍ نحو خُشْبٍ وخَشَبٍ ، وَثَمَرٌ وَثَمَرٍ .
(٣) نحو غُرْفَةٍ وغُرْفٍ ، وَطَرَفَةٍ وَطَرَفٍ ، وَظُلْمَةٍ وَظُلْمٍ . وفي اللسان : جاء القوم سُلْفَةً سُلْفَةٍ . إذا جاء بعضهم في أثر بعض .

قوله عز وجل :

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ (٥٧) وَقَالُوا
 «الْهِنَّا خَيْرٌ أَمِ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خِصْمُونَ ﴾ (٥٨) إِنْ هُوَ
 إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ
 فُلُكًا فِي الْآرِضِ يَخْلُقُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ
 هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٢﴾ ﴾

رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وغيره في تفسير هذه الآية
 أنه لما نزلت : ﴿ إِنْ مَثَلٌ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ﴾ الآية (١) ،
 ونزل مع ذلك ذكر عيسى عليه السلام وحاله وكيف خلق من غير فحل ،
 قالت فرقة : ما يريد محمد - عليه الصلاة والسلام - من ذكر عيسى
 إِلَّا أَنْ نَعْبُدَهُ كَمَا عَبَدْتَ النَّصَارَى عِيسَى - عليه السلام - ، فهذا كان
 صدودهم من ضربه مثلاً . وقرأ نافع ، وابن عامر ، والكسائي ، وأبو
 جعفر ، والأعرج ، والنخعي ، وأبو رجاء ، وابن وثاب : [يَصِدُّونَ]
 بضم الصاد بمعنى يُعرضون ، وقرأ الباقر ، وابن عباس ، وابن جبير ،
 والحسن ، وعكرمة : [يَصِدُّونَ] بكسر الصاد بمعنى يَضْجُونَ ، قاله

(١) من الآية (٥٩) من سورة (آل عمران) .

ابن عباس وغيره . وأنكر ابن عباس رضي الله عنهما ضم الصاد .
ورويت عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقال الكسائي : هما
لغتان بمعنى واحد مثل يعرثون ويعرثون .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾ ابتداءً معنى ثان ،
وذلك أنه لما نزلت : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ (١)
جاء عبد الله بن الزبيري ونظراؤه ، فقالوا : نحن نخصم محمداً ،
آلهتنا خير أم عيسى ؟ وعلموا أن الجواب أن يقال لهم : عيسى
قالوا : وهذه آية الحصب لنا أَوْ لِكُلِّ الْأُمَمِ مِنَ الْكُفَّارِ ؟ فقال النبي
صلى الله عليه وسلم : (بل لكل من تقدم وتأخر من الكفار) . قالوا :
نحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى إذ هو خير منها ، وإذ قد عبد
فهو من الحصب إذن ، فقال الله تعالى : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ﴾ (٢) ،
أي : ما مثّلوا لك هذا التمثيل إِلَّا جَدَلًا منهم ومغالطة ، ونسوا أن
عيسى صلى الله عليه وسلم لم يُعبد برضى منه ولا عن إرادة ، ولا له
في ذلك ذنب .

(١) من الآية (٩٨) من سورة (الأنبياء) .

(٢) أخرج حديث ابن الزبيري هذا أبو داود في ناسخه ، وابن المنذر ، وابن مردويه ،
والطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما . وأخرجه من وجه آخر ابن مردويه . والضياء
في المختارة عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً ، وذكره الواحدي في أسباب النزول ، وكذلك
ذكره البغوي بلون سند ، وذكره الحازن أيضاً بلون سند ، وعبارات المفسرين تجمع على ذلك .

وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : [أَلِهْتُنَا] بهمزة استفهام وهمزة بعدها بين بين وألف بعدها . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي بهمزتين مُحَقَّقَتَيْن بعد الثانية ألف . وقرأ ورش عن نافع بغير استفهام : [أَلِهْتُنَا] على مثال الخبر ، وقرأ قالون عن نافع : [أَلِهْتُنَا] بهمزة واحدة بعدها مدّة ، وفي مصحف أبي بن كعب : «خَيْرٌ أَمْ هَذَا» . فالإشارة إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وخُرِجَتْ هذه القراءة على التأويل الأول الذي فسرناه ، وكذلك قالت فرقة ممن قرأ : (أَلِهْتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ) : إن الإرادة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو قول قتادة ، وقال ابن زيد ، والسدي : المراد بـ [هُوَ] عيسى عليه السلام . وهذا هو المترجح .

و «الجدال» عند العرب : المحاورة بمغالطة أو تحقيق أو ما اتفق من القول ، إنما القصد به أن يَغْلِبَ صاحبه في الظاهر لا أن يتطلّب الحق في نفسه . وروى أبو أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ما ضلّ قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل) . ثم قرأ : (مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا) (١) ، قال أبو أمامة : ورأى النبي صلى الله

(١) رواه الإمام أحمد ، والترمذي ، وابن ماجه ، وابن جرير الطبري ، وزاد الإمام السيوطي في الدر المنثور نسبه إلى سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي . في شعب الإيمان : عن أبي أمامة رضي الله عنه . =

عليه وسلم قوماً يتنازعون في القرآن فغضب حتى كأنما صُبَّ على وجهه الخَلُّ ، وقال : (لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، فما ضلَّ قوم إلا أوتوا الجدل) (١) . ثم أخبر الله تعالى عنهم أنهم أهل خصام ولَّدَد .
وأخبر تعالى عن عيسى عليه السلام أنه عبد أنعم الله عليه بالنبوة والمنزلة العالية ، وجعله مثلاً لبني إسرائيل ، [وقوله : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ ﴾] الآية (٢) ، أي : لا تستغربوا أن يُخلق عيسى من غير فحل فإن القدرة تقتضي ذلك وأكثر منه .

وقوله تعالى : ﴿ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ ﴾ معناه : لجعلنا بدلاً منكم ، أي : لو شاء الله تعالى لجعل بدلاً من بني آدم ملائكة يسكنون الأرض ويخلفون بني آدم فيها ، وقال ابن عباس ، ومجاهد : يخلف بعضهم بعضاً .

= وقال ابن كثير في تفسيره : « وقد رُوي من وجه آخر عن أبي أمامة رضي الله عنه بزيادة » ، ثم ذكر أن هذه الرواية هي (ما ضلَّت أمة بعد نبيِّها إلا كان أول ضلالها التكذيب بالقدر ، وما ضلَّت أمة بعد نبيِّها إلا أعطوا الجدل ، ثم قرأ : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾) .

(١) نقله ابن كثير في تفسيره عن ابن جرير الطبري ، عن جعفر ، عن القاسم ، عن أبي أمامة رضي الله عنه .

(٢) هكذا وردت الفقرة كلها في الأصول ، ونعتقد أن ما وضعناه بين العلامتين [.....] زيادة من النساخ لأن النهي عن الاستغراب في خلق عيسى عليه السلام من غير أب مرتبط بقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا ﴾ ، ولا علاقة لقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ ﴾ به . فهو حديث عن بني آدم ، وأن الله تعالى لو شاء لجعل في الأرض ملائكة بدلاً من بني آدم .

والضمير في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّسَاعَةِ﴾ قال ابن عباس ،
والحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي ، والضحاك ، وابن زيد :
الإشارة به إلى عيسى عليه السلام ، وقالت فرقة : إلى محمد صلى الله
عليه وسلم ، وقال أيضاً الحسن ، وقتادة : إلى القرآن ، وقرأ جمهور
الناس : [لَعِلْمٌ] بكسر العين وسكون اللام ، وقرأ ابن عباس ، وأبو
هريرة ، وقتادة ، وأبو مالك الغفاري ، ومجاهد ، وأبو نضرة المنذر
ابن كعب ، ومالك بن دينار : ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَمٌ﴾ بفتح العين واللام ،
وقرأ عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿وَإِنَّهُ لِلْعِلْمِ﴾ بلامين ،
وقرأ أبي بن كعب : «وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لِّلسَّاعَةِ» ، فمن قال إن الإشارة
لعيسى عليه السلام حَسُنَ مع تأويله «عِلْمٌ» و «عَلَمٌ» ، أي هو إشعار
بالسَّاعَةِ وشرط من أشراطها ، يعني خروجه في آخر الزمان ، وكذلك
من قال الإشارة إلى محمد صلى الله عليه وسلم إذ هو آخر الأنبياء
عليهم السلام ، فقد تميزت الساعة به نوعاً وقدرًا من التمييز وبقي
التحديد التام الذي انفرد الله تعالى بعلمه ، ومن قال الإشارة إلى القرآن
حَسُنَ قوله في قراءة من قرأ : [لَعِلْمٌ] بكسر العين وسكون اللام ، أي :
يُعلمكم بها وبأحوالها وصفاتها ، وفي قراءة من قرأ : [لَذِكْرٌ] .

وقوله تعالى : ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ﴾ ، أي : قل لهم يا محمد : لا تشكَّنْ
فيها ، وقوله تعالى : ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ إشارة إلى الشرع ، ثم
أمره بتحذير العباد من الشيطان وإغوائه ، ونبيههم على عداوته .

قوله عز وجل :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ
بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبُّكُمْ
فَاعْبُدُوهُ ۖ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۖ ﴾ (٦٤) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ
لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْحِمْيَرِ ۖ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۖ ﴾ (٦٥) الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ
﴿ ٦٦ ﴾ يَنْعِبَادُ لَأَخَوْفُ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ (٦٧) ﴿ ٦٨ ﴾

«البَيِّنَاتُ» التي جاء بها عيسى عليه السلام هي إحياء الموتى
وإبراء الأكفم والأبرص إلى غير ذلك ، وقال قتادة : الإنجيل (١) ،
و «الحِكْمَةُ» : النبوة ، قاله السدي وغيره .
وقوله تعالى : ﴿ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ ﴾ قال أبو
عبيدة : [بَعْضُ] بمعنى « كل » . وهذا ضعيف تردده اللغة ، ولا وجه
له ولا حجة من قول لبيد :

أَوْ يَغْتَلِقُ بَعْضَ النَّفُوسِ حِمَامُهَا (٢)

(١) إلى هنا ينتهي قول قتادة .

(٢) هذا عجز بيت قاله لبيد بن ربيعة العامري . وهو من معلقته التي أنشدتها أمام النابغة
فقال له : اذهب فأنت أشعر العرب . والبيت بتمامه :

تَرَاكَ أَمَكِنَةً إِذَا لَمْ أَرْضَها — أَوْ يَغْتَلِقُ بَعْضَ النَّفُوسِ حِمَامُهَا =

لأنه أراد نفسه ونفس من معه ، وتلك بعض النفوس ، وإنما المعنى الذي ذهب إليه الجمهور أن الاختلاف بين الناس هو في أمور كثيرة لا تحصى عدداً ، منها أمور أخروية ودينية ، ومنها مالا مدخل له في الدين ، فكل نبي إنما يبعث ليبين أمر الأديان والآخرة ، فذلك بعض ما يختلف فيه . وقوله تعالى : (هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) حكاية عن عيسى عليه السلام إذ أشار إلى شرعه .

و «الأحزاب» المذكورون ، قال جمهور المفسرين : أراد تعالى : اختلفت بنو إسرائيل وتحزبوا ، فمنهم من آمن به وهو قليل ، وكفر الغير ، وهذا إذا كان معهم حاضراً ، وقال قتادة : الأحزاب هم الأربعة الذين كان لهم الرأي . والمناظرة صرفت إليهم في أمر عيسى عليه السلام ، وقال ابن حبيب وغيره : الأحزاب : النصارى ،

= ويروى (أو يرتبط) بدلا من (أو يعتلق) ، ويروى أيضاً : (أو يعتقي) . ويعتقي : يحبس ، وهذا المعنى يفهم أيضاً من (يرتبط) . والحمام : قضاء الموت وقدره . وقوله : (بعض النفوس) أراد نفسه لأنها بعض أنفس الناس ، وقال أبو عبيدة : معناه : كل النفوس ؛ لأن الموت لا ينزل ببعض النفوس ولكنه ينزل بالنفوس كلها . وفي شرح الزوزني للمعلقات السبع يقول : «إني تراك أما كن إذا لم أرضها إلا أن يرتبط نفسي حمامها فلا يمكنها البراح ، وأراد ببعض النفوس هنا : نفسه ، هذا أوجه الأقوال وأحسنها . ومن جعل بعض النفوس بمعنى كل النفوس فقد أخطأ ، لأن (بعضاً) لا يفيد العموم والاستيعاب ، وتحرير المعنى : إني لا أترك الأماكن أجتوبها وأقلبها إلا أن أموت » ، وبهذا يتضح ما قصده ابن عطية بقوله ردّاً على أبي عبيدة : «ولا وجه له ولا حجة من قول لبيد» . والفعل (يعتلق) في محل رفع ، وفي جزمه تأويلات .

افتترقت مذاهبهم فيه بعد رفعه عليه السلام ، فقالت فرقة : هو الله ، وهم اليعقوبية . قال الله عز وجل عنهم : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ (١) ، وقالت فرقة : هو ابن الله ، وهم النسطورية ، فقال الله تعالى فيهم : ﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾ (٢) ، وقالت فرقة : هو ثالث ثلاثة ، وهم الملكانية ، قال الله تعالى فيهم : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ (٣) ، وقوله تعالى : ﴿ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ بمعنى : من تلقائهم ومن أنفسهم ثار شرهم ولم يدخل عليهم الاختلاف من غيرهم .

والضمير في [يَنْظُرُونَ] لقريش ، والمعنى : ينتظرون ، و [بَغْتَةً] معناه : فجأة دون مقدمة ولا إنذار بها ، ثم وصف تعالى بعض حال القيامة وأنها - لهول مطلعها والخوف المطيف بالناس فيها - يتعاضد ويتباغض كل خليل كان في الدنيا على غير تقى ؛ لأنه يرى أن الضرر دخل عليه من قبل خليله ، وأما المتقون فيرون أن النفع دخل من بعضهم على بعض ، هذا معنى كلام علي بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهم .

(١) من الآية (٧٢) من سورة (المائدة) .

(٢) من الآية (٣٠) من سورة (التوبة) .

(٣) من الآية (٧٣) من سورة (المائدة) .

وقوله تعالى : ﴿ يَا عِبَادِ ﴾ ، المعنى : يقال لهم ، أي للمتقين ،
 وقرأ عاصم في رواية أبي بكر : ﴿ يَا عِبَادِي ﴾ بفتح الياء ، وهذا هو
 الأصل ، وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : ﴿ يَا عِبَادِي ﴾ بسكون
 الياء ، وقرأ ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم :
 ﴿ يَا عِبَادِ ﴾ بحذف الياء ، قال أبو علي : وحذفها أحسن لأنها في
 موضع تنوين وهي قد عاقبته ، فكما يحذف التنوين في الاسم المفرد
 المنادى كذلك تحذف الياء هنا لسكونها على حرف كما أن التنوين
 كذلك . ولأنها لا تنفصل عن المضاف كما لا ينفصل التنوين من
 المُنُون ، وذكر الطبري عن المعتمر (١) ، عن أبيه أنه قال : سمعتُ
 أن الناس حين يُبعثون ليس منهم أحدٌ إلَّا فزع ، فينادي منادٌ :
 « يا عبادي لا خَوْفٌ عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون » ، فيرجوها الناس
 كلهم ، قال : ويتبعها « الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ » ، قال :
 فَيُنَاسُ منها جميع الكفار .

وقرأ الحسن ، والزهري ، وابن أبي إسحق ، وعيسى بن عمر ،
 ويعقوب : ﴿ لَا خَوْفَ ﴾ بنصب الفاء من غير تنوين ، وقرأ ابن محيصن :
 ﴿ لَا خَوْفُ ﴾ برفع الفاء من غير تنوين .

(١) هو المعتمر بن سليمان التيمي ، أبو محمد ، البصري ، يُلقَّب بالطَّيْلُ ، ثقة ،
 من كبار التاسعة . مات سنة سبع وثمانين ، وقد تجاوز الثمانين ، (تقريب التهذيب) .

قوله عز وجل :

﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ ٧٩ ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُخْبَرُونَ﴾ ٨٠ ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ ٨١ ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ٨٢ ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ٨٣ ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ٨٤ *

[الَّذِينَ] نعت للعباد في قوله تعالى : ﴿يَا عِبَادِ﴾ ، ثم ذكر تعالى أمره إياهم بدخول الجنة هم وأزواجهم ، و [تُخْبَرُونَ] معناه : تُنعمون وتُسرون ، والحيرة والحبور : السرور ، و «الأكواب» : ضرب من الأواني كالأباريق إلا أنها لا آذان لها ولا مقابض .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم ، وأبو جعفر ، وشيبة : ﴿مَا تَشْتَهِيهِ﴾ بإثبات الهاء الأخيرة ، وكذلك في مصحف المدينة ومصحف الشام ، وقرأ الباقر ، وأبو بكر عن عاصم ، والجمهور : ﴿مَا تَشْتَهِي﴾ بحذف الهاء ، وكذلك وقع في أكثر المصاحف ، وحذفها من الصلة لطول القول حسن ، وذلك كثير في التنزيل ، كقوله تعالى : ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ (١) ، وقوله تعالى : ﴿وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ﴾

(١) من الآية (٤١) من سورة (الفرقان) .

الَّذِينَ أَصْطَفَى (١) ، وغير ذلك ، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه :
« مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّهُ الْأَعْيُنُ » بالهاء فيهما .

وقوله تعالى : (أَوْرِثُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) ليس المعنى أن
الأعمال أوجبت على الله إدخالهم الجنة ، وإنما المعنى أن حظوظهم منها
على قدر أعمالهم ، وأما نفس دخول الجنة وأن يكون المرء من أهلها
فبفضل الله تعالى وهداه .

قوله عز وجل :

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ (٧٤) لَا يُفَرِّغُهُمْ وَهُمْ فِيهِ
مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا يَمْلِكُ لِيَقْضِ
عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْتُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُكُمْ لِلْحَقِّ
كَرِهُونَ (٧٨) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ
وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠) قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ
الْعَبِيدِ (٨١) ﴿

لما ذكر الله تعالى حال أهل الجنة وما يقال لهم عقب ذلك
بذكر حال الكفرة من الخلود في النار والإبلاس ؛ ليبين الفرق ولتتضح

(١) من الآية (٥٩) من سورة (النمل) ، إذ الأصل فيهما : « بَعَثَهُ اللَّهُ » و « الَّذِينَ
اصْطَفَاهُمْ » .

الأمور التي منها النذارة . و «المجرمون» في هذه الآية : الكفار ،
بدليل الخلود وما تضمنته ألفاظ الآية من مخاطبة مالك وغير ذلك ،
و «المُبْلِسُ» : المُبْعَد اليائس من الخير ، قاله قتادة وغيره ، وقرأ
ابن مسعود : «وهم فيها مُبْلِسُونَ» ، أي في جهنم .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ ، أي : ما وضعنا العذاب فيمن
لا يستحقه ، ولكن هم ظلموا في أن وضعوا العبادة فيمن لا يستوجبها ،
ووضعوا الكفر والتفريط في جنب الله تعالى . وقرأ الجمهور : ﴿كَانُوا
هُمْ الظَّالِمِينَ﴾ على الفصل (١) ، وقرأ ابن مسعود : ﴿كَانُوا هُمُ الظَّالِمُونَ﴾
على الابتداء والخبر ، وأن تكون الجملة خبر [كَانَ] .

ثم ذكر تعالى عن أهل النار أنهم ينادون مالك خازن النار فيقولون -
على معنى الرغبة التي هي في صيغة الأمر - : ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ ،
أي : لِيُؤْتِنَا مَدَّةً حتى لا يتكرر عذابنا ، وقرأ النبي صلى الله عليه وسلم
على المنبر : ﴿يَا مَالِكُ﴾ (٢) بالكاف ، وهي قراءة الجمهور ، وقرأ
ابن مسعود ، ويحيى ، والأعمش : ﴿يَا مَالٍ﴾ بالترخيم ، ورويت

(١) أي على أن [هُم] ضمير الفصل ، وعلى قراءة ابن مسعود فإن [هُم] مبتدأ .

(٢) أخرج سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، وابن الأنباري في المصاحف ،
وابن مردويه ، والبيهقي في سننه ، عن يعلى بن أمية ، قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم
يقرأ على المنبر : ﴿وَنَادُوا يَا مَالِكُ﴾ ، وأخرج ابن مردويه عن علي رضي الله عنه أنه
سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ على المنبر : ﴿وَنَادُوا يَا مَالِكُ﴾ .

عن علي رضي الله عنه ، ورواها أبو الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم . و «القضاء» - في هذه الآية - بمعنى الموت . كقوله تعالى : ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ (١) ، وروي في تفسيرها عن ابن عباس رضي الله عنهما أن مالكا يقيم بعد سؤالهم ألف سنة - وقيل : ثمانين سنة ، وقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنه : أربعين سنة - ثم يقول لهم : ﴿إِنَّكُمْ مَّا كُنْتُمْ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ﴾ الآية ، يحتمل أن يكون من قول مالك لأهل النار ، ويكون قوله : ﴿جِئْنَاكُمْ﴾ على حد ما يدخل أحد - حملة الرئيس كتابه - نفسه في فعل الرئيس ، فيقول : غلبناكم وفعلنا بكم ونحو هذا ، ثم ينقطع كلام مالك في قوله : ﴿كَارِهُونَ﴾ ، ويحتمل أن يكون قوله تعالى : ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ﴾ من قول الله تعالى لقريش بعقب حكاية أمر الكفار مع مالك ، وفي هذا توعّد وتخويف فصيح ، بمعنى : انظروا كيف يكون حالكم ، ثم تتصل الآية - على هذا - بما بعدها من أمر قريش .

وقوله تعالى : ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً﴾ يريد : هل أحكموا أمراً من أمور مكرهم وتدبيرهم على محمد صلى الله عليه وسلم كما فعلوا في

(١) من الآية (١٥) من سورة (التقصص) .

اجتماعهم على مثله في دار الندوة إلى غير ذلك ، و [أَمْ] - في هذه الآية - المنقطعة ، وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾ ، أي : فَإِنَّا مُحْكِمُونَ نصره وحمايته ، و «الإبرام» أن تجمع خيطين ثم تفتلهما فتلاً متقناً ، و «البريم» خيط فيه لوانان .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ ﴾ الآية ، قال محمد بن كعب القرظي : نزلت لأن كثيراً من العرب كانوا يعتقدون أن الله تعالى لا يسمع السرار ، ومنه حديث الثقفى والقرشيَّين الذين سمعهم ابن مسعود رضي الله عنه يقولون عند الكعبة : أترى الله يسمعنا ؟ فقال أحدهم : يسمع إذا جهرنا ولا يسمع إذا أخفينا... الحديث (١) ، فأخبر الله تعالى في هذه الآية أنه يسمع - أي يدرك - السِّرَّ والنجوى ، وأن رسله الحفظة من الملائكة يكتبون أعمال البشر مع ذلك ، وتُعَدُّ للجزاء يوم القيامة .

(١) أخرجه ابن جرير ، عن محمد بن كعب القرظي ، قال : بينا ثلاثة بين الكعبة وأستارها ، قرشيَّان وثقفى ، أو ثقفيان وقرشي ، فقال واحد منهم : ترون الله يسمع كلامنا ؟ فقال واحد : إذا جهرتم سمع وإذا أسررتم لم يسمع . فنزلت : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ ، وقد ذكره النيسابوري في (أسباب النزول) عن أبي منصور البغدادي بسنده عن ابن مسعود في قوله تعالى في سورة (فصلت) : ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ ﴾ الآية ، وكذلك رواه عن محمد بن عبد الرحمن الفقيه عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه .

واختلف المفسرون في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ - فقالت فرقة : « العابدون » هو من العبادة ، ثم اختلفوا في معنى الآية بعد ذلك - فقال قتادة ، والسدي ، والطبري : المعنى : قل لهم يا محمد : إن كان للرحمن ولد - كما تقولون - فأنا أول من يعبد على ذلك ، ولكن ليس له شيء من ذلك تعالى وجل ، قال الطبري : هذا إلفاف في الخطاب ، ونحوه قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقوله تعالى في مخاطبة الكفار : ﴿ أَتَيْنَ شُرَكَائِي ﴾ (٢) .

وقال مجاهد : المعنى : إن كان لله تعالى ولد في قولكم فأنا أول من عبد الله وحده وكذبكم . وقال قتادة أيضاً ، وزهير بن محمد ، وابن زيد : [إِنْ] نافية بمعنى « ما » ، فكأنه تعالى قال : « قُلْ ما كان للرحمن ولدٌ » ، وهنا هو الوقف على هذا التأويل . ثم يبتدىء : ﴿ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ ، قاله أبو حاتم ، وقالت فرقة : العابدون : من عبد

(١) من الآية (٢٤) من سورة (سبا) .

(٢) تكرر ذلك في الآيات (٢٧) من سورة (النحل) ، و (٦٢) ، (٧٤) من سورة (القصص) ،

و (٤٧) من سورة (فصلت) .

الرجل إذا أنف وأنكر الشيء ، قال الشاعر :

متى ما يشأ ذو الود يضرم خليله وَيَعْبَدُ عَلَيْهِ لَا مَحَالَةَ ظَالِمًا (١)

ومنه حديث عثمان وعلي رضي الله عنهما في المرجومة حين قال علي :

وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ، قال : فما عبد عثمان أن بعث إليها

لترد (٢) ، والمعنى : إن جعلتم للرحمن ولداً وكان ذلك في قولكم فأنا

أول الآنفين المنكرين لذلك .

وقرأ الجمهور : [وَلَدٌ] بفتح الواو واللام ، وقرأ ابن مسعود ،

وابن وثاب ، وطلحة ، والأعمش : [وُلْدٌ] بضم الواو وسكون اللام ،

وقرأ أبو عبد الرحمن : (أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ) ، وهي على هذا المعنى ،

قال أبو حاتم : العبد - بكسر الباء - الشديد الغضب ، وقال أبو

(١) هذا البيت شاهد على أن (عَبِدَ) تكون بمعنى أنف وكره ، فكلمة (يَعْبَدُ)

فيه بمعنى : يأنف ويكره ، ولم أقف على قائل هذا البيت فيما بين يدي من المراجع ، ومعنى

(يَضْرِمُ خَلِيلَهُ) : يقطع الود بينه وبين صديقه . وفي اللسان (عَبَدَ) عن الكسائي في قول

الله تعالى : (فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ) : أي الآنفين ، رجل "عابد" و"عبد" ، وأنف

وأنف ، أي الغضاب الآنفين من هذا القول .

(٢) أخرج هذا الخبر ابن جرير الطبري في تفسيره ، عن بعجة بن زيد الجهني ، وفيه

أن امرأة منهم دخلت على زوجها ، وهو رجل منهم أيضاً ، فولدت له في ستة أشهر ، فذكر

لعثمان بن عفان رضي الله عنه ، فأمر بها أن ترحم ، فدخل عليه علي بن أبي طالب رضي الله

عنه فقال : إن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه : (وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا) ،

وقال : (وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ) . قال : فوالله ما عبد عثمان أن بعث إليها لترد ، قال

يونس : قال ابن وهب : ما عبد : ما استنكف .

عبيدة : معناه : أول الجاحدين ، والعرب تقول : «عبدني حقي»
أي جحدني (١) .

قوله عز وجل :

﴿سُبْحَنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٨٢)
فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي
فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي
لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ
تَرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾

لَمَّا قَالَ : ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ نَزَّهَ الرَّبَّ تَعَالَى عَنْ هَذِهِ الْمَقَالَةِ
الَّتِي قَالُوهَا ، وَ [سُبْحَانَ] تَنْزِيهِه ، وَخَصَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْعَرْشِ
لَأَنَّهَا أَكْثَرُ الْمَخْلُوقَاتِ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا﴾ مَهَادَنَةٌ مَا
وَتَرَكُوهَا وَهِيَ مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ السَّيْفِ ، وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ : ﴿حَتَّى يُلَاقُوا﴾ ،
وَقَرَأَ أَبُو جَعْفَرٍ ، وَابْنُ مَحِيصَنٍ : ﴿حَتَّى يَلْقُوا﴾ ، وَقَالَ الْجُمْهُورُ :

(١) رَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ إِعْرَابِيَيْنِ اخْتَصِمَا إِلَيْهِ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا :
إِنْ هَذَا كَانَتْ لِي فِي يَدِهِ أَرْضٌ : فَعَبَدْنِيهَا ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : اللَّهُ أَكْبَرُ ،
فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ الْجَاهِلِينَ أَنَّ اللَّهَ وَلَدًا .

اليوم الذي توعدهم به هو يوم القيامة . وقال عكرمة وغيره : هو يوم بدر .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ ﴾ آية حكم بعظمته وإخباراً بألوهيته ، أي : هو النافذ أمره في كل شيء . وقرأ عمر بن الخطاب ، وابن مسعود ، وأبي بن كعب ، والحكم ابن أبي العاص ، وجابر بن زيد ، وأبو شيخ ، وبلال بن أبي بردة ، ويحيى بن يعمر ، وابن السمين : ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ ﴾ ، و «الحكيم» : المحكم .

و [تَبَارَكَ] تفاعل ، من البركة ، أي تزيدت بركاته ، و ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ حصر لجميع الموجودات المحسوسة ، و ﴿ عَلِمُ السَّاعَةِ ﴾ معناه : علم تحديد قيامها والوقوف على تعيينه وحصره . وهذا هو الذي استأثر بعلمه ، وإلا فنحن عندنا علم الساعة أنها واقعة ذات أهوال وصفات ما ، والمصدر في قوله تعالى : ﴿ عَلِمُ السَّاعَةِ ﴾ مضاف إلى المفعول ، وقرأ أكثر القراء : ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ بالياء من تحت ، وقرأ نافع ، وعاصم ، وأبو عمرو : ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ بالياء من فوق مضمومة ، وقرأ الأسود ، والأعمش : [يُخْشَرُونَ] بالياء من تحت .

«حَقِّي»

٨٧

الَّذِي

الَّذِي

إِلَيْهِ

المقالة

العرش

نَّة مَا

وا،

هور :

لدهما :

كبر ،

قوله عز وجل :

﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٨٦) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلَ لَهُ يَرْبِّ إِنَّا هَنُؤَلَاءُ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ *

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ الآية مخاطبة لمحمد صلى الله عليه وسلم ، و [الَّذِينَ] هم المعبودون ، والضمير في [يَدْعُونَ] هو للكفار الذين عبدوا غير الله تعالى ، فأعلم تعالى أن كل من عبد من دون الله فإنه لا يملك شفاعته عند الله يوم القيامة ، وقرأ الجمهور : [يَدْعُونَ] بالياء من تحت ، وقرأ ابن وثاب : [تَدْعُونَ] بالتاء من فوق . ثم استثنى تعالى من هذا الإخبار ، واختلف الناس في المستثنى - فقال قتادة : استثنى ممن عبد من دون الله عيسى وعزيراً والملائكة عليهم السلام ، والمعنى : فإنهم يملكون شفاعته بأن يُمكنهم الله تعالى إياها ؛ إذ هم ممن شهد بالحق وهم يعلمون في كل أحوالهم ، فالاستثناء - على هذا التأويل - متصل ، وقال مجاهد وغيره : استثنى في المشفوع فيهم ، كأنه قال : لا يشفع هؤلاء الملائكة وعزير وعيسى إلا فيمن

شهد بالحق وهم يعلمون بالتوحيد ، فلاستثناء - على هذا التأويل - منفصل ، كأنه تعالى قال : لكن من شهد بالحق يشفع فيهم هؤلاء ، والتأويل الأول أصوب ، والله تعالى أعلم .

ثم أظهر تعالى الحجة عليهم من أقوالهم وإقرارهم بأن الله تعالى هو خالقهم وموجدهم بعد العدم ، ثم وقفهم - على جهة التقرير والتوبيخ - بقوله : ﴿ فَأَنِّي يُؤْفِكُونَ ﴾ ، أي : فلائي جهة يصرفون ؟ وقرأ جمهور القراء : ﴿ وَقِيلَ يَا رَبِّ ﴾ بالنصب ، وهو مصدر كالقول ، والضمير فيه لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وحكى مكي قولاً أنه لعيسى عليه السلام ، وهو ضعيف ، واختلف الناس في الناصب له - فقالت فرقة : هو معطوف على قوله تعالى : ﴿ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ ، وقالت فرقة : العامل فيه [يَكْتُبُونَ] ، أي : أقوالهم وأفعالهم وقيله (١) ، وقالت فرقة : الناصب له ما في قوله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ من قوة الفعل ، أي : ويعلم قيله ، ونزل قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَا رَبِّ ﴾ بمنزلة : وشكوى محمد - عليه الصلاة والسلام - واستغاثته من كفرهم وعُتُوهم ، وقرأ عاصم ، وحمزة ، وابن وثاب ، والأعمش : ﴿ وَقِيلَ يَا رَبِّ ﴾ بالخفض عطفاً على [السَّاعَةِ] (٢) ، وقرأ الأعرج ، وأبو قلابة ، ومجاهد :

(١) فهو معطوف على مفعول [يَكْتُبُونَ] .

(٢) قال الزمخشري : « والذي قالوه من العطف ليس بقوي في المعنى مع وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه . وأقوى من ذلك والوجه أن يكون النصب والجر على إضمار حرف القسم وحذفه » .

(وَقِيلُ يَا رَبِّ) بالرفع على الابتداء . والخبر في قوله : (يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ) ، أي : قيله هذا القول ، أو يكون التقدير : وقيل يا رب مسموعاً ومُتَقَبَّل ، ف (يَا رَبِّ) - على هذا - منصوب الموضع بـ [قِيلُ] . وقرأ أبو قلابة : (يَا رَبِّ) بفتح الباء المشددة ، وأراد : يا رباً ، على لغة من يقول : يا غلاماً ، ثم حذف الألف تخفيفاً واتباعاً لِخَطِّ المصحف .

وقوله تعالى : (فَاصْفَحْ عَنْهُمْ) موادةٌ منسوخة بآية السيف ، وقوله تعالى : [سَلَامٌ] تقديره : قُلْ أَمْرِي سَلَامٌ . أي مُسَالَمَةٌ ، وقالت فرقة : المعنى : وقل سلامٌ عليكم على جهة الموادة والملاينة ، والنسخ قد أتى على هذا السلام : سواء كان تحية أو عبارة عن الموادة . وقرأ جمهور القراء : [يَعْلَمُونَ] بالياء ، وقرأ نافع ، وابن عامر - في رواية هشام عنه - والحسن ، والأعرج ، وأبو جعفر : [تَعْلَمُونَ] بالثاء من فوق .

كمل تفسير سورة الزخرف والحمد لله رب العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



هذه السورة مكية . لا أحفظ خلافاً في شيء منها (١).

قوله عز وجل :

﴿ حَمْدٌ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ ۚ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَرَّكَةٍ ۖ إِنَّا
كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا
مُرْسِلِينَ ۝٥ رَّحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ السَّمَوَاتِ
وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنْتُمْ مُّوقِنِينَ ۝٧ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ
رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَائِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩
فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ ﴾

(١) قال بعض العلماء : إلا قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ﴾ .
وهي الآية رقم (١٥) من السورة .

تقدم القول في [حَمْ] ، وقوله تعالى : ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾
 قَسَمَ أَقْسَمَ اللَّهُ تبارك وتعالى به ، و [الْمُبِينِ] يحتمل أن يكون من
 الفعل المتعدي ، أي يبين الهدى والشرع ونحوه ، ويحتمل أن يكون
 من غير المتعدي ، أي هو مبين في نفسه ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾
 يحتمل أن يقع القَسَمُ عليه ، ويحتمل أن يكون ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ في
 وصف الكتاب فلا يحسن وقوع القَسَمِ عليه ، وهو اعتراضٌ يتضمن
 تفخيم الكتاب وَيُحَسِّنُ القَسَمَ به ، ويكون الذي وقع القَسَمُ عليه
 ﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ .

واختلف الناس في تعيين الليلة المباركة . فقال قتادة ، وابن زيد ،
 والحسن : هي ليلة القدر ، وقالوا : إِنَّ كُتِبَ اللَّهُ تعالى كلها وإنما نزلت
 في رمضان ، التوراة في أوله ، والإنجيل في وسطه ، والزبور في نحو
 ذلك ، ونزل القرآن في آخره في ليلة القدر ، ومعنى هذا النزول أن ابتداء
 نزوله كان في ليلة القدر ، وهذا قول الجمهور ، وقالت فرقة : بل أنزله
 الله تعالى جملة ليلة القدر إلى البيت المعمور ، ومن هناك كان جبريل
 عليه السلام يتلقاه ، وقال عكرمة وغيره : الليلة المباركة هي ليلة
 النصف من شعبان (١) .

(١) قال القاضي أبو بكر بن العربي : « وجمهور العلماء على أنها ليلة القدر ، ومنهم من
 قال : إنها ليلة النصف من شعبان ، وهو باطل لأن الله تعالى قال في كتابه الصادق القاطع : =

وقوله تعالى : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ معناه : يفصل من غيره ويتخلص ، وروى عن عكرمة في تفسير هذه الآية أن الله تعالى يفصل للملائكة في ليلة النصف من شعبان ، وقال الحسن ، وعمر مولى غفرة ، ومجاهد ، وقتادة : في ليلة القدر يفصل كل ما في العام المقبل من الأقدار والآجال والأرزاق وغير ذلك ، ويكتب ذلك لهم إلى مثلها من العام المقبل ، قال هلال بن يساف : كان يقال : انتظروا القضاء في شهر رمضان . وروى في بعض الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الرجل يتزوج ويُعْرَس وقد خرج اسمه في الموتى لأن الآجال تقطع في شعبان (١) ، وقرأ الحسن . والأعرج . والأعمش : [يَفْرُقُ] بفتح الياء وضم الراء . و [حَكِيمٍ] بمعنى : محكم .

وقوله تعالى [أَمْراً] نصب على المصدر ، و ﴿ مِنْ عِنْدِنَا ﴾ صفة لقوله تعالى : [أَمْراً] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ يحتمل أن

= ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ ، فَنَصَّ على أن ميقات نزوله رمضان ، ثم عَيَّن من زمانه الليل ها هنا بقوله : ﴿ فِي لَيْلَةِ مَبَارَكَةٍ ﴾ ، فمن زعم أنه في غيره فقد أعظم الفرية على الله . وليس في ليلة النصف من شعبان حديث يُعَوَّل عليه لا في فضلها ولا في نسخ الآجال فيها ، فلا تلتفتوا إليها .

(١) أخرجه ابن زنجويه ، والديلمى ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وأخرج مثله ابن جرير ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عن الزهري ، عن عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس . (الدر المنثور) .

يريد الرُّسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ويحتمل أن يريد الرحمة التي ذَكَرَ بَعْدُ ، وعلى التأويل الأول نصب قوله تعالى : [رَحْمَةً] على المصدر ، ويحتمل أن يكون نصبها على الحال .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ تقرير وتثبيت ، أي : إن كنت موقناً فهذا يكون يقينك ، كما تقول لإنسان يقيم نفسه : العلم غرضك إن كنت رجلاً . وقوله تعالى : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي : مالكم ومالك آبائكم .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ ﴾ بالرفع على القطع والاستئناف ، وهي قراءة الأعرج ، وابن أبي إسحق ، وأبي جعفر ، وشيبة . وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي بالكسر على البدل من [رَبٍّ] المتقدم ، وهي قراءة ابن محيصن ، والأعمش ، وأما قوله تعالى : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ ﴾ فالجمهور على رفع الباء ، وقرأ الحسن بالكسر ، ورواها أبو موسى عن الكسائي .

وقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ ﴾ إضرابٌ قبله نفيٌ مقدر ، كأنه يقول : ليس هؤلاء ممن يؤمن ولا ممن تنفعه وصاة ، بل هم في شك يلعبون في أقوالهم وأعمالهم .

واختلف الناس في الدخان الذي أمر الله تعالى بارتقاؤه - فقالت فرقة منها علي بن أبي طالب ، وزيد بن علي ، وابن عمر ، وابن عباس ، وأبو سعيد الخدري ، والحسن بن أبي الحسن رضي الله تعالى عنهم : هو دخان يجيء مقبل يوم القيامة ، يصيب المؤمن منه مثل الزكام ، وينضج رؤوس المنافقين والكافرين حتى تكون كأنها مصلية حنيذة (١) ، وقالت فرقة منها عبد الله بن مسعود ، وأبو العالية ، وإبراهيم النخعي : هو الدخان الذي رآته قريش حين دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم بسبع كسبع يوسف عليه السلام . فكان الرجل يرى من الجذب والجوع دخاناً بينه وبين الناس ، وما يأتي من الآيات يقوي هذا التأويل ، وقال ابن مسعود : خمسٌ قد مضين : الدخان واللزام والبطشة والقمر والروم ، وذكر الطبري حديثاً عن حذيفة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن أول آيات الساعة الدخان ، ونزول عيسى بن مريم ، ونارٌ تخرج من قعر عدن) (٢) ، وضعف الطبري سند هذا الحديث ،

(١) المصلية : المشوية في النار . والحنيذ : المشوي الذي يسيل منه الدهن ، وفي التنزيل العزيز : ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ .

(٢) الحديث في تفسير الطبري ، وقد رواه عصام بن رواد ، عن أبيه ، عن سفيان الثوري . ولفظه أطول مما ذكر ابن عطية هنا ، وقد ذكر الطبري أنه لم يشهد للحديث بالصحة لأن رواداً قال : إنه لم يسمعه من سفيان ، ولم يقرأه عليه ، ولم يقرأه أحد من الناس على سفيان =

واختار قول ابن مسعود في الدخان ، ويحتمل - إن صحَّ حديث حذيفة -
أن يكون قد مرَّ دخان ، ويأتي دخان آخر .

= بمسمع من رواد ، وإنما حدثه به قوم وعرضوه عليه ، ثم ذهبوا فحدثوا به عنه ، ولهذا اختار
الطبري قول ابن مسعود في الدخان ، لكن القرطبي ذكر أن في صحيح مسلم عن أبي الطفيل
عن حذيفة بن أسيد الغفاري ، قال : أطلع النبي صلى الله عليه وسلم علينا ونحن نتذاكر ،
فقال : (ما تذكرون) ؟ قالوا : نذكر الساعة ، قال : (إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر
آيات - فذكر - الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم
وخروج يأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف ، خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة
العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم) ، ونلاحظ أن حذيفة الذي
ذكر الطبري هو حذيفة بن اليمان ، وهو غير حذيفة بن أسيد المذكور هنا ، وكذلك ذكر
القرطبي رواية عن حذيفة - ولم يحدد من هو - وقال : إن الثعلبي خرج هذا الحديث أيضاً عن
حذيفة ، ثم ذكر نصَّ الحديث الذي ذكره ابن جرير الطبري وضعَّفه ، ومن هذا نفهم
أنه حذيفة بن اليمان . ومع ذلك فإن القرطبي يقوي رأي ابن مسعود لأنه قال : إن الله تعالى
قد كشف الدخان عنهم ، ولو كان يوم القيامة لم يكشفه عنهم ، وحديث ابن مسعود رضي الله
عنه في صحيح البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وهو عن مسروق ، قال : قال عبد الله :
إنما كان هذا لأن قريشاً لما استعصت على النبي صلى الله عليه وسلم دعا عليهم بسنين كَسَيْني
يوسف ، فأصابهم قحطٌ وجهْد حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى
ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد ، فأنزل الله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ
بِدُخَانٍ مُبِينٍ ، يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، قال : فَأَتَيْني رسولُ الله صلى الله
عليه وسلم فقبل : يا رسول الله ، اسْتَسْقَى لِمُضَرٍّ فَإِنَّا قَدْ هَلَكْتُ ، قال : (لِمُضَرٍّ ! إِنَّكَ
لَجَرِيءٌ) ، فَاسْتَسْقَى فَسُقُوا ، فَتَزَلْتُ ﴿ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴾ ، فلما أصابتهم الرفاهية
عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ : ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ
الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ ﴾ ، قال : يعني يوم بدر ، وقد قال الشوكاني في « فتح القدير » :
ولا منافاة بين كون الآية نازلة في الدخان الذي كان يترأى لقريش من الجوع ، وبين كون
الدخان من آيات الساعة وعلاماتها ، فقد وردت أحاديث صحاح وحسان وضعاف في ذلك ،
وليس فيها أنه سبب نزول الآية .

(راجع القرطبي ، والطبري ، والبخاري ومسلم ، وفتح القدير) .

قوله عز وجل :

﴿ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١١) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ
إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ
وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ۖ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ
نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ * وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ
وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَذُوا إِلَىٰ عِبَادِ اللَّهِ إِنِّي لَكَرُّ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ *

[يَغْشَى] معناه : يغطي ، وقوله تعالى : ﴿ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يحتمل
أن يكون إخباراً من الله تعالى كأنه يعجب منه ، على نحو من قوله
تعالى لما وصف قصة الذبح : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴾ (١) ، ويحتمل
أن يكون ﴿ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ من قول الناس ، كأن تقدير الكلام :
يقولون هذا عذاب أليم ، ويؤيد هذا التأويل سياقه تعالى حكاية عنهم
أنهم يقولون : ﴿ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ ، وَعَلِمَ اللَّهُ
تبارك وتعالى أن قولهم في حال الشدة ﴿ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ إنما هو عن غير (٢)
حقيقة منهم فدل على ذلك بقوله : ﴿ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى ﴾ أي : من

(١) الآية (١٠٦) من سورة (الصفات) .

(٢) في بعض النسخ : « إنما هو عن «خبر» حقيقة منهم » .

أَيْنَ لَهُمْ أَنْ يَتَذَكَّرُوا وَهُمْ قَدْ تَرَكَوا الذِّكْرَ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ بَأَنَّ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ وَهُوَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَفَرُوا بِهِ ؟ وَ (تَوَلَّوْا عَنْهُ) أَيِ أَعْرَضُوا وَقَالُوا : إِنَّهُ يُعَلِّمُ هَذَا الْكَلَامَ الَّذِي يَتْلُو ، وَإِنَّهُ مُجَنُّونَ . وَإِخْبَارُهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ يَكْشِفُ الْعَذَابَ عَنْهُمْ قَلِيلاً إِنْخَبَارٌ عَنْ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ وَمِبَالِغَةٍ فِي الْإِمْلَاءِ لَهُمْ . ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّهُمْ عَائِدُونَ إِلَى الْكُفْرِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : هُوَ تَوْعُدٌ بِمَعَادِ الْآخِرَةِ ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّهُ يَنْتَقِمُ مِنْهُمْ بِسَبَبِ هَذَا كُلِّهِ فِي يَوْمِ الْبِطْشَةِ ، وَقَدَّمَ الْيَوْمَ وَذَكَرَهُ عَلَى الَّذِي عَمِلَ فِيهِ تَهَمُّماً بِهِ وَتَخْوِيفاً مِنْهُ ، وَالْعَامِلُ فِيهِ [مُنْتَقِمُونَ] ، وَقَدْ ضَعَفَ الْبَصَرِيُّونَ هَذَا مِنْ حَيْثُ هُوَ خَبَرٌ [إِنَّ] ، وَأَبْعَدُوا أَنْ يَعْمَلَ خَبَرُهَا فِيمَا قَبْلَهَا ، وَقَالُوا : الْعَامِلُ فَعَلَ مَضْمُرٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ [مُنْتَقِمُونَ] .

وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي يَوْمِ الْبِطْشَةِ الْكُبْرَى - فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَالْحَسَنُ ، وَعُكْرَمَةُ ، وَقَتَادَةُ : هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ، وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ ، وَابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضاً ، وَأَبِيُّ بْنُ كَعْبٍ ، وَمُجَاهِدٌ : هُوَ يَوْمُ بَدْرٍ . وَقَرَأَ جَمَاهُورُ النَّاسِ : [نَبْطِشٌ] بِفَتْحِ النُّونِ وَكَسْرِ الطَّاءِ ، وَقَرَأَ الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ بَضْمَ الطَّاءِ ، وَقَرَأَ الْحَسَنُ أَيْضاً ، وَأَبُو رَجَاءٍ ، وَطَلْحَةُ بْنُ مَصْرُوفٍ بَضْمَ النُّونِ وَكَسْرِ الطَّاءِ ، وَمَعْنَاهَا : نُسَلِّطُ عَلَيْهِمْ مَنْ يَبْطِشُ بِهِمْ . ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى قَوْمَ فِرْعَوْنَ عَلَى جِهَةِ الْمَثَالِ لِقَرِيشٍ ، وَ [فَتَنًا] مَعْنَاهُ : امْتَحَنًا وَابْتَحَنًا ، وَ «الرَّسُولُ الْكَرِيمُ» قَالَ قَتَادَةُ : هُوَ مُوسَى

عليه السلام ، ومعنى الآية يعطي ذلك بلا خلاف ، وهنا متروك يدل عليه الظاهر : تقديره : قل لهم أدوا ، وهذا مأخوذ من الأداء ، كأنه يقول : أن ادفعوا إلي وأعطوني ومكنوني ، واختلف المتأولون في الشيء المؤدى في هذه الآية ، ما هو ؟ فقال مجاهد ، وابن زيد ، وقتادة : طلب منهم أن يؤدوا إليه بني إسرائيل ، وإياهم أراد بقوله : ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾ ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : المعنى : اتبعوني إلى ما أدعوكم إليه من الحق ، فقوله : ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾ منادى مضاف ، والمؤدى هو الطاعة والإيمان والأعمال .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والظاهر من شرع موسى عليه السلام أنه بُعث إلى دعاء فرعون إلى الإيمان ، وأن يرسل بني إسرائيل ، فلما أبى أن يؤمن بقيت المكافحة في أن يرسل بني إسرائيل ، وفي إرسالهم قوله : ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾ ، أي بني إسرائيل ، ويقوي ذلك قوله بعد : ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعْتَزَلُون﴾ ، وهذا قريب نص في أنه إنما يطلب بني إسرائيل فقط ، ويؤيد ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي﴾ ، فكنتي عنهم بـ [عِبَادِي] ، فيظهر أنه إياهم أراد موسى عليه السلام بقوله : ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾ ، وقوله : ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ معناه : على وحي الله تعالى أُوْدِيهِ إلى عباده .

وَأَدْغَمَ الذَّالَ فِي التَّاءِ الْأَعْرَجَ ، وَأَبُو عَمْرٍو ، واختلف الناس في قوله :
 ﴿أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ - فقال قتادة وغيره : أراد الرجم بالحجارة المؤدي إلى
 القتل ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما ، وأبو صالح : أراد الرجم
 بالقول من السباب والمخالفة ونحوه ، والأول أظهر ؛ لأنه أُعيد منه
 ولم يُعَدَّ من الآخر ، بل قيل فيه عليه السلام وله ، وقوله : ﴿تُؤْمِنُوا لِي﴾
 معناه : تؤمنوا بي ، والمعنى : تصدقوا ، وقوله : ﴿فَاعْتَزِلُوا﴾ مُتَارِكَةٌ
 صريحة ، قال قتادة : أراد : خلُّوا سبيلي .

وقوله تعالى : ﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ قبله محذوف من الكلام تقديره :
 فما كفوا عنه ، بل تطرَّقوا إليه ، وَعَتَوْا عَلَيْهِ وعلى دعوته فدعا ربَّه ،
 وقرأ الحسن بن أبي الحسن ، وعيسى : ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ بكسر الألف
 من [إِنَّ] ، على معنى : قال إِنَّ ، وقرأ جمهور الناس ، والحسن أيضاً :
 ﴿أَنَّ هَؤُلَاءِ﴾ بفتح الألف ، والقراءتان حسنتان ، وحكم عليهم
 بالإجرام الْمُضْمَنَ للكفر حين يئس منهم ، وهنا أيضاً محذوف من
 الكلام تقديره : فقال الله تعالى له : فَاسْرِ بعبادي ، وهذا هو الأمر
 الذي أنفذه الله تعالى إلى موسى عليه السلام بالخروج من ديار مصر
 ببني إسرائيل ، وقد تقدم شرحه وقصصه في سورة الأنبياء عليهم
 السلام وغيرها ، وقرأ جمهور الناس : [فَاسْرِ] موصولة الألف ، وقرأ :

[فَأَسْرًا] بقطع الألف الحسن . وعيسى . ورؤيت عن أبي عمرو (١) ، وأعلمه تعالى بأنهم مُتَّبِعُونَ ، أي : يتبعهم فرعون وجنوده .
واختلف المفسرون في قوله تعالى : (وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًّا) . متى قالها سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام ؟ فقالت فرقة : هذا كلام متصل ، إنكم مُتَّبِعُونَ واترك البحر إذا انفرق لك رهوًّا . وقال قتادة وغيره : خوطب عليه السلام به بعد أن جاز البحر وخشي أن يدخل فرعون وقومه وراءه ، وأن يخرجوا من المسالك التي خرج منها بنو إسرائيل ، فهم موسى عليه السلام بأن يضرب البحر عسى أن يلتئم ويرجع إلى حاله فقليل له عند ذلك : (وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهَوًّا) .

واختلفت عبارة المفسرين في تفسير الرَّهْوِ - فقال مجاهد وعكرمة : معناه : يَبَسًا ، من قوله تعالى : (فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا) (٢) . وقال الضحاك بن مزاحم : معناه : دَمَشًا لَيِّنًا . وقال عكرمة أيضًا : جُدَدًا (٣) . وقال ابن زيد : سهلاً ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : معناه : ساكنًا ، أي كما جُزَّتْهُ ، وهذا القول الأخير هو الذي تؤيده

(١) وهي قراءة عاصم برواية حفص عنه كما هو ثابت في المصحف الشريف .

(٢) من الآية (٧٧) من سورة (طه) .

(٣) الجُدُدُ : جمع جُدَّة ، وهي جزء الشيء يخالف لونه لون سائره . وهذا ينطبق على كل فِرْق انفلق عنه البحر بعد أن ضربه موسى بعصاه .

اللغة ؛ فإن العيش الرَّاهي هو الذي في خَفَضٍ ودَعَةٍ وسكون ، حكاة
المبرد وغيره ، والرَّهْوُ في اللغة هو هذا المعنى ، ومنه قول عُمَيْر بن
شُبَيْم القُطامي :

يَمْشِينَ رَهْوَاً فَلَا الْأَعْجَازُ خَاذِلَةً وَلَا الصُّدُورُ عَلَى الْأَعْجَازِ تَتَكَلُّ (١)

فإنما معناه : يمشين اثثاداً وسكوناً وتماهلاً ، ومنه قول الآخر :

أَوْ أُمَّةٌ خَرَجَتْ رَهْوَاً إِلَى عِيدٍ (٢)

(١) هذا بيت من قصيدة لِلْقُطامي اختارها صاحب الجمهرة ، ومطلعها يقول :

إِنَّا مُحْيِيُونَكَ فَاسْلَمْ أَيُّهَا الطَّلَلُ وَإِنْ بَلَيْتَ وَإِنْ طَالَتْ بِكَ الطُّوَلُ

والبيت المختار هنا في وصف الإبل التي أضناها السفر الطويل ، والرَّهْوُ : السَّير السهل المتأنِّي ،
والأَعْجَازُ : جمع عَجَز ، وهو مؤخر الناقة ، والصُّدُور : جمع صدر ، وهو مُقَدَّم
الشيء ، والمراد هنا صدر الناقة ، وخاذلةٌ : غير مساعدة ، والبيت في اللسان (رَهَا) ، وقد
نقل عن أبي عبيد أن الرَّهْو هو السَّير الخفيف ، وعن الجوهري أنه السير السهل ، وقال أيضاً :
هو مشيٌ في سكون .

(٢) هذا عجز بيت لم يعرف قائله ، وقد استشهد به وبيَّت قبله الفراء في (معاني القرآن) ،
قال : وأنشدني أبو ثروان :

كَأَنَّمَا أَهْلُ حُجْرٍ يَنْتَظِرُونَ مَتَى يَرَوْنَ نَبِيَّ خَارِجاً طَيْرٌ يَنْتَادِيهِ
طَيْرٌ رَأَتْ بَازِيَا نَضَحَ الدَّمَاءُ بِهِ أَوْ أُمَّةٌ خَرَجَتْ رَهْوَاً إِلَى عِيدٍ

واستشهد بهما الطبري أيضاً في تفسير هذه الآية ، لكن الرواية فيه : (وأُمَّةٌ خرجت) :
وهو تحريف ، ولعلَّ بعضهم ظنَّ أن اللفظ يراد به أمُّ البازي ، ولكن الشاعر هنا يشبه أهل
حُجْرٍ حين وقفوا ينتظرون خروجه بالطير المتفرقة التي رأت صقراً قد تناثرت الدماء عليه
من كثرة ضحاياه ، ويشبههم أيضاً بالجماعة من الناس التي خرجت في سهوة ورفق إلى عاداتها ،
والبيت الأول في اللسان ، ذكره شاهداً على معنى « يناديه » ، قال : « وطيرٌ يناديه وأناديد :
متفرقة ، قال : كأنما أهل حُجْرٍ ... البيت » ، وقد ضبط حُجْراً بضم الحاء ، قال الحموي =

أي : خرجوا في سكون وتماهل ، فقال لموسى عليه السلام : اترك البحر ساكناً على حاله من الافتراق ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ، والرَّهْوُ من أسماء الكُرْكِيِّ الطائر (١) ، ولا مدخل له في تفسير الآية ، ويشبهه عندي أنه سُمِّيَ رَهْواً لسكونه وأنه أبداً على تماهل .

وقوله تعالى : ﴿ كَمْ تَرَكَوْا ﴾ الآية ... قَبْلَهُ محذوف تقديره : فغرقوا وقطع الله دابرهم ، ثم أخذ الله تعالى يعجب من كثرة ما تركوا من الأمور الرفيعة العظيمة في الدنيا ، و [كَمْ] خبر للتكثير ، والجنات والعيون رُوي أنها كانت متصلة على ضفتي النيل جميعاً من رشيد إلى أسوان ، وأما العيون فيحتمل أنه أراد الخلجان الخارجة من النيل فشبهها بالعيون ، ويحتمل أنه كانت ثم عيون ونضبت كما يعتري في كثير من بقاع الأرض ، وقرأ قتادة ، ومحمد بن السميع اليماني ، ونافع - في رواية خارجة عنه - : [وَمُقَام] بضم الميم ، أي موضع

« في (معجم البلدان) : « وحُجْر بالضم قرية باليمن من مخاليف بدر ... » والطير اليناديد : المتفرقة . والبازي : نوع من الصقور . ونضح الدماء به : آثار الدماء تناثرت عليه . ويروى بالخاء المعجمة ، والنضح : الأثر . ومن معاني العيْد أنه عادة الإنسان : أو ما يعتاده من هم وحزن ، فهو يقول : إنها خرجت إلى عاداتها أو إلى أمر يهملها ويحزنها ، هذا وفي البيتين إقواء كما ترى .

(١) الرَّهْوُ : طائر معروف يقال له الكُرْكِيُّ ، وقيل : هو من طير الماء يشبهه وليس به ، وقال ابن برّي : هو طائر غير الكُرْكِيِّ . (راجع لسان العرب) .

إقامة ، وكذلك قرأ اليماني في كل القرآن إلا في مريم ﴿خَيْرٌ مَقَاماً﴾ (١) ،
فكأن المعنى : كم تركوا من موضع حسن كريم في قدره ونفعه ،
وقرأ جمهور الناس ، ونافع : ﴿وَمَقَامٌ كَرِيمٌ﴾ بفتح الميم ، أي
موضع قيام ، فعلى هذه القراءة قال ابن عباس ، ومجاهد ، وابن جبير :
أراد المنابر ، وعلى ضم الميم في [مُقَامٍ] قال قتادة : أراد المواضع
الحسان من المساكن وغيرها ، والقول بالمنابر يهي جداً (٢) .

و «النَّعْمَةُ» - بفتح النون - : غصارة العيش ولذاذة الحياة ،
و «النَّعْمَةُ» - بكسر النون - : أعمُّ من هذا ؛ لأنَّ النِّعْمَةَ بالفتح هي
من جملة النِّعَم بالكسر ، وقد تكون الأمراض والآلام والمصائب نِعَمًا ،
ولا يقال فيها نِعْمَةٌ بالفتح ، وقرأ أبو رجاء : [وَنِعْمَةٌ] بالنصب ،
وقرأ جمهور الناس : [فَاكِهِينَ] بمعنى : ناعمين ، والفاكهة : الطَّيِّبُ
النفس ، أو يكون بمعنى : أصحاب فاكهة كلابنٍ وتامرٍ ، وقرأ أبو
رجاء ، والحسن - بخلاف عنه - وابن القعقاع : [فَكِهِينَ] ، ومعناه
قريب من الأول ، لكن الفكاهة يُستعمل كثيراً في المستخف المستهزئ ،
فكأنه ها هنا يقول : كانوا في هذه النِّعْمَةِ مُسْتَخَفِّينَ بشكرها والمعرفة
بحقها .

(١) من الآية (٧٣) من سورة (مريم) .

(٢) من قولهم : «وَهَيَّ الشَّيْءُ يَهِي» بمعنى : ضعف .

وقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا ﴾ معناه : الأمر كذلك ، وسماه وراثته من حيث كانت أشياء أناس وصلت إلى آخرين بعد موت الأولين ، وهذه حقيقة الميراث في اللغة ، وربطها الشرع بالنسب وغيره من أسباب الميراث ، و « الآخرون » : من ملك مصر بعد القبط ، وقال قتادة : القوم الآخرون هم بنو إسرائيل ، وهذا ضعيف لأنه لم يُروَ في التواريخ أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر في شيء من ذلك الزمان ولا ملكوها قط ، إلا أن يريد قتادة أنهم ورثوا نوعها في بلاد الشام . وذكر الثعلبي عن الحسن أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر بعد هلاك فرعون .

قوله عز وجل :

﴿ قَابَكْتَ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴾ (٣٩) وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٤٠) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ (٤١) وَلَقَدْ أَخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَی الْعَالَمِينَ (٤٢) وَءَاتَيْنَاهُمْ مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَلٌ مُّبِينٌ (٤٣) إِنَّ هَؤُلَاءَ لَيَقُولُونَ (٤٤) إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (٤٥) فَاتُّوا بِعَابِئِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٦) ﴿

نفت هذه الآية أن تكون السماء والأرض بكت على قوم فرعون ، فاقترض اللفظ أن للسماء والأرض بكاء ، واختلف المتأولون في معنى ذلك -

فقال علي بن أبي طالب ، وابن عباس ، ومجاهد ، وابن جبير رضي الله تعالى عنهم : إن الرجل المؤمن إذا مات بكى عليه من الأرض موضع عباداته أربعين صباحاً ، وبكى عليه من السماء موضع صعود عمله ، قالوا : فلم يكن في قوم فرعون من هذه حاله ، فهذا معنى الآية . وقال السدي ، وعطاء : بكاء السماء حُمرةً أطرافها ، وقالوا : إن السماء احمرت يوم قتل الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، وكان ذلك بكاءً عليه ، وهذا هو معنى الآية .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والمعنى الجيد في الآية أنها استعارة بارعة فصيحة تتضمن تحقير أمرهم ، وأنهم لم يتغير عن هلاكهم شيء ، وهذا نحو قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ (١) على قراءة من قرأ : [لِتَزُولَ] بكسر اللام ونصب الفعل وجعل [إِنَّ] نافية ، ومثل هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : (لَا يَنْتَطِحُ فِيهَا عِزْرَانِ) (٢) فإنه يتضمن

(١) من الآية (٤٦) من سورة (إبراهيم) .

(٢) هذا الحديث جرى مجرى المثل . وقد ذكره الميداني في (مجمع الأمثال) ، وقال : معناه : لا يكون له تغير ولا له تكبر ، وذكره الزمخشري في (المستقصى في أمثال العرب) ، وقال يضرب للأمر الذي لا غير له ولا يترك به ثار . وذكره الميداني في كتابه (النهاية في غريب الحديث والأثر) . وقال : أي لا يلتقي فيه اثنان ضعيفان ، لأن النطاح من شأن الثيوس والكباش لا العنوز ، وهو إشارة إلى قضية مخصوصة لا يجري فيها خلف ونزاع .

التحقير ، لكن هذه الألفاظ هي بحسب ما قيلت فيه وهو قتل المرأة الكافرة التي كانت تؤذي النبي صلى الله عليه وسلم ، وعُظُم قصة فرعون وقومه يجيء بحسبها جمال الرصف وبهاء العبارة في قوله تعالى : ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ ، ومن نحو هذا أن نعكس قول جرير :

لَمَّا أَتَى خَبَرَ الزُّبَيْرِ تَوَاضَعَتْ سُرُ الْمَدِينَةِ وَالْجِبَالُ الْخُشَعُ (١)
فيقال في التحقير : « مات فلانٌ فما خشعت الجبال » ونحو هذا ، وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ما مات مؤمن في غربة غابت عنه فيها بؤاكيه إِلَّا بَكَتْ عليه السماء والأرض ، ثم قرأ هذه الآية وقال : إنهما لا يبكيان على كافر) (٢) ، ومن التفخيم

(١) هذا البيت من قصيدة لجرير يهجو الفرزدق وجميع الشعراء ، ويقول في مطلعها :

بَانَ الْخَلِيطُ بِرَامَتَيْنِ قَوْدَعُوا أَوْ كُلَّمَا رَفَعُوا لِبَيْنٍ تَجَزَعُ ؟

وهي في النقائص ، وهو يذم الفرزدق لأن قومه لم يدافعوا عن الزبير وتركوه للقتل ، بل إنه بعد ذلك يصمهم بالقدْر والخيانة ويسجل عليهم أنهم تركوا جارهم ، وأنه لو حلَّ جارهم هذا إليه لَمَنَعَهُ بالخليل ، وقوله : « والجبال الخُشَعُ » معناه : والجبال خُشَعٌ لهذا الحدث ، فجعل الخُشَعُ خبراً .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا ، وابن جرير ، عن شريح بن عبيد الحضرمي مرسلًا ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنَّ الإسلام بدأ غريباً ، وسيعود غريباً ، ألا لا غربة على مؤمن ، ما مات مؤمن في غربة غابت عنه فيها بؤاكيه إِلَّا بَكَتْ عليه السماء والأرض ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ ، ثم قال : إنهما لا يبكيان على كافر) .

ببكاء المخلوقات العظام قول يزيد بن مفرغ :

فَالرَّيْحُ تَبْكِي شَجْوَهُ ————— وَالْبَرْقُ يَلْمَعُ فِي الْغَمَامَةِ (١)

وقول الفرزدق :

فَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ لَيْسَتْ بِكَاسِفَةٍ تَبْكِي عَلَيْكَ نَجُومَ اللَّيْلِ وَالْقَمَرَا (٢)

و [مُنْظَرَيْنَ] معناه : مُؤَخَّرَيْنِ ومهملين .

(١) هذا البيت لابن مفرغ واحد من أبيات قالها في بيعه جارية له تُسَمَّى الأراكمة وغلماً يُسَمَّى بُرْدَاً ، وكانا أعز عليه من نفسه ، وقد أرغمه عبَّاد بن زياد على بيعهما ، والقصة في الأغاني ، وخزانة الأدب ، وأمالى الزجاجي . والوفيات ، والبيت في (مشكل القرآن) ، و (الأضداد) للأنباري . وقد ورد البيت في الأصول محرفاً ، والتصويب عن الخزانة ، والوفيات . ومن أبيات ابن مفرغ هذه :

وَشَرَيْتُ بُرْدَاً لَيْتَنِي	مِنْ بَعْدِ بُرْدٍ كُنْتُ هَامَةً
أَوْ بَوْمَةً تَدْعُو صَدَى	بَيْنَ الْمُشَقَّرِ وَالْيَمَامَةِ
فَالرَّيْحُ تَبْكِي شَجْوَهُ	وَالْبَرْقُ يَلْمَعُ فِي الْغَمَامَةِ
وَالْعَبْدُ يُقْرِعُ بِالْعَصَا	وَالْحُرُّ تَكْفِيهِ الْمَلَامَةِ

والشاهد هنا التفخيم ببكاء الريح ولمعان البرق في الغمام لأنه باع غلامه بُرْدَاً ، و (شَرَى) هنا بمعنى (باع) .

(٢) هكذا في الأصول : «وقول الفرزدق» ، والصحيح أن البيت لجرير ، قاله يرثي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وهو في الديوان ، والصحاح ، واللسان ، والتاج ، ومشكل القرآن ، وهو ثالث أبيات ثلاثة ، هي :

تَنْعِي النُّعَاةُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَنَا	يَا خَيْرَ مَنْ حَجَّ بَيْتَ اللَّهِ وَاعْتَمَرَ
حُمِلَتْ أَمْرًا عَظِيمًا فَاصْطَبَرَتْ لَهُ	وَقُمْتَ فِيهِ بِأَمْرِ اللَّهِ يَا عُمَرَا
فَالشَّمْسُ كَاسِفَةٌ لَيْسَتْ بِطَالِعَةٍ	تَبْكِي عَلَيْكَ نَجُومَ اللَّيْلِ وَالْقَمَرَا =

ثم ذكر تعالى نعمته على بني إسرائيل في إنجائهم من فرعون وقومه ، و «الْعَذَابُ الْمُهِينُ» هو ذبح الأبناء والتسخير في المهن كالبنيان والحفر ونحوه ، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه : «مِنْ عَذَابِ الْمُهِينِ» بسقوط التعريف بالألف واللام من [الْعَذَابِ] . وقوله تعالى : ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ﴾ بدل من قوله تعالى : ﴿مِنْ الْعَذَابِ﴾ ، و [مِنْ] بكسر الميم هي قراءة الجمهور ، وروى قتادة أن ابن عباس رضي الله عنهما كان يقرأها : [مَنْ] بفتح الميم [فِرْعَوْنَ] برفع النون .

وقوله تعالى : ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ أي على شيء قد سبق عندنا فيهم وثبت في علمنا أنه سينفذ ، وقوله تعالى : ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ يريد : على جميع الناس ، هذا على التأويل المتقدم في العلم ، والمعنى : لقد اخترناهم لهذا الإنجاء وهذه النعم على سابق علم لنا فيهم ، وخصصناهم بذلك دون العالم ، ويحتمل قوله تعالى : ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ أن يكون : على علم لهم وفضائل فيهم ، والمعنى : اخترناهم للنبوات والرسالات ،

= وقوله : يا عُمَرَا ، أراد : يا عُمَرَاءَ عَلَى النُّذْبَةِ ، ورواية البيت موضع الشاهد : (فَالشَّمْسُ كَاسِفَةٌ) على عكس ما في ابن عطية ، أراد أن الشمس كاسفة تبكي عليك الشهر والدهر ، وهذا قول الكسائي ، وقيل : إن المعنى أن الشمس كسفت نجوم الليل والقمر وهي تبكي عليك ، وفيه بُعد لأن النجوم والقمر لا ينكسفان طول الدهر ، والشاهد هنا تفخيم الأمر وتهويله بكسوف الشمس وبكائها على الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه .

فيكون قوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ أَعْلَامِينَ ﴾ - في هذا التأويل - معناه :
 على عالم زمانهم ، وذلك بدليل فضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم
 لهم وعليهم ، وأن أمة محمد صلى الله عليه وسلم هي خير أمة أخرجت
 للناس ، وقوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ مِّنَ الْآيَاتِ ﴾ لفظ جامع لمعجزات
 موسى عليه السلام ، والعبر التي ظهرت في قوم فرعون من الجراد
 والقمل والضفادع وغير ذلك ، ولما أنعم به على بني إسرائيل من
 تظليل الغمام والمن والسلوى وغير ذلك ، فإن لفظ الآيات يعُمُّ
 جميع هذا . و «البلاء» - في هذا الموضع - : الاختبار والامتحان ،
 وهذا كما قال تعالى : ﴿ وَنَبَلُّوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ (١) ، و [مُبِينٌ]
 هنا بمعنى بَيِّن .

ثم ذكر تعالى قريشاً وحكى عنهم - على جهة الإنكار لقولهم
 حين أنكروا فيه ما هو جائز في العقل - فقال تعالى : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ
 لَيَقُولُونَ ، إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ ﴾ ، أي : ما آخر أمرنا ومُنْتَهَىٰ
 وجودنا إِلَّا عند موتنا ، ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾ أي بمبعوثين ، يقال :
 أنشَرَ الله الميت فنشَرَهُ . وقول قريش : ﴿ فَاتُّوا بِآبَائِنَا ﴾ مخاطبة
 للنبي صلى الله عليه وسلم ، إِلَّا أَنَّهُ مِنْ حَيْثُ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ

(١) من الآية (٣٥) من سورة (الأنبياء) .

عليه وسلم مسنداً في أقواله وأفعاله إلى الله تعالى وبواسطة ملك خاطبوه
كما تخاطب الجماعة وهم يريدونه وربّه تعالى وملائكته ، واستدعى
الكفار في هذه الآية أن يحيي لهم بعض آبائهم - وسَمُوا قُصِيًّا -
لكي يسألوهم عما رأوا في آخرتهم ، ولم يستقص في هذه الآية الردّ
عليهم لبيانه وإثباته في غير ما آية من كتاب الله تعالى ، فإن الله تعالى
قد جزم البعث من القبور في أجل مسمى لا يتعداه أحد ، وقد بيّنت
الأمثلة من الأرض الميتة وحال النبات أمر البعث من القبور .

قوله عز وجل :

﴿أَمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبْعِ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ
(٣٧) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينٍ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا
بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٠)
يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤١) إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ
هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٤٢) إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤)﴾

قوله تعالى : ﴿أَمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبْعِ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ تقرير
فيه وعيد ، وتُبْعُ ملك حميري ، وكان يقال لكل ملك فيهم : تُبْعُ ،
إلا أن المشار إليه في هذه الآية رجل صالح من التبابعة ، قال كعب

الأخبار : ذمَّ الله تعالى قومه ولم يذمه ، ونهى العلماء عن سبه ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم من طريق سهل بن سعد أَنَّ تَبَعاً هذا أسلم وآمن بالله تعالى ، وروي أَنَّ ذلك كان على يد أهل كتاب كانوا بحضرته (١) ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : كان تَبَعٌ نبياً ، وروي أبو هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ما أدري أَكان تَبَعٌ نبياً أو غير نبى) (٢) ، وقال ابن جبير رضي الله عنه : هو الذي كسا الكعبة ، وقد ذكره ابن إسحق في السيرة ، والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ يريد : بالكفر ، وقرأت فرقة : [أَنَّهُمْ] بفتح الألف ، وقرأ الجمهور بكسرها .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ الآية ... إخبار فيه تنبيه وتحذير ، وقوله : ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ يريد : بالواجب المفضي إلى الخيرات وفيض الهبات . و « يَوْمُ الْفَصْلِ » هو يوم القيامة ،

(١) أخرجه أحمد ، والطبراني ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه ، وذكره الإمام السيوطي في الدر المنثور ، ولفظه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تَسُبُّوا تَبَعاً فَإِنَّه كَانَ قَدْ أُسْلِمَ) .

(٢) ترجم الحافظ بن عساكر في تاريخه ترجمة حافلة لتَبَعٍ ، وذكر أنه ملك دمشق ، ثم ساق عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ما أدري ، الحدود طهارة لأهلها أم لا ؟ ولا أدري تَبَعٌ لعيناً كان أم لا ؟ ولا أدري ذو القرنين نبياً كان أم ملكاً) ، وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن محمد بن حماد الطهراني ، عن عبد الرزاق ، وقال عبد الرزاق أيضاً : أخبرنا معمر عن ابن أبي ذؤيب عن المقبري ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما أدري تَبَعٌ نبياً كان أم غير نبى) .

وهذا هو الإخبار بالبعث ، وهو أمر جوزه العقل وأثبتته الشرع بهذه الآية وغيرها ، و « المولى » في هذه الآية يعم جميع الموالى من القرابات وموالى العتق وموالى الصداقة ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ إن كان الضمير يراد به العالم فيصح أن تكون [مَنْ] في قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ ﴾ في موضع نصب على الاستثناء المتصل ، وإن كان الضمير يراد به الكفار فالاستثناء منقطع ، ويصح أن يكون في موضع رفع على الابتداء والخبر مقدر ، تقديره : فإنه يغني بعضهم عن بعض بالشفاعة ونحوها ، أو يكون تقديره : فإن الله ينصره (١) .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴾ ، روي عن ابن زيد أن [الْأَثِيمِ] المشار إليه هو أبو جهل ، ثم هي - بالمعنى - تتناول كل أئيم وكل تاجر يكتسب الإثم ، وروي عن همام أن أبا الدرداء أقرأ أعرابياً فكان يقول : « طعام اليتيم » ، فرد عليه أبو الدرداء مراراً فلم يلقن ، فقال له : قل : طعام الفاجر ، فقرئت كذلك ، وإنما هي على التفسير ، وهي الشجرة الملعونة في القرآن ، وهي تنبت

(١) وقيل : إن [مَنْ] رفع على البدل من المضمر في [يُنصَرُونَ] ، أو على البدل من [مَوْلى] الأول ، كأنه قال : لا يغني إلا من رحم الله ، والقول بأن [مَنْ] في موضع نصب على الاستثناء المنقطع هو قول الكسائي والفراء ، ولكن نقل الطبري عن بعضهم أنه لا يجوز أن يكون بدلاً مما في [يُنصَرُونَ] لأن [إِلَّا] مُحَقَّقٌ ، والأول منفي ، والبدل لا يكون إلا بمعنى الأول ، وأنه لا يجوز أن يكون مُسْتَأْنَفاً لأنه لا يُسْتَأْنَفُ بالاستثناء ، واختار الطبري - بعد هذا كله - أن يكون [مَنْ] في موضع رفع بمعنى : يوم لا يغني مولى عن مَوْلى شيئاً إلا من رحم الله منهم فإنه يغني عنه بأن يشفع له عند ربه .

في أصل الجحيم ، وروي أن أبا جهل لما نزلت هذه الآية وأشار الناس بها إليه صنع عجوة بزبد ثم دعا إليها ناساً فقال لهم : تزقّموا فإن الزقوم هو عجوة يُثَرَّدُ بالزبد وهو طعامي الذي حدث به محمد .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإنما قصد بذلك ضرباً من المغالطة والتلبيس على الجهلة .

قوله عز وجل :

﴿ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ٥٥ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ٥٦ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ٥٧ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ٥٨ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ٥٩ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ٦٠ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ٦١ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ٦٢ يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ٦٣ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ٦٤ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ٦٥ لَا يَذُقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعَهُمْ عَذَابِ الْجَحِيمِ ٦٦ فَضَلًا مِنْ رَبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ٦٧ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٦٨ فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ٦٩ ﴾

قال ابن عباس ، وابن عمر رضي الله عنهم : «المُهْل» : دردي الزيت وعكره ، وقال ابن مسعود ، وابن عباس أيضاً رضي الله عنهم :

المُهْلُ: ما ذاب من ذهب أو فضة أو حديد أو رصاص ونحوه ، قال الحسن : كان ابن مسعود على بيت المال لعمر رضي الله عنه بالكوفة ، فأذاب يوماً فضةً مكسرةً ، فلما انماعت قال : يدخل من الباب ، فدخلوا فقال لهم : هذا أشبه ما رأينا في الدنيا بالمُهْل .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والمعنى أن هذه الشجرة إذا طعمها الكافر في جهنم صارت في جوفه تفعل كما يفعل المُهْل السخن من الإحراق والفساد ، وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وعاصم في رواية أبي بكر : [تَغْلِي] بالتاء ، أي الشجرة ، وهي قراءة عمرو بن ميمون ، وأبي رزين ، والحسن ، والأعرج ، وأبي جعفر ، وشيبة ، وابن محيصن ، وطلحة . وقرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وعاصم في رواية حفص : [يَغْلِي] بالياء على معنى الطعام ، وهي قراءة مجاهد ، والحسن - بخلاف عنه - و [أَلْحَمِيم] : الماء السخن الذي يتطاير من غليانه .

وقوله تعالى : ﴿ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ ﴾ الآية - معناه : يقال يومئذ للملائكة عن هذا الأثيم : خذوه فاعتلوه ، و «الْعَتْلُ» : السَّوْقُ بعنف وإهانة ودفع قوي متصل ، كما يُساق أبداً مرتكب الجرائم ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر : [فَاعْتُلُّوهُ] بضم التاء ، والباقون بكسرها ،

وقد روي الضم عن أبي عمرو ، وكذلك روي الوجهان عن الحسن ،
 وقتادة ، والأعرج ، و «السَّوَاءُ» : الوسط ، وقيل : الْمُعْظَم ، وذلك
 متلازم ، الْمُعْظَمُ أبدأً من مثل هذا إنما هو في الوسط ، وفي الآية
 ما يقتضي أن الكافر يُصَبُّ على رأسه من حميم جهنم ، وهو ما يغلي
 فيها من ذَوْب ، وهذا كما في قوله تعالى : ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ
 الْحَمِيمُ﴾ (١) ، وإلى هذا نظر بعض ولاية المدينة ، فإنه كان يصب
 الخمر على رأس الذي شربها أو توجد عنده عقوبة له وأدباً ، ذكر
 ذلك ابن حبيب في الواضحة .

وقوله تعالى : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ مخاطبة على معنى
 التقرير ، ويروى عن قتادة أن أبا جهل قال لما نزلت ﴿إِنَّ شَجَرَةَ
 الزُّقُومِ ، طَعَامُ الْأَثِيمِ﴾ : أَيَتَهَدَّدُنِي محمد - عليه الصلاة والسلام -
 وأنا ما بين جبلتيها أعزُّ مني ولا أكرم ؟ فنزلت هذه الآيات وفي آخرها
 ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ ، أي : على قولك ، وهذا كما قال جرير :
 أَلَمْ يَكُنْ - في وُسُومٍ قَدْ وَسَمْتُ بِهَا - مَنْ حَانَ - موعظة يا زهرة اليمَن ؟
 يقولها للشاعر الذي سمى نفسه به ، وذلك في قوله :

أَبْلِغْ كُلِّباً وَأَبْلِغْ عَنْكَ شَاعِرَهَا أَنِّي الْأَعَزُّ وَأَنِّي زَهْرَةُ الْيَمَنِ (٢)

(١) من الآية (١٩) من سورة (الحج) .

(٢) كان جرير قاسياً في هجائه ، وقد تجمع عليه عدد كبير من الشعراء يهجونه ويُعَيِّرُونَهُ
 بفقره . لكنه غلبهم وأخزاهم . وهذا شاعر من بني الحارث بن كعب قال شعراً يذم فيه كليباً =

فجاء بيت جرير على جهة الهُزء . وقرأ الجمهور : [إِنَّكَ] بكسر الألف ، وقرأ الكسائي وحده : [أَنَّكَ] بفتح الألف ، والمعنى واحد في المقصد وإن اختلف المأخذ إليه ، وبفتح الألف قرأها على المنبر الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، أسندها إليه الكسائي واتبعه فيها . وقوله تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ عبارة عن قول يقال للكفرة عند عذابهم ، أي : هذه الآخرة وجهنم التي كنتم تشكُّون فيها .

ثم ذكر تعالى حالة المتقين بعقب ذكر حالة الكفار ليبين الفرق ، وقرأ نافع ، وابن عامر : ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ بضم الميم ، وهي قراءة أبي جعفر ، وشيبة ، وقتادة ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، والحسن ،

= قبيلة جرير ، ويقول له : إِنِّي أَنَا الْأَعَزُّ وَإِنِّي زَهْرَةُ الْيَمَنِ ، وردَّ عليه جرير بسبعة أبيات أولها هذا البيت الذي استشهد به ابن عطية ، والأبيات في الديوان ، والرواية فيه : (يا حارث اليمن) بدلاً من (يا زهرة اليمن) ، والوَسْمُ : أثر الكي بالنار ، وحان الرجلُ : هلك ، والمقصود به هنا الشاعر الذي يهجو جرير ، يقول له : ألم تكن لك موعظة في الشعر الذي هجوتك به من قبل فكان كالنار التي أكوئك بها وأقضي عليك يا من تسمي نفسك زهرة اليمن ؟ ثم يقول له فيما بعد ذلك من أبيات : إن قصائدي قد ملأت الدنيا وامتدت فيما بين مصر وعدن ، إلى أن يقول :

أَمْسَى سَرَاةُ بَنِي الدِّيَّانِ نَاصِيَةً وَاللُّؤْمُ يَاوِي إِلَيْكُمْ يَا بَنِي قَطَنٍ

وبنو قطن : قوم من بني الحارث بن كعب . والشاهد في البيت المذكور هنا هو المخاطبة على معنى التقرُّع والسُّخْرية .

والأعرج ، وقرأ الباقون : ﴿ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ بفتح الميم ، وهي قراءة أبي رجاء ، وعيسى ، ويحيى ، والأعمش ، و [أَمِين] معناه : تؤمن فيه الغير ، فكأنه فعيل بمعنى مفعول ، أي : مأمون فيه ، وكسر عاصم العين من [عِيُون] (١) ، قال أبو حاتم : وذلك مردود عند العلماء ، ومثله : شِيُوخٌ وَبِيُوتٌ بكسر الشين والباء . و «السُّنْدُسُ» : رقيق الحرير ، و «الإِسْتَبْرَقُ» : خَشْنُهُ ، وقرأ ابن محيصن : [وَأَسْتَبْرَقَ] بالوصل وفتح القاف ، وقوله : [مُتَقَابِلِينَ] وصف لمجالس أهل الجنة ؛ لأن بعضهم لا يستدبر بعضاً في المجالس .

وقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم ﴾ تقديره : الأمر كذلك ، وقرأ الجمهور : [عَيْنٍ] ، وهو جمع عَيْنَاء (٢) ، وقرأ ابن مسعود : «بِعَيْسٍ عَيْنٍ» ، وهو جمع عَيْسَاء ، أي بيضاء (٣) ، وكذلك هي من النوق ، وقرأ عكرمة : ﴿ بِحُورٍ عَيْنٍ ﴾ بغير تنوين في [حُور] ، وأضافها إلى [عَيْنٍ] ، قال أبو الفتح : الإضافة هنا تفيد ما تفيد الصفة ،

(١) أي في رواية أبي بكر عنه : أما رواية حفص فهي : [عِيُون] بضم العين كما هو ثابت في المصحف .

(٢) الْعَيْنُ : عِظَمُ سواد العين وسَعَتُهَا ، يقال : هو أعْيَنُ . والأُنثى : عِيناء .

(٣) الْعَيْسُ : بياضٌ يخالطه شيءٌ من شقرة ، وَرَجُلٌ : أَعْيَسُ . والأنثى : عيساء .

وروى أبو قرصافة (١) عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إخراج القمامة من المسجد من مهوور الحور العين) . وقوله تعالى : ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾ معناه : يدعون الخدمة والمتصرفين .

وقوله تعالى : ﴿إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ . قدر قوم [إِلَّا] بـ «سوى» ، وضعف ذلك الطبري وقدرها بـ «بعد» ، وليس تضعيفه بصحيح ، بل يصح المعنى بسوى ويتسق (٢) ، وأما معنى الآية فبين أنه تعالى نفى عنهم ذوق الموت ، وأنه لا ينالهم من ذلك غير ما تقدم في الدنيا .

(١) أبو قرصافة - بكسر القاف - هو جندرة - بفتح الجيم وسكون النون ثم دال مهملة مفتوحة - ابن خيشنة ، صحابي جليل ، نزل الشام ، مشهور بكنيته . (تقريب التهذيب) . والحديث ذكره القرطبي في تفسيره ولم يخرج .

(٢) حجة الطبري في ذلك أنك إذا قلت : «لا أذوق اليوم طعاماً إلا الطعام الذي ذقته قبل اليوم» فإنك تريد الخبر أن عندك طعاماً أنت اليوم ذائقه وطاعمه دون غيره من الأطعمة ، وإذا كان هذا هو الأغلب في المعنى فإن قوله تعالى في الآية الكريمة : ﴿إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ قد أثبت موتة أخرى من نوع الموتة الأولى التي هم ذائقوها ، ومعلوم أن ذلك لن يكون ؛ لأن الله تعالى قد آمن أهل الجنة من الموت بعد دخولها . وإنما جاز أن توضع «إِلَّا» موضع «بعد» لتقارب معنى كل منهما من معنى الأخرى ، ثم مضى في كلام طويل يثبت فيه أن العرب قد اعتادت أن تضع الكلمة موضع أخرى إذا تقارب المعنيان ، فيضعون الرجاء موضع الخوف لما في معنى الرجاء من الخوف . ويضعون الظن موضع العلم الذي أدرك استدلالاً ولم يدرك من قبيل العيان ، قال : وهذه الآية مثل قوله تعالى : ﴿وَلَا تَسْكِبُوا مَا نَكْحَ آبَاؤُكُمْ مِنْ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ . فإن المعنى : بعد الذي سلف ، ولا يصح أن تضع هنا «سوى» في موضع «إِلَّا» ؛ لأن ذلك يكون ترجمة عن المكان وبياناً عنها بما هو أشد التباساً على من أراد علم معناها منها . والزمخشري يرى أن معنى الآية : «لا يذوقون فيها الموت البتة» ، أي لا يذوقون الموت أبداً إلا الموتة الأولى التي كانت قبل دخول الجنة ، وهذا هو المعنى الذي ذكره ابن عطية ، وهو الواضح المفهوم من الآية .

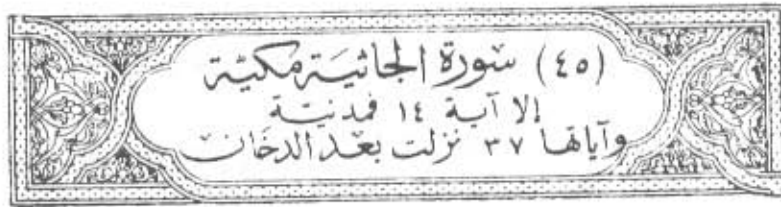
والضمير في قوله تعالى : [يَسْرَنَاهُ] عائد على القرآن ، وقوله :
 [بِلِسَانِكَ] معناه : بلغة العرب ، ولم يُرد الجارحة (١) ، وقوله تعالى :
 ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ معناه : فارتقب نصرنا لك إنهم مرتقبون
 - فيما يظنون - الدوائر عليك ، وفي هذه الآية وعدُّ له صلى الله عليه
 وسلم ووعدٌ لهم ، وفيها مُتاركة ، وهذا وما جرى مجراه منسوخ
 بآية السيف .

كامل تفسير سورة الدخان والحمد لله رب العالمين

(١) فالمراد باللسان هنا اللغة ، كقوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ
 قَوْمِهِ﴾ ، أي بلغة قومه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



هذه السورة مكية بلا خلاف في ذلك (١) .

قوله عز وجل :

﴿حَمْدٌ ۝١ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ
يُوقِنُونَ ۝٤ وَأَخْتَلَفِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا
بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ تِلْكَ آيَاتُ
اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾

(١) جاء في (القرطبي) وفي (فتح القدير) أن السورة مكية في قول الحسن ، وجابر ،
وعكرمة ، وروي عن ابن عباس وقتادة أنهما قالا : إلا آية واحدة هي قوله تعالى : ﴿ قُلْ
لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾ - الآية ١٤ - ، فقد نزلت بالمدينة
في عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ذكر ذلك الماوردي ، وقال المهدي والنحاس : إن رجلا
شتم عمر رضي الله عنه بمكة فأراد عمر أن يبطش به فنزلت الآية ، ثم نسخت بقوله تعالى :
﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ ، فالسورة - على هذا - كلها مكية
من غير خلاف كما ذكر ابن عطية .

تقدم القول في الحروف المقطعة في أوائل السور ، و [تنزيل] رفع بالابتداء أو على خبر ابتداء مضمرة ، و [العزيز] معناه عام في شدة أخذه إذا انتقم ، ودفاعه إذا حمى ونصر ، وغير ذلك ، و [الحكيم] : المُحكّم للأشياء ، وذكر تعالى الآيات التي في السموات والأرض مُجملة غير مفصلة ، فكأنها إحالة على غوامض تشيرها الفكر ، ويخبر بكثير منها الشرع ، فلذلك جعلها للمؤمنين ؛ إذ في ضمن الإيمان العقل والتصديق . ثم ذكر تعالى خلق البشر والحيوان وكأنه أغمض مما أحال عليه أولاً وأكثر تلخيصاً ، فجعله للموقنين الذين لهم نظر يؤديهم إلى اليقين في معتقداتهم ، ثم ذكر اختلاف الليل والنهار والعبرة بالمطر والرياح فجعل ذلك لقوم يعقلون ؛ إذ كل عاقل يحصل هذه ويفهم قدرها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وإن كان هذا النظر ليس بلازم ولا بد فإن اللفظ يعطيه .
و [يَبْتُ] معناه : ينشر في الأرض ، و «الدابة» : كل حيوان يدب أو يمكن فيه أن يدب ، يدخل في ذلك الطير والحوث ، شاهد الطير في قول الشاعر :

صَوَاعِقُهَا لَطِيرُهُنَّ دَبِيبُ (١)

(١) هذا عجز بيت قاله علقمة بن عبدة من قصيدته المعروفة التي بدأها بقوله :

(طَحَايِكَ قَلْبُ فِي الْحِسَانِ طَرُوبُ) ، والبيت بتمامه :

كَأَنَّهُمْ صَابَتْ عَلَيْهِمْ سَحَابَةٌ صَوَاعِقُهَا لَطِيرُهُنَّ دَبِيبُ =

وقول الآخر :

دَيْبٌ قَطَا الْبَطْحَاءِ فِي كُلِّ مَنْهَلٍ (١)

وشاهد الحوت قول أبي موسى : « وقد ألقى البحر دابةً مثل الظرب » (٢) ،
ودوابُّ البحر لفظ مشترك في اللغة .

= وصابت : أمطرت ، والدبيب : المشي الضعيف الخفيف ، والمعنى أن المملوح إذا هجم على الأعداء كان كالسحابة التي تتفجّر بالصواعق وتنزل كالطير عجزت عن التحليق فدبت على الأرض تطلب النجاة ، وقد سبق الاستشهاد بالبيت في الجزء السابع من هذا التفسير ، صفحة (٢٤٣) .

(١) وهذا أيضاً عجز بيت قاله الأعشى من قصيدة له يقول في مطلعها :
صَحَا الْقَتْلُ مِنْ ذِكْرِي قَتِيلَةً بَعْدَمَا يَكُونُ لَهَا مِثْلُ الْأَسِيرِ الْمُكَبَّلِ
والبيت بتمامه :

نِيَّافٌ كَغُضْنِ الْبَانِ تَرْتَجُّ إِنْ مَشَتْ دَيْبٌ قَطَا الْبَطْحَاءِ فِي كُلِّ مَنْهَلٍ
وقد ورد الشاهد في الأصل هنا مُحَرَّفًا ، والنِّيَّافُ : الطويلة الثَّامَّةُ الحسن ، والقَطَا : جمع قطاة ، وهو نوع من اليمام يؤثر الحياة في الصحراء ، ويتخذ أفحوصه في الأرض ، ويطير في جماعات ، ويقطع مسافات شاسعة ، وبيضه مرقط ، ومشيته فيها بطء مع رشاقة ، والمنهل : المورد ، أي الموضع الذي فيه الشرب ، وقد سبق الاستشهاد أيضاً بهذا البيت في سورة هود : راجع الجزء السابع ، صفحة (٢٤٢) .

(٢) هذا جزء من حديث شريف أخرجه البخاري في الشركة والمغازي ، والإمام أحمد في مسنده (٣-٣٠٦) ، وأخرجه مالك في الموطأ في « صفة النبي » ، ولفظه كما جاء في مسند أحمد عن جابر رضي الله عنه (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سريةً ثلاثمائة ، وأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح ، فنفذ زادنا ، فجمع أبو عبيدة زادهم فجعله في مزود ، فكان يُقَيِّمُنَا حتى كان يصيبنا كل يوم تمر ، فقال له رجل : يا أبا عبد الله ، وما كانت تعني عنكم تمر ؟ قال : قد وجدنا فقدناها حين ذهب . حتى انتهينا إلى الساحل فإذا حوتٌ مثل الظرب العظيم ، قال : فأكل منه ذلك الجيش ثمانين ليلة ، ثم أخذ أبو عبيدة ضلعين من أضلاعه فنصّبهما ثم أمر بإحلاته فمرت تحتها فلم يصبها شيء) . والظرب : الجبل المنبسط ، أو الجبل (بالتصغير) كما قال في أساس البلاغة واللسان .

وقرأ حمزة ، والكسائي : [آيَاتٍ] بالنصب في الموضعين الأخيرين ، وهي قراءة الجحدري ، والأعمش ، وقرأ الباقر والجمهور : [آيَاتُ] بالرفع فيهما ، فأما من قرأ : [آيَاتٍ] بالنصب فحمل [آيَاتٍ] في الموضعين على نصب [إِنَّ] في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ ﴾ ، ولا يعرض في ذلك العطف على عاملين الذي لا يُجيزه سيبويه وكثير من النحويين لأننا نقدر (في) معادة في قوله تعالى : ﴿ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ ، وكذلك هي في مصحف ابن مسعود « وفي اختلاف » ، فكأنه تعالى قال - على قراءة الجمهور - : وفي اختلاف الليل ، وذلك أن ذكرها قد تقدم في قوله تعالى : ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ ﴾ ، فلما تقدم ذكر الجار جاز حذفه من الثاني ويُقدَّر مثبتاً ، كما قدَّر سيبويه في قول الشاعر :

أَكُلُّ أَمْرِي تَحْسِبِينَ أَمْرًا — وَنَارٍ تَوَقَّدُ بِاللَّيْلِ نَارًا ؟ (١)

(١) هذا البيت من شواهد سيبويه . وقد نسب بخارية بن الحجاج ، وحارثة بن حمران . وعدي بن زيد العبادي ، والصحيح أنه لأبي ذؤاد الإيادي ، وهو في أمالي ابن الشجري . وفي الكامل للمبرد ، وفي مغني اللبيب لابن هشام ، والشاهد في البيت أن « نار » مجرورة بِكُلٍّ أخرى مقدرة . كآله قال : « وكُلُّ نارٍ تَوَقَّدُ بالليل تحسبونها ناراً » ، وقال بعض النحويين : إن هذا البيت كشوهم : « ما كل سوداء تمرّة ولا بيضاء شحمة » ، وهو عطف على عاملين ، وذلك أن « بيضاء » جرّ عطفاً على « سوداء » ، والعامل فيها « كل » ، و « شحمة » نصب عطفاً على « تمرّة » خبر « ما » . وسيبويه لا يجز ذلك . وتأول المثال فقال : إن « بيضاء » مجرورة بـ « كل » أخرى مقدرة بعد « لا » وليست بمعطوفة على « سوداء » . وقد ساعد على تقدير « كل » في البيت ذكرها في أوله ، وقيل التباس الأمر على المخاطب .

أي : وكُلُّ نارٍ ، وكما قال الآخر :

أَوْصِيْتُ مِنْ بَرَّةٍ قَلْبًا حُرًّا بِالْكَلْبِ خَيْرًا وَالْحِمَاةِ شَرًّا (١)
أي : وبالحماة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا الاعتراض كله إنما هو في [آيات] (٢) الثاني ؛ لأن الأول قبله حرف الجر ظاهر ، وفي قراءة أبي بن كعب ، وابن مسعود رضي الله عنهما في الثلاثة المواضع : « لآيات » ، قال أبو علي : وهذا يدل على أن الكلام محمول على [إن] في قراءة من أسقط اللامات في الآيتين الأخيرتين .

وأما من رفع [آيات] في الموضعين فوجهه العطف على موضع [إن] وما عملت فيه لأن موضعها رفع بالابتداء ، ووجه آخر وهو

= والزمخشري يرى أن الآية الكريمة من العطف على عاملين سواء نَصَبَتْ أو رَفَعَتْ ، فالعاملان - إذا نَصَبَتْ - هما [إن] و [في] أقيمت الواو مقامهما فعملت الجر في (أختلاف اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) ، والنصب في [آيات] ، وبالتالي فإنه يرى البيت كذلك ، والذين يرفضون العطف على عاملين يقولون : إن حروف العطف تنوب مناب العامل ، ولا يقوى أن تنوب مناب عاملين مختلفين ؛ إذ لو ناب الحرف مناب عامل رافع وعامل ناصب لكان رافعاً ناصباً في وقت واحد ، وهذا قبيح مردود .

(١) هذا البيت أيضاً شاهد على تقدير جار آخر هو الباء ، أي : أوصيتها بالكلب خيراً وبالحماة شراً ، ومعنى هذا أنه يرى أن الكلب خير من الحماة ، ولم أقف على قائل هذا البيت فيما بين يدي من المراجع .

(٢) هذا كله في قراءة النصب التي قرأ بها حمزة والكسائي . أما قراءة الرفع فستأتي بعد ذلك .

أن يكون قوله تعالى : ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ﴾ مُسْتَأْنَفًا ،
ويكون الكلام جملة معطوفة على جملة ، وقال بعض الناس : يجوز
أن يكون جملة في موضع الحال فلا تكون غريبة على هذا .

و «اختلاف الليل والنهار» إمَّا بالنور والظلام وإمَّا بكونهما خلفه ،
و «الرَّزْقُ الْمُنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ» هو المطر ، سماه رزقاً بمآله لأن جميع
ما يُرْتَزَقُ فَعَنَ المطر هو ، و «تصريف الرياح» هو بكونها صَباً ودبوراً
وجنوباً وشمالاً ، وأيضاً بكونها مرة رحمة ومرة عذاباً ، قاله قتادة ،
وأيضاً بليتها وشدتها وحرها وبردها . وقرأ طلحة وعيسى : ﴿وَتَصْرِيفِ
الرَّيْحِ﴾ بالإفراد ، وكذلك في جميع القرآن إلَّا ما كان فيه مبشرات ،
وخالف عيسى في الحجر فقراً : ﴿الرَّيَّاحَ لَوَاقِحَ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ إشارة إلى ما ذكر ، وقوله :
[نَتْلُوهَا] فيه حذف مضاف ، أي : نتلوا شأنها وتفسيرها وشرح
العبرة بها ، ويحتمل أن يريد بـ «آيات الله» القرآن المنزَّل في هذه
المعاني ، فلا يكون في [نَتْلُوهَا] حذف مضاف . وقوله : [بِالْحَقِّ]

(١) من قوله تعالى في الآية (٢٢) من سورة (الحجر) : ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ
فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ .

معناه : بالصدق والإعلام بحقائق الأمور في أنفسها . وقوله : ﴿ فَبَيِّٓءُ حَدِيثٍ ﴾ الآية ... توبيخ وتقرير ، وفيه قوة التهديد .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وأبو جعفر ، والأعرج ، وشيبة ، وقتادة : [يُؤْمِنُونَ] بالياء من تحت ، وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وعاصم أيضاً ، والأعمش : [تُؤْمِنُونَ] بالتاء على مخاطبة الكفار ، وقرأ طلحة بن مصرف : [تُوقِنُونَ] بالتاء من فوق ، من اليقين .

قوله عز وجل :

﴿ وَيَلْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۖ يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يَصِرُ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ مِّنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ هَٰذَا هُدًىٰ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِءَايَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ ۝ ۱۱ ﴾

«الْوَيْلُ» في كلام العرب ، : المصائب والحزن والهمُّ والشدة من هذه المعاني ، وهي لفظة تستعمل في الدعاء على الإنسان ، ورؤي في

بعض الآثار أن في جهنم وادياً اسمه ويْلٌ (١) ، وذهب الطبري إلى أن المراد بالآية ومقتضى اللغة أنه الدعاء على أهل الإفك والإثم بالمعاني المتقدمة . و «الْأَفَّاكُ» : الكذاب الذي يقع منه الإفك مراراً . و «الْأَثِيمُ» بناءً مبالغة ، اسم فاعل من : أَثِمَ يَأْثِمُ .

وروي أن سبب هذه الآية أبو جهل ، وقيل : النضر بن الحارث ، والصواب أن سببها ما كان المذكوران - وغيرهما - يفعلان ، وأنها تعم كل من دخل تحت الأوصاف المذكورة إلى يوم القيامة .

و [يُصِرُّ] معناه : يثبت على عقيدته من الكفر ، وقوله تعالى : ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ، حَسَنَ ذَلِكَ لَمَّا أَفْصَحَ عَنِ الْعَذَابِ ، وَلَوْ كَانَتِ الْبَشَارَةُ غَيْرَ مُقَيَّدَةٍ بِشَيْءٍ لَمَا حَمَلَتْ إِلَّا عَلَى الْمَحَابِّ .

وقرأ جمهور الناس : ﴿وَإِذَا عَلِمَ﴾ بفتح العين وتخفيف اللام ، والمعنى : وإذا أخبر بشيء من آياتنا فعلم نفس الخبر لا المعنى الذي تضمنه الخبر ، ولو علم المعاني التي تتضمنها أخبار الشرع وعرف

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الأنبياء ، وأحمد في مسنده (٣-٧٥) ، ولفظه كما في المسند : عن أبي سعيد ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (وَيْلٌ وادٍ في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره ، والصَّعُودُ جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفاً يهوي به كذلك فيه أبداً) .

حقائقها لكان مؤمناً ، وقرأ قتادة ، ومطرُ الوراق (١) : ﴿وَإِذَا عَلَّمَ﴾
بضم العين وتشديد اللام ، وقوله تعالى : [أُولَئِكَ] على لفظ ﴿كُلِّ
أَفَّاكٍ﴾ لأنه اسم جنس له الصفات المذكورة بعُد .

وقوله تعالى : ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ قال فيه بعض المفسرين :
معناه : من أمامهم ، وهذا كالاخلاف الذي في قوله تعالى : ﴿وَكَانَ
وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾ (٢) ، ولحظ قائل هذه المقالة الأمر من حيث تأوّل أن
الإنسان كأنه من عمره يسير إلى جنة أو نار ، فهما أمامه ، وليس
لفظ «الوراء» في اللغة كذلك ، وإنما هو ما يأتي خلف الإنسان ، وإذا
اعتبر الأمر بالتقدم والتأخر في الوجود على أن الزمان كالطريق للأشياء
استقام الأمر ، فما يأتي بعد الشيء في الزمان فهو وراءه ، فكان الملك
وأخذه السفينة وراء ركوب أولئك إياها ، وجهنم وإحراقها للكفار
يأتي بعد كفرهم وأفعالهم ، وهذا كما تقول : افعل كذا وأنا من
ورائك عضداً ، أو كما تقول ذلك على التهديد : أنا من وراء التقصّي
عليك ، ونحو هذا . وقوله تعالى : ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا﴾ يعني بذلك الأوثان .

(١) مطر - بفتح تين - ابن طهمان الوراق ، أبو رجاء السلمي - مولاهم - الخراساني ،
سكن البصرة ، صدوق ، كثير الخطأ ، وحديثه عن عطاء ضعيف . من الطبقة السادسة . مات سنة
خمس وعشرين ، ويقال : سنة تسع . (تقريب التهذيب) .
(٢) من الآية (٧٩) من سورة (الكهف) .

وقوله تعالى : ﴿ هَذَا هُدًى ﴾ إشارة إلى القرآن ، وقرأ ابن كثير ،
وعاصم - في رواية حفص - : [أَلِيمٌ] على النعت لـ [عَذَابٌ] ،
وهي قراءة ابن محيصن ، وابن مُطَرِّف وأهل مكة ، وقرأ الباقر :
[أَلِيمٌ] على النعت لـ [رَجْزٍ] ، وهي قراءة الحسن ، وأبي جعفر ،
وشيبة ، وعيسى ، والأعمش . و « الرَّجْزُ » : أشدُّ العذاب ، وقوله
تبارك وتعالى : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ ﴾ بمنزلة قولك : لهم حظٌّ ، فمن هذه
الجهة ومن جهة تغاير اللفظتين حسنَ قوله تعالى : ﴿ عَذَابٌ مِنْ رَجْزٍ ﴾
إذ الرَّجْزُ هو العذاب .

قوله عز وجل :

﴿ * اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْرِيَ أَلْفُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ * وَلِتَبْتَغُوا مِنْ
فَضْلِهِ * وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا
لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ *

هذه آية عبرة في جريان السفن في البحر ، وذلك أن الله تعالى
سخر هذا المخلوق العظيم لهذا المخلوق الحقير الضعيف ، وقوله تعالى :

[بِأَمْرِهِ] ، أَنَابَ القدرةَ والإِذنَ مناب أن يأمر البحر والنَّاسَ بذلك ،
و «الابتغاءُ من فضل الله تعالى» هو بالتَّجَارَةِ في الأغلب ، وكذلك
مقاصد البرِّ من حجٍّ وجهادٍ هي أيضاً ابتغاءُ فضل ، والتَّصِيدُ (١)
فيه أيضاً هو ابتغاءُ فضل .

و «تَسْخِيرُ ما في السَّمَوَاتِ» هو تسخير الشمس والقمر والنجوم
والسَّحَابِ والرياح والهواء والملائكة الموكلة بهذه كلها ، ويروى أن
بعض الأخيار نزل به ضيف فقدم إليه رغيماً ، فكأن الضيف احتقره ،
فقال له المضيف : لا تحتقره فإنه لم يستدر حتى سُخِّرَ فيه من المخلوقات
والملائكة ثلاثمائة وستون بين من ذكرنا من مخلوقات السماء وبين
الملائكة وبين صناع بني آدم الموصَّلين إلى استدارة الرِّغيف . و «تَسْخِيرُ
ما في الأرض» هو تسخير البهائم والمياه والأودية والجبال وغير ذلك .
ومعنى قوله تعالى : ﴿ جَمِيعاً مِنْهُ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما :
كل إنعام فهو من الله تعالى ، وقرأ جمهور الناس : [مِنْهُ] وهو وقف
جيد ، وقرأ مَسْلَمَةُ بن مُحَارِبٍ : [مِنْهُ] بفتح الميم وشدَّ النون المضمومة ،
بتقدير : هو مِنْهُ (٢) ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما : [مِنْهُ] بكسر

(١) التَّصِيدُ : طلب الصيد ، وهو أيضاً : الاحتيال للصيد .

(٢) هذا قول أبي حاتم ، قال أبو الفتح ابن جني : « ويجوز عندي أن يكون مرفوعاً
بفعله هذا الظاهر : أي : سَخَّرَ لكم ذلك مِنْهُ » ، كقولك : أحياني إقبالك عليَّ . وسدَّد =

الميم وفتح النون المشددة ونصب التاء على المصدر (١) ، وقال أبو حاتم :
سند هذه القراءة إلى ابن عباس رضي الله عنهما مظلّم ، وحكاها أبو
الفتح عن ابن عباس ، وعبد الله بن عمر ، والجحدري ، وعبد الله
ابن عبيد بن عمير ، وقرأ مسلمة بن محارب أيضاً : [مِنْهُ] بكسر
الميم وبالرفع في التاء .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ الآية نزلت في صدر الإسلام ،
أمر الله تعالى المؤمنين فيها أن يتجاوزوا عن الكفار ، وألا يعاقبوهم
بذنّب ، بل يأخذون أنفسهم بالصبر لهم ، قاله محمد بن كعب
القرظي ، والسدي . قال أكثر الناس : هذه آية منسوخة بآية القتال ،
وقالت فرقة : الآية محكمة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والآية تتضمن الغفران عموماً . فينبغي أن يقال : إن الأمور
العظام كالقتل والكفر مجاهرةً ونحو ذلك قد نسخ غفرانه بآية

= أمري حسنُ رأيك في . فتُعْمِلُ فيه هذا اللفظ الظاهر ، ولا تحتاج إلى إبعاد تناول واعتقاد
ما ليس بظاهر .

(١) هذا هو رأي ابن جني ، يقول : « هو منصوب على المصدر بما دلّ عليه قوله تعالى :
﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ ؛ لأن ذلك منه - عز اسمه -
مِنْهُ مِنْهَا عَلَيْهِمْ ، فكأنه قال : مَنْ عَلَيْهِ مِنْهُ ، ومن نصب « وميض البرق » من
قولهم : « تَبَسَّمت وميض البرق » بنفس « تَبَسَّمت » لكونه بمعنى « أَوْمَضْتُ » ، نصب
أيضاً [مِنْهُ] بنفس « سَخَّرَ لَكُم » ، على ما مضى .

السيف والجزية وما أحكمه الشرع لا محالة ، وإنَّ الأمور المحقَّرة كالجفاء في القول ونحو ذلك يحتمل أن تبقى محكمة وأن يكون العفو عنها أقرب إلى التقوى .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : لما أنزلت ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ (١) قال فنحاص اليهودي : احتاج ربُّ محمد ، تعالى الله عزَّ وجلَّ عن قوله ، فأخذ عمر رضي الله عنه سيفه ومراً ليقتله ، فردَّه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : إِنَّ رَبَّكَ يَقُولُ : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا ﴾ الآية .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فهذا احتجاجٌ بها مع قدم نزولها ، وقد ذكر مكِّي وغيره أنها نزلت بمكة في عمر رضي الله عنه لما أراد أن يبطش بمشرك شتمه ، وأما الجزم في قوله تعالى : ﴿ يَغْفِرُوا ﴾ فهو جواب شرط مقدر ، وتقديره : قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا ، فإنَّ يجيبوا يغفروا ، وأخصر من هذا عندي أَنَّ [قُلْ] هي بمثابة : اندب المؤمنين إلى الغفر (٢) .

(١) من الآية (٢٤٥) من سورة (البقرة) ، وتكررت في الآية (١١) من سورة (الحديد) .

(٢) ومثل هذه الآية قوله تعالى في الآية (٥٣) من سورة (الإسراء) : ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا ﴾ ، وقوله تعالى في الآية (٣١) من سورة (الأنعام) : ﴿ قُلْ لِعِبَادِي أَكْتُبُوا بِحُسْنٍ ﴾ ، والقراء يرى أنه مجزوم بالنشبيه بالجزاء والشرط .

وقوله تعالى : ﴿ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾ قالت فرقة : معناه : أيام إنعامه ونصره وتنعيمه في الجنة وغير ذلك ، ف [يَرْجُونَ] - على هذا - هو على بابه ، وقال مجاهد : أيام الله تعالى هي أيام نعمة وعذابه ، ف [يَرْجُونَ] - على هذا - هي التي تنزل منزلة « يخافون » ، وإنما تنزل منزلتها من حيث الرجاء والخوف متلازمان ، لا نجد أحدهما إلا والآخر معه مقترن ، وقد تقدم شرح هذا غير مرة .

وقرأ جمهور القراء : [لِيَجْزِيَ] بالياء على معنى : ليجزي الله ، وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، والأعمش ، وأبو عبد الرحمن ، وابن وثاب : [لِنَجْزِيَ] بالنون ، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع - بخلاف عنه - : [لِيُجْزَى] على بناء الفعل للمجهول [قَوْماً] ، وهذا على أن يكون التقدير : لِيُجْزَى الجزاء قوماً (١) ، وباقي الآية وعيد .

(١) هذا تقدير الكسائي ، ونظيره في ذلك قوله تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ وَكَذَلِكَ نُجَيِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ على قراءة ابن عامر ، وأبي بكر ، ومثل هذا جاء في قول جرير يهجو الفرزدق ويغيره بأمة قفيرة :

وَلَوْ وَلَدَتْ قَفِيرَةً جَرَوْكَ كَلْبٍ لَسَبَّ بِذَلِكَ الْجَرُّ الْكِلاَبَا

إذ التقدير : لَسَبَّ السَّبُّ . ولكن الجمهور لا يحيز ذلك : ولهذا قال أبو عمرو عن هذه القراءة : « هذا لحن ظاهر » ، وهناك تأويلات أخرى نجدها في كتب التفسير لتخريج هذه القراءة .

قوله عز وجل :

﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝١٥٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝١٥١﴾ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْثًا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝١٥٢﴾

لما تقرر في الآية التي قبل هذه أن الله تعالى يجزي قوماً بكسبهم ويعاقبهم على ذنوبهم واجترامهم أكد ذلك بقوله تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ ، وقوله تعالى : [فَلِنَفْسِهِ] هي لام الحظ ؛ لأن الحظوظ والمحاب إنما تستعمل فيها اللام التي هي كلام الملك ، تقول : «الأُمور لي ولزيد مُتَتَّيَّة» ، ويستعمل في ضد ذلك «على» ، فتقول : «الأُمور على فلان مُسْتَعَصِيَّة» ، وتقول : «لزيد مالٌ وعليه دين» ، وكذلك جاء العمل الصالح في هذه باللام والإساءة بعلى ، وقوله سبحانه : ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ معناه : إلى قضائه وحكمه .

والكتاب في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ﴾ هو التَّوراة ، و «الحكم» هو السُّنة والفقه ، فيقال : إنه لم يتسع فقه الأحكام على لسان نبيٍّ ما اتسع على لسان موسى عليه السلام ، و «النُّبُوَّة» هي ما تكرر فيهم من الأنبياء عليهم السلام . وقوله تعالى :

(وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ) يعني من المستلذات الحلال ، وبهذا تتم النعمة ويحسن تعديدها ، وهذه إشارة إلى المن والسلوى وطيبات الشام بعد ؛ إذ هي الأرض المباركة ، وقد تقدم القول في معنى الطيبات وتلخيص قول مالك والشافعي في ذلك . وقوله تعالى : (عَلَى الْعَالَمِينَ) يريد : على عالم زمانهم . و « البينات من الأمر » هي الوحي الذي فصلت لهم به الأمور ، ثم بين تعالى خطأهم وعظمه بقوله تعالى : (فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ) ، وذلك أنهم لو اختلفوا اجتهاداً في طلب الصواب لكان لهم عذر في الاختلاف ، وإنما اختلفوا بغياً بينهم وهم قد تبينوا الحقائق ، ثم توعدهم تعالى بوقف أمرهم على قضائه بينهم يوم القيامة .

قوله عز وجل :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَخْنَعُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ۝١٩ هَذَا بَصِيرَتُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٢٠ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحِبَّتُهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٢١ ﴾

المعنى : ثم جعلناك على شريعة فلا محالة أنه سيختلف عليك كما تقدم لبني إسرائيل ، فاتبع شريعتك ، والشريعة في كلام العرب

الموضع الذي يَرُدُّ فيه النَّاسُ في الأنهار والمياه ، ومنه قول الشاعر :
وفي الشَّرائعِ مِنْ جَيْلَانٍ مُقْتَنَصٍ رَثُّ الثِّيَابِ خَفِيُّ الشَّخْصِ مُنْسَرِبٌ (١)
فشريعة الدين من ذلك ، كأنها من حيث يرد الناس أمر الله ورحمته
والقرب منه ، وقال قتادة : الشَّرائعُ : الفرائض والحدود والأمر والنهي .
وقوله تعالى : ﴿ مِنْ الْأَمْرِ ﴾ يحتمل أن يكون واحد الأُمُور ، أي :
من دين الله تعالى ونُبُوءَاتِهِ التي بثَّها في سالف الزَّمان ، ويحتمل أن
يكون مصدراً من أمر يأمر ، أي : على شريعة من الأوامر والنواهي ،

(١) هذا البيت شاهد على أن الشريعة هي الموضع الذي يرد فيه الناس إلى الأنهار والمياه
فيشربون ويستقون ، وهو في اللسان (زرب) ، وقد نسبته إلى ذي الرُّمَّة ، والرواية فيه :
وَبِالشَّمَائِلِ مِنْ جَلَّانٍ مُقْتَنَصٍ رَذُلُ الثِّيَابِ خَفِيُّ الشَّخْصِ مُنْزَرِبٌ
قال : « وَالزَّرْبُ وَالزَّرِيَّةُ » : بشر يحفرها الصائد ، يكمن فيها للصيد ، وفي الصَّحاح :
انزَرَبَ الصَّائِدُ فِي قُتْرَتِهِ : دَخَلَ : قال ذو الرُّمَّة : « وَبِالشَّمَائِلِ مِنْ جَلَّانٍ ... » البيت ،
وَجَلَّانٌ : قبيلة « اه . وعلى هذا فلا شاهد فيه هنا ، أما على رواية « وفي الشرائع » فإن الشريعة
هي الموضع الذي يُنْحَدِرُ منه إلى الماء ، جاء في اللسان (شرع) : « شَرَعَ الْوَارِدُ يَشْرَعُ
شَرْعاً وَشُرُوعاً : تناول الماء بفيه ، وشرعت اللواب في الماء : دخلت ، والشريعة والشرع
والمنشوعة : الموضع التي يُنْحَدِرُ إلى الماء منها ، قال الليث : وبها سُمِّيَ ما شرع الله للعباد
شريعة » اه . وجَيْلَانٌ - بفتح الجيم وياء ساكنة كما ضبطه الحموي في معجم البلدان - هم
قوم من أبناء فارس انتقلوا إلى نواحي اصطخر فنزلوا بطرف من البحرين فغرسوا وزرعوا
وحفروا وأقاموا هناك ، فنزل عليهم قوم من بني عِجْلٍ فدخلوا فيهم . وهذا يتفق مع قول
اللسان : جَلَّانٌ : قبيلة . والمقْتَنَصُ : الصائد . والشَّخْصُ : كل جسم له ارتفاع وظهور .
وغلب في الإنسان . وانسرب : اختفى في شيء ، يقول : إن في موارد المياه صائد من قبيلة جَلَّانٍ
يخفي شخصه ، ويدخل في قُتْرَتِهِ ويبقى في انتظار فرائسه . هذا وقد سبق الاستشهاد بهذا البيت
في تفسير قوله تعالى في الآية (٤٨) من سورة (المائدة) : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً
وَمِنْهَا جَا ﴾ . راجع الجزء الرابع صفحة (٤٧٠) .

فَسَمَّى اللَّهُ تَعَالَى جَمِيعَ ذَلِكَ أَمْرًا ، وَ «الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ» هُمُ الْكَفَّارُ الَّذِينَ كَانُوا يَرِيدُونَ صَرْفَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى إِرَادَتِهِمْ . وَ [يُغْنُوا] مِنَ الْغَنَاءِ ، أَي لَنْ يَكُونَ لَهُمْ عِنْدَكَ دِفَاعٌ ، ثُمَّ حَقَّرَ تَعَالَى شَأْنَ الظَّالِمِينَ مَشِيرًا بِذَلِكَ إِلَى كَفَّارِ قَرِيشٍ ، وَوَجْهَ التَّحْقِيرِ أَنَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ : وَهَؤُلَاءِ يَتَوَلَّى بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَالْمُتَّقُونَ يَتَوَلَّاهُمْ اللَّهُ تَعَالَى ، فَخَرَجُوا عَنْ وَلَايَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَبَرَّأَتْ مِنْهُمْ ، وَوَكَّلَ اللَّهُ تَعَالَى بَعْضَهُمْ إِلَى بَعْضٍ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ ﴾ يَرِيدُ الْقُرْآنُ ، وَ «الْبَصَائِرُ» جَمْعُ بَصِيرَةٍ ، وَهِيَ الْمَعْتَقْدُ الْوَثِيقُ فِي الشَّيْءِ ، كَأَنَّهُ مُصْدِرٌ مِنْ إِبْصَارِ الْقَلْبِ ، فَالْقُرْآنُ فِيهِ بَيِّنَاتٌ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ بَصَائِرَ ، وَ «الْبَصِيرَةُ» فِي كَلَامِ الْعَرَبِ : الطَّرِيقَةُ مِنَ الدَّمِّ ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

رَاحُوا بَصَائِرَهُمْ عَلَى أَكْتَفَائِهِمْ وَبَصِيرَتِي يَعْذُو بِهَا عَتْدُ وَآي (١)

(١) الْبَيْتُ لِلأَسْعَرِ الْجُعْفِيِّ ، وَهُوَ فِي اللِّسَانِ (بَصَرٌ) ، وَالرَّوَايَةُ فِي الْقُرْطُبِيِّ : «جَاءُوا بَصَائِرَهُمْ» ، وَالْبَصِيرَةُ : الشَّارُ ، وَقِيلَ : الْبَصِيرَةُ مِنَ الدَّمِّ مَا لَمْ يَسِيلْ ، وَقِيلَ : الْبَصِيرَةُ : دَمُ الْبَيْكِرِ ، ذَكَرَ ذَلِكَ كُلَّهُ صَاحِبُ اللِّسَانِ ، وَرَوَى الْبَيْتَ ثُمَّ قَالَ : «يَعْنِي بِالْبَصَائِرِ دَمَ أَبِيهِمْ . يَقُولُ : تَرَكُوا دَمَ أَبِيهِمْ خَلْفَهُمْ وَلَمْ يَثَّارُوا بِهِ وَطَلَبْتُهُ أَنَا . وَفِي الصَّحَاحِ : وَأَنَا طَلَبْتُ ثَأْرِي . وَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ يَقُولُ : الْبَصِيرَةُ فِي هَذَا الْبَيْتِ : الثَّرْسُ أَوْ الدَّرْعُ ، وَكَانَ يَرْوِيهِ : حَمَلُوا بَصَائِرَهُمْ . وَقَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ : رَاحُوا بَصَائِرَهُمْ يَعْنِي ثَقَلُ دِمَائِهِمْ عَلَى أَكْتَفَائِهِمْ لَمْ يَثَّارُوا بِهَا . وَالْبَصِيرَةُ : الدِّيَّةُ ، وَالْبَصَائِرُ : الدِّيَّاتُ فِي أَوَّلِ الْبَيْتِ . قَالَ : أَخَذُوا الدِّيَّاتَ فَصَارَتْ عَارًا ، وَبَصِيرَتِي أَيِ ثَأْرِي قَدْ حَمَلْتُهُ عَلَى فَرَسِي لِأُطَالِبَ بِهِ ، فَبَيَّيْتُ وَبَيْنَهُمْ فَرْقًا . وَالْعَتِيدُ =

وفسر الناس هذا البيت بطريقة الدَّم ؛ إذا كانت عادة طالب الدَّم عندهم أن يجعل طريقة من دم خلف ظهره ليعلم بذلك أنه لم يدرك ثأره وأن يطلبه ، [ويظهر فيه أنه يريد بصيرة القلب ، أي : قد أطرح هؤلاء بصائرهم وراء ظهورهم] (١) .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ﴾ الآية قول يقتضي أنه نزل بسبب افتخار كان للكفار على المؤمنين ، قالوا : «لئن كانت آخرة كما تزعمون لنفضلن فيها عليكم كما فضلنا في الدنيا» . و [أَمْ] هذه ليست بمعادلة ، وهي بمعنى «بَلْ» مع أَلْف الاستفهام ، و [أَجْتَرَحُوا] معناه : اكتسبوا ، ومنه جوارح الإنسان وجوارح الصيد ، وتقول العرب : «فلان جارحة أهله» أي كاسبهم . وقرأ أكثر القراء : [سَوَاء]

= بفتح التاء وكسرها - : الفَرَسُ التام الخلق السريع الوثبة المعد للجرى ، ليس فيه اضطراب ولا رخاوة ، وقوله : «وَأَيُّ» بواو مفتوحة بعدها همزة يريد به الفرس السريع المقتدر ، وهكذا ضبطه في اللسان وفي الأصمعيّات بهمزة مفتوحة دون مدّ . يقول الشاعر : إنهم تركوا دم أبيهم وجعلوه خلفهم ، أي لم يثأروا له ، وأنا طلبت ثأري ، وقد سبق الاستشهاد بالبيت في سورة الأنعام ، راجع الجزء الخامس صفحة (٣٠٩) .

هذا وقد ورد اسم الشاعر في اللسان محرفاً الأشعر - بالشين المعجمة - والصواب ما ذكرناه هنا . وهو شاعر جاهلي اسمه ميرثد بن أبي حيمران ، والأشعر - بالشين - لقب لقب به لقوله :

فلا يدعني قومي لسعد بن مالك إذا أنا لم أسعر عليهم وأثقب

(١) ما بين العلامتين [.....] سقط من كثير من النسخ ، وهو مثبت في النسخة التونسية .

بالرَّفَعِ ﴿مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ بالرفع ، وهذا على أن [سَوَاءً] رفع بالابتداء (١) ،
و ﴿مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ خبره ، و [كَالَّذِينَ] في موضع المفعول الثاني
لـ «نَجْعَلُ» ، وهذا على أحد معنيين ، إما أن يكون الضمير في [مَحْيَاهُمْ]
يختص بالكفار المجترحين ، فتكون الجملة خبراً عن أن حالهم في
الزمنين حال سوء ، والمعنى الثاني أن يكون الضمير في [مَحْيَاهُمْ]
يَعُمُّ الفريقين ، والمعنى أن مَحْيَا هؤلاء ومماتهم سواء ، وهو كريم ،
ومَحْيَا هؤلاء ومماتهم سواء ، وهو غير كريم ، ويكون اللفظ قد لَفَّ
هذا المعنى وذَهَنُ السَّامِعُ يُفَرِّقُهُ ؛ إذ قد تقدّم إبعاد أن يجعل الله تعالى
هؤلاء كهؤلاء ، قال مجاهد : والمؤمن يموت مؤمناً ويُبْعَثُ مؤمناً ،
والكافر يموت كافراً ويُبْعَثُ كافراً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

مقتضى هذا الكلام أن لفظ الآية خبر ، ويظهر لي أن قوله تعالى :
﴿سَوَاءٌ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ داخل في المحسبة المنكرة السيئة ، وهذا
احتمال حسن (٢) ، والأول أيضاً جيد . وقرأ طلحة ، وعيسى - بخلاف

(١) قال أبو حيان الأندلسي : « ولا مسوغ لجواز الابتداء به ، بل هو خبر مقدم وما بعده
المتبدأ ، والجملة خبر مستأنف » .

(٢) عَقَّبَ أبو حيان الأندلسي على هذا بعد أن نقله بقوله : « ولم يُبَيِّنْ كيفية تشبُّث
الجملة بما قبلها حتى يدخل في المحسبة » .

عنه - [سَوَاءً] بالنصب ﴿مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ بالرفع ، وهذا يحتمل وجهين : أحدهما أن يكون قوله تعالى : [كَالَّذِينَ] في موضع المفعول الثاني لـ «نَجْعَلُ» كما هو في قراءة الرفع ، وينصب قوله تعالى : [سَوَاءً] على الحال من الضمير في [نَجْعَلُهُمْ] ، والوجه الثاني أن يكون قوله تعالى : [كَالَّذِينَ] في نيّة التأخير ، ويكون قوله تعالى : [سَوَاءً] مفعولاً ثانياً لـ «نَجْعَلُ» ، وعلى كلا الوجهين ﴿مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ مرتفع بـ [سَوَاءً] على أنه فاعل . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم (١) ، والأعمش : [سَوَاءً] بالنصب ﴿مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ بالنصب ، وذلك على الظرف ، أو على أن يكون [مَحْيَاهُمْ] بدلاً من الضمير في [نَجْعَلُهُمْ] ، أي : نجعل محياهم ومماتهم سواء ، وهذه الآية متناولة بلفظها حال العصاة من حال أهل التقوى ، وهي موقف للعارفين بكون عنده ، وروي عن الربيع بن خيثم أنه كان يرددها ليلة جمعة ، وكذلك عن الفضيل بن عياض ، وكان يقول لنفسه : ليت شعري من أي الفريقين أنت ؟ وقال الثعلبي : كانت هذه الآية تسمى مبكى العابدين .

(١) قراءة حفص عن عاصم كما هي في المصحف الشريف : ﴿سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ بالنصب في [سَوَاءً] والرفع في ﴿مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :
وأما لفظها فيعطي أنه اجتراح الكفر بدليل معادلته بالإيمان ،
ويحتمل أن تكون المعادلة بين الاجتراح وعمل الصالحات ويكون
الإيمان في الفريقين ، ولهذا بكى الخائفون رضي الله عنهم . وأما
مفعولا [حَسِبَ] فقوله تعالى : ﴿ أَنْ نَجْعَلَهُمْ ﴾ يسد مسد المفعولين .
وقوله تعالى : ﴿ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [مَا] مصدرية ، والتقدير : ساء
الحكم حكمهم .

قوله عز وجل :

﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا
كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٢٢) أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ
وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاةً فَمِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢٣) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ
وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ (٢٤)

المعنى : وخلق الله السموات والأرض ، فإن خلقها حق واجب متأكد
في نفسه لما فيه من فيض الخيرات ، ولتدل عليه تعالى ، ولتكون
صنعة حاكمة بصانع ، وقيل لبعض الحكماء : لم خلق الله السموات

والأرض؟ فقال: ليظهر جودة صنعه، واللام في قوله سبحانه: [وَلِتُجْزَى] يظهر أن تكون لام كي، فكأن الجزاء من أسباب خلق السموات والأرض، ويحتمل أن تكون لام الصيرورة، أي: وصار الأمر فيها من حيث اهتدى بها قوم وضل عنها آخرون لأن يجازى كل أحد بعمله وبما اكتسب من خير أو شر.

قوله تعالى: [أَفَرَأَيْتَ]، سهل بعض القراء الهمزة وحققتها قوم، وكذلك هي في مصحف ابن مسعود مخففة، وفي مصحف أبي بن كعب رضي الله عنه «أَفَرَيْتَ» دون همز، وهذه الآية تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم عن الكفار المعرضين عن الإيمان، أي: لا تحفل بهم ولا تهتم بأمرهم، فليس فيهم حيلة لبشر لأن الله أضلهم، قال ابن جبير: ﴿إِلَهَةٌ هَوَاهُ﴾ إشارة إلى الأصنام؛ إذ كانوا يعبدون ما يَهْوَوْنَ من الحجارة، وقال قتادة: المعنى: لا يهوى شيئاً إلا ركه لا يخاف الله تعالى، فهذا كما يقال: الهوى إله معبود، وقرأ الأعرج، وابن جبير: ﴿إِلَهَةٌ هَوَاهُ﴾ على التأنيث في «إِلَهَةٌ»، وهذه الآية وإن كانت نزلت في هوى الكفر فهي متناولة لجميع هوى النفس الأمارة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما ذكر الله تعالى هوى إلا ذمه، وقال الشعبي: سُمِّيَ هَوَى لِهَوِيَّه بصاحبه، وقال النبي

صلى الله عليه وسلم : (والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله) (١) ،
وقال سهل التستري : «هواك داؤك ، فإن خالفته فدواؤك» ، وقال
وهب : «إذا شككت في خير أمرين فانظر أبعدهما من هواك فأتته» ،
ومن حكمة الشعر في هذا قول القائل :
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْصِ الْهَوَى قَادَكَ الْهَوَى إِلَى كُلِّ مَا فِيهِ عَلَيْكَ مَقَالُ (٢)
وقوله تعالى : ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : المعنى :
على علم من الله سابق ، وقالت فرقة : أي : على علم من هذا الضلال
فإن الحق هو الذي يترك ويعرض عنه ، فتكون الآية - على هذا
التأويل - من آيات العناد ، نحو قوله تعالى : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا
أَنْفُسُهُمْ﴾ (٣) ، على كلا التأويلين ، فقوله تعالى : ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ حال .
وقوله تعالى : ﴿وَحَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾
استعارات كلها ؛ إذ هذا الضال لا ينفعه ما يسمع ولا ما يفهم ولا ما يرى ،
فكانه بهذه الأوصاف المذكورة ، وهذه الآية لا حجة للجبرية فيها

(١) أخرجه الترمذي في القيامة . وابن ماجه في الزهد ، وأحمد في مسنده (٤-١٢٤) ،
عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الكيس من دان نفسه
وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله) .
(٢) هذا البيت قاله هشام بن عبد الملك ، ولم يقل غيره ، قال ذلك صاحب كتاب «عيون
الأخبار» .

والهوى : ما تريده النفس وتخبه ، وإذا أطلق كان مذموماً حتى يوصف بما يجعله حسناً ،
والمقال : قاله السوء عليه ، يقول الشاعر : إذا لم تخالف رغبات نفسك وشهواتها قادك هواك
إلى الخطأ فيتقوّل الناس عليك وينسبون لك كل قبيح مردول .
(٣) من الآية (١٤) من سورة (النمل) .

لأنَّ التَّكْسِبَ فيها منصوص عليه في قوله تعالى : [أَتَّخِذَ] ، وفي قوله تعالى : ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ على التأويل الأخير فيه ، ولو لم ينص على الاكتساب لكان مراداً في المعنى ، وقرأ أكثر القراء : [غَشَاوَةٌ] بكسر الغين ، وقرأ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : [غَشَاوَةٌ] بفتح الغين ، وهي لغة ربيعة ، وحكي عن الحسن وعكرمة [غُشَاوَةٌ] بضم الغين ، وهي لغة عُكَل ، وقرأ حمزة ، والكسائي : [غَشْوَةٌ] بفتح الغين وإسكان الشين ، وقرأ الأعمش ، وابن مصرف : [غَشْوَةٌ] بكسر الغين دون ألف . وقوله تعالى : ﴿مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ فيه حذف مضاف تقديره : من بعد إضلال الله تعالى إياه ، وقرأ عاصم - وأراه الجحدري - : [تَذَكَّرُونَ] بتخفيف الذال ، وقرأ جمهور الناس : [تَذَكَّرُونَ] على الخطاب أيضاً بتشديد الذال ، وقرأ الأعمش : [تَتَذَكَّرُونَ] بتاءين .

وقوله تعالى : ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ الآية ... حكاية مقالة بعض قريش ، وهذه صيغة دهرية من كفَّار العرب ، ومعنى قولهم : ما في الوجود إِلَّا هذه الحياة التي نحن فيها وليست ثمَّ آخِرَةٌ ولا بَعَثٌ .

واختلف المفسرون في معنى قولهم : ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ - فقالت فرقة : المعنى : نحن موتى قبل أن نوجد ثم نحيا في وقت وجودنا . وقالت فرقة : المعنى : نموت حين نحن نطفٌ ودمٌ ثمَّ نحيا بالآرواح فينا ، وهذا قول قريب من الأول ، ويسقط على القولين ذكر الموت المعروف الذي هو خروج الروح من الجسد ، وهو الأهم في الذكر ،

وقالت فرقة : المعنى : نحيا ونموت ، فوقع في اللفظ تقديم وتأخير .
وقالت فرقة : الغرض من اللفظ العبارة عن حال النوع ، فكأن النوع
بجملته يقول : إنما نحن تموت طائفة وتحيا طائفة دأبا . وقولهم :
﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ أي طول الزمان ، وهو المهلك لأن الأوقات
تستوي فيه كمالاتها ، فنفى الله تعالى عنهم علمهم بهذا ، وأعلم أنها
ظنون منهم وتخرص يفضي بهم إلى الإشراف بالله تعالى ، والدَّهْر والزَّمان
تستعملهما العرب بمعنى واحد ، وفي قراءة ابن مسعود : « وما يُهْلِكُنَا
إِلَّا دَهْرٌ يَمُرُّ » ، وقال مجاهد : الدَّهْر هنا الزَّمان ، وروى أبو هريرة
رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (كان أهل الجاهلية
يقولون : إنما يُهْلِكُنَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ) (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وفارق هذا الاستعمال قول النبي صلى الله عليه وسلم : (لا تَسُبُّوا
الدَّهْرَ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الدَّهْرُ) (٢) ، وفي حديث آخر قال الله تعالى :

(١) أخرجه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والحاكم ، وابن مردويه ، عن أبي هريرة
رضي الله عنه ، ولفظه كما في (الدَّهْرُ المُنْتَوِر) : قال : كان أهل الجاهلية يقولون : إنما يُهْلِكُنَا
الليل والنهار ، فقال الله في كتابه : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا
وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ ، وقال الله : يؤذيني ابن آدم يسبُّ الدَّهْرَ ، وأنا الدَّهْرُ ،
بيدي الأمر ، أَقْلَبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب ، ومسلم في الألفاظ ، ومالك في الموطأ ، وأحمد في
مسنده (٢-٢٥٩ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥) ، ولفظه كما في البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ،
عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لَا تُسَمُّوا الْعَنْبَ الْكَرْمَ ، وَلَا تَقُولُوا : خِيبة الدَّهْرَ ،
فإن الله هو الدَّهْرُ) . قال القرطبي : « وقد استدلل بهذا الحديث من قال : إن الدَّهْرَ من أسماء =

(يسبُّ ابن آدم الدهر وأنا الدهر بيدي الليل والنهار) (١)، ومعنى هذا الحديث : فإنَّ الله تعالى هو الذي يفعل ما تنسبونه إلى الدهر وتسبونه بسببه ، وإذا تؤملت أمثلة هذا الكلام ظهرت إن شاء الله تعالى .

قوله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ جُحْتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبِعْنَا بآبَاءَنَا
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢٥) قُلِ اللَّهُ يُخَيِّكُم ثُمَّ يُمِينُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ
لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُحْسِرُ الْمَبْطُلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً
كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ
عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾

= الله ، وقال من لم يجعله من العلماء اسماً : إنما خرج ردّاً على العرب في جاهليتها ، فإنهم كانوا يعتقدون أن الدهر هو الفاعل ... فقل لهم ذلك ، أي أن الله هو الفاعل لهذه الأمور التي يضيفونها إلى الدهر « اه بتصرف » ، وقد ذكر ابن عطية هذا موجزاً ودقيقاً في كلامه ، واللفظ الذي اختاره ابن عطية للحديث هنا هو لفظ مسلم في صحيحه .

(١) أخرجه أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن مردويه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ولفظه كما في الدر المنثور : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (قال الله عزَّ وجلَّ : يؤذيني ابن آدم ، يسبُّ الدهر وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أقلب الليل والنهار) . ونلاحظ أنه جزء من الحديث الأول الذي خرجناه في الهامش رقم (١) من الصفحة السابقة ، ونلاحظ كذلك أن ابن عطية قال في تقديم هذا الحديث : « وفي حديث آخر » .

الضمير في [عَلَيْهِمْ] عائد على كفار قريش ، و «الآيات» هي آيات القرآن وحروفه بقرينة قوله تعالى : [تُتْلَى] ، وعابت هذه الآية سوء مقاولتهم ، وأنهم جعلوا بدل الحجة التمني المتشطط والطلب لما قد حتم الله تعالى ألا يكون إلا إلى أجل مُسمى .

وقرأ الحسن ، وعمرو بن عبَّيد ، وابن عامر - فيما روي عنه عبد الحميد - ، وعاصم - فيما روي هارون وحُسين عن أبي بكر عنه - : [حُجَّتُهُمْ] بالرفع على اسم [كَانَ] والخبر في [أَنْ] ، وقرأ جمهور الناس : [حُجَّتُهُمْ] بالنصب على خبر مُقدَّم واسم كان في [أَنْ] .

وكان بعض قريش قد قال : اخي لنا قُصِيًّا - فإنه كان شيخ صدق - حتَّى نسأله ، إلى غير ذلك من هذا النحو ، فنزلت الآية في ذلك ، وقيل لمحمد صلى الله عليه وسلم : [أَتُّوا] من حيث المخاطبة له والمراد هو وإلهه والمَلَك الوسيط الذي ذكر هو لهم ، فجاء من ذلك جملة قيل لها : [أَتُّوا] و (إِنْ كُنْتُمْ) .

ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم بالحال السابقة في علم الله تعالى التي لا تُبدَّل ، وهي أنه يحيي الخلق ويميتهم بعد ذلك ويحشرهم بعد إِمَاتَتِهِمْ إلى يوم القيامة ، وقوله سبحانه : (لَا رَيْبَ فِيهِ) أي في نفسه وذاته ، و «الأكثر» الذي لا يعلم هم الكفار ، و «الأكثر» هنا على بابه .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ﴾ ، قالت فرقة : العامل في [يَوْمَ] قوله تعالى : [يَخْسَرُ] ، وجاء قوله تعالى : [يَوْمَئِذٍ] بدلاً مؤكداً ، وقالت فرقة : العامل في [يَوْمَ] فعل يدل عليه المُلْك ، وذلك أن يوم القيامة حال ثالثة ليست بالسماء ولا بالأرض لأن ذلك يتبدل ، فكأنه تعالى قال : والله مُلْكُ السموات والأرض والملك يوم القيامة ، وينفرد [يَخْسَرُ] بالعمل في قوله تعالى : [يَوْمَئِذٍ] ، و [الْمُبْطِلُونَ] : الداخلون في الباطل .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً ﴾ وصف حال القيامة وهولها ، و «الْأُمَّةُ» : الجماعة العظيمة من الناس التي قد جمعها معنى أو وصف شامل لها ، وقال مجاهد : الْأُمَّةُ : الواحد من الناس .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا قلقٌ في اللغة ، وإن قيل في إبراهيم صلى الله عليه وسلم : أُمَّةٌ (١) ، وقالها النبي صلى الله عليه وسلم في قُصِّ بن ساعدة (٢) ، فذلك تجوز على جهة التشريف والتشبيه .

(١) جاء ذلك في قوله تعالى في الآية (١٢٠) من سورة النحل : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

(٢) قُصِّ بن ساعدة الإيادي ، عدّه ابن شاهين وعبدان في الصحابة ، وقال ابن حجر في الإصابة : « ذكره أبو علي بن السكن ، وابن شاهين ، وعبدان المروزي ، وأبو موسى في الصحابة ، وصرّح ابن السكن بأنه مات قبل البعثة » ، وفي سيرة ابن سيّد الناس أن الجارود ابن عبد الله وفد في قومه على النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم ، وسأله النبي صلوات الله وسلامه =

و [جَاثِيَةً] معناه : على الركب ، قاله مجاهد والضحاك ، وهي هيئة المذنب الخائف المعظم ، وفي حديث (فجثا عمر رضي الله عنه على ركبتيه) (١) ، وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه : في القيامة ساعة قدر عشر سنين ، يختر الجميع فيها جثاة على الركب .

= عليه : هل في جماعة وفد عبد القيس من يعرف قُسمًا ؟ قال الجارود : كلنا نعرفه يا رسول الله ، ثم أخذ يحكي خبره ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (على رسلك يا جارود ، فلست أنساه بسوق عكاظ على جمل أورك ، وهو يتكلم بكلام ما أظن أني أحفظه) ، فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه : يا رسول الله فإني أحفظه ، وهو : يا أيها الناس ، اسمعوا وعُوا ، فإذا وعيتم فانتفعوا ، إنه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ... الخ ، وورد ذكره في كتاب المعمرين للسجستاني ، وفي الأغاني للأصفهاني ، وفي البيان والتبيين للجاحظ ، وفيه قال صلى الله عليه وسلم : (يُحْشَرُ أُمَّةٌ وَحْدَهُ) .

(١) جاء ذلك في حديث أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي عن علي رضي الله عنه . قال : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : متى الساعة ؟ فزبره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا صلى الفجر رفع رأسه إلى السماء فقال : تبارك خالقها ورافعها ومبدؤها وطاوبها كطي السجل للكتاب ، ثم تطلع إلى الأرض فقال : تبارك خالقها وواضعها ومبدؤها وطاوبها كطي السجل للكتاب ، ثم قال : أين السائل عن الساعة ؟ فجثا رجل من آخر القوم على ركبتيه ، فإذا هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عند حيف الأئمة ، وتكذيب القدر ، وإيمان بالنجوم ، وقوم يتخذون الأمانة مغنماً ، والزكاة مغرماً ، والفاحشة زيارة ، فسألته عن الفاحشة زيارة ، فقال : الرجلان من أهل الفسق يصنع أحدهما طعاماً وشراباً ، ويأتيه المرأة فيقول : اصنعي لي كما صنعت ، فيتزاوران على ذلك ، قال : فعند ذلك هلك أمتي يا بن الخطاب . (الدر المنثور) ، ومعنى زبره : زجره ونهاه .

وقد ورد في حديث آخر أخرجه البخاري عن أبي الدرداء أن شيئاً كان بين أبي بكر وعمر ابن الخطاب رضي الله عنهما ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قد غضب وتغير وجهه على عمر ، فجثا أبو بكر على ركبتيه شفقة على عمر من غضب النبي صلى الله عليه وسلم .

وقرأ جمهور الناس : ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ بالرفع على الابتداء ، وقرأ يعقوب : ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى﴾ بالنصب على البدل من [كُلُّ] الأولى ، إذ في [كُلُّ] الثانية إيضاحٌ موجب الجُثُو ، وقرأ الأعمش : «وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً تُدْعَى» بإسقاط ﴿كُلُّ أُمَّةٍ﴾ الثانية .

واختلف المتأولون في قوله تعالى : ﴿إِلَى كِتَابِهَا﴾ - فقالت فرقة : أراد : إلى كتابها المنزل عليها فتحاكم إليه ، هل وافقته أو خالفته ؟ وقالت فرقة : أراد : إلى كتابها الذي كتبه الحفظة على كل واحد من الأئمة ، فاجتماع ذلك قيل له : كتابها ، وهنا محذوف يدل عليه الظاهر ، تقديره : فيقال لهم : ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿هَذَا كِتَابُنَا﴾ يحتمل أن تكون الإشارة إلى الكتب المنزلة ، أو إلى اللوح المحفوظ ، قال مجاهد ، ومقاتل : يشهد بما سبق فيه من سعادة أو شقاء ، ويحتمل أن تكون إلى كتب الحفظة . وقال ابن قتيبة : هي إلى القرآن .

واختلف الناس في قوله تعالى : ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾ - فقالت فرقة : معناه : نكتب ، وحقيقة النسخ وإن كانت أن يُنقل خطٌ من أصل يُنظر فيه فإن أعمال العباد هي في هذا التأويل كالأصل ، فالمعنى : إِنَّا كُنَّا نَقِيْدُ كل ما عملتم ، وقال الحسن : هو كتب الحفظة على بني آدم ، وروى ابن عباس رضي الله عنهما وغيره أن الله يأمر

بعرض أعمال العباد كل يوم خميس فيُنقل من الصحف التي ترفع الحفظه كل ما هو مُعدُّ أن يكون عليه ثواب أو عقاب ، ويُلغى الباقي ، قالت فرقة : فهذا هو النسخ من أصل ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً : معنى هذه الآية أن الله تعالى يجعل الحفظه تنسخ من اللوح المحفوظ كل ما يفعله العباد ثم يُمسكونه عندهم ، فتأتي أفعال العباد على نحو ذلك فيُقيد أيضاً ، فذلك هو الاستنساخ ، وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول : أَلستم عرباً ؟ وهل يكون الاستنساخ إلا من أصل ؟ قوله عز وجل :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴾ (٣٠) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾

ذكر الله تبارك وتعالى حال الطائفتين من المؤمنين والكافرين ، وفرق بينهم في الذكر ليبين الأمر في نفس السامع ، فإن الأشياء تتبين بذكر أضدادها معها ، و « الفوز » هو نيل البغية .

وقوله تعالى : ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ﴾ [فيه محذوف] (١) فإن التقدير فيه : وأما الذين كفروا فيقال لهم : ألم تكن ... ، فحذف «يُقال» لهم «اختصاراً وبقيت الفاء دالة على الجواب الذي تطلبه «أما» ، ثم قدم عليها ألف الاستفهام من حيث له صدر القول على كل حالة ، ووقف الله تعالى الكفار على الاستكبار لأنه من شرّ الخلال .

وقرأ حمزة وحده : [وَالسَّاعَةَ] بالنصب عطفاً على قوله تعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ ، ورويت عن أبي عمرو ، وعيسى ، والأعمش . وقرأ ابن مسعود : «حَقٌّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا» ، وكذلك قرأ أيضاً الأعمش . وقرأ الباقر : [وَالسَّاعَةُ] رفعاً ، ولذلك وجهان : أحدهما الابتداء والاستئناف ، والثاني العطف على موضع [إِنَّ] وما عملت فيه : لأن التقدير : «وَعَدَ اللَّهُ حَقٌّ» ، قاله أبو علي في الحجة ، وقال بعض النحاة : لا يعطف على موضع «إِنَّ» إلا إذا كان العامل الذي عطفته «إِنَّ» نافياً ، وكذلك هو على موضع الباء في قوله :

..... فَلَسْنَا بِالْجِبَالِ وَلَا الْحَدِيدِ (٢)

(١) ما بين علامتين [....] زيادة لتوضيح الكلام .

(٢) هذا عجز بيت قاله عَقِيْبَةُ الْأَسَدِيِّ من أبيات يشكو بها إلى معاوية بن أبي سفيان جور عماله ، والبيت بتمامه :

مُعَاوِيَ إِنَّنَا بَشَرٌ فَأَسْجِجْ فَلَسْنَا بِالْجِبَالِ وَلَا الْحَدِيدِ =

فلما كانت «لَيْسَ» نافيةً جاز العطف على الموضع قبل دخول الباء ،
ويظهر نحو هذا النظر من كتاب سيبويه ، ولكن قد ذكرنا ما حكى
أبو علي وهو القدوة . وقولهم : ﴿إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ معناه : إِنْ نَظُنُّ
بعد قبول خبركم إِلَّا ظَنًّا ، وليس يعطينا يقيناً (١) .

وقوله تعالى : ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ﴾ الآية ... حكاية حال يوم القيامة . و [حَاقَ]
معناه : نزل وأحاط ، وهي مستعملة في المكروه ، وفي قوله تعالى :
﴿مَا كَانُوا﴾ حذف مضاف تقديره : جزاء ما كانوا ، أي عقاب
كونهم يستهزئون .

= ومعنى أَسْتَجِجُ : ارفق بنا وسهّل لنا الأمور . والشاهد فيه عند سيبويه هو عطف «الْحَدِيدَا»
على «الْجِبَالِ» قبل أن تدخل الباء عليها لجرها ، قال سيبويه : «لأن الباء دخلت على شيء لو لم
تدخل عليه لم يُحْضَلْ بالمعنى ولم يُحْتَجَّ إليها وكان نصباً . ألا ترى أنهم يقولون : حسبك
هذا وبحسبك هذا ، فلم تغير الباء معنى ؟» . وقد ردّ بعض النحاة على سيبويه رواية البيت
بالنصب هذه ؛ لأن البيت من قصيدة مجرورة معروفة . وبعده ما يدل على ذلك وهو قوله :

أَكَلْتُمْ أَرْضَنَا فَجَرَزْتُمُوهَا فَهَلْ مِنْ قَائِمٍ أَوْ مِنْ حَصِيدٍ؟

ودافع الشنتمري عن سيبويه وقال : إنه غير متّهم فيما نقله روايةً عن العرب ، ويجوز أن
يكون البيت من قصيدة منصوبة غير هذه المعروفة ، أو يكون العربي الذي أنشده لسيبويه قد
ردّه إلى لغته فقبله منه سيبويه بالنصب ، فيكون الاحتجاج بلغة المُنْشِدِ من العرب لا بلغة الشاعر .

(١) في هذه الآية كلام كثير للنحويين تجاهد في تفسير الزمخشري ، وفي البحر المحيط
لأبي حيان الأندلسي ، ويدور حول إثبات الظن ونفيه والتأويل الصحيح في ذلك .

قوله عز وجل :

﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ (٣٤) ذَلِكَ بِأَنكُمْ أَخَذْتُمُ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ (٣٥) فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣٦) وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٣٧) ﴿

[نَسَاكُمْ] معناه : نترُكُكُمْ كما تركتم لقاء يومكم هذا ، فلم يقع منكم استعداد له ولا تأهبتم ، فسميت العقوبة في هذه الآية باسم الذنب ، و « المأوى » : الموضع الذي يسكنه الإنسان ويكون فيه عامة أوقاته أو كلها أجمع ، و « آياتُ الله » لفظ جامع لآيات القرآن وللأدلة التي نصبها الله تعالى لينظر فيها العباد .

وقرأ أكثر القراء : ﴿ لَا يُخْرَجُونَ ﴾ بضم الياء المنقوطة من تحت وفتح الراء ، وقرأ حمزة ، والكسائي ، وابن وثاب ، والأعمش ، والحسن : ﴿ لَا يَخْرَجُونَ ﴾ بإسناد الفعل إليهم بفتح الياء وضم الراء . و [يُسْتَعْتَبُونَ] : تطلب منهم مراجعة إلى عمل صالح .

وقوله تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ ﴾ إلى آخر السورة تحميداً له تعالى وتحقيقاً لألوهيته ، وفي ذلك كسرٌ لأمر الأصنام والأنصاب .
 وقراءة الناس : [رَبٍّ] بالخفض في الثلاثة على الصفة ، وقرأ ابن محيصن بالرفع فيها ، على معنى : هُوَ رَبُّ ، و « الْكِبْرِيَاءُ » بناءً مبالغة .
 وفي الحديث : (يقول الله تعالى : الْكِبْرِيَاءُ ردائي ، والعظمة إزارتي ، فمن نازعني شيئاً منهما قصمته) (١) .

كامل تفسير سورة الجاثية والحمد لله رب العالمين

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ، ومسلم ، وأبو داود ، وابن ماجه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه .
 وأخرج ابن عساكر . عن عمر بن ذر . عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
 (ما قعد قوم يذكرون الله إلا قعد معهم عددتهم من الملائكة ، فإذا حمدوا الله حمدوه ، وإن سبحوا الله سبحوه ، وإن كبروا الله كبروه ، وإن استغفروا الله أمنتوا ، ثم عرجوا إلى ربهم فيسألهم فقالوا : ربنا . عبيدك في الأرض ذكروك فذكرناك ، قال : ماذا قالوا ؟ قالوا : ربنا حمدوك . فقال : أول من عبد وآخر من حمد . قالوا : وسبحوك ، قال : ملحي لا ينبغي لأحدٍ غيري . قالوا : ربنا كبروك ، قال : لي الْكِبْرِيَاءُ في السموات والأرض وأنا العزيز الحكيم . قالوا : ربنا استغفروك ، قال : أشهدكم أنني قد غفرت لهم) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



هذه السورة مكية ، لم يختلف فيها إلا في آيتين: قوله تعالى :
(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) الآية (١) ، وقوله تعالى : (فَاصْبِرْ
كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزْمِ مِنْ الرُّسُلِ) الآية (٢) ، فقال بعض المفسرين :
هاتان الآيتان مدينتان وُضِعَتَا في سورة مكية .
قوله عز وجل :

﴿ حَمْدٌ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ مَا خَلَقْنَا
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا
أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ۝ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ
الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ۚ أَنْتُونِي بِكِتَابٍ مِّنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِّنْ
عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ
لَهُ دَعْوَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا
لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝ ﴾

تقدم القول في الحروف المقطعة التي في أوائل السور ، و [تَنْزِيلُ] رفع بالابتداء ، أو خبر ابتداء مضمرة ، و [الكتاب] : القرآن ، و «العِزَّة» و «الإحكام» صفتان مقتضيتان أن من هما له غالب كل من حادّه .

وقوله تعالى : ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ ﴾ الآية... موعظة وزجر ، أي : فاشهدوا أيها الناس وانظروا ما يراد بكم ولم خُلِقْتُمْ ، وقوله : ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ معناه : إلا بالواجب الحسن الذي قد حق أن يكون ، و «بأجل مُسَمًّى» وقَتْنَاهُ وجعلناه موعداً لفساد هذه البنية ، وذلك هو يوم القيامة ، وقوله تعالى : ﴿ عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴾ ، [مَا] مصدرية ، والمعنى : على الإنذار ، ويحتمل أن تكون [مَا] بمعنى الذي ، والتقدير : عن ذكر الذي أنذروا به والتحفظ منه ، ونحو هذا .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ ﴾ يحتمل [أَرَأَيْتُمْ] وجهين : أحدهما أن تكون متعدية و [مَا] مفعول بها ، ويحتمل أن تكون مُنْبِهَةٌ لا تتعدى ، وتكون [مَا] استفهاماً على معنى التوبيخ . و [تَدْعُونَ] معناه : تعبدون ، قال الفراء : وفي قراءة عبد الله بن مسعود : « مَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ » ، وقوله تعالى : ﴿ مِنْ الْأَرْضِ ﴾ [مِنْ] للتبعيض ؛ لأن كل ما على وجه الأرض من حيوان ونحوه فهو من الأرض ، ثم وقفهم تعالى على السموات ،

هل لهم فيها شرك؟ ثم استدعى تعالى منهم كتاباً منزلاً قبل القرآن يتضمن عبادة صنم .

وقوله تعالى : ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ ﴾ معناه : أو بقية قديمة من علم أحد العلماء تقتضي عبادة الأصنام ، وقرأ جمهور الناس : ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ ﴾ على المصدر كالشجاعة والسماحة ، وهي البقية من الشيء وكأنها أثره ، وقال الحسن بن أبي الحسن : المعنى : من علم تستخرجونه فتشيرونه ، وقال مجاهد : المعنى : هل من أحد يأثر علماً في ذلك ، أي ينقله ، وقال القرظي : هو الإسناد ، ومن ذلك قول الأعشى :

إِنَّ الَّذِي فِيهِ تَمَارَيْتُمَا بُيِّنَ لِلْسَّامِعِ وَالْآثِرِ (١)

أي : وللمُسند عن غيره ، ومنه قول عمر رضي الله عنه : « فَمَا خَلَفْتُ بِهَا ذَاكِرًا وَلَا آثِرًا » ، وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن ، وقتادة : المعنى : أو خاصة من علم ، فاشتقاقها من الأثرة ، كأنه قد آثر الله

(١) قال الأعشى هذا البيت من قصيدة له يهجو بها علقمة بن علاثة ويمدح عامر بن الطفيل في المنافرة التي جرت بينهما ، والتي يقول في مطلعها : (شَاقَتَكَ مِنْ قَتْلَةٍ أَطْلَلُهَا) . وماريته ممارسة : جادلته ولاججته ، وتما روا معناه المحالبة ، كأن كل واحد يحلب ما عند صاحبه ، أو يستخرجه منه كما يستخرج اللبن من الشاة بالحلب ، والخطاب لعلقمة وعلاثة ، ورواية الديوان : تداريتُمَا ، وهي من المداراة والمخاتلة ، والآثر : ناقل الحديث عن غيره ، وهو الشاهد هنا ، يقول لهما : إن الذي تجادلتما فيه وتخاصمتا أمر واضح للناس جميعاً ، للسامعين وللذين يروون الخبر عن غيرهم .

تبارك وتعالى بها من هي عنده ، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :
المراد بالآثارة الخطُّ في التراب ، وذلك شيءٌ كانت العرب تفعله
وتتكهن به وتزجر ، وهذا من البقية والأثر ، وروي عن النبي صلى الله
عليه وسلم أنه سئل عن ذلك فقال : (كان نبيٌّ من الأنبياء يخطُّ ،
فمن وافق خطه فذاك) (١) ، ظاهر هذا الحديث يُقوِّي أمر الخطِّ في
التراب ، وأنه شيءٌ له وجه إذا وُفِّق أحدٌ إليه ، هكذا تأوله كثير
من العلماء ، وقالت فرقة : بل معناه الإنكار ، أي أنه كان من فعل
نبي قد ذهب وذهب الوحي إليه والإلهام في ذلك ، ثم قال : (فمن
وافق خطه) على جهة الإبعاد ، أي : إن ذلك لا يمكن ممن ليس بنبيٍّ
ميسرٍّ لذلك ، وهذا كما يسألك أحد فيقول : أيطير الإنسان ؟ فتقول :
إنما يطير الطائر ، فمن كان له من الناس جناحان طار ، أي ذلك
لا يكون .

(١) أخرجه عبدُ بن حميد ، وابن مردويه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وأخرج
سعيد بن منصور من طريق صفوان بن سليم : عن عطاء بن يسار ، قال : سئل رسول الله
صلى الله عليه وسلم عن الخطِّ فقال : (علمه نبي ، ومن كان وافقه علم) ، قال صفوان :
فحدثت به أبا سلمة بن عبد الرحمن فقال : سألت ابن عباس رضي الله عنهما فقال : أو
آثارة من علم ، ونقل القرطبي عن ابن العربي أنه لم يصح ، ثم قال تعقيباً على كلام ابن العربي :
« هو ثابت من حديث معاوية بن الحكم السلمي ، أخرجه مسلم . »

والأثارة تستعمل في بقية الشرف ، فيقال : إن لبني فلان أثارة من شرف ؛ إذا كانت عندهم شواهد قديمه ، وتستعمل في غير ذلك كقول الراعي :

وَذَاتِ أَثَارَةٍ أَكَلْتُ عَلَيْهَا نَبَاتًا فِي أَكْمَتِهِ فَفَارَا (١)
يريد الأثارة من الشَّحْم ، أي البقية .

وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمي - فيما حكى الطبري - : ﴿ أَوْ أَثَرَةٍ ﴾ بفتح الهمزة والثاء والراء دون ألف ، وحكاها أبو الفتح عن ابن عباس ، وقتادة ، وعكرمة ، وعمرو بن ميمون ، والأعمش ، وهي واحدة جمعها أَثَرٌ كَقَتَرَةٍ وَقَتَرٍ (٢) ، وحكى الثعلبي أن عكرمة قرأ : « أَوْ مِيرَاثٍ مِنْ عِلْمٍ » ، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ، والسُّلَمي - فيما حكى أبو الفتح - : [أَثَرَةٍ] بسكون الثاء ، وهي الفَعْلَةُ

(١) قال الراعي هذا البيت من قصيدة يمدح بها سعد بن عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ، والبيت في اللسان (أثر) ، وقد نسبته للشَّمَآخ ، قال : « وَسَمِنَتِ الْإِبِلُ وَالنَّاقَةُ عَلَى أَثَارَةٍ . أي على عتيق شحم كان قبل ذلك ، قال الشَّمَآخ : « وَذَاتِ أَثَارَةٍ ... البيت » ، فهو في البيت يصف ناقة بالسَّمْنِ ، واستشهد أبو عبيدة بالبيت في مجاز القرآن عند هذه الآية ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أي بقية من شحم أكلت عليه ، كذلك ذكره القرطبي وأبو حيان في البحر ، وأَكِمَّةُ النَّبَاتِ : أَغْلِفَتُهُ ، جمع كِمَامٍ ، وكِمَامٌ جمع كِمٍّ . أما قوله : (فَفَارَا) فهي رواية اللسان والقرطبي ، ومعناها الزيادة والنمو بسرعة ، أما رواية الطبري فهي بالقاف (فَفَارَا) ، وهي صفة للنبات ، أي : رعت الناقة هذا النبات خاليا لها من مزاحمة غيرها في رعيه ، وأصله من قولهم : « طعامٌ قَفَارٌ » ، أي طعام بدون إدام . وابن عطية يستشهد بالبيت هنا على أن كلمة « أثارة » تستعمل في معاني أخرى ، وقد استعملت هنا في البقية من الشحم .

(٢) الْقَتَرُ : جمع قَتَرَةٍ ، وهي الغَبَرَةُ ، قال تعالى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ، تُرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ .

الواحدة مما يُؤثر ، أي : قد قنعت لكم بحجة واحدة وتخير واحد وأثر واحد يشهد بصحة قولكم . وقرأت فرقة بضم الهمزة وسكون الثاء ، وهذه كلها بمعنى : هل عندكم شيء خصكم الله به من علم وآثركم به (١) ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ ﴾ الآية ... توبيخ لعبد الأصنام ، أي : لا أحد أضل ممن هذه صفته ، وجاءت الكنايات في هذه الآية عن الأصنام كما تجيء عن يعقل وذلك أن الكفار قد أنزلوها منزلة الآلهة وبالمحل الذي دونه البشر فخطبوا على نحو معتقدهم فيها ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود : « مَا لَا يَسْتَجِيبُ » . والضمير في قوله سبحانه : ﴿ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ ﴾ هو للأصنام في قول جماعة ، ووصف الأصنام بالغفلة من حيث عاملها معاملة من يعقل ، ويحتمل أن يكون الضمير في قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ ﴾ وفي [غَافِلُونَ] للكفار ، أي : ضلالهم بأنهم يدعون من لا يستجيب ثم يغفلون فلا يتأملون ما عليهم في دعائهم من هذه صفته .

وقوله تعالى : ﴿ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً ﴾ وصف لما يكون يوم القيامة بين الكفار وأصنامهم من التبري والمناكرة ، وقد بين ذلك في غير

(١) ذكر البيضاوي في تفسيره ست قراءات هي : « أثارة » بفتح الهمزة وكسرها ، و « أثرة » بفتح الهمزة والراء ، و « إثرة » ، أثرة ، أثرة بكون الثاء وفتح الهمزة ، وبكسرها ، وبضمها .

هذه الآية ، وذلك قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا
إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ (١) .

قوله عز وجل :

﴿ وَإِذَا نُنَادِيهِمْ ءَايَتُنَا بِبَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ
هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ
شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ
الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَى مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ
أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٩﴾

«الآيات» المذكورة هي آيات القرآن بدليل قوله تعالى : [تُنَادِي] وقول الكفار : ﴿ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ ، وإنما قالوا ذلك عن القرآن من حيث قالوا : هو يفرق بين المرء وولده ، وبينه وبين زوجته ، إلى نحو هذا مما يوجد مثله للسحر بالوجه الآخر .

وقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ ، [أَمْ] مقطوعة مقدرة بـ «بل» وهمزة الاستفهام ، و [افْتَرَاهُ] معناه : اشتقه واختلقه ، فأمره الله تبارك وتعالى أن يقول : إن افتريته فالله حسبي في ذلك ، وهو كان

يعاقبني ولا يهملني . ثم رجع القول إلى الاستفهام إلى الله تعالى والاستنصار به عليهم ، وانتظار ما يقتضيه علمه بما يفيضون فيه من الباطل ومُرَادَةُ الحق ، وذلك يقتضي معاقبتهم ، ففي اللفظ تهديد ، والضمير في قوله تعالى : [فيه] يحتمل أن يعود على القرآن ، ويحتمل العودة على [مَا] ، والضمير في [بِهِ] عائد على الله تعالى ، و [بِهِ] في موضع رفع ، و « أَفَاضَ الرَّجُلُ فِي الْحَدِيثِ وَالسَّبِّ وَنَحْوِهِ » إذا خاض فيه واستمر . وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ترجية واستدعاء إلى التوبة لأنه في خلال تهديده إياهم بالله جاءت هاتان الصفتان .

ثم أمره الله تعالى أن يحتج عليهم بأنه لم يكن بدعاً من الرسل ، أي : قد جاء غيري قبلي ، قاله ابن عباس ، والحسن ، والأعرج ، و « البِدْعُ » و « البديع » من الأشياء : ما لم يُرَ مثله ، ومنه قول عدي ابن زيد :

فَمَا أَنَا بِدْعٌ مِنْ حَوَادِثَ تَعْتَرِي رِجَالًا عَرَّتْ مِنْ بَعْدِ بُؤْسِي وَأَسْعَدِ (١)

(١) هذا البيت من المَجْمُوعَةِ التي قالها عدي بن زيد ، ومطلعها :

أَتَعْرِفُ رَسْمَ الدَّارِ مِنْ أَمٍّ مَعْبُودٍ ؟ نَعَمْ ، وَرَمَاكَ الشَّقُوقُ قَبْلَ النَّجْدِ
وهي في (جمهرة أشعار العرب) ، وفي (موسوعة الشعر العربي) ، والرواية فيهما : « فَلَإِ
أَنَا بِدْعٌ » ، والبِدْعُ هو أَوَّلُ من تصيبيه الحوادث ، وهذا ما أشار إليه ابن عطية بقوله : =

وقرأ عكرمة ، وابن أبي عبله ، وأبو حيوة : [بَدْعاً] بفتح الدال ،
قال أبو الفتح : التقدير : «ذَا بَدْعٌ» بحذف المضاف ، كما قال :

وَكَيْفَ تُوَاصِلُ مَنْ أَصْبَحَتْ خَالَاتُهُ كَأَبِي مَرْحَبٍ ؟ (١)

واختلف الناس في قوله تعالى : ﴿وَمَا أَذِرِي مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ -
فقال ابن عباس ، وأنس بن مالك ، وعكرمة ، وقتادة ، والحسن :

= «ما لَمْ يَرْ مثله» ، وهو موضع الاستشهاد هنا ، وتعترى : تصيب ، والبؤسى : نقيض
النعمى ، أي البؤس والشقاء ، والأسعد : جمع سعد وهو اليمن ، نقيض النحس ،
ورواية البيت في القرطبي : «رجالاً غَدَّتْ من بعد بؤسى بأسعد» . ورواية البيت في
(شعراء النصرانية) :

فَلَسْتُ بِمَنْ يَخْشَى حَوَادِثَ تَعْتَرِي رَجَالاً فَبَادُوا بَعْدَ بؤسٍ وَأَسْعَدِ
وعلى هذه الرواية فلا شاهد فيه .

(١) البيت لعبد الله بن قيس المعروف بالنابعة الجعدي ، وهو ممن وفد على الرسول صلى الله
عليه وسلم ، ودَعَا لَهُ ، وقبل هذا البيت يقول :

وَبَعْضُ الْأَخِيَاءِ عِنْدَ الْبَلَاءِ وَالرَّزْءِ أَرْوَعُ مِنْ ثَعْلَبٍ

والخلالة - مُثَلَّةُ الْحَاءِ - : الصداقة ، وأبو مَرْحَبٍ : كُنْيَةُ الظَّلِّ ، ويقال : هو كنية
«عَرْقُوب» المشهور الذي قيل عنه : «مواعيد عَرْقُوبٍ أَخَاهُ بَيْتَرْبٍ» . ذكر ذلك في
اللسان - خلل - ، وقال ابن الأعرابي : «يقال للرجل الحسن الوجه لا باطن له : أبو مرحب» ،
والشاهد في البيت حذف المضاف ، إذ التقدير : «كخلالة أبي مرحب» ، هذا والبيت في
الكتاب لسيويه ، وفي لسان العرب : وأماي القالي ، والآلئ . والإنصاف ، وشرح القصائد
السبع الطوال ، والسمط ، وهو في أكثرها غير منسوب لقائل .

معناه : في الآخرة ، وكان هذا في صدر الإسلام ، ثم بعد ذلك عرفه الله تعالى بأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وبأن المؤمنين لهم من الله فضل كبير وهو الجنة ، وبأن الكافرين في نار جهنم ، والحديث الذي وقع في جنازة عثمان بن مظعون يؤيد ذلك (فوالله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي) ، وفي بعض الروايات (به) (١) . ولا حجة لنا في الحديث على رواية (به) . والمعنى عندي في هذا القول أنه لم تتكشف له الخاتمة فقال : « لا أدري » ، وأما مَنْ وافى على الإيمان فقد أعلم بنجاته من أول الرسالة ، وإلا فكان للكفار أن يقولوا : وكيف تدعوننا إلى ما لا تدري له عاقبة ؟ وقال الحسن أيضاً وجماعة : معنى الآية : ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا من أن أنصر عليكم

(١) هذا الحديث أخرجه أحمد ، والبخاري ، والنسائي ، وابن مردويه ، عن أم العلاء رضي الله عنها ، وأخرج مثله الطبراني ، وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وأخرج مثله ابن حبان ، والطبراني ، عن زيد بن ثابت رضي الله عنه ، وأم العلاء امرأة من الأنصار ، قالت : اقتسمنا المهاجرين فطار لنا عثمان بن مظعون بن حذافة بن جشم ، فأنزلناه أياتنا فتوفي ، فقلت : رحمة الله عليك أبا السائب ، إن الله أكرمك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (وما يُدريك أن الله أكرمك) ؟ فقلت : بأبي وأمي يا رسول الله ، فمن ؟ قال : (أمّا هو فقد جاءه اليقين ، وما رأينا إلاّ خيراً . فوالله إني لأرجو له الجنة ، ووالله إني لرسول الله وما أدري ما يفعل بي ولا بكم) ، قالت : فوالله لا أزكي بعده أحداً أبداً ، ورواية (به) هي رواية البخاري ، وليس فيه : (بي ولا بكم) . قال القرطبي : « وهو الصحيح إن شاء الله » .

أَوْ مِنْ أَنْ تُمْكِّنُوا مِنِّي ، ونحو هذا من المعنى (١) . وقالت فرقة :
 معنى الآية : ما أدري ما يفعل بي ولا بكم من الأوامر والنواهي وما تلزمنا
 الشريعة من أغراضها . وحكى الطبري عن بعضهم أنه قال : نزلت
 الآية في أمر كان النبي صلى الله عليه وسلم ينتظره من الله تعالى في
 غير الثواب والعقاب ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه لما
 تأخر خروج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة حين رأى في النوم
 أنه مهاجر إلى أرض ذات نخل وسبخة (٢) قَلِقَ المسلمون لتأخر ذلك
 فنزلت الآية .

وقوله : ﴿ إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ معناه الاستسلام والتبري
 من عِلْمِ الْغَيْبِيَّاتِ والوقوف مع النذارة من عذاب الله تعالى .

(١) أكثر المفسرين - ومنهم الطبري والقرطبي - على أن هذا هو أصح قول وأحسنه :
 قال الحسن في توضيح كلامه : « ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا . أما في الآخرة فمعاذ الله !
 قد علم أنه في الجنة حين أخذ ميثاقه في الرسل . ولكن قال : ما أدري ما يفعل بي في الدنيا ،
 أأخرج كما أخرجت الأنبياء قبلي . أو أقتل كما قتلت الأنبياء قبلي ؟ ولا أدري ما يفعل بكم ،
 أأمتي المصدقة أم المكذبة . أم أممي المرمية بالحجارة من السماء قذفاً ، أو مخسوف بها
 خفياً ؟ ثم نزلت ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى
 الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ . يقول : سيظهر دينه على الأديان . ثم قال في أمته : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ
 لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ فأخبره تبارك وتعالى بما يصنع به وبأمرته ، ولا نسح على هذا
 كله . والحمد لله . (راجع الدر المنثور ، والطبري ، والقرطبي) .

(٢) الذي في كتب التفسير والسيرة وغيرها : « ذات نخل وشجر وماء » .

قوله عز وجل :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ ، وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ ، فَعَامَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١١)
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ ، فَسَيَقُولُونَ هَذَا آفَاكٌ قَدِيمٌ ﴾ (١٢)

هذه آية توقيف على الخطر العظيم الذي هم بسبيله في أن يكذبوا بأمر نافع لهم مُنَج من العذاب دون حُجَّة ولا دليل لهم على التكذيب ، فلمعنى : كيف حالكم مع الله تعالى ؟ وماذا تنتظرون منه وأنتم قد كفرتم بما جاء من عنده ؟ وجواب هذا التوقيف محذوف ، تقديره : أليس قد ظلمتم ؟ ودل على هذا المقدر قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ . و [أَرَأَيْتُمْ] في هذه الآية يحتمل أن تكون مُنبِّهة ، فهي لفظة موضوعة للسؤال لا تقتضي مفعولا ، ويحتمل أن تكون جملة [كَانَ] وما عملت فيه تسد مسد مفعوليها .

واختلف الناس في المراد بالشاهد - فقال الحسن ، ومجاهد ، وابن سيرين : هذه الآية مدنية والشاهد عبد الله بن سلام ، وقول الله تعالى : ﴿ عَلَى مِثْلِهِ ﴾ الضمير فيه عائد على قول محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن : إنه من عند الله ، وقال الشعبي : الشاهد رجل من بني إسرائيل غير عبد الله بن سلام كان بمكة ، والآية مكية ،

وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه . ومجاهد . وفرقة : الآية
 مكية والشاهد عبد الله بن سلام ، وهي من الآيات التي تضمنت غيباً
 أبرزه الوجود ، وقد روي عن عبد الله بن سلام أنه قال : في نزلت ،
 وقال مسروق بن الأجدع والجمهور : الشاهد هو موسى بن عمران
 عليه السلام ، والآية مكية ، ورجحه الطبري ، وقوله تعالى : ﴿ عَلَى
 مِثْلِهِ ﴾ يريد بالمثل التوراة ، والضمير عائد - على هذا التأويل -
 على القرآن ، أي : جاء شاهد من بني إسرائيل بمثله وشهد أنه من عند الله
 تعالى ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّنَ وَاسْتَكْبَرُوا ﴾ - على هذا التأويل -
 يعني به تصديق موسى بأمر محمد صلى الله عليه وسلم وتبشير به ،
 فذلك إيمان به ، وأما من قال : الشاهد ابن سلام فأيمانه بين ، وكذلك
 الإسرائيلي الذي كان بمكة في قول من قاله . وحكى بعضهم أن العامل
 بـ [آمَنَ] هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا من القائلين بأن الشاهد
 هو موسى بن عمران عليه السلام ، وإنما اضطر إلى هذا لأنه لم ير
 وجه إيمان موسى عليه السلام ، ثم قرن تعالى استكبارهم وكفرهم
 بإيمان هذا المذكور فبان ذنبهم وخطئهم .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا
 مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ ، قال قتادة : هي مقالة أشراف قريش يريدون
 عماراً وصهيباً وبلاً ونحوهم ممن أسلم وآمن بالنبى صلى الله عليه
 وسلم . وقال الزجاج ، والكلبي ، وغيرهما : هي مقالة كنانة وعامر

وسائر قبائل العرب المجاورة ، وقالت ذلك حين أسلمت غفار ومُزينة وجهينة ،
وقال الثعلبي : هي مقالة اليهود حين أسلم عبد الله بن سلام وغيره منهم .
و «الإفكُ» : الكذب ، ووصفوه بالقدم بمعنى أنه في أمور متقدمة ،
وهذا كما تقول لرجل حدثك عن أخبار كسرى وقيصر : هذا حديث
قديم ، ويحتمل أن يريدوا أنه إفك قيل قديماً .

قوله عز وجل :

﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۖ وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانَا
عَرَبِيًّا لِّنُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ۝١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا
اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١٣ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ
خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٤ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ
إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ
إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ
عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۖ إِنِّي تُبْتُ
إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝١٥﴾

الضمير في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ ﴾ للقرآن ، و ﴿ كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ ﴾
هو التوراة ، وقرأ الكلبي : ﴿ كِتَابَ مُوسَى ﴾ بنصب الباء على إضمار :

أنزل الله ، أو نحو ذلك . و «الإمام» : خيط البناء ، وكل ما يهتدى به ويُقتدى به فهو إمام ، ونُصب [إماماً] على الحال ، و [رَحْمَةً] عطفاً على [إماماً] ، والإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ ﴾ إلى القرآن ، و [مُصَدِّقٌ] معناه : للتوراة التي تضمنت خبره وأمر محمد صلى الله عليه وسلم ، فجاء هو مُصَدِّقاً لذلك الإخبار ، وفي مصحف عبد الله ابن مسعود : «مُصَدِّقٌ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ لِسَاناً» .

واختلف الناس في نصب قوله : [لِسَاناً] - فقالت فرقة من النحاة : هو منصوب على الحال ، وقالت فرقة : [لِسَاناً] توطئة مؤكدة ، و [عَرَبِيّاً] حال ، وقالت فرقة : [لِسَاناً] مفعول بـ [مُصَدِّقٌ] ، والمراد - على هذا القول - باللسان محمد صلى الله عليه وسلم ، فكأن القرآن بإعجازه وأحواله الباهرة يصدق الذي جاء به ، وهذا قول صحيح المعنى جيد ، وغيره مما قدّمنا مُتَّجِه .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، وابن كثير - فيما روي عنه - وأبوجعفر ، والأعرج ، وشيبة ، وأبو رجاء ، والناس : [لِتُنْذِرَ] بالياء أنت يا محمد ، ورجّحها أبو حاتم ، وقرأ الباقون ، وابن كثير ، والأعمش : [لِيُنْذِرَ] أي القرآن ، و ﴿ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ هم الكفار الذين جعلوا العبادة في غير موضعها في جهة الأوثان والأصنام ، وقوله تعالى : [وَبُشْرَى] يجوز أن يكون في موضع رفع عطفاً على قوله تعالى : [مُصَدِّقٌ] ،

ويجوز أن يكون في موضع نصب . واقعة (١) موقع فعل عطفاً على [لِيُنْذِرَ] .
أي : وَيُبَشِّرُ المحسنين .

ولما عبر تعالى عن الكفار بـ ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ عبر عن المؤمنين بـ «المُحْسِنِينَ» ليتناسب لفظ الإحسان في مقابلة الظلم ، ثم أخبر تعالى عن حسن حال المؤمنين المستقيمين ، ورفع عنهم الخوف والحزن ، وذهب كثير من الناس إلى أن معنى الآية : ثم استقاموا بالطاعات والأعمال الصالحات ، وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : بالدوام على الإيمان وترك الانحراف عنه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا القول أعم رجاءً وأوسع ، وإن كان في الجملة المؤمنة من يُعَذَّب وينفذ عليه الوعيد فهو ممن يخلد في الجنة وينتفي عنه الخوف والحزن الحال بالكفرة .

و «الخوف» هو الهمُّ بما يُستقبل ، و «الحزن» هو الهمُّ بما مضى ، وقد يستعمل فيما يُستقبل استعارة لأنه حزنٌ لخوف أمرٍ ما ، وقرأ ابن السميّغ : ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ بدون تنوين ، وقوله تعالى : ﴿جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ، [مَا] واقعة على الجزء الذي هو اكتساب العبد ، وقد جعل الله تعالى الأعمال أمارات على جزاء العبد ، لا أنها توجب على الله تعالى شيئاً .

قوله تعالى : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ﴾ ، يريد النوع ، أي : هكذا مضت شرائعي وكتبي لأنبيائي ، فهي وصية من الله تعالى في عباده ، وقرأ جمهور القراء : [حُسْنًا] بضم الحاء وسكون السين ونصبه على تقدير : وصيناه ليفعل أمراً ذا حُسْن ، فكأن الفعل سلط عليه مفعولاً ثانياً ، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ، وأبو عبد الرحمن ، وعيسى : [حَسَنًا] بفتح الحاء والسين ، وهذا كالأول ، ويحتمل كونهما مصدرين كالْبُخْل والْبَخْل (١) ، ويحتمل أن يكون هذا الثاني اسماً لا مصدرًا ، أي ألزمناه بهما فعلاً حسناً (٢) ، وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : [إِحْسَانًا] ، ونصب هذا على المصدر الصريح ، والمفعول الثاني في المجرور ، والباء مُتَعَلِّقَةٌ بـ [وَصَّيْنَا] ، أو بقوله تعالى : [إِحْسَانًا] (٣) .

- (١) مثل : الشُّغْل والشَّغْل - ذكر ذلك أبو الفتح في المحتسب .
 (٢) قال ابن جني : فهو اسم "صفة" لا مصدر ، ونَصَبَه (وَصَّيْنَاهُ به) ؛ لأنه يفيد مفاد : ألزمناه الحَسَنَ في أبويه ، وإن شئت قلت : هو منصوب بفعل غير هذا ، لا بنفس هذا ، فيكون منصوباً بنفس ألزمناه . لا بنفس وَصَّيْنَاهُ ؛ لأنه في معناه .
 (٣) يرفض أبو حيان في البحر ذلك ويقول : « لا يصح أن يتعلق بـ [إِحْسَانًا] ؛ لأنه مصدر بحرف مصدرى والفعل ؛ فلا يتقدم معموله عليه ، ولأن « أَحْسَنَ » لا يتعدى بالباء ، إنما يتعدى باللام ، تقول : أَحْسَنْتُ لزيد . ولا تقول : أَحْسَنْتُ بزيد على معنى أن الإحسان يصل إليه » .

وبر الوالدين واجب بهذه الآية وغيرها ، وعقوقهما كبيرة من الكبائر ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (كلُّ شيء بينه وبين الله تعالى حجابٌ إلا شهادة أن لا إله إلا الله ودعوة الوالدين) (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولن يدعوا إلا إذا ظلمهما الولد ، فهذا الحديث في عموم قوله صلى الله عليه وسلم : (اتقوا دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب) (٢) .

ثم عدد تعالى على الأبناء حق الأمهات ، وذكر تعالى الأئمة في هذه الآية في أربع مراتب ، والأب في مرتبة واحدة ، وجمعهما الذكر في قوله تعالى : [بِوَالِدَيْهِ] ، ثم ذكر الحمل للأئمة ثم الوضع لها ثم الرضاع الذي عبر عنه بالفصال ، فهذا يناسب ما قال رسول الله

(١) وروى أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : (ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن : دعوة المظلوم ، ودعوة المسافر ، ودعوة الوالد على ولده) ، أما الحديث بهذا اللفظ الذي ذكره المؤلف فقد رواه ابن النجار عن أنس رضي الله عنه ، وقد ذكره الإمام السيوطي في الجامع الصغير ، ورمز له بأنه ضعيف . (٢) أخرجه البخاري في الجهاد والزكاة والمظالم والمغازي ، ومسلم في الإيمان ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، والدارمي في الزكاة ، ومالك في موطئه في دعوة المظلوم ، وأحمد في مسنده (١-٣٢٢ ، ٣-١٥٣) ، ولفظه كما جاء في البخاري في كتاب المظالم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث معاذاً إلى اليمن فقال (اتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب) .

صلى الله عليه وسلم حين جعل للأُم ثلاثة أرباع البر والرُّبع للأب ،
 وذلك إذ قال له رجل : (يا رسول الله ، من أبرُّ؟ قال : أُمُّك ، قال :
 ثم من؟ قال : أُمُّك ، قال : ثم من؟ قال : أُمُّك ، قال : ثم من؟
 قال : أباك) (١) .

وقوله تعالى : [كُرْهًا] معناه : في باقي استمرار الحمل حين تُتَوَقَّع
 حوادثه ، ويحتمل أن يراد : في وقت الحمل ؛ إذ لا نذير لها في حمله
 ولا في تركه ، قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة : المعنى : حملته مشقَّة
 ووضعت مشقَّة ، وقرأ أكثر القراء : [كُرْهًا] بضم الكاف ، وقرأ
 ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، والأعرج ، وشيبة : [كُرْهًا] بفتح
 الكاف ، وقرأ بهما معاً مجاهد ، وأبو رجاء ، وعيسى ، قال أبو علي :
 هما بمعنى ، الضم : الاسم ، والفتح : المصدر ، وقالت فرقة : الكُرْه - بضم
 الكاف - المشقَّة ، والكُرْه - بفتح الكاف - هو الغلبة والقهر ، وضعفوا
 - على هذا - قراءة الفتح ، قال بعضهم : لو كان كُرْهًا لَرَمَتْ به
 عن نفسها ؛ إذ الكُرْه القهر والغلبة ، والقول الذي قدَّمناه أصوب .

وقرأ جمهور الناس : [وَفَصَّالُهُ] ، وذلك أنها مفاعلة من الاثنين
 كأنه فاصل أمه وفاصلته ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن ، وأبو رجاء ،

(١) رواه البخاري ومسلم ، واللفظ فيهما : (مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابِيٍّ؟) .

وقتادة ، والجحدري : [وَفَضْلُهُ] ، كَأَنَّ الْأُمَّ هِيَ الَّتِي فَصَلَتْهُ .

وقوله تعالى : ﴿ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ يقتضي أن مدة الحمل والرضاع هي هذه المدة ؛ لَأَنَّ فِي الْقَوْلِ حَذْفَ مُضَافٍ تَقْدِيرُهُ : وَمُدَّةُ حَمْلِهِ وَفَصَالِهِ ، وَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا بِأَنْ يَكُونَ أَحَدُ الطَّرْفَيْنِ نَاقِصًا ، وَذَلِكَ إِمَّا أَنْ تَلِدَ الْمَرْأَةُ لِسِتَّةِ أَشْهُرٍ وَتُرْضِعَ عَامَيْنِ ، وَإِمَّا أَنْ تَلِدَ لِتِسْعَةِ أَشْهُرٍ عَلَى الْعَرَفِ وَتُرْضِعَ عَامَيْنِ غَيْرَ رُبْعِ عَامٍ ، فَإِنْ زَادَتْ مُدَّةُ الْحَمْلِ نَقَصَتْ مُدَّةُ الرِّضَاعِ وَبِالْعَكْسِ ، فَيَتَرْتَبُ مِنْ هَذَا أَنْ أَقَلَّ مُدَّةُ الْحَمْلِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ ، وَأَقَلَّ مَا تُرْضِعُ الْأُمُّ الْطِفْلَ عَامًا وَتِسْعَةَ أَشْهُرٍ ، وَإِكْمَالُ الْعَامَيْنِ هُوَ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَكْمَلَ الرِّضَاعَ ، وَهَذَا فِي أَمْرِ الْحَمْلِ هُوَ مَذْهَبُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَجَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ رَضِوانَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَهُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ .

واختلف الناس في «الْأَشَدُّ» - فَقَالَ الشَّعْبِيُّ ، وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمٍ : إِذَا كَتَبْتَ عَلَيْهِ السَّيِّئَاتِ وَلَهُ الْحَسَنَاتُ ، وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : ثَمَانِيَةَ عَشْرَ عَامًا ، وَقِيلَ : عَشْرُونَ عَامًا ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَقَتَادَةُ : ثَلَاثَةَ وَثَلَاثِينَ عَامًا ، وَقَالَ الْجُمْهُورُ مِنَ النُّظَّارِ : سِتَّةَ وَثَلَاثِينَ عَامًا ، وَقَالَ هَلَالُ بْنُ يَسَافٍ وَغَيْرُهُ : أَرْبَعُونَ عَامًا . وَأَقْوَى الْأَقْوَالِ سِتَّةَ وَثَلَاثِينَ ، وَمَنْ قَالَ بِالْأَرْبَعِينَ قَالَ فِي الْآيَةِ : إِنَّهُ تَعَالَى أَكَّدَ وَفَسَّرَ الْأَشَدُّ بِقَوْلِهِ

سبحانه : ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ ، وإنما ذكر تعالى الأربعين لأنها حدٌ للإنسان في صلاحه ونجاته ، وفي الحديث : (إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرُ يَدَهُ عَلَى وَجْهِهِ مَنْ جَاوَزَ الْأَرْبَعِينَ وَلَمْ يَتُبْ وَيَقُولُ : يَا أَبَتِي وَجْهُهُ لَا يُفْلَحُ) (١) ، وقال أيمن بن خريم الأسدي :

إِذَا الْمَرْءُ وَفَّى الْأَرْبَعِينَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ دُونَ مَا يَأْتِي حَيَاءً وَلَا سِتْرٌ
فَدَعَهُ وَلَا تَنْفَسُ عَلَيْهِ الَّذِي ارْتَأَى وَإِنْ جَرَّ أَسْبَابَ الْحَيَاةِ لَهُ الْعُمْرُ (٢)
وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه : «حَتَّى إِذَا أَسْتَوَى أَشَدُّهُ وَبَلَغَ
أَرْبَعِينَ سَنَةً» (٣) .

وقوله : [أَوْزَعْنِي] معناه : ادفعني عن الموانع وازجرني عن القواطع
لأجل أن أشكر نعمتك (٤) ، ويحتمل أن تكون [أَوْزَعْنِي] بمعنى : اجعلْ

(١) لم أقف على هذا الحديث ، ولم يذكره من المفسرين في هذا الموقع غير ابن عطية إلا صاحب البحر المحيط .

(٢) أيمن بن خريم بن فاتك الأسدي ، له ترجمة في الأغاني ، والإصابة ، وتهذيب ابن عساكر ، ومعنى «وفى الأربعين» : أكملها ، و «ما يأتي» : ما يفعل من الأشياء ، يفعل ما يريد دون خجل أو تسر من الناس ، ولا تنفس عليه ، أي لا تحسده على ما ارتضى لنفسه من الأمور مهما طال عمره .

(٣) قال الفراء : «والمعنى فيه كالمعنى في قراءتنا : لأنه جائز في العربية أن تقول : لماً ولدت لك وأدركت مدرك الرجال عقلت وفعلت ، والإدراك قبل الولادة» .

(٤) من ذلك قول النابغة الذبياني :

عَلَى حِينَ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصَّبَا وَقُلْتُ أَلَمَّا أَصْحُ وَالشَّيْبُ وَازِعٌ ؟ =

حظي ونصبي ، وهذا من التوزيع ، والقوم الأوازع ، ومن قولك :
توزعوا المال ، ف [أن] - على هذا - مفعولٌ صريحٌ ، وقال ابن عباس
رضي الله عنهما : نعمتك في التوحيد . و ﴿صَالِحاً تَرْضَاهُ﴾ : الصلوات ،
و «الإصلاح في الدرّة» كونهم أهل طاعة وخيريّة ، وهذه الآية
معناها أن هكذا ينبغي للإنسان أن يفعل ، وهذه وصيّة الله تعالى
في كل الشرائع .

وقال الطبري : وذكر أن هذه الآية من أولها نزلت في شأن أبي
بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، ثم هي تتناول من بعده ، وكان
رضي الله عنه قد أسلم أبوه عام الفتح ، فإنما يتجه هذا التأويل على أن
أبا بكر رضي الله عنه كان يطمع في إيمان أبويه ويرى مخايل ذلك
فيهما ، فكانت هذه عنده نعمة عليهما ، أي ليسا ممن عسى (١) في
الكفر ولجّ وحُتم عليه ثم ظهر إيمانهما بعد ، والقول بأنها عامة

= وقول الآخر :

وَلَمَّا تَلَاقَيْنَا جَرَّتْ مِنَّا جُفُونِنَا دُمُوعٌ وَزَعْنَا غَرَبَهُمَا بِالأَصَابِعِ
فإن المعنى فيهما الكف والدفع ، ولكن الطبري يرى أن المعنى : أغرني بشكر نعمتك التي أنعمت
عليّ في تعريفك ليّاي توحيدك وهدايتك لي للاقرار بذلك ، وأصله من «وزعتُ الرجل على
كذا ، إذا دفعته عليه» ، وقال القرطبي : أوزعني : ألهمني .

(١) عسى هنا بمعنى كبير ، جاء في اللسان : «عسا الشيخ يعسو : كبير ،
مثل عتا ، ويقال للشيخ إذا وكى وكبير : عتا يعسو عتياً ، وعسا يعسو مثله .»

في نوع الإنسان لم يقصد بها أبو بكر ولا غيره أصح^(١) ، وباقي الآية بين إلى قوله تعالى : ﴿ مِنْ الْمُسْلِمِينَ ﴾ .

قوله عز وجل :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ ١٦ وَالَّذِي قَالَ لِوَلِيِّهِ أَفِ لَكُمْ مَا أَتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَعْجِلَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ١٧ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ١٨ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفيَهُمْ أَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ١٩ ﴿

قوله تعالى : [أُولَئِكَ] دليل على أن الإشارة بالإنسان في قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ﴾ إلى الجنس (٢) ، وقرأ جمهور القراء :

(١) في الآية ثلاثة أقوال : الأول أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وقد ذكر ذلك الواحدي في « أسباب النزول » من رواية عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما بدون سند ، وقال السيوطي في « الدر المنثور » : « أخرج ابن عساكر من طريق الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنهما ... والثاني أنها نزلت في سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، والثالث أنها عامة . وهذا ما رجحه المؤلف رحمه الله .

(٢) في بعض النسخ : « أراد به الجنس » ، وفي بعضها « للجنس » .

[يُتَقَبَّلُ] بالياء مضمومة على بناء الفعل للمفعول ، وكذلك [يُتَجَاوَزُ] ،
 وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم فيهما بالنون التي للعظمة ،
 [أَحْسَنَ] بالنصب ، وهي قراءة ابن وثاب ، وطلحة ، وابن جبير ،
 والأعمش - بخلاف - ، وقرأ الحسن : [يَتَقَبَّلُ] بياء مفتوحة [وَيَتَجَاوَزُ]
 كذلك ، أي الله تعالى . وقوله تعالى : ﴿ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ﴾ يريد
 الذين سبقت لهم رحمة الله تعالى ، وقوله : ﴿ وَعَدَ الصَّدَقِ ﴾ نصب
 على المصدر المؤكّد لما قبله .

قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا ﴾ الآية ، [الَّذِي]
 يعني به الجنس على حدّ العموم الذي في الآية التي قبلها في قوله تعالى :
 ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ ﴾ ، هذا قول الحسن وجماعة ، ويُسبّه
 أنّ لها سبباً من رجل قال ذلك لأبويه ، فلما فرغ من ذكر ذلك الموقف
 عقب بذكر هذا العاق . وقال ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب
 الطبري : نزلت هذه الآية في ابن لأبي بكر ، ولم يُسمّه ، وقال مروان
 ابن الحكم : نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله
 عنه ، وقال قتادة : وذلك أنه كان أكبر أولاد أبي بكر وشهد بدرأ
 وأحدًا مع الكفار ، وقال لأبيه في الحرب :

لَمْ يَبْقَ إِلَّا شِكَّةٌ وَيَعْبُوبُ وَصَارِمٌ يَقْتُلُ ضَلَالَ الشَّيْبِ (١)

(١) ذكر هذا البيت ابن هشام في السيرة ، والشكّة : السلاح ، واليعبُوبُ : الفرس الطويل السريع الجري ، والصّارم : السيف القاطع . ولكن ابن هشام لم يذكر أن عبد الرحمن =

ودعاه للمبارزة ، فكان بمكة على نحو هذا الخلق ، فقليل إنها نزلت فيه ، ورُوي أن مروان بن الحكم خطب وهو أمير المدينة فدعا الناس إلى بيعة يزيد ، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر : جعلتموها هِرَقْلِيَّةً ، كلما مات هِرَقْلٌ وَلِيَّ هِرَقْلٍ ، وكلما مات قيصر وَلِيَّ قَيْصَرٍ ، فقال مروان : خذوه ، فدخل عبد الرحمن بيت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، فقال مروان : إن هذا هو الذي قال الله تعالى فيه : ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَا إِلَهُيْهِ أَفُ لَكُمْ﴾ ، فسمعت عائشة رضي الله عنها فأنكرت ذلك عليه ، وسبَّت مروان وقالت : والله ما نزل في آل أبي بكر من القرآن غير براءتي ، وإنِّي لأعرف فيمن نزلت هذه الآية (١) ، وذكر ابن عبد البر أن الذي خطب هو معاوية رضي الله عنه ، وذلك وهم ، والأصوب أن تكون عامة في أهل هذه الصفات ولم يقصد بها عبد الرحمن ولا غيره من المؤمنين ، والدليل القاطع على ذلك قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ

= دعا أباه إلى المبارزة ، وإنما ذكر أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه التقى بابنه عبد الرحمن فقال له : أين مالي يا خبيث ؟ فأجابه عبد الرحمن بهذا البيت من الشعر . هذا وأخبار عبد الرحمن في الإصابة ، وفي الأغاني ، وقد أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث .

(١) أخرجه عبد بن حميد ، والنسائي ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، عن محمد بن زياد ، وأخرجه البخاري عن يوسف بن ماهك ، وفيه أن مروان لما قال خذوه دخل عبد الرحمن بن أبي بكر بيت عائشة رضي الله عنها فلم يقدرُوا عليه ، وأخرج هذا الخبر أيضاً ابن أبي حاتم . وابن مردويه . عن عبد الله . (الدر المنثور) .

الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وكان عبد الرحمن رضي الله عنه من أفضل الصحابة ، ومن الأبطال ، ومن له في الإسلام غناء ، ويكفيه مقامه مع مروان يوم اليمامة وغيره .

وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم ، وطلحة بن مصرف : [أُف] بكسر الفاء بغير تنوين ، وذلك فيها علامة تعريف ، وقرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وابن محيصن ، وشبل ، وعمرو بن عبيد : [أَفَ] بالفتح (١) ، وهي لغة ، الكسر والفتح ، وقرأ نافع ، وحفص عن عاصم ، وأبو جعفر ، وشيبة ، والحسن ، والأعرج : [أُفٌ] بالكسر والتنوين ، وذلك علامة تنكير ، وهي كَصِهْ ، وكما تستعظم رجلاً حديثاً غير معين فتقول : «إِيهِ» مُنَوَّنة ، فإن كان حديثاً مُشاراً إليه قلت : «إِيهِ» بغير تنوين ، و «أُفٌ» أصلها في الأقدار ، وكانت العرب إذا رأت قدراً قالت : أُفٌ ، ثم صيَّره الاستعمال يقال في كل ما يكره من الأقوال والأفعال .

وقرأ هشام عن ابن عامر ، وعاصم (٢) ، وأبو عمرو - فيما روي عنه - : [أَتَعِدَانِي] ، وقرأ أبو عمرو ، ونافع ، وشيبة ، والأعرج ،

(١) أي : وبدون تنوين . ذكر ذلك القرطبي .

(٢) يعني في رواية أبي بكر عنه ، أما رواية حفص عنه فهي بنونين كجمهور القراء ، وذلك ثابت في المصحف .

والحسن ، وأبو جعفر ، وجمهور القراء : [أَتَعِدَانِي] بنونين ،
والقراءة الأولى هي بإدغام النون في النون . وقرأ نافع أيضاً :
[أَتَعِدَانِي] بنون واحدة وإظهار الياء ، وقرأ نافع ، وأبو عمرو ،
وعاصم ، وأبو جعفر ، والأعرج ، وشيبة ، وقتادة ، وأبو رجاء ،
وابن وثاب ، وجمهور الناس : (أَنْ أَخْرَجَ) بضم الهمزة وفتح الراء ،
وقرأ الحسن ، وابن يعمر ، والأعمش ، وابن مصرف ، والضحاك :
(أَنْ أَخْرَجَ) بفتح الهمزة وضم الراء ، والمعنى : أَنْ أَخْرَجَ مِنَ الْقَبْرِ
لِلْحَشْرِ وَالْمَعَادِ ، وهذا القول منه استفهام بمعنى الهُزء والاستبعاد ،
وقوله تعالى : (وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي) معناه : هَلَكْتَ وَمَضَتْ
وَلَمْ يَخْرُجْ مِنْهُمْ أَحَدٌ ، وقوله : (وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ) يعني الوالدين ،
ويقال : اسْتَغَثْتُ اللَّهَ واستغثت بالله بمعنى واحد . و [وَيْلَكَ] دعاء
لِمَنْ يُحَقِّرُ وَيُحَرِّكُ لِأَمْرٍ يُسْتَعْجَلُ إِلَيْهِ .

وقرأ الأعرج : (أَنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا) بفتح الهمزة ، والناس على
كسرها . وقوله : (مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) ، أي : مَا هَذَا الْقَوْلُ
الَّذِي يَتَضَمَّنُ الْبَعْثَ مِنَ الْقُبُورِ إِلَّا مِنْ شَيْءٍ قَدْ سَطَّرَهُ الْأَوَّلُونَ فِي
كُتُبِهِمْ ، يعني الشرائع ، وظاهر ألفاظ الآية أنها نزلت في مُشَارٍ إِلَيْهِ
قَالَ وَقِيلَ لَهُ ، فنعى الله تعالى أقواله تحذيراً من الوقوع في مثلها .

قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ ...﴾ . ظاهر أنها إشارة إلى جنس يتضمنه قوله تعالى : ﴿وَالَّذِي قَالَ﴾ ، ويحتمل - إن كانت الآية في مُشار إليه - أن يكون قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ﴾ بمعنى : صنف هذا المذكور وجنسه هم الذين حق عليهم القول ، أي قول الله تعالى . وقوله تعالى : ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾ يقتضي أن الجن يموتون كما يموت البشر قرناً بعد قرن ، وقد جاء حديث يقتضي ذلك ، وقال الحسن بن أبي الحسن في بعض مجالسه : «الجنُّ لا تموت» ، فاعترضه قتادة بهذه الآية فسكت .

وقوله تعالى : ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ﴾ يعني المحسنين والمسيئين ، وقال ابن زيد : درجات المحسنين تذهب علواً ودرجات المسيئين تذهب سفلاً ، وقرأ أبو عبد الرحمن : ﴿وَلِتُوفِّيَهُمْ﴾ بالتاء من فوق ، أي الدرجات ، وقرأ جمهور الناس : ﴿وَلِكُلِّيهِمْ﴾ بالياء ، وقرأ نافع - بخلاف عنه - وأبو جعفر ، وشيبة ، والأعرج ، وطلحة ، والأعمش : ﴿وَلِنُوفِّيَهُمْ﴾ بالنون ، وقرأ اللؤلؤي في حرف أبي بن كعب ، وابن مسعود رضي الله عنهما : «وَلِنُوفِّيَنَّهُمْ» بنون أولى ونون ثانية مشددة وبفتح اللام ، وكل امرئ يجني ثمرة عمله من خيرٍ أو شرٍّ ولا يظلم في مجازاته ، بل يوضع كل أمر في موضعه من ثواب أو عقاب .

قوله عز وجل :

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ (٢٠) * وَأَذْكُرُ أَخَاعِدٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (٢١) قَالُوا أَجِئْنَا لِنُفِكَكَ عَنْ هَاهُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٢٢) *

المعنى : واذكر يوم يُعْرَضُ ، وهذا العرض هو بالمباشرة ، كما تقول : عرضتُ العود على النار والجاني على السوط ، والمعنى : يقال لهم : أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ . وقرأ الجمهور على الخبر ولذلك حسنت الفاء بعد ذلك ، وقرأ ابن كثير ، والحسن ، والأعرج ، وأبو جعفر ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن وثاب : [أَذْهَبْتُمْ] بهمزة مطولة على التوبيخ والتقريب الذي هو في لفظ الاستفهام ، وقرأ ابن عامر : [أَأَذْهَبْتُمْ] بهمزتين تقريراً أيضاً ، والتوبيخ والتقريب إخباراً بالمعنى ولذلك حسنت الفاء ، وإلا فهي لا تحسن في جواب على حد هذه مع الاستفهام المحض . و « الطَّيِّبَاتُ » : الملاذ ، وهذه الآية وإن كانت في الكفار فهي وازعة لأولى النهي من المؤمنين عن الشهوات واستكمال الطيبات ،

ومن ذلك قول عمر رضي الله عنه : « أَتَظُنُّونَ أَنَّا لَا نَعْرِفُ طِيبَ الطَّعَامِ ؟
 ذلك لُبَّابُ الْبُرِّ بِصِغَارِ الْمَعْزَى ، وَلَكِنَّا رَأَيْنَا اللَّهَ تَعَالَى نَعَى عَلَى قَوْمِ
 أَنَّهُمْ أَذْهَبُوا طَيِّبَاتِهِمْ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَا » ، ذكر هذا في كلامه مع
 الربيع بن زياد ، وقال أيضاً نحو هذا لخالد بن الوليد حين دخل
 الشَّامَ فَقَدَّمَ إِلَيْهِ طَعَامٌ طَيِّبٌ ، فقال عمر رضي الله عنه : هذا لنا ،
 فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا ولم يشبعوا من خبز الشعير ؟ فقال
 خالد : لهم الجنة ، فبكى عمر وقال : لئن كان حظنا في الحطام
 وذهبوا بالجنة لقد باينونا بونا بعيداً ، وقال جابر بن عبد الله رضي
 الله عنه : اشتريت لحمًا بدرهم ، فرآني عمر رضي الله عنه فقال :
 أَوَكُلَّمَا اشْتَهَى أَحَدُكُمْ شَيْئًا اشْتَرَاهُ فَأَكَلَهُ ؟ أَمَا تَخْشَى أَنْ تَكُونَ
 مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْآيَةِ ؟

و «عَذَابُ الْهُونِ» العذاب الذي اقترن به هوان ، وهو عذاب العصاة
 الواقعين ما قد نُهوا عنه ، وهذا بَيْنٌ فِي الدُّنْيَا ، فعذاب المحدود
 في معصية كالحرابة ونحوها مقترن بِهُونٍ ، وعذاب المقتول في حرب
 لَا هُونَ مَعَهُ ، وَالْهُونُ وَالْهَوَانُ بِمَعْنَى .

ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بذكر هود عليه السلام
 وقومه عادٍ على جهة المثال لقريش ، وهذه الْأُخُوَّةُ هِيَ أُخُوَّةُ الْقَرَابَةِ ؛
 لِأَنَّ هُودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ مِنْ أَشْرَافِ الْقَبِيلَةِ الَّتِي هِيَ عَادٌ .

واختلف الناس في هذه الأحقاف ، أين كانت ؟ فقال ابن عباس ،
والضحاك : هي جبل بالشَّام ، وقيل : كانت بلاد نخل ، وقيل :
هي رمال بين مَهْرَة وعدن . وقال ابن عباس أيضاً : بين عُمان ومَهْرَة ،
وقال قتادة : هي بلاد الشحر المواصلة للبحر اليماني ، قال ابن إسحق :
هي بين حضرموت وعُمان ، والصحيح من الأقوال أن بلاد عاد كانت
في اليمن ، ولهم إرم ذات العماد . و «الأَحْقَافُ» جمع حقف ، وهو
الجبل المستطيل المَعْوَج من الرمل ، قال الخليل : هي الرمال العظام ،
وكثيراً ما تحدث هذه الأحقاف في بلاد الرمل في الصحارى ؛ لأن
الرياح تصنع ذلك

وقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾
اعتراضٌ مقيم للحُجَّةِ أثناء قصة هود عليه السلام ؛ لأن قوله تعالى :
﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ هو من نذارة هود عليه السلام ، و «خَلَتْ»
معناه : مضت إلى الأرض الخلاء ومَرَّتْ أزمانها ، وفي مصحف عبد
الله رضي الله عنه : « وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِنْ قَبْلِهِ وَبَعْدِهِ » ، وروى فيه :
« وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ بَعْدِهِ » . و «النُّذُرُ» جمع نذير ،
بناءً اسم الفاعل .

وقولهم : ﴿ لَيْتَ أَفْكَنَا ﴾ معناه : لَتَصْرِفْنَا ، وقولهم ﴿ فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾
تصميم على التكذيب ، وتعجيز منهم له في زعمهم .

قوله عز وجل :

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبْلِغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ ، وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا
تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطَرْنَا بَلْ
هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ، رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا
فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَنَّاهُمْ
فِيمَا إِنْ مَكَنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْعِدَّةً فَأَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ
وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْعِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ
مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

المعنى : قال لهم هود عليه السلام : إِنَّ هذا الوعيد ليس من قبلي ،
وإنما الأمر لله تعالى ، وعلم وقته عنده ، وإنما عليّ أن أبلغ فقط .
وقرأ جمهور الناس : [وَأُبْلِغُكُمْ] بفتح الباء وشد اللام ، قال أبو حاتم :
وقرأ أبو عمرو في كل القرآن بسكون الباء وتخفيف اللام .
و (أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ) أي مثل هذا من أمر الله تعالى ، وتجهلون خلق
أنفسكم .

والضمير في [رَأَوْهُ] يحتمل أن يعود على « العذاب » ، ويحتمل
أن يعود على الشيء المرئي الطالع عليهم ، وهو الذي فسره قوله :

[عَارِضاً] ، وهو ما يعرض في الجو من السحاب الممطر ، ومنه قول الأعشى :

يَا مَنْ رَأَى عَارِضاً قَدْ بَتَّ أَرْقُبُهُ كَأَنَّمَا الْبَرْقُ فِي حَاقَاتِهِ الشُّعْلُ (١)
 وقال أبو عبيدة : العارض : الذي يُرى في أقطار السماء عشيّاً ثم يصبح
 من الغد قد استوى ، وروى في معنى قوله تعالى : ﴿مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ﴾
 أن هؤلاء القوم كانوا قد قحطوا مدةً ، فطلع عليهم هذا العارض
 على الهيئة والجهة التي كانوا يمحطون بها أبداً ، جاءهم من قبل واد
 لهم يسمونه المغيث ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : ففرحوا به
 وقالوا : هذا عارض ممطرنا وقد كذب هودٌ فيما أُوعد به ، فقال لهم
 هود عليه السلام : ليس الأمر كما رأيتم ، بل هو ما استعجلتم به
 في قولكم : ﴿فَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ ، ثم قال : ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ،
 وفي قراءة ابن مسعود : «مُمْطِرُنَا قَالَ هُودٌ بَلْ هُوَ» بإظهار المقدر ؛
 لأن قراءة الجمهور هي كقوله تعالى : ﴿يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ
 سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ (٢) ، أي : يقولون : سلام عليكم .

(١) البيت من قصيدته المشهورة التي بدأها بقوله : «ودَّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرِّكْبَ مُرْتَحِلٌ» ، وهي التي قالها ليزيد بن مسهر الشيباني ، وقرأها أبو عبيدة على أبي عمرو بن العلاء ، وفي بعض الروايات «أَرْمُقُهُ» بدلاً من «أَرْقُبُهُ» ، والشاهد في البيت هنا أن العارض هو السحاب الممطر الذي يعترض في السماء .

(٢) من الآيتين (٢٣ ، ٢٤) من سورة (الرعد) .

قال الزجاج : وقرأ قوم : ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ بضم التاء
الأولى وكسر الجيم ، و [رِيحٌ] بدلٌ من المبتدأ في قوله : ﴿هُوَ مَا﴾ ،
و [مُمْطِرُنَا] نعتٌ لـ [عَارِضٌ] ، وهو نكرة إضافية غير محضة ؛
لأن التقدير : ممطر لنا في المستقبل ، فهو في حكم الانفصال . وقد
مضى في غير هذه السورة قصص الريح التي هبت عليهم ، وأنها كانت
تحمل الظعينة (١) كجرادة .

و [تُدْمِرُ] معناه : تُهلك ، والدَّمَارُ : الهلاكُ ، ومنه قول جرير :
وَكَانَ لَهُمْ كَبْكُرٌ ثُمَّودَ لَمَّا رَغَا ظُهُرًا فَدَمَّرَهُمْ دَمَارًا (٢)
وقوله تعالى : ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ ظاهره العموم ومعناه الخصوص في
كلِّ ما أمرت بتدميره ، وروي أن هذه الريح رمتهم أجمعين في
البحر .

(١) الظَّعِينَةُ : الراحلة يُرْتَحَلُ عليها ، ثم أطلقت على المودج وفيه الزوجة .

(٢) هذا البيت ليس لجرير ، ولم أجده في ديوانه ، ثم وجدته في ديوان الفرزدق ، وهو
من قصيدة له يردُّ بها على جرير ويناقضه ، يقول الفرزدق في مطلع هذه القصيدة :

جَرَّ الْمُخْزِيَاتِ عَلَى كُلِّيبٍ جَرِيرٌ ثُمَّ مَا مَنَعَ الدَّمَارَا
وَكَانَ لَهُمْ كَبْكُرٌ ثُمَّودَ لَمَّا رَغَا ظُهُرًا فَدَمَّرَهُمْ دَمَارَا
عَوَى فَأَنَارَ أَغْلَبَ ضَيْغَمًا فَوَيْلَ ابْنِ الْمَرَاغَةِ مَا اسْتَنَارَا

يصفه بأنه جلب الفضائح لأهله ، وعجز عن حمايتهم ، وكان لهم نذير سوء ، ويقول : إن
شعر جرير يثيرني على كليب فأدمرهم كما أن رغاء ابن ناقة ثمود أتاهم بالدمار والهلاك .

وقرأ حمزة ، وعاصم : [لَا تُرَى] على بناء الفعل للمفعول [مَسَاكِنُهُمْ]
 رفعاً ، التقدير : لا يُرى شيءٌ منهم ، وقرأ جمهور القراء : ﴿ لَا تَرَى
 إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ ﴾ (١) ، أي : لا تَرَى أيها المخاطب شيئاً منهم ، [وهي
 قراءة ابن مسعود ، وعمرو بن ميمون ، والحسن - بخلاف عنهما -
 ومجاهد ، وعيسى ، وطلحة] (٢) ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن ،
 والجحدري ، وقتادة ، وعمرو بن ميمون ، والأعمش ، وابن أبي
 إسحق ، وأبو رجاء ، ومالك بن دينار - يعني بلا خلاف عنهما خاصة
 من ذكر (٣) : ﴿ لَا تَرَى ﴾ بالتاء المنقوطة من فوق مضمومة ﴿ إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ ﴾
 رفعاً ، ورويت عن ابن عامر ، وهذا نحو قول ذي الرمة :
 كَانَهَا جَمَلٌ وَهَمٌّ وَمَا بَقِيَتْ إِلَّا النَّحِيزَةُ وَالْأَلْوَا حُ وَالْعَصَبُ (٤)

(١) أي بالتاء المفتوحة في [تَرَى] وبالنصب في [مَسَاكِنَهُمْ] .

(٢) اختلفت النسخ في الفقرة التي وضعناها بين العلامتين [....] . فهي في بعض النسخ
 عقب قراءة حمزة وعاصم ، وهي في بعضها الآخر عقب قراءة الجمهور ، والله أعلم بالصواب .
 (٣) الذي في الأصل « يعني بخلاف عنهما » ، والتصويب عن (الْمُحْتَسِب) لابن جني .
 فقد قال : « واختلف عن الكل إلا أبا رجاء ، ومالك بن دينار » ، وهي جملة صريحة في
 المعنى الذي أثبتناه .

(٤) هذا البيت في وصف الناقة ، وهو في الديوان : وفي لسان العرب - وهم - ، والذي
 في الأصول هنا « كَانَتْ » ، والصواب ما أثبتناه لأن الكلام كما قلنا في وصف الناقة ، والوهم :
 الجبل الضيخم العظيم ، قال ذلك في اللسان ، وقال أيضاً : وقيل : هو من الإبل الذكول =

ونحو قوله :

فَمَا بَقِيَتْ إِلَّا الضُّلُوعُ الْجَرَاشِعُ^(١)

وفي هذه القراءة استكراه^(٢) ، وقراءة الأعمش ، وعيسى : [مَسْكَنُهُمْ] على الأفراد الذي هو اسم الجنس : والجمهور على الجمع في اللفظة ،

= المنقاد مع ضخمة وقوة . واجمع أو هام ووهوم ووههم ، والنخيزة : هنة من الشعر عرضها شبر يعلقونها على المودج يزينونه بها ، وربما رقومها بالعهن ، وقيل هي مثل الحزام بيضاء . أو هي النسع . وهو سير مضمور يجعل زماماً للبعير ، وقد تنسج هذه الضفيرة عريضة وتجعل على صدر البعير ، والألواح : جمع لوح وهو كل عظم عريض . والعصب : ما يشد المفاصل ويربط بعضها إلى بعض . يقول عن ناقته : إنها تبدو كالجمل الضخم ولكن لم يبق منها إلا العظم والعصب والنسع ، والشاهد في البيت هو التأنيث في الفعل « بقيت » مع أنه ضعيف في العربية ، والأفصح التذكير ، يقال : ما ضرب إلا هند ، وما قام إلا فاطمة ، ولا يقال : « ما ضربت إلا هند وما قامت إلا فاطمة » إلا على ضعف ، وعليه جاء قول ذي الرمة .

(١) هذا عجز بيت لذي الرمة أيضاً ، والبيت بتمامه :

بَرَى النَّحْزُ وَالْأَجْرَالُ مَا فِي غُرُوضِهَا فَمَا بَقِيَتْ إِلَّا الضُّلُوعُ الْجَرَاشِعُ
ويروى « طَوَى النَّحْزُ » بدلاً من « بَرَى النَّحْزُ » ، و « الْأَجْرَازُ » بدلاً من « الْأَجْرَالِ » .
و « الضُّلُوعُ » بدلاً من « الضُّلُوعُ » ، والنَّحْزُ : النَّحْسُ بالقدم ، أو الضَّرْبُ والركلُ بها ،
وَالْأَجْرَالُ : جمع جَرَل - بالتحريك - : المكان الصلب الغليظ الشديد الكثير الحجارة ،
أما الْأَجْرَازُ فجمعُ جَرَز ، وهي الأرض التي لا تُنبت ، والغُرُوضُ : جمع غَرَض -
كَسَنَهُمْ - وهو للرحل كالحزام للسرَّج ، والجَرَاشِعُ : جمع جَرَشَع وهو العظيم الغليظ ،
وقيل : الطويل . والشاهد هو تأنيث الفعل في (بَقِيَتْ) على ضعف

(٢) ذلك لأن الفصح من الكلام أن يُذكرَ الفعل قبل إلا في مثل قولنا « ما قام إلا فاطمة » لأن الكلام محمول على معناه : أي ما قام أحد إلا فاطمة ، فلما كان هذا هو المراد ذكرَ الفعل لفظاً للدلالة على ذلك ، وقد خالفت هذه القراءة بالرفع الفصح فكان هذا الاستكراه الذي ذكره ابن عطية ، ومثل هذا يقال في قراءة أبي جعفر ومعاذ بن الحارث : « إن كانت إلا صليحة واحدة » بالرفع في [صليحة] .

ووجه الإفراد تصغير الشأن وتقريبه ، كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ (١) .

ثم خاطب تعالى قريشاً - على جهة الموعظة - بقوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِيمَا إِنْ ﴾ [مَا] بمعنى « الذي » ، و [إِنْ] نافية وقعت مكان « ما » ليختلف اللفظ ولا يتصل [مَا] بـ « ما » ؛ لأن الكلام كأنه قال : في الذي ما مكنّاكم ، ومعنى الآية : ولقد أعطيناهم من القوة والغنى والبسطة في الأموال والأجسام ما لم نعطكم ، ونالهم بسبب كفرهم هذا العذاب ، فأنتم أخرى بذلك إذا كفرتم ، وقالت فرقة : [إِنْ] شرطية والجواب محذوف تقديره : الذي إِنْ مكنّاكم فيه طغيتم . وهذا تنطع في التأويل (٢) .

(١) من الآية (٦٧) من سورة (غافر) ، والمراد في هذه الآية : نخرجكم أطفالاً ، ولكن حسن لفظ الواحد هنا لأنه موضع لتصغير شأن الإنسان وتخفيف أمره ، فلاق به ذكر الواحد القليل عن الجماعة ، وكذلك حسن في آيتنا هذه لفظ الواحد في المسكن لأن الموضع موضع تخفيف لهم وتصغير لشأنهم .

(٢) وقال القتيبي : [إِنْ] زائدة بعد « ما » الموصولة تشبيهاً بـ « ما » النافية ، فهي في الآية الكريمة كما هي في قول الشاعر :

يُرْجِي الْمَرْءَ مَا إِنْ لَا يَبْرَاهُ وَتَعْرِضُ دُونَ أَدْنَاهُ الْخُطُوبُ

فالعنى : يُرْجِي المرء ما لا يراه ، وكذلك المعنى في الآية الكريمة : ولقد مكنّاكم في مثل الذي مكنّاكم فيه ، قال أبو حيان الأندلسي : وكون [إِنْ] في الآية نافية هو الوجه ؛ لأن القرآن الكريم يدل عليه في مواضع ، كقوله تعالى : ﴿ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً ﴾ ، وقوله : ﴿ هُمْ أَحْسَنُ أَثَانًا وَرِثِيًا ﴾ ، وهو أبلغ في التوبيخ وأبلغ في الحث على الاعتبار .

ثُمَّ عَدَّدَ تَعَالَى عَلَيْهِمْ نِعَمَ الْحَوَاسِ وَالْإِدْرَاكِ ، وَأَخْبَرَ أَنَّهَا لَمْ تُغْنِ
 حِينَ لَمْ تَسْتَعْمَلْ عَلَى مَا يَجِبُ ، وَ [مَا] نَافِيَةٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿فَمَا أَغْنَىٰ
 عَنْهُمْ﴾ ، وَيُقَوِّي ذَلِكَ دُخُولُ [مِنْ] فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ ،
 وَقَالَتْ فِرْقَةٌ : [مَا] فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾ اسْتِفْهَامٌ بِمَعْنَى
 التَّقْرِيرِ ، وَ ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ - عَلَى هَذَا - تَأْكِيدٌ ، وَهَذَا عَلَى غَيْرِ مَذْهَبٍ
 سَبَبِيٍّ فِي دُخُولِ «مِنْ» فِي الْجَوَابِ .

و [حَاقَ] مَعْنَاهُ : نَزَلَ وَلَزِمَ ، وَهَذَا مُسْتَعْمَلٌ فِي الْمَكَارِهِ ، وَالْمَعْنَى :
 جَزَاءٌ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ .

قوله عز وجل :

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا آيَاتِنَا لَعَلَّهُمْ
 يَرْجِعُونَ ﴾ (٢٧) فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلَىٰ
 ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ (٢٨) وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفْرًا
 مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ
 قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) ﴿

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ﴾ مخاطبة لقريش
 على جهة التمثيل لهم بمأرب وسدوم وحجر ثمود ، وقوله تعالى : ﴿وَصَرَفْنَا

الآيات) يعني لهذه القرى المهلكة . وقوله سبحانه : ﴿ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ
الَّذِينَ آتَّخَذُوا ﴾ الآية ، يعني : هلاً نصرتهم أصنامهم التي اتخذوها ،
و [قُرْبَاناً] إما أن يكون المفعول الثاني بـ [آتَّخَذُوا] ، و [آلِهَةً] بدل
منه ، وإما أن يكون حالاً و [آلِهَةً] المفعول الثاني ، والمفعول الأول
هو الضمير العائد على ﴿الَّذِينَ آتَّخَذُوا﴾ ، والتقدير : اتخذوهم .
وقوله تعالى : ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ معناه : أتلفوا لهم حتى لم يجدوهم
في وقت حاجة .

وقوله تعالى : [وَذَلِكَ] تختلف الإشارة به بحسب اختلاف القراءات
في قوله سبحانه : [إِفْكُهُمْ] ، فقرأ الجمهور بكسر الهمزة وسكون
الفاء وضم الكاف ، والإشارة بـ [ذَلِكَ] - على هذه القراءة - إلى قولهم
في الأصنام : إنها آلهة ، وذلك هو اتخاذهم إياها آلهة ، وكذلك
هي الإشارة في قراءة من قرأ [أَفْكُهُمْ] بفتح الهمزة ، وهي لغة في
الإفك ، وهما بمعنى الكذب ، وكذلك هي الإشارة في قراءة من قرأ :
[أَفْكُهُمْ] بفتح الهمزة والفاء والكاف على الفعل الماضي ، بمعنى :
صرفهم ، وهي قراءة ابن عباس رضي الله عنهما ، وأبي عبيد ،
وعكرمة ، وحنظلة بن النعمان ، وقرأ أبو عبيد أيضاً وعكرمة -
فيما حكى الثعلبي - : [أَفْكُهُمْ] بشد الفاء وفتح الهمزة والكاف ،

وذلك على تعدية الفعل بالتضعيف ، وقرأ عبد الله بن الزبير : [آفَكُهُمْ]
بمد الهمزة وفتح الفاء والكاف على التعدية بالهمزة ، قال الزجاج :
جعلهم يافكون ، كما يقال : أكفرهم ، وقرأ ابن عباس رضي الله
تعالى عنهما - فيما روى قطرب - [آفَكُهُمْ] بهمزة مفتوحة ممدودة
وفاء مكسورة وكاف مضمومة على وزن فاعل بمعنى : صارفهم ، وحكى
الفراء أنه يقرأ : [آفَكُهُمْ] بفتح الهمزة والفاء وضم الكاف ، وهي
لغة في « الإفك » ، والإشارة بـ [ذَلِكَ] على هذه القراءات التي ليست
مصدراً يحتمل أن تكون إلى الأصنام ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانُوا
يَفْتَرُونَ ﴾ يحتمل أن تكون [مَا] مصدرية فلا تحتاج إلى عائد ،
ويحتمل أن تكون بمعنى « الذي » فهناك عائد محذوف تقديره : يفترونه .
وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ ﴾ ابتداءً ووصف
قصة الجن ووفادتهم على النبي صلى الله عليه وسلم ، و [صَرَفْنَا]
معناه : رددناهم عن حال ما ، ويحتمل أنها الاستماع في السماء ،
ويحتمل أن تكون بعدهم (١) قبل الوفاة ، وذلك بحسب الخلاف هنا ،
هل هم الوفد أو المتجسسون ؟ وروي أن الجن كانت قبل مبعث النبي
صلى الله عليه وسلم تسترق السمع من السماء ، فلما بُعث النبي صلى الله

(١) في بعض النسخ : « ويحتمل أن تكون كفرهم » .

عليه وسلم حُرست بالشُّهب الرَّاجمة ، فضاقت الجنُّ ذرعاً بذلك ،
وَأَتَى رَأْيِي مَلَيْتُهُمْ عَلَى الْإِفْتِرَاقِ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ وَطَلَبِ السَّبَبِ الْمَوْجِبِ
لهذا الرجم والمنع من استراق السَّمْع ، ففعلوا ذلك .

واختلف الرواة بعدُ - فقالت فرقة : جَاءَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْجِنِّ إِلَى
النبي صلى الله عليه وسلم وهو لا يشعر ، فسمعوا القرآن ، وَوَلَّوْا
إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ، ولم يعرف النبي صلى الله عليه وسلم بشيءٍ من
ذلك حتى عَرَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِذَلِكَ كُلِّهِ ، وكان سماعهم لقراءته وهو
بنخلة عند سوق عكاظ وهو يقرأ في صلاة الفجر (١) ، وقالت فرقة :

(١) روى البخاري ، ومسلم في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ،
قال : (انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ،
وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأُرسلت عليهم الشُّهب ، فرجعت الشياطين ، فقالوا :
ما لكم ؟ قالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء وأُرسلت علينا الشُّهب ، قالوا : ما ذاك إلا من
شيءٍ حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الأمر ، فدمرَ النفر الذين توجهوا
نحو تهامة بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو بنخلة ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر ، فاما سمعوا
القرآن تسمعوا له ، فقالوا : هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء ، فهناك رجعوا إلى قومهم
(فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الْرُّشْدِ) ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ (قُلْ أَوْحِيَ
إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ) وهذا الحديث أورده السيوطي في (الدر المنثور) ،
وزاد نسبه إلى أحمد ، وعبد بن حميد ، والترمذي ، والنسائي ، وابن المنذر ، والحاكم ،
والطبراني ، وابن مردويه ، وأبي نُعَيْم ، والبيهقي في الدلائل . وروى سعيد بن جبيرة عن ابن
عباس رضي الله عنهما قال : ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن ولا رآهم ، وإنما
أتوه بنخلة فسمعوا القرآن . و « نخلة » موضع بين مكة والطائف ، وإليها ينسب « بطن نخلة » .
فهذا الحديث دليل على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعرف بأن الجن استمعوا إليه ، ولم يؤمر
بالقراءة عليهم .

بل أشعره الله تعالى بوفادة الجن عليه واستعد لذلك ، ووفد عليه أهل نصيبين منهم (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

والتحريير في هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم جاءه جنٌ دون أن يعرف بهم ، وهم المتفرقون من أجل الرّجم ، وهذا قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَوْحِيَ إِلَيَّ ﴾ (٢) الآية ، ثم بعد ذلك وفد عليه وفد وهو المذكور صرفه في هذه الآية (٣) ، قال قتادة : صُرفوا إليه من نينوى ، وأشعر

(١) في مسلم من حديث علقمة ، قال : قلت لعبد الله : من كان منكم مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الجن ؟ قال : ما كان منّا معه أحد . فقدناه ذات ليلة ونحن بمكة ، فقلنا : اغتيل رسول الله صلى الله عليه وسلم أو استطير ، فانطلقنا نطلبه في الشعاب ، فلقيناه مقبلاً من نحو حراء ، فقلنا : يا رسول الله ، أين كنت ؟ لقد أشفقنا عليك ، وقلنا له : بتنا الليلة بشراً ليلة بات بها قوم حين فقدناك ، فقال : إنه أتاني داعي الجن ، فذهبتُ أقرئهم القرآن ، فذهب بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم — وهذا الحديث رواه أيضاً أحمد في مسنده ، وذكره السيوطي في (الدر المنثور) ، وزاد نسبه إلى عبد بن حميد ، والترمذي ، — وروى معنى هذا الحديث معمرٌ عن قتادة ، وفيه قال : ذُكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لئنّي أمرتُ أن أقرأ على الجن ، فأيكّم يتبعني ؟ ...) إلخ الحديث . وهذا يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أن يقرأ على الجن القرآن ، وكان يعرف أنهم سيحضرون لسماعه .

(٢) من الآية (١) من سورة (الجن) .

(٣) فابن عطية يرى أن الجن الذين استمعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم في بطن نخلة حين تفرقوا من أجل الرّجم بالشّهب من السماء غير الجن الذين أمر بأن يقرأ عليهم في هذه الآية : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ ﴾ .

به قبل وروده (١)، وقال الحسن : لم يشعر به ، واختلف في عددهم
 اختلافاً متباعداً فاختصرته لعدم الصحة في ذلك ، أما ابن عباس
 رضي الله تعالى عنهما فقال : كانوا سبعة نفر من أهل نصيبين ،
 وقال زُرُّ : كانوا تسعة فيهم زُوبعة ، وروي في ذلك أحاديث عن عبد الله
 ابن مسعود رضي الله عنه ، رُوي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إني
 خارج إلى وفد الجن ، فمن يتبعني ؟) فسكت أصحابه ، فقالها ثانية
 فسكتوا ، فقال عبد الله : أنا أتبعك ، قال : فخرجت معه حتى جاء
 شُعب الحُجُونِ فأدار لي دائرة وقال : (لا تخرج منها) ، ثم ذهب عني ،
 فسمعت لغطاً ودويّاً كدوي النُور الكاسرة ، ثم في آخر الليل جاء
 رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن قرأ عليهم القرآن وعلمهم ،
 وأعطاهم زاداً في كل عظم وروثة ، فقال : (يا عبد الله ، ما رأيت) ؟
 قال : فأخبرته ، فقال : (لقد كنت أخشى أن تخرج فيخطفك
 بعضهم) ، قلت : يا رسول الله ، سمعتُ لهم لغطاً ، فقال : (إنهم
 تدارؤوا في قتلهم فحكمتُ بالحق بينهم) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

واضطربت الروايات عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وروي
 عنه ما ذكرنا ، وروي عنه أنه رأى رجلاً من الجن وهم شبه رجال

(١) يعني بالوفد ، فالضمير عائد على « وفد » .

الزُّطُّ (١) السود الطوال حين رآهم بالكوفة ، وروي عنه أنه قال :
ما شاهد أحدٌ منّا ليلة الجن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاختصرت
هذه الروايات وتطويلها لعدم صحتها .

وقوله تعالى : ﴿ نَفَرًا مِنْ الْجِنِّ ﴾ يقتضي أن المصروفين رجال
لا أنثى معهم ، فالنفر والرَّهْط والقوم : الذين لا أنثى فيهم ، وقوله
تعالى : ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا ﴾ فيه تأدب مع العالم وتعليم
كيف يُتعلَّم . وقرأ جمهور الناس : [قُضِيَ] على بناء الفعل للمفعول ،
وقرأ حبيب بن عبد الله بن الزبير ، وأبو مجلز على بناء الفعل للفاعل ،
أي قضى محمد صلى الله عليه وسلم القراءة ، وقال ابن عمر ، وجابر
ابن عبد الله رضي الله عنهم : قرأ عليهم سورة الرحمن عز وجل ،
فكان إذا قال : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ قالوا : لا شيء من آلائك
ربنا نكذب ، ربنا لك الحمد ، ولما ولّت هذه الجملة تفرقت على
البلاد منذرة للجن ، قاله قتادة : ما أسرع ما عقل القوم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

فهناك وقعت قصة سواد وشصار وخنافر وأشباهها (٢) ، صلى الله
على محمد عبده ورسوله وسلم .

(١) الزُّطُّ : جيل أسود من السُّنْد تُنسب إليهم الثياب الزُّطِيَّة ، وقيل : الزُّطُّ : إعراب
« جَت » بالهندية ، وهم جيل من أهل الهند .
(٢) هذه أسماء بعض الجن الذين سمعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله عز وجل :

﴿ قَالُوا يَتَّبِعُنَا أَنَا سَمِعْنَا كُتُبًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ
يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٣٠) يَتَّبِعُنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا
بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ
فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ
مُبِينٍ (٣٢) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَئِ
يَخْلُقْهُنَّ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣٣)

المعنى : قال هؤلاء المندرون لما بلغوا قومهم : ﴿ يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا
كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﴾ ، وهو القرآن العظيم ، وخصصوا موسى
صلى الله عليه وسلم لأحد أمرين : إما لأن هذه الطائفة من الجن كانت
تتدين بدين اليهود ، وإما لأنهم كانوا يعرفون أن موسى عليه السلام
قد ذكر محمداً صلى الله عليه وسلم وبشراً به ، فأشاروا إلى موسى عليه
السلام من حيث كان الأمر مذكوراً في توراته ، وقال ابن عباس رضي
الله عنهما في كتاب الثعلبي : لم يكونوا علموا أمر عيسى عليه السلام ،
فلذلك قالوا : ﴿ مِنْ بَعْدِ مُوسَى ﴾ ، وقولهم : ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾
يؤيد هذا ، و « ما بين يديه » هو التوراة والإنجيل ، و « الحق »

و «الصُّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ» هما بمعنى متقارب ، لكن من حيث اختلاف اللفظ - وربما كان الحق أعم - وكان أحدهما قد يقع في مواضع لا يقع فيها الآخر ، حَسُنَ التكرارُ .

و «داعي الله» هو محمد صلى الله عليه وسلم ، والضمير في [بِهِ] عائد على الله تعالى ، وقوله تعالى : ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ معناه : يغفر الله لكم ، وقوله : [وَيُجِرْكُمْ] معناه : يمنعكم ويجعل دونكم حافظة حتى لا ينالكم عذاب ، وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ﴾ الآية يحتمل أن يكون من كلام المذنبين ، ويحتمل أن يكون من كلام الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم ، والمراد بها إسماع الكفار ، وتعلق اللفظ إلى هذا المعنى من قول العجن : ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ ، فلما حكى ذلك قيل : ﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ﴾ فهو بحال كذا ، و «المُعْجَز» : المذهب في الأرض بداً عجز طالبه ولا يُقدر عليه ، ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما : «وَلَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ» بزيادة «ميم» .

وقوله تعالى : ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا﴾ ، الضمير لقريش ، وهذه آية مثل واحتجاج ؛ لأنهم قالوا : إن الأجساد لا يمكن أن تُبعث ولا تُعاد ، وهم مع ذلك معترفون بأن الله تعالى خلق السموات والأرض فأُقيمت عليهم الحجة من أقوالهم ، و «الرؤية» في قوله تعالى : ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا﴾

روية القلب . وقرأ جمهور الناس : ﴿وَلَمْ يَعْ﴾ بسكون العين وفتح الياء الأخيرة ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن : [يَعِي] بكسر العين وسكون الياء ، وذلك على حذف (١) . والباء في قوله تعالى : [بِقَادِرٍ] زائدة مؤكدة ، فمن حيث تقدم نفى في صدر الكلام حسن التأكيد بالباء ، وإن لم يكن النفي ما دخلت هي عليه ، كما هو في قولك : «ما زيد بقائم» ، كأن بدل ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا﴾ «أَوْ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ» ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما ، والجمهور : [بِقَادِرٍ] ، وقرأ الجحدري ، والأعرج - بخلاف - وعيسى ، وعمرو بن عبيد : [يَقْدِرُ] بالياء ، على فعل مستقبل ، ورجحها أبو حاتم وغلط قراءة الجمهور لقلق الباء عنده ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود : «وَلَمْ يَعْ بِخَلْقِهِنَّ»

(١) قال ابن جني عن هذه القراءة : «هذا مذهب ترغب العرب عنه ، وهو إعلال عين الفعل وتصحيح لامه ، وإنما جاء ذلك في شيء من الأسماء ، وهو (غاية وآية) ، وقياسها (غاية وآية) ، ولم يأت هذا في الفعل إلا في بيت شاذ ، أنشده القراء : وهو :

وَكَاَنَّهُمَا بَيْنَ النِّسَاءِ سَبِيكَةً تَمْشِي بِسُدَّةٍ بَيْنَهُمَا فَتُعِي

فأعلل العين وصحح اللام . ورفع ما لم ترفعه العرب وإنما تُعِلُّهُ نحو يرمي ويقضي ، وعلى هذا قراءة الحسن هذه في قوله : ﴿وَلَمْ يَعْ بِخَلْقِهِنَّ﴾ ، فقد أجراه مجرى (لم يبيع) . فحذف العين لسكونها وسكون الياء الثانية ، ووزن ﴿لَمْ يَعْ﴾ : لم يَفْعِلْ ، مثل : (لم يبيع) ، والعين محذوفة لالتقاء الساكنين «اه كلامه بتصرف ، ومنه نفهم معنى قول ابن عطية : «وذلك على حذف» .

قَادِرٌ» بغير باء، و [بَلَى] جواب بعد النفي المتقدم ، فهو إيجاب
لِمَا نُفِي ، والمعنى : بل رأوا ذلك ، أي : لو نفعهم ووقع في قلوبهم .
ثم استأنف لفظ الإخبار المؤكد بقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

قوله عز وجل :

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى
وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (٣٤) فَأَصْبَرَ كَمَا صَبَرَأُولُوا
الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا
سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَبَلَّغْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٣٥)

المعنى : واذكر يوم ، وهذا وعيد للكفار من قريش وسواهم ،
و «العرض» - في هذه الآية - عرض مباشرة : كما تقول : عرضت
الجاني على السوط . والمعنى : يقال لهم : أليس هذا العذاب حقاً
وقد كنتم تكذبون به ؟ فيجيبون : بلى وربنا ، فذلك تصديق حيث
لا ينفع ، ورؤي عن الحسن أنه قال : إنهم ليعذبون في النار وهم
راضون بذلك لأنفسهم ، فيعترفون أنه العدل ، فيقول لهم المحاور

من الملائكة عند ذلك : ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ أي : بسبب كفركم .

وقوله تعالى : [فَاصْبِرْ] ، الفاء عاطفة هذه الجملة من الوصاة على هذه الجملة من الأخبار عن حال الكفرة في الآخرة ، والمعنى بينهما مرتبط ، أي : هذه حالهم مع الله تعالى فلا تستعجل أنت فيما حُمِّلْتَهُ ، واصبر له ، ولا تخف في الله أحداً . وقوله تعالى : ﴿ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ تبغيض ، والمراد من حُفِظَتْ له مع قومه شدة ومجاهدة كنوح وإبراهيم وموسى وغيرهم صلى الله عليهم وسلم ، هذا قول عطاء الخراساني وغيره ، وقال ابن زيد ما معناه أن [مِنْ] لبيان الجنس ، قال : والرُّسُلُ عليهم الصلاة والسلام كلهم أولوا عزم ، ولكن قوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ ﴾ يتضمن رسلاً وغيرهم ، فبين بعد ذلك جنس الرُّسُل خاصة تعظيماً لهم ، ولتكون القدوة المضروبة لمحمد صلى الله عليه وسلم أشرف . وذكر الثعلبي هذا القول عن علي بن مهدي الطبري ، وحكي عن أبي القاسم الحكيم أنه قال : الرُّسُلُ عليهم السلام كلهم أولوا عزم إلا يونس عليه السلام (١) ، وقال الحسن بن

(١) وقد علَّل أبو القاسم كلامه هذا بقوله : « ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم نُهي أن يكون مثله . لَخِيفَةِ وعجلة ظهرت منه حين ولَّى مغاضباً لقومه ، فابتلاه الله بثلاث : =

الفضل : هم الثمانية عشر المذكورون في سورة الأنعام ؛ لأنه تبارك وتعالى قال بعقب ذكرهم : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ﴾ (١) ، وقال مقاتل : هم ستة : نوح صلى الله عليه وسلم صبر على أذى قومه طويلاً ، وإبراهيم صلى الله عليه وسلم صبر على النار ، وإسحق صلى الله عليه وسلم صبر نفسه في الذبح (٢) ، ويعقوب صلى الله عليه وسلم صبر على الفقر ولولده وعمى بصره وقال ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ (٣) ، ويوسف صلى الله عليه وسلم صبر على السجن ، وأيوب صلى الله عليه وسلم صبر على البلاء .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وانظر أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قال في موسى عليه السلام : (يرحم الله موسى ، أُوذِيَ بِأَكْثَرِ مِنْ هَذَا فَصَبِرَ) (٤) ، ولا محالة

= سَلَطَ عَلَيْهِ الْعِمَالِقَةُ حَتَّى أَغَارُوا عَلَى أَهْلِهِ وَمَالِهِ ، وَسَلَطَ الذَّنْبُ عَلَى وَلَدِهِ فَأَكَلَهُ ، وَسَلَطَ عَلَيْهِ الْخَوْتُ فَابْتَلَعَهُ « ، وَقَدْ نَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَكُونَ مِثْلُهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ - ٤٨ القلم - .

(١) من الآية (٩٠) من سورة (الأنعام) .

(٢) على قول من قال : إن الذبيح إسحق .

(٣) من الآية (١٨) من سورة (يوسف) .

(٤) أخرجه الترمذي في تفسير سورة (الكهف) ، والبخاري في الأنبياء ، وأحمد في

مسنده (١-٤١١ ، ٥-١١٨) ، ولفظه كما في مسند أحمد . عن عبد الله قال : قسم رسول الله =

أَنْ لِّكُلِّ نَبِيٍّ وَرَسُولٍ عَزْمًا وَصَبْرًا ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ .
 وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾ معناه : لا تستعجل لهم عذاباً
 فإنهم إليه صائرون ، ولا تستطل تعميرهم في هذه النعمة فإنهم يوم
 يرون العذاب كأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعةً ، لاحتقارهم ذلك ؛
 لأنَّ المنقضي من الزَّمان إنما يصير عدماً ، فكثيره الذي ساءت عاقبته
 كالقليل .

وقرأ أبيُّ بن كعب رضي الله عنه : « إِلَّا سَاعَةً مِنْ النَّهَارِ » ، وقرأ
 جمهور الناس : [بَلَاغٌ] ، وذلك يحتمل معاني : أحدها أن يكون
 خبر ابتداءٍ ، المعنى : هذا بلاغٌ ، وتكون الإشارة بـ [هَذَا] إمّا إلى
 القرآن والشرع ، أي : هذا إنذارٌ وتبليغٌ ، وإمّا إلى المدة التي تكون
 كساعة من نهار ، كأنه تعالى قال : لم يلبثوا إلا ساعة كانت بلاغهم ،
 وهذا كما تقول : « متاع قليل » ونحوه من المعنى ، والثاني : أن يكون
 ابتداءً والخبر محذوف ، والثالث : ما قاله أبو مجلز ، فإنه كان يقف
 على قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِلْ ﴾ ، ويقول : [بَلَاغٌ] ابتداءً وخبره

= صلى الله عليه وسلم قسمة ، فقال رجل من القوم : إن هذه لقسمة ما يُراد بها وجه الله عزَّ
 وجلَّ ، قال : فأُتيت النبي صلى الله عليه وسلم فحدثته ، قال : فغضب حتى ظهر الغضب
 في وجهه ، فقال : (يرحم الله موسى ، قد أؤذي بأكثر من ذلك فصبر) .

مقدم في قوله تعالى: [لَهُمْ] ، وقدح الناس في هذا القول بكثرة الحائل (١) ،
 وقرأ الحسن بن أبي الحسن ، وعيسى : [بَلَاغًا] ، وهي قراءة تحتل
 المعنيين في قراءة الرفع ، وليس يدخلها قول أبي مجلز ، ونصبها
 بفعل مضمر ، وقرأ أبو مجلز ، وأبو سراج الهذلي : [بَلَّغَ] على الأمر (٢) ،
 وقرأ الحسن بن أبي الحسن : [بَلَاغٍ] بالخفض نعتاً للنهار (٣) .

وقرأ جمهور الناس : ﴿فَهَلْ يُهْلِكُ﴾ على بناء الفعل للمجهول ،
 وقرأ بعضهم - فيما حكى هارون - : ﴿فَهَلْ يَهْلِكُ﴾ على بناء الفعل
 للفاعل وكسر اللام ، وحكاها أبو عمرو عن الحسن وابن محيصن ،
 وقرأ ابن محيصن أيضاً بفتح الياء واللام (٤) ، قال أبو الفتح : وهي
 مرغوب عنها . وروى زيد بن ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم :
 ﴿فَهَلْ يُهْلِكُ﴾ بضم الياء وكسر اللام ﴿إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾
 بالنصب .

(١) وقال ابن الأنباري : « وهذا خطأ » ، لأنك قد فصلت بين البلاغ وبين اللام -
 وهي رافعة - بشيء ليس منهما » .

(٢) قال أبو حيان الأندلسي : « وهذا يؤيد حَمَلُ [بَلَاغٍ] رفعاً ونصباً على أنه يُعْنَى
 به تبليغ القرآن والشرع » .

(٣) ونقل عن أبي مجلز أيضاً أنه قرأ : [بَلَّغَ] على الفعل الماضي .

(٤) وماضي هذا الفعل « هَلِكَ » بكسر اللام ، وهي لغة ولكن مرغوب عنها كما قال
 أبو الفتح .

وفي هذه الآية وعيد محض وإنذار بين ، وذلك أن الله تعالى جعل
الحسنة بعشر أمثالها ، والسيئة بمثلها ، وأمر بالطاعة ووعد عليها بالجنة ،
ونهى عن الكفر وأوعد عليه بالنار ، (فَلَنْ يَهْلِكَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا هَالِكٌ)
كما قال صلى الله عليه وسلم (١) ، قال الثعلبي : يقال : إن قوله تعالى :
(فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ) أرجى آية في كتاب الله تعالى
للمؤمنين (٢) .

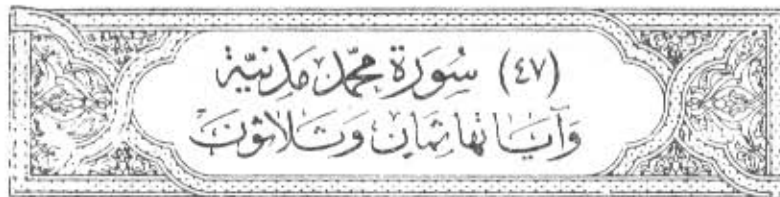
كمل تفسير سورة الأحقاف والحمد لله رب العالمين

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ، والدارمي في الرقاق ، وأحمد في مسنده (١-٢٧٩) .
عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ولفظه كما في مسند أحمد ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
فيما روى عن ربه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَحِيمٌ ،
مَنْ هُمْ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرَةٌ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ إِلَى أَضْعَافٍ
كَثِيرَةٍ ، وَمَنْ هُمْ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ وَاحِدَةٌ أَوْ يَمْحُوهَا
اللَّهُ ، وَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا هَالِكٌ) .

(٢) أخرج الطبراني في الدعاء عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
(إِذَا طَلَبْتَ وَأَحْبَبْتَ أَنْ تَنْجَحَ فَقُلْ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ : لَا إِلَهَ إِلَّا
اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ،
كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرُونَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ، كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يَوْعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا
سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، بَلَاغٌ فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مَوْجِبَاتِ رَحْمَتِكَ ،
وَعَزَائِمِ مَغْفِرَتِكَ ، وَالسَّلَامَةِ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ ، وَالْغَنِيمَةِ مِنْ كُلِّ بَرٍّ ، وَالْفُرُوزِ بِالْجَنَّةِ ، وَالنَّجَاةِ
مِنَ النَّارِ ، اللَّهُمَّ لَا تَدَعْ لِي ذَنْبًا إِلَّا غَفَرْتَهُ ، وَلَا هَمًّا إِلَّا فَرَجْتَهُ ، وَلَا حَاجَةً هِيَ لَكَ
رِضًا إِلَّا قَضَيْتَهَا يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



هذه السورة مدنية بإجماع ، غير أن بعض الناس قال في قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ ﴾ الآية : إنها نزلت بمكة في وقت دخول النبي صلى الله عليه وسلم فيها عام الفتح أو سنة الحديبية ، وما كان مثل هذا فهو معدود في المدني ؛ لأن المراعى في ذلك إنما هو ما كان قبل الهجرة أو بعدها (١) .

(١) قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ مدني أيضاً على المعنى الذي وضحه المؤلف ، والآية رقمها (١٣) من السورة ، لكن الثعلبي قال : إن السورة كلها مكية ، وحكى ذلك ابن هبة الله عن الضحاك وسعيد بن جبير ، ولهذا عقَّب أبو حيان الأندلسي على قول ابن عطية : « هذه السورة مدنية بإجماع » فقال : « وليس كما قال » . وتسمى هذه السورة أيضاً سورة القتال ، وعدد آياتها ثمان وثلاثون آية ، وقيل : تسع وثلاثون آية .

قوله عز وجل :

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سِعَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ (٣) ﴿

قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية ... إشارة إلى أهل مكة الذين أخرجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية ... إشارة إلى الأنصار أهل المدينة الذين آووه ، وفي الطائفتين نزلت الآية (١) ، قاله ابن عباس ، ومجاهد . ثم هي بعد تعم كل من دخل تحت ألفاظها .

وقوله تعالى : ﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يحتمل أن يريد الفعل المجاوز فيكون المعنى : وصدوا غيرهم ، ويحتمل أن يكون الفعل غير متعد فيكون المعنى : وصدوا أنفسهم ، و «سَبِيلُ اللَّهِ» : شرعه وطريقه الذي دعا إليه ، وقوله تعالى : ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي : أتلفها ، لم يجعل لها غاية خير ولا نفعاً ، وروي أن هذه الآية نزلت بعد بدر ،

(١) هكذا في الأصول ، وهما في الحقيقة آيتان .

وَأَنَّ الْإِشَارَةَ بِقَوْلِهِ : ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ هِيَ إِلَى الْإِنْفَاقِ الَّذِي أَنْفَقُوهُ فِي سَفَرِهِمْ إِلَى بَدْرٍ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِالْأَعْمَالِ أَعْمَالُهُمُ الْبِرَّةُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، مِنْ صَلَوةِ الرَّحِمِ وَنَحْوِهِ ، وَاللَّفْظُ يَعْمُ جَمِيعَ ذَلِكَ .

وَقَرَأَ النَّاسُ : [نُزِّلَ] بِضَمِّ النُّونِ وَشَدِّ الزَّايِ ، وَقَرَأَ الْأَعْمَشُ : [أَنْزَلَ] مَعْدًى بِالْهَمْزَةِ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَأَصْلَحَ بِأَلْفِهِمْ﴾ ، قَالَ قَتَادَةُ : مَعْنَاهُ : حَالُهُمْ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : أَمْرُهُمْ ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ : شَأْنُهُمْ ، وَتَحْرِيرُ التَّفْسِيرِ فِي اللَّفْظَةِ أَنَّهَا بِمَعْنَى الْفِكْرِ وَالْمَوْضِعِ الَّذِي فِيهِ نَظَرُ الْإِنْسَانِ وَهُوَ الْقَلْبُ ، فَإِذَا صَلَحَ ذَلِكَ فَقَدْ صَلَحَتْ حَالُهُ ، فَكَأَنَّ اللَّفْظَةَ مُشِيرَةً إِلَى إِصْلَاحِ عَقِيدَتِهِمْ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْحَالِ تَابِعٌ ، فَقَوْلُكَ : «خَطَرٌ فِي بَالِي كَذَا» وَقَوْلُكَ : «أَصْلَحَ اللَّهُ بِأَلْفِكَ» ، الْمُرَادُ بِهِمَا وَاحِدٌ ، ذَكَرَهُ الْمُبَرِّدُ ، وَ«الْبَالُ» مُصَدَّرٌ كَالْحَالِ وَالشَّأْنِ ، وَلَا يَسْتَعْمَلُ مِنْهُمَا فِعْلٌ ، وَكَذَلِكَ عُرِفَهُ أَلَّا يُشْنَى وَلَا يُجْمَعُ ، وَقَدْ جَاءَ مُجْمُوعاً وَلَكِنَّهُ شَاذٌ ، فَإِنَّهُمْ قَالُوا : بِأَلَاتٍ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الْآيَةُ ، الْإِشَارَةُ إِلَى الْأَفْعَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ فَعَلَهَا بِالْكَفَّارِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ، وَ«الْبَاطِلُ» : الشَّيْطَانُ وَكُلُّ مَا يَأْمُرُ بِهِ ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ ، وَ«الْحَقُّ» هُنَا هُوَ الشَّرْعُ وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وقوله تعالى : [كَذَلِكَ] إشارة إلى الاتباع المذكور من الفريقين ،
 أي : كما اتبعوا على هذين السبيلين كذلك يُبين أمر كل فرقة ،
 ويجعل لها ضرباً من القول وصنفاً (١) ، وضرب المثل مأخوذ من
 الضريب والضرب الذي هو بمعنى النوع .

قوله عز وجل :

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُوهُمْ فَشُدُّوا
 الْوَتَاكَ فَمَا مَنَّا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ
 يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْتُمْ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ
 اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ ﴿٦٠﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٦١﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ
 عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦٢﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ
 ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ ﴿٦٤﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنزِلَ
 اللَّهُ فَاحْبَطَ أَعْمَالُهُمْ ﴿٦٥﴾ ﴾

قال ابن عباس ، وقتادة ، وابن جريج ، والسدي ، والضحاك :
 إن هذه الآية منسوخة بآية السيف التي في (براءة) : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ﴾

(١) في بعض النسخ : « ويجعل لها ضرباً من القول وصنفها » .

حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» (١)، وإن الأسر والمن والفداء مرتفع ، فمتى وقع
أسر فإنما معه القتل ولا بد ، وروي نحوه عن أبي بكر الصديق رضي
الله تعالى عنه (٢)، وقال ابن عمر ، وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهم ،
وعطاء ما معناه : إن هذه الآية مُحْكَمَةٌ مُبَيِّنَةٌ لثالث ، والمن والفداء
ثابت ، وقد من رسول الله صلى الله عليه وسلم على ثمانية بن أثال ،
وفادى أسرى بدر ، وقاله الحسن ، وقال : لا يقتل الأسير إلا في الحرب ،
يُهَيَّبُ بذلك على العدو ، وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه
يفادي رجلاً برجل ، ومنع الحسن أن يُفادوا بالمال ، وقد أمر عمر بن
عبد العزيز بقتل أسير من الترك ذكر أنه قتل مسلمين ، وقالت فرقة :
هذه الآية خصصت من الأخرى بأهل الكتاب فقط ، فيهم المن
والفداء ، وعُباد الأوثان ليس فيهم إلا القتل .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وعلى قول أكثر العلماء الآيتان مُحْكَمَتَانِ ، وقوله تعالى هنا :
(فَضْرَبَ الرَّقَابِ) بمثابة قوله تعالى هنالك : (فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ)

(١) من الآية (٥) من سورة (التوبة) : قالوا : وهي منسوخة أيضاً بقوله تبارك وتعالى :
(وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً) ، وبقوله : (فَلَمَّا تَشَقَّقْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدْ
بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ) .

(٢) قال عبد الكريم الجوزي : « كُتِبَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فِي أَسِيرٍ أَسْرَ ، فَذَكَرُوا أَنَّهُمُ التَّمَسُّوهُ
بِفِدَاءٍ كَذَا وَكَذَا ، فَقَالَ : اقْتُلُوهُ ، لَتَقْتُلَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كَذَا وَكَذَا » .

حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴿١﴾ ، وصرح هنا بذكر المنّ والفداء ، ولم يصرح به هناك وهو أمر مقرر (١) ، وهذا هو القول القوي .

وقوله تعالى : ﴿ فَضْرِبَ الرِّقَابِ ﴾ مصدر بمعنى الفعل ، أي : فاضربوا رقابهم ، وعين من أنواع القتل أشهره وأعرفه فذكره ، والمراد : اقتلوهم بأي وجه أمكن ، وقد زادت آية أخرى : ﴿ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ (٢) ، وهي من أنكى ضربات الحرب لأنها تعطل من المضروب جميع جسده ؛ إذ البنان أعظم آلة المقاتل وأصلها . و [أَثْنَتُمُوهُمْ] معناه : بالقتل ، و « الإِثْخَانُ » في القوم أن يكثر فيهم القتلى والجرحى ، والمعنى : فشدوا الوثاق بمن لم يقتل ولم يترتب فيه إلا الأسر ، و [مَنَّا] و [فِدَاءً] مصدران منصوبان بفعلين مضميرين . وقرأ جمهور الناس : [فِدَاءً] ، وقرأ شبل عن ابن كثير : [فِدَى] ، مقصوداً .

وإمام المسلمين مخير في أسراه في خمسة أوجه : القتل أو الاسترقاق أو ضرب الجزية أو المن أو الفداء ، و يترجح النظر في أسير أسير بحسب حاله من إذاية المسلمين أو ضد ذلك .

(٣) في بعض النسخ : « وهو مراد متقرر » .

(٤) من الآية (١٢) من سورة (الأنفال) .

وقوله تعالى : ﴿ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ معناه : حتى تذهب وتنزل أثقالها ، و «الأوزار» - جمع وزر - الأثقال فيها والآلات لها ، ومنه قول عمرو بن معديكرب الزبيدي :

وَأَعْدَدْتُ لِلْحَرْبِ أَوْزَارَهَا رِمَاحاً طَوَالاً وَخَيْلاً ذُكُوراً (١)

وقال الثعلبي : قيل : الأوزار في هذه الآية الآثام ، جمع وزر ، لأن الحرب لا بد أن يكون فيها آثام في أحد الجانبين .
واختلف المتأولون في الغاية التي عندها تضع الحرب أوزارها - فقال قتادة : حتى يسلم الجميع فتضع الحرب أوزارها ، وقال حذاق أهل النظر : حتى تغلبوهم وتقتلوهم ، وقال مجاهد : حتى ينزل عيسى ابن مريم عليهما السلام .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وظاهر اللفظة أنها استعارة يراد بها التزام الأمر أبداً ، وذلك أن الحرب بين المؤمنين والكافرين لا تضع أوزارها ، فجاء هذا اللفظ

(١) ليس هذا البيت من قول عمرو بن معديكرب ، بل هو للأعشى ، وهو من قصيدة طويلة له ، قالها يمدح هوزة بن علي الحنفي ، ومطلعها :

غَشِيَتْ لَيْلِي لَيْلِي لَيْلِي خَدُورًا وَطَالَبَتْهَا وَتَدَرَّتْ الشُّذُورًا

والخطاب لهوزة هذا في القصيدة كلها ، يقول له : إنك أعددت للحرب عدتها وآلاتها وهي الرماح الطويلة وذكور الخيل القوية ، و (رماحاً) منصوبة على أنها بدل من (أوزار) .

كما تقول : أنا أفعل كذا وكذا إلى يوم القيامة ، فإنما تريد أن تفعله دائماً .

وقوله تعالى : [ذَلِكَ] تقديره : الأمر ذلك ، ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ أي بعذاب من عنده يهلكهم به في حين واحد ، لكنه تعالى أراد اختبار المؤمنين ، وأن يبلو بعض الناس ببعض . وقرأ جمهور القراء : [قَاتِلُوا] ، وقرأ عاصم ، والجحدري - بخلاف عنه - : [قَتَلُوا] بفتح القاف والتاء ، وقرأ أبو عمرو ، وحفص عن عاصم ، والأعرج ، وقتادة ، والأعمش : [قُتِلُوا] بضم القاف وكسر التاء ، وقرأ زيد بن ثابت ، والحسن ، والجحدري ، وعيسى ، وأبو رجاء هكذا وشددوا التاء ، والقراءة الأولى أعمها وأوضحها معنى .

قال قتادة : نزلت هذه الآية فيمن قُتل يوم أحد ، وقوله تعالى : [سَيَهْدِيهِمْ] أي : إلى طريق الجنة ، وقد تقدم القول في إصلاح البال ، وقد روى عباس بن الفضل عن أبي عمرو : [يُدْخِلُهُمْ] بسكون اللام ، وفي التغابن ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ ﴾ (١) ، وفي سورة الإنسان ﴿ إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ ﴾ (٢) بسكون الطاء والميم .

(١) من الآية (٩) من سورة (التغابن) .

(٢) من الآية (٩) من سورة (الإنسان) .

قوله تعالى : ﴿عَرَفَهَا لَهُمْ﴾ ، قال أبو سعيد الخدري ، وقتادة ، ومجاهد : معناه : بيّنها لهم ، أي جعلهم يعرفون منازلهم منها ، وفي نحو هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم : (لأحدكم بمنزله في الجنة أعرف منه بمنزله في الدنيا) (١) ، وقالت فرقة : معناه : سمّاها لهم ووسمها كل منزل باسم صاحبه ، فهذا نحو من التعريف ، وقالت فرقة : معناه : شرفها لهم ورفعها وعلاها ، وهذا من الأعراف التي هي الجبال وما أشبهها ، ومنه أعراف الخيل ، وقال مؤرج وغيره : معناه : طيّبها ، مأخوذ من العرف ، ومنه طعامٌ معروفٌ ، أي مُطَيَّبٌ ، وعرفت القدر ، أي طيّبتها بالملاح والتوابل .

وقوله تعالى : ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ﴾ فيه حذف مضاف ، أي دين الله ورسوله ، والمعنى : تنصروه بجهدكم وإيمانكم ، ينصركم بخلق القدرة لكم والجرأة وغير ذلك من المعارف . وقرأ جمهور الناس :

(١) في صحيح البخاري ما يدل على صحة هذا الحديث ، لكن اللفظ فيه ليس (أعرف) كما ذكر هنا ، بل اللفظ فيه (أهدى) ، وهو عن أبي سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يخلص المؤمنون من النار ، فيحسبون على قنطرة بين الجنة والنار ، فينقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونُقشوا أذن لهم في دخول الجنة . فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله في الدنيا) ، وقد استدل كل من القرطبي . وابن كثير على صحة هذا الرأي بهذا الحديث .

[وَيُثَبِّتُ] بفتح الشاء المثناة وشدّ الباء ، وقرأ المفضل عن عاصم :
[وَيُثَبِّتُ] بسكون الشاء وتخفيف الباء ، وهذا التثبیت هو في مواطن
الحرب على الإسلام . وقيل : على الصراط في القيامة .

وقوله تعالى : ﴿ فَتَعَسَّأَ لَهُمُ ﴾ معناه : عثراً لهم وهلاكاً ، وهي
لفظة تقال للكافر ، ومنه قول الشاعر :

يَا سَيِّدِي إِنْ عَثَرْتُ خُذْ بِيَدِي وَلَا تَقُلْ لَا وَلَا تَقُلْ تَعَسَّأَ (١)
وقال الأعشى في هذا المعنى :

بِذَاتِ لَوْثٍ عَفِرْنَاةٍ إِذَا عَثَرْتُ فَالتَّعَسُّ أَدْنَى لَهَا مِنْ أَنْ أَقُولَ : لَعَا (٢)

(١) وفي بعض النسخ جاء لفظ البيت كالآتي :

يَا سَيِّدِي إِنْ عَثَرْتُ خُذْ بِيَدِي وَلَا تَقُلْ لِي أَفْأَ وَلَا تَعَسَّأَ

وفي اللسان : « التَّعَسُّ : العثر ، وألّا يتعش العائر من عثرته ، وأن يُنكَّس في سفال ،
وقيل : التَّعَسُّ : الانحطاط والعثور » ، وفيه أيضاً أن التَّعَسُّ هو الشر ، أو هو البُعْد ، أو أن
يخرى المرء على وجهه ، أو هو الهلاك ، وكل هذه المعاني واردٌ .

(٢) قال الأعشى هذا البيت من قصيدته المعروفة التي قالها في مدح هوزة بن علي الحنفي ،
والتي بدأها بقوله : (بَانَتْ سَعَادُ وَأَمْسَى حَبْلُهَا انْقَطَعَا) ، والبيت في وصف ناقة يقول
إنه استعان بها على الوصول إلى بلدة يرهب الجَوَّابُ ظلامها ، وذاتِ لَوْثٍ : قوية ، وقوله :
« بِذَاتِ لَوْثٍ » ، متعلق بقوله في بيت سابق : « كَلَفْتُ مَجْهُولَهَا نَفْسِي » أي مجهول
هذه البلدة الرهيبة . وعَفِرْنَاةٌ : قوية شديدة ، من قولهم : لَبِؤَةٌ عَفِرْنَاةٌ . أي قوية ، ويقال
فيها : عَفِرْنَاةٌ — بكسر العين والفاء — بمعنى الجرأة . وتقال للذكر والأنثى من الأسود ، =

ومنه قول أم مسطح لما عثرت في مرطها : تَعَسِ مِسْطَحُ (١) ، وقال ابن السكيت : التَّعَسَ : أَنْ يُجَرَّ عَلَى وَجْهِهِ ، و [تَعَسًا] مصدر نَصَبُهُ فعل مضمر .

وقوله تعالى : ﴿ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ ﴾ يريد القرآن ، وقوله سبحانه : ﴿ فَأَخْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ يقتضي أن أعمالهم في كفرهم التي هي بر مقيدة محفوظة ، ولا خلاف أن للكفار حفظة يكتبون سيئاتهم ، واختلف الناس في حسناتهم - فقالت فرقة : هي مُلغاة ، يثابون عليها بنعيم الدنيا فقط ، وقالت فرقة : هي مُحْصاة من أجل ثواب الدنيا ، ومن أجل أن [الكافر] (٢) قد يُسلم فيضاف ذلك إلى حسناته في الإسلام ، وهذا أحد التأويلين في قول النبي صلى الله عليه وسلم لحكيم بن حزام : (أسلمت على ما أسلفت من خير) (٣) ، فقوم قالوا : تأويله : أسلمت

= ولعلَّ شبهة ناقتة باللبوة القوية الخريثة . و «لَعَا» : صوتٌ معناه الدعاء للعائر بأن يرتفع من عثرته ، يقال : لَعَا لفلان ، وفي الدعاء عليه يقال : لا لَعَا له . ومعنى قوله : «فالتَّعَسَ أدُنِّي لها من أن أقول : لَعَا» أنها لا تعثر لقوتها ، ولو عثرت لقلتُ لها : لَعَا ، قال ذلك ابن بري وذكره عنه صاحب اللسان (لوث) .

(١) قالت أم مسطح ذلك في حديث الإفك الذي أخرجه البخاري . ومسلم . والترمذي . وأحمد . وهو حديث طويل مشهور ذكرناه في تفسير سورة (النور) .

(٢) ما بين علامتين [....] زيادة يحتاج إليها التعبير .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب والزكاة والبيوع والعتق ، ومسلم في الإيمان ، وأحمد في المسند (٣-٤٠٢ ، ٤٣٤) . والحديث عن عروة بن الزبير . عن حكيم بن حزام . قال : قلت : =

على أن يُعَدَّ لك ما سلف من خير ، وهذا هو التأويل الذي أشرنا إليه ،
وقالت فرقة : معناه : أسلمت على إسقاط ما أسلفت من خير ، إذ قد
جوزيت عليه بنعم دنياك ، وذكر الطبري أن أعمالهم التي أخبر في
هذه الآية أنه يحبطها هي عبادتهم الأصنام وكفرهم ، ومعنى [أَحْبَطَ] :
جعلها من الفعل (١) الذي لا يزكو ولا يُعْتَدُّ به ، فهي لذلك
كالذي أحبط .

قوله عز وجل :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴿١٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ
وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ
أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكَنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ ﴾

= يا رسول الله . أرايت أمورا كنت أتحث بها في الجاهلية من عتاقة وصلة رحم ، هل لي فيها
أجر ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : (أسلمت على ما أسلفت من خير) .
(١) في بعض النسخ « من القول » وما أثبتناه أقرب ومناسب لتعبير الآية .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا ﴾ توقيف لقريش وتوبيخ ، و ﴿ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ يريد ثمود وقوم لوط وقوم شعيب وأهل السد وغيرهم ، و « الدمار » : الفساد وهدم البناء وإذهاب العمران ، وقوله تعالى : ﴿ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ من ذلك ، والضمير في قوله تعالى : [أَمْثَالُهَا] يحتمل أن يعود على العاقبة المذكورة ، ويصح أن يعود على الفعلة التي يتضمنها قوله تعالى : ﴿ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُ ﴾ ابتداء وخبره في [أَن] ، وهذه الآية نزلت يوم أحد ، ومنها انتزع رسول الله صلى الله عليه وسلم رده على أبي سفيان بن حرب حين قال له : (الله مولانا ولا مولى لكم) .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ ﴾ ، أي أكلاً مجرداً من فكرة ونظر ، فالتشبيه بالمعنى إنما وقع فيما عدا الأكل من قلة الفكر وعدم النظر ، فقوله تعالى : [كَمَا] في موضع الحال ، وهذا كما تقول : الجاهل يعيش يعيش البهيمة ، فأما مقتضى اللفظ فالجاهل والعالم والبهيمة من حيث لهم يعيش فهم سواء ، ولكن معنى كلامك : يعيش عديم النظر والفهم كما تعيش البهيمة . و « المشوى » : موضع الإقامة ، وقد تقدم القول غير مرة في قوله تعالى : [وَكَأَيِّنْ] ، وضرب الله تعالى مثلاً لمكة بالقرى المهلكة على عظمها كقرية قوم هود وغيرهم ،

و [أَخْرَجَتْكَ] معناه : وقت الهجرة ، ونسب الإخراج إلى القرية حملاً على اللفظ ، وقال : [أَهْلَكْنَاهُمْ] حملاً على المعنى ، ويقال : إن هذه الآية نزلت إثر خروج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة في طريق المدينة ، وقيل : نزلت بالمدينة ، وقيل : نزلت بعد الحديبية بمكة عام دخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل : عام الفتح وهو مقبل إليها ، وهذا كله حكمه حكم المدني .

قوله عز وجل :

﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ (١٤) مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّن نَّخْمٍ لَّذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّن عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَن هُوَ خَلِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ (١٥) وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِن عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ (١٦)

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ ﴾ الآية . توقيف وتقرير على شيء متفق عليه ، وهي معادلة بين هذين الفريقين ، وقال قتادة : الإشارة بهذه

الآية إلى محمد صلى الله عليه وسلم في أنه الذي على بينة من ربه ،
 وإلى كفار قريش في أنهم الذين زين لهم سوء أعمالهم ، وبقي اللفظ
 عاماً لأهل هاتين الصفتين غابر الدهر . وقوله تعالى : ﴿ عَلَى بَيِّنَةٍ
 مِنْ رَبِّهِ ﴾ معناه : على قضية واضحة وعقيدة نيرة بينة ، ويحتمل أن
 يكون المعنى : « على أمر بين ودين بين » وألحق الهاء للمبالغة كعلامة
 ونسابة ، والذي يُسند إليه قوله تعالى : [زين] هو الشيطان ، و « إِتِّبَاعُ
 الْأَهْوَاءِ » : طاعتها ، كأنه يذهب إلى ناحية والمرء يذهب معها .

واختلف الناس في معنى قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ ﴾ الآية - فقال
 النَّضْرُ بن شُمَيْل وغيره : [مَثَلُ] معناه : صفة ، كأنه قال : صفة
 الجنة ما تسمعون فيها كذا وكذا ، وقال سيبويه : المعنى : فيما يُتلى
 عليكم مثل الجنة ، ثم فسر الذي يُتلى بقوله : فيها كذا وكذا ،
 والذي ساق إلى أن تجعل [مَثَلُ] بمثابة « صفة » هو أن المُمَثِّل به
 ليس في الآية ، ويظهر أن القصد بالتمثيل هو إلى الشيء الذي يتخيله
 المرء عند سماعه : « فيها كذا وكذا » ، فإنه يتصور عند ذلك بقاءً
 على هذه الصورة ، وتلك هي مثل الجنة ومثالها ، أو في الكلام حذف
 يقتضيه الظاهر ، كأنه تعالى يقول : مثل الجنة بين ظاهر في نفس
 من وعى هذه الأوصاف . وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه :
 ﴿ مِثَالُ الْجَنَّةِ ﴾ ، وقرأ علي بن أبي طالب ، وابن عباس رضي الله
 عنهم : ﴿ أَمْثَالُ الْجَنَّةِ ﴾ ، وعلى هذه التأويلات كلها ففي قوله تعالى :

{ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ } حذف تقديره : أساكن هذه ؟ أو تقديره : أهؤلاء ؟ إشارة إلى المتقين ، ويحتمل عندي أن يكون الحذف في صدر الآية ، كأنه تعالى قال : أيكون مثل هذه الجنة كمن هو خالد في النار ؟ ويكون قوله مستفهماً عنه بغير ألف استفهام ، فالمعنى : أمثل أهل الجنة - وهي بهذه الأوصاف - كمن هو خالد في النار ؟ فتكون الكاف في قوله تعالى : [كَمَنْ] مؤكدةً للتشبيه ، ويجيء قوله تعالى : { فِيهَا أَنْهَارٌ } في موضع الحال على هذا التأويل .

و { مَاءٌ غَيْرِ آسِنٍ } معناه : غير متغير ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، وسواءً أُنْتَنَ أو لم ينتن ، يقال : أَسِنَ الماءُ - بفتح السين - وأَسِنَ - بكسرها - ، وقرأ جمهور القراء : [آسِنٍ] على وزن فاعِلٍ ، وقرأ ابن كثير : [آسِنٍ] على وزن فَعِلٍ ، وهذه قراءة أهل مكة ، والآسِنُ : الذي يُغشى عليه من ريح مُنتنة من ماءٍ ، ومنه قول الشاعر :

التَّارِكُ الْقِرْنَ مُضْفَرًا أَنَامِلُهُ يَمِيلُ فِي الرَّمْحِ مَيْلَ الْمَائِحِ الْآسِنِ (١)

(١) هذا البيت لزهير بن أبي سلمى ، وهو واحد من ثلاثة أبيات ذكرت في الديوان ، واستشهد به صاحب اللسان في (آسِنَ) على أن معناها : أصابه دُوار من ريح البُثر المنتنة فغشي عليه فسقط . ورواية الديوان : « قَدْ أَتْرَكَ الْقِرْنَ » ، ورواية اللسان : « يُغَادِرُ الْقِرْنَ » ، والقِرْنُ : الذي يماثل الإنسان في شجاعته . و « مُضْفَرٌ أَنَامِلُهُ » : كناية عن الموت أو عن الخوف ، قال في اللسان : « وأورده الجوهري : قد أَتْرَكَ الْقِرْنَ » ، وصوابه =

وقال الأخفش : « أَسِنَ » لغة ، والمعنى الإخبار به عن الحال ،
ومن قال : « آسِنُ » على وزن فاعل فهو يريد به أن يكون كذلك في
المستقبل ، فنفى ذلك في الآية ، وقرأت فرقة : (غَيْرَ يَسِّن) بالياء ،
قال أبو علي : وذلك على تخفيف الهمز ، قال أبو حاتم عن عوف :
كذلك كانت في المصحف (غَيْرَ يَسِّن) فغيرها الحجاج .

وقوله تعالى في اللبن : (لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ) نفى لجميع وجوه
الفساد في اللبن ، وقوله تعالى : (لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ) جمعت طيب الطعام
وزوال الآفات من الصداغ وغيره ، و [لَذَّةٌ] نعت على النسب ، أي :
ذات لذة ، وتصفيئة العسل مُذهبة لبؤسته (١) وضرره ، وقوله تعالى :
(مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ) أي من هذه الأنواع ، لكنها بعيدة الشبه إذ
تلك لا عيب فيها ولا تعب بوجّه . وقوله تعالى : (وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ)
معناه : وتنعيم أعطته المغفرة وسببته ؛ وإلا فالمغفرة إنما هي قبل الجنة.

= « يُغَادِرُ الْقِرْنَ » وكذا في شعره لأنه من صفة المملوح ، وقوله يقول : (أَلَمْ تَرَ ابْنَ
سِنَانٍ كَيْفَ فَضَّلَهُ ...) ، وإنما غلط الجوهري قول الآخر : (قَدْ أَتْرَكَ الْقِرْنَ مُصْفَرّاً
أَنَامِلُهُ ، كَانَ أَثْوَابَهُ) . وهذا البيت الذي أشار إليه في اللسان (أَلَمْ تَرَ ابْنَ سِنَانٍ)
غير موجود في الديوان ، وعلى هذا فالآيات أربعة لا ثلاثة ، أمّا (يَمِيلُ فِي الرُّمَحِ) فقد ورد
في اللسان (يَمِيلُ) بالدال ، والمائض : الذي ينزح الماء من البئر ، والأسين : الذي دخل بئراً
فاشتدت عليه ريحها فأصابه دُؤارٌ فسقط . وفي كُتُب اللغة كلام كثير في الفعل (أَسِنَ) .
(١) كِبُوسْتَه - بفتح اللام وبضمها - : ما يشوبه من أشياء .

وقوله تعالى : [وَسُقُوا] الضمير عائد على [مَنْ] لأن المراد به جمع .

وقوله تعالى : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ يعني بذلك المنافقين من أهل المدينة ، وذلك أنهم كانوا يحضرون عند النبي صلى الله عليه وسلم ويسمعون كلامه وتلاوته ، فإذا خرجوا قال بعضهم لمن شاء من المؤمنين الذين علموا وانتفعوا : ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ ؟ فكان منهم من يقول هذا استخفافاً ، أي : ما معنى ما قال ؟ وما نفعه ؟ وما قدره ؟ ومنهم من يقول ذلك جهلاً ونسياناً لأنه كان في وقت الكلام مقبلاً على فكرته في أمر دنياه وفي كفره ، فكان القول يمرُّ صفحاً ، فإذا خرج قال : ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ ؟ وهذا أيضاً فيه ضرب من الاستخفاف لأنه كان يصرح أنه يقصد الإعراض وقت الكلام ، ولو لم يكن ذلك بقصد لم يبعد أن يجري على بعض المؤمنين ، وروي أن ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما ممن سئل هذا السؤال ، حكاه الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما . و [آنِفًا] معناه : مبتدئاً ، كأنه قال : ما القول الذي ائْتَنَفَه الآن قبل انفصالنا عنه ؟ وقرأ الجمهور : [آنِفًا] على وزن فاعل ، وقرأ ابن كثير وحده : [أَنِفًا] على وزن فَعَلَ ، وهما اسما فاعل من «ائْتَنَفَ» ، وجرياً على غير فعلهما ، ولم يُستعمل فعلهما ، وهذا كما جرى «فقير» على «افتقر»

ولم يستعمل «فقر» ، وهذا كثير ، والمفسرون يقولون : [آنفأ] معناه : الساعة الماضية القريبة منا ، وهذا تفسير بالمعنى .

ثم أخبر تبارك وتعالى أنه طبع على قلوب هؤلاء المنافقين الفاعلين لهذا ، وهذا الطبع يحتمل أن يكون حقيقة ويحتمل أن يكون استعارة ، وقد تقدم القول فيه .

قوله عز وجل :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۖ فَهُمْ يَنْظُرُونَ
إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ
﴿١٨﴾ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لَذُنُوبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۖ وَاللَّهُ
يَعْلَمُ مَتَقَلِّبَكُمُ وَمَثَوَّكُمُ ۖ ﴾ (١٩) ﴿

لما ذكر الله تعالى المنافقين بما هم أهل من قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ عقب بذكر المؤمنين ، فبين الفرق ، وشرفهم بإسناد فعل الاهتداء إليهم ، وهي إشارة إلى تكسبهم ، وقوله تعالى : ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ يحتمل أن يكون الفاعل في [زَادَهُمْ] الله تعالى ، والزيادة في هذا المعنى تكون إما بزيادة التفهيم والأدلة ، وإما بورود الشرائع والأوامر والنواهي والأخبار ، فيزيد

الاهتداء لِتَزِيدَ عِلْمَ ذَلِكَ وَالْإِيمَانَ بِهِ . وَذَلِكَ بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْفَاعِلُ فِي [زَادَهُمْ] قَوْلُ الْمُنَافِقِينَ وَاضْطَرَابُهُمْ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَتَعَجَّبُ الْمُؤْمِنُ مِنْهُ . وَيَحْمَدُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى إِيْمَانِهِ . وَيَتَزِيدُ بِصِيرَةِ فِي دِينِهِ ، فَكَأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ : وَالْمُهْتَدُونَ الْمُؤْمِنُونَ زَادَهُمْ فَعَلَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ هُدًى ، أَيْ : كَانَتْ الزِّيَادَةُ بِسَبَبِهِ فَاسْتَدَ الْفِعْلُ إِلَيْهِ ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ : إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنَ النَّصَارَى آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَالْفَاعِلُ فِي [زَادَهُمْ] مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، أَيْ : كَانَ سَبَبُ الزِّيَادَةِ فَاسْتَدَ الْفِعْلُ إِلَيْهِ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى - عَلَى هَذَا الْقَوْلِ - : [أَهْتَدُوا] يَرِيدُ تَعَالَى : فِي إِيْمَانِهِمْ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ثُمَّ زَادَهُمْ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُدًى حِينَ آمَنُوا بِهِ ، وَالْفَاعِلُ فِي [وَأَتَاهُمْ] يَتَصَرَّفُ الْقَوْلُ فِيهِ بِحَسَبِ التَّأْوِيلَاتِ الْمَذْكُورَةِ ، وَأَقْوَاهَا أَنَّ الْفَاعِلَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَ [أَتَاهُمْ] مَعْنَاهُ : أَعْطَاهُمْ ، أَيْ : جَعَلَهُمْ مُتَّقِينَ لَهُ ، وَالتَّقْدِيرُ : تَقْوَاهُمْ إِيَّاهُ ، وَقَرَأَ الْأَعْمَشُ : [وَأَنْطَاهُمْ] ، وَهِيَ بِمَعْنَى أَعْطَاهُمْ ، وَرَوَاهَا مُحَمَّدُ بْنُ طَلْحَةَ عَنْ أَبِيهِ ، وَهِيَ فِي مَصْحَفِ عَبْدِ اللَّهِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (فَهَلْ يَنْظُرُونَ) يَرِيدُ الْمُنَافِقِينَ ، وَالْمَعْنَى : يَنْتَظِرُونَ ، أَيْ : هَكَذَا هُوَ الْأَمْرُ فِي نَفْسِهِ وَإِنْ كَانُوا هُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ يَنْتَظِرُونَ غَيْرَ ذَلِكَ ، فَإِنْ مَا فِي أَنْفُسِهِمْ غَيْرُ مَرَاعَى لِأَنَّهُ بَاطِلٌ . وَقَرَأَ جَمْهُورٌ

القراء : ﴿ أَنْ تَأْتِيَهُمْ ﴾ ، ف [أَنْ] بدل من [أَلْسَاعَةً] ، وقوله تعالى - على هذه القراءة - : ﴿ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ إخبارٌ مستأنف ، والفاء عاطفة جملة من الكلام على جملة . وقرأ أهل مكة - فيما روى الرؤاسي - : ﴿ إِنْ تَأْتِيَهُمْ ﴾ بكسر الألف وجزم الفعل على الشرط ، والفاء في [فَقَدْ] جواب الشرط (١) ، وليست بعاطفة على نحو ما في القراءة الأولى فثمَّ نحو من معنى الشرط ، و [بَغْتَةً] معناه : فجأة ، وروي عن أبي عمرو : [بَغْتَةً] بفتح الغين وشدَّ التاء ، وقوله تعالى : ﴿ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ - على القراءتين - معناه : فينبغي أن يقع الاستعداد والخوف منها لمن حزم ونظر لنفسه ، والذي جاء من أشراطها محمد عليه الصلاة والسلام لأنه آخر الأنبياء ، فقد بان من أمر الساعة قدرٌ ما ، وفي الحديث أنه عليه الصلاة والسلام قال : (أنا من أشراط الساعة) (٢) ، وقال عليه الصلاة والسلام : (بعثتُ أنا والساعة كهاتين) وأشار بإصبعيه (٣)

(١) وعلى هذه القراءة يكون الوقف على [أَلْسَاعَةً] ، ويبدأ بالشرط كلام جديد .

(٢) في مسند الإمام أحمد . عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ستُّ من أشراط الساعة : موتي ، وفتح بيت المقدس ، وموت يأخذ في الناس كقعاص الغنم ، وفتنة يدخل حربها بيت كل مسلم... الخ) ، أما الحديث باللفظ الذي ذكره ابن عطية فلم أقف عليه .

(٣) أخرجه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وابن ماجه ، والإمام أحمد في مسنده . وقد رُوي عن أنس ، وعن أبي هريرة رضي الله عنهما .

(وكفرسي رهان)، ويقال : شَرَطُ أو أَسْرَاطُ بسكون الراء وتخفيفها ،
 وَأَشْرَطَ الرجلُ نَفْسَهُ : أَلْزَمَهَا أُمُوراً ، وقال أوس بن حجر :
 فَأَشْرَطَ فِيهَا نَفْسَهُ وَهُوَ مُعْصِمٌ وَأَلْقَى بِأَسْبَابٍ لَهُ وَتَوَكَّلَا (١)
 وقوله تعالى : ﴿فَأَنِّي لَهُمْ﴾ الآية يحتمل أن يكون المعنى : فَأَنِّي
 لهم الخلاص أو النجاة إذا جاءتهم الذكري بما كانوا يُخبرون به في
 الدنيا فيكذبون به ويكون جاءهم العذاب مع ذلك ؟ ويحتمل أن يكون
 المعنى : فَأَنِّي لهم ذكراهم وعملهم بحسبها إذا جاءتهم الساعة ؟ وهذا
 تأويل قتادة ، ونظيره ﴿وَأَنِّي لَهُمْ أَلْتَنَافُسُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ (٢).
 وقوله تعالى : ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ الآية
 إضرابٌ عن أمر هؤلاء المنافقين وذكر الأهم من الأمر ، والمعنى :

(١) قال أوس هذا البيت من قصيدته الطويلة التي بدأها بقوله : (صَحَا قَلْبُهُ عَنْ سُكْرِهِ
 فَتَأَمَّلَا) ... والشاعر في هذا البيت يصف رجلاً تدلى بجبل من رأس جبل إلى نبتة - شجرة
 من أشجار الجبال تُتَخَذُ منها القسي - أراد أن يقطعها ليتخذ لنفسه منها قوساً ، ومعنى
 (أشْرَطَ نَفْسَهُ) : جعلها عكماً للموت ، أي علامة على الموت وبداية له ، وقد سُمِّيَ
 الشَّرَطُ شَرَطاً لأنهم يُقَدِّمُونَ على غيرهم من الجند فهم أوائل الجند . ولهم علامات تدل عليهم ،
 وقال في شرح شواهد الشافية : «ويقال : أشْرَطَ نفسه في الأمر أي خاطر بها» ، والمُعْصِمُ
 والمُعْتَصِمُ واحد . وهو المتعلق بجبل . والأسباب : الخيال . واحداً سَبَبٌ . وتوَكَّلَا :
 اعتمد على الله . والبيت في الديوان ، ولسان العرب . والطبري ، والقرطبي .

(٢) من الآية (٥٢) من سورة (سبا) ، ومعنى قول قتادة : أَنِّي لهم أن يتذكروا ويعرفوا
 ويعقلوا ويتوبوا إذا جاءتهم الساعة ؟ أي : قد فات ذلك . وعلى هذا تكون [ذِكْرَاهُمْ] ^{*}
 ابتداءً و ﴿أَنِّي لَهُمْ﴾ الخبر ، أما على الرأي الأول الذي ذكره ابن عطية فالمبتدأ محذوف ،
 والتقدير : فَأَنِّي لهم الخلاص إذا جاءتهم الذكري ؟

دُمْ عَلَى ذَلِكَ ، وَهَذَا هُوَ الْقَانُونُ فِي كُلِّ مَنْ أَمَرَ بِشَيْءٍ هُوَ مُتَلَبِّسٌ بِهِ ،
 وَهَذَا خُطَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْأُمَّةِ دَاخِلٌ فِيهِ ،
 وَاحْتِجَ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَنْ قَالَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ : إِنَّ الْعِلْمَ النَّظْرُ قَبْلَ الْقَوْلِ
 وَالْإِقْرَارُ فِي مَسْأَلَةِ أَوَّلِ الْوَاجِبَاتِ ، وَبَوَّبَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى :
 الْعِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ،
 ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ الْآيَةَ ، وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِلْمُؤْمِنِينَ
 وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ :
 (مَنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مَا يَتَصَدَّقُ بِهِ فَلْيَسْتَغْفِرْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ فَإِنَّهَا
 صَدَقَةٌ) (١) ، وَقَالَ الطَّبْرِيُّ وَغَيْرُهُ : [مُتَقَلِّبُكُمْ] : تَصَرَّفُكُمْ فِي يَقْظَتِكُمْ ،
 [وَمَثْوَاكُمْ] : فِي مَنَامِكُمْ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : [مُتَقَلِّبُكُمْ] :
 تَصَرَّفُكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ، [وَمَثْوَاكُمْ] : إِفَاقَتَكُمْ فِي قُبُورِكُمْ
 وَفِي آخِرَتِكُمْ .

(١) وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ وَأَحْمَدُ فِي صَحِيحَيْهِمَا ، عَنْ عَاصِمِ الْأَحُولِ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَرِّجٍ
 الْمَخْزُومِيِّ قَالَ : أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَكَلْتُ مِنْ طَعَامِهِ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ،
 غَفَرَ اللَّهُ لَكَ ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبِي : هَلْ اسْتَغْفَرَ لَكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَلَكَ ،
 ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ ، ثُمَّ تَحَوَّلْتُ
 فَنَظَرْتُ إِلَى خَاتَمِ النَّبُوَّةِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ جُمُعًا عَلَيْهِ خِيْلَانٌ كَأَنَّهُ الثَّالِيلُ . وَمَعْنَى « جُمُعًا » : مِثْلُ جَمْعِ
 الْأَصَابِعِ وَضَمُّهَا ، وَالْخِيْلَانُ : جَمْعُ خَالٍ وَهِيَ الشَّامَةُ فِي الْجَسَدِ ، وَالثَّالِيلُ : جَمْعُ ثُلُولٍ ،
 وَهِيَ حَبَائِبَاتُ تَعْلُو الْجَسَدَ . قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : وَهَذَا الْحَدِيثُ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ ، وَالنَّسَائِيُّ ، وَابْنُ
 جَرِيرٍ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرَقٍ عَنْ عَاصِمٍ .

قوله عز وجل :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾

هذا ابتداء وصف حال المؤمنين في جدِّهم في دين الله تعالى وحرصهم على ظهوره ، وحال المنافقين من الكسل والفشل والحرص على فساد الدين وأهله ، وذلك أن المؤمنين كان حرصهم يبعثهم على تمني الظهور وتمني قتال العدو وفضيحة المنافقين ونحو ذلك مما هو ظهور للإسلام ، فكانوا يأنسون بالوحي ويستوحشون إذا أبطأ ، والله تعالى قد جعل كل ذلك بآمادٍ مضروبة وأوقات لا تتعدى ، فمدح الله تعالى المؤمنين بحرصهم . وقولهم : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾ معناه : تتضمن إظهارنا وأمرنا بمجاهدة العدو ونحوه .

ثم أخبر تعالى عن حال المنافقين عند نزول القتال ، وقوله سبحانه : [مُحْكَمَةٌ] معناه : لا يقع فيها نسخ . وبهذا خصص « السُّورَةُ » بالإحكام ،

وأما الإحكام الذي هو بمعنى الإتقان فالقرآن كله سواء فيه ، وقال قتادة : كل سورة فيها القتال فهي مُحْكَمَةٌ ، وهو أشد القرآن على المنافقين ، وهذا أمر استقرأه قتادة من القرآن ، وليس من تفسير هذه الآية في شيء ، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه : «سُورَةٌ مُخَدَّثَةٌ» . و «المرض الذي في القلوب» استعارة لفساد المعتقد ، وحقيقة المرض والصحة في الأجسام وتُستعار للمعاني ، ونَظَرُ الخائف المُوَلَّه قريبٌ من نظر المغشي عليه ، وخشيتهم هذه لاوصف والتشبيه .

قوله تعالى : ﴿فَأُولَىٰ لَهُمْ﴾ الآية : [أُولَى] وزنها أفعل ، وهو من وَلِيكَ الشَّيْءُ يَلِيكَ ، وقالت فرقة : وزنه أفْلَع ، وفيه قلبٌ لأنه مشتق من الويل ، والمشهور من استعمال «أُولَى» أنك تقول : هذا أُولَى بك من هذا ، أي أَحَقُّ ، وقد تستعمل العرب «أُولَى لَكَ» فقط . على جهة الحذف والاختصار لما معها من القول ، فتقول على جهة الزجر والتوعُّد : «أُولَى لك يا فلان» . وهذه الآية من هذا الباب ، ومنه قوله تعالى : ﴿أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ﴾ (١) ، ومنه قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه للحسن رضي الله عنه : «أُولَى لَكَ» ، وقالت فرقة من المفسرين : [أُولَى] رفع بالابتداء و [طَاعَةٌ] خبره .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

هذا هو المشهور من استعمال «أولى» ، وقالت فرقة من المفسرين :
 ﴿أَوَّلَى لَهُمْ﴾ ابتداءً وخبر ، معناه الزجر والتوعد ، ثم اختلفت هذه
 الفرقة في معنى قوله تعالى : ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ - فقال بعضها :
 التقدير : طاعة وقول معروف أمثل ، وهذا تأويل مجاهد ومذهب
 الخليل وسيبويه ، وحسن الابتداء بالنكرة لأنها مُخَصَّصَةٌ ففيها
 بعض التعريف . وقال بعضها : التقدير : الأمر طاعة وقول معروف ،
 أي الأمر المرضي لله تعالى ، وقال بعضها : التقدير : قولهم لك يا محمد -
 على جهة الهزء والخديعة - : طاعة وقول معروف ، فإذا عزم الأمر
 كرهوه ، ونحو هذا من التقدير ، قاله قتادة ، وقال أيضاً ما معناه :
 إِنَّ تمام الكلام الذي معناه الزجر والتوعد [فَأَوَّلَى] ، وقوله تعالى :
 [لَهُمْ] ابتداءً كلام ، و [طَاعَةٌ] - على هذا القول - ابتداءً ، وخبره
 [لَهُمْ] ، والمعنى : إِنَّ ذلك منهم على جهة الخديعة ، فإذا عزم الأمر
 ناقضوا وتعاصوا .

وقوله تعالى : ﴿عَزَمَ الْأَمْرُ﴾ استعارة ، كما قال :

« قَدْ جَدَّتِ الْحَرْبُ بِكُمْ فَجِدُّوا » (١)

(١) هذا شاهد على إسناد الفعل إلى من لا يقوم به على سبيل المجاز ، فقد أسند الشاعر
 الجِدَّ إلى الحرب ، والجِدُّ ضدُّ الهزل ، وقوله : « جَدَّتِ الحرب » معناه : اشتدت ولم تعد
 هزلاً فقابلوها بالاجتهاد ولا تنهاونوا .

ومن هذا الباب «نَامَ لَيْلُكَ» ونحوه (١) . وقوله تعالى : ﴿صَدَقُوا اللَّهَ﴾
يحتمل أن يكون الصَّدَق الذي هو ضدُّ الكذب ، ويحتمل أن يكون
من قولك : «عُودٌ صَدَقٌ» (٢) ، والمعنى متقارب .

وقوله تعالى : ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾ مخاطبة لهؤلاء الذين في قلوبهم
مرض ، أي : قل لهم يا محمد . وقرأ نافع وأهل المدينة : [عَسَيْتُمْ]
بكسر السين . وقرأ أبو عمرو ، والحسن ، وعاصم ، وأبو جعفر ،
وشيبة : [عَسَيْتُمْ] بفتح السين ، والفتح أفصح لأنها من «عَسَى»
التي تصحبها «أَنَّ» . والمعنى : فهل عسى أن تفعلوا إن توليتم غير
أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ؟ وكأن الاستفهام الداخل
على «عَسَى» غير معناها بعض التغيير كما يغير الاستفهام قولك :

(١) أسند جرير النوم إلى الليل في بيته المشهور الذي قاله يخاطب ابنته أم غيلان :

لَقَدْ لُمْتُنَا يَا أُمَّ غَيْلَانَ فِي السَّرَى وَنِمْتَ وَمَا لَيْلُ الْمُطَيِّ بِنَائِمٍ

وكذلك أسند رؤية النوم إلى الليل في قوله :

«فَنَامَ لَيْلِي وَتَجَلَّى هَمِّي»

(٢) قال الخليل : «الصَّدَقُ الكامل من كل شيء» ، يقال : رجلٌ «صَدَقٌ» وامرأةٌ
«صَدَقَةٌ» ، وقال ابن درُستويه : «إنما هذا بمنزلة قولك : رَجُلٌ «صَدَقٌ» وامرأةٌ «صَدَقٌ» ،
فالصَّدَقُ من الصَّدَق بعينه . والمعنى أنه يَصْدُقُ في وصفه من صلابة وقوة وجوده . وفي
اللسان : «والصَّدَقُ» - بالفتح - : الصلْبُ من الرماح وغيرها . ورُمِحٌ «صَدَقٌ» : مُسْتَوٍ .
وكذلك سَيْفٌ «صَدَقٌ» . فقولك : «عُودٌ صَدَقٌ» معناه صلب مُسْتَوٍ جيدٌ . والمعنى
قريب لأنه يَصْدُقُ في صفته من الجودة والصلابة .

أَوَلَوْ كَانَ كَذَا وَكَذَا؟ وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ معناه: إن أعرضتم عن الحق، وقال قتادة: كيف رأيتم القوم حين تولّوا عن كتاب الله تعالى؟ ألم يسفكوا الدّم الحرام ويقطعوا الأرحام ويعصوا الرحمن عز وجل؟ وقرأ الجمهور: ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾، والمعنى: إن أعرضتم عن الإسلام، وقال كعب الأحبار ومحمد بن كعب القرظي: المعنى: إن تَوَلَّيْتُمْ أمور الناس، من الولاية، وعلى هذا قيل: إنها نزلت في بني هاشم وبني أمية، ذكره الثعلبي، وروى عبد الله بن مغفل أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ: ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ بواو مضمومة ولام مشددة مكسورة (١)، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ بضم التاء والواو وكسر اللام المشددة، على معنى: إن وَلَّيْتُمْ ولاة جور فماتم إلى دنياهم دون إمام العدل، أو على معنى: إن تَوَلَّيْتُمْ بالتعذيب والتنكيل وأفعال العرب في جاهليتها وسيرتها من الغارات والسبأ، فإنما كانت ثمرتها الإفساد في الأرض وقطيعة الرحم، وقيل: معناها: إن تَوَلَّيْتُمْ الناس ووكلكم الله تعالى إليهم. وقرأ جمهور الناس: [وَتَقَطَّعُوا] بضم التاء وشد الطاء المكسورة. وقرأ أبو عمرو: [وَتَقَطَّعُوا] بفتح التاء والطاء المخففة، وهي قراءة سلام ويعقوب.

(١) أخرجه الحاكم عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه.

وقوله تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ إشارة إلى مرضى القلوب المذكورين ، و [لَعَنَهُمُ] معناه أبعدهم ، وقوله تعالى : ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ﴾ استعارة لعدم فهمهم فكانهم عُمي وُصم .

قوله عز وجل :

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (٢٤) **إِنَّ الَّذِينَ آرْتَدُوا عَلَىٰ أَذْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ** (٢٥) **ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ** (٢٦) **فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ** (٢٧) **ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا اسْتَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ** (٢٨) *

قوله تعالى : ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ توقيف وتوبيخ ، وتدبير القرآن . زعيم بالتبيين والهدى ، و [أَمْ] منقطعة وهي المقدرة ببل وألف الاستفهام ، وقوله تعالى : ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ استعارة للريث الذي منعهم الإيمان ، ويروى أن وفد اليمن وفد على النبي صلى الله عليه وسلم وفيهم شاب ، فقرأ النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية ، فقال الفتى : عليها أقفالها حتى يفتحها الله تعالى ويفرجها ، قال عمر

رضي الله عنه : فعظم في عيني ، فما زالت في نفس عمر حتى ولي
الخلافة فاستعان بذلك الفتى (١) .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ ﴾ الآية ، قال قتادة :
إنها نزلت في قوم من اليهود كانوا قد عرفوا من التوراة أمر محمد
صلى الله عليه وسلم ، وتبين لهم الهدى بهذا الوجه ، فلما باشروا
أمره حسدوه فارتدوا عن ذلك القدر من الهدى ، وقال ابن عباس
رضي الله عنهما وغيره : نزلت في منافقين كانوا أسلموا ثم نافقت
قلوبهم ، والآية تعم كل من دخل في ضمن لفظها غابر الدهر ،
و [سَوَّلَ] معناه : رجأهم سؤلهم وأمانيتهم ، وقال أبو الفتح عن أبي
علي : إنه بمعنى : دلاهم ، مأخوذ من السؤل وهو الاسترخاء والتدلي (٢) ،

(١) أخرجه إسحق بن راهويه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه . عن عروة
رضي الله عنه : وأخرج مثله الدارقطني في الأفراد ، وابن مردويه ، عن سهل بن سعد رضي
الله عنه ، لكن جاء في آخره : (فلما ولي عمر سأل عن ذلك الشاب ليستعمله فقبل : قد مات) .
(الدر المنثور) .

(٢) السؤل : استرخاء البطن ، أو استرخاء ما تحت السرة من البطن ، قال المتنخل
الهدلي :

كالسحل البيض جلا لونهما سخ نجا الحامل الأسول

والحامل هو السحاب الأسود ، يريد أنه سحاب أسود مسترخ بطن الاسترخاء لأنه ثقیل
غزير الماء ، فالآية إذا كقوله تعالى : ﴿ فدلّا هُما بغرور ﴾ . قال ابن جني : وهذا اشتقاق
حسن أخذناه عن أبي علي .

وقرأ جمهور القراء : ﴿وَأْمَلِي لَهُمْ﴾ ، وأمال ابن كثير ، وشبل ، وابن مصرف [أَمْلى] ، وفاعل [أَمْلى] هنا قال الحسن : هو الشيطان ، جعل وعده الكاذب بالبقاء كالإبقاء ، وذلك أن الإملاء هو الإبقاء مُلَاوَةً من الدهر ، يقال : مُلَاوَةٌ وَمَلَاوَةٌ وَمِلَاوَةٌ بضم الميم وفتحها وكسرهما ، وهي القطعة من الزمان ، ومنه «المَلَوَان» ، وهما الليل والنهار ، فإذا أَمْلى الشيطان إملاءً ما فلا صحّة له إلّا بطمعهم الكاذب ، ويحتمل أن يكون الفاعل في [أَمْلى] الله عز وجل ، كأنه تعالى قال : الشيطان سؤل لهم ، وأَمْلى الله لهم ، وحقيقة الإملاء إنما هو بيد الله تعالى ، وهذا هو الأرجح . وقرأ الأعرج ، ومجاهد ، والجحدري ، والأعمش : ﴿وَأْمَلِي لَهُمْ﴾ بضم الهمزة وكسر اللام وإرسال ياء المتكلم ، ورواها الخُفَّافُ عن أبي عمرو ، وقرأ أبو عمرو : [وَأْمَلِي] بفتح الياء على بناء الفعل للمفعول ، وهي قراءة شيبة ، وابن سيرين ، والجحدري ، وعيسى البصري ، وعيسى الهمداني ، وهذا يحتمل فاعله من الخلاف ما في القراءة الأولى .

قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ الآية ، قيل : إنها نزلت في بني إسرائيل الذين تقدّم ذكرهم في تفسير قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا﴾ ، ورؤي أن قوماً من بني قريظة والنضير كانوا يَعِدُونَ

المنافقين في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلاف عليه ينصير
ومؤازرة ، فذلك قولهم : ﴿ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ﴾ . وقرأ الجمهور :
[أَسْرَارَهُمْ] بفتح الهمزة وذلك على جمع «سِرٌّ» لأن أسرارهم كانت
كثيرة ، وقرأ حمزة والكسائي ، وحفص عن عاصم : [إِسْرَارَهُمْ]
بكسر الهمزة ، وهي قراءة ابن وثاب ، وطلحة ، والأعمش ، وعيسى ،
وهو مصدر اسم للجنس .

قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ الآية ، يحتمل
أن يُتَوَعَّدُوا بها ، وأنها على معنيين : أحدهما هذا هلعهم وجزعهم
لفرض القتال وقراع الأعداء ، فكيف فزعهم وجزعهم إذا توفتتهم
الملائكة ؟ والثاني أن يريد : هذه معاصيهم وعنادهم وكفرهم ، فكيف
تكون حالهم مع الله تعالى إذا توفتتهم الملائكة ؟ وقال الطبري : المعنى :
والله أعلم بأسرارهم . فكيف علمه بها إذا توفتتهم الملائكة ؟ وهم
هنا مملوك الموت والمتصرفون معه ، والضمير في [يَضْرِبُونَ] للملائكة ،
وفي نحو هذا أحاديث تقتضي صفة الحال ، ومن قال إن الضمير
في [يَضْرِبُونَ] للكفار الذين يُتَوَفَّوْنَ فذلك ضعيف .

و ﴿ مَا أَسْخَطَ اللَّهَ ﴾ هو الكفر ، و «الرضوان» هنا هو الحق والشرع
المؤدي إلى الرضوان ، وقد تقدم القول في تفسير قوله تعالى : ﴿ أَحْبَطَ
أَعْمَالَهُمْ ﴾ ، وقرأ الأعمش : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ .

قوله عز وجل :

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ ۖ (٣٩)
وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ
يَعْلَمُ أَعْمَلَكُمْ ۖ (٤٠) وَلَنَبْلُوَنَّكَ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا
أَخْبَارَكُمْ ۖ (٤١) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ
مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلُهُمْ ۖ (٤٢) ﴾

هذه آية توبيخ للمنافقين وفضح لهم . وقوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ﴾
توقيف ، وهي « أم » المنقطعة ، وقد تقدم تفسير مرض القلب ،
وقوله تعالى : ﴿ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ ﴾ أي يبيديها من مكانها
في نفوسهم ، و « الضغن » : الحقد .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ ﴾ مقاربة في شهرتهم ، ولكنه
تعالى لم يُعَيِّنْهم قط بالأسماء والتعريف التام إبقاء عليهم وعلى قراباتهم
وإن كانوا قد عُرفوا بلحن القول ، وكانوا في الاشتهار على مراتب
كعبد الله بن أبي ، والجَدُّ بن قيس وغيرهم ممن هو دونهم في الشهرة (١) ،
و « السِّمَا » : العلامة التي كان الله تعالى يجعل لهم لو أراد التعريف

(١) هكذا في الأصول ، والصواب : « وغيرهما ممن هو دونهما في الشهرة » .

التَّامَّ بِهِمْ ، وقال ابن عباس ، والضحاك : إن الله تعالى قد عرفه بهم في سورة براءة في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ﴾ (١) ، وفي قوله تعالى : ﴿ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ﴾ (٢) ، وهذا في الحقيقة ليس بتعريف تام بل هو لفظ يشير إليهم على الإجمال لا أنه سَمِيَ أَحَدًا ، وأعظم ما رُوي في اشتهارهم أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر يوماً فأخرجت جماعة منهم من المسجد ، كأنه وسمهم بهذا ، لكنهم أقاموا على التَّبرِّي من ذلك وتمسكوا بلا إله إلا الله فحققت دماؤهم (٣) .

ورُوي عن حذيفة ما يقتضي أن النبي صلى الله عليه وسلم عرفه بهم أو ببعضهم (٤) ، وله في ذلك كلام مع عمر رضي الله عنهما .

(١) من الآية (٨٤) من سورة (التوبة) .

(٢) من الآية (٨٣) من سورة (التوبة) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥-٢٧٣) . عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة : فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : (إن فيكم منافقين ، فمن سَمِيتُ فليقم ، ثم قال : قم يا فلان . قم يا فلان ، قم يا فلان حتى سَمِيتُ ستة وثلاثين رجلاً . ثم قال : إن فيكم أو منكم منافقين فاتقوا الله) . قال : فمرَّ عمر على رجل ممن سَمِيتُ مُقَنَّعٌ قد كان يعرفه ، قال : مالك ؟ قال : فحدثه بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : بُعداً لك سائر اليوم .

(٤) أخرجه مسلم وأحمد . ولفظه كما في صحيح مسلم عن قيس بن عباد قال : قلنا لِعِمَار : أَرَأَيْتَ قَاتَلَكُمُ أَرَأَيَا رَأَيْتُمُوهُ - فإن الرأْيَ يخطئ ويصيب - أو عَهْدًا عَهْدَهُ إِلَيْكُمْ =

ثُمَّ أَخْبَرَهُ تَعَالَى أَنَّهُ سَيَعْرِفُهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ، وَمَعْنَاهُ : فِي مَذْهَبِ الْقَوْلِ وَمَنْحَاهُ وَمَقْصَدُهُ . وَهَذَا كَمَا يَقُولُ لَكَ إِنْسَانٌ قَوْلًا مَعْتَقِدًا لَهُ وَتَفْهَمُ أَنَّكَ مِنْ مَقَاطِعِ كَلَامِهِ وَهَيْئَتِهِ وَقِرَائِنِ أَمْرِهِ أَنَّهُ عَلَى خِلَافِ مَا يَقُولُ ، وَهَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ ، وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (فَعَلَّ بَعْضُكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ) الْحَدِيثُ (١) ، أَيِ أَذْهَبَ بِهَا فِي جِهَاتِ الْكَلَامِ ،

= رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ فَقَالَ : مَا عَهْدَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا لَمْ يَعْهَدِهِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً ، فَقَالَ : إِنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (إِنْ فِي أُمَّتِي - قَالَ شُعْبَةُ : وَأَحْسَبُهُ قَالَ : حَدَّثَنِي حَدِيفَةُ ، وَقَالَ غُنْدَرٌ : أَرَاهُ قَالَ : فِي أُمَّتِي اثْنَا عَشَرَ مَنَافِقًا لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يَخْرُجُونَ رِجْحًا حَتَّى يَلْجَأَ الْجَحِشُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ، ثَمَانِيَةٌ مِنْهُمْ تَكْفِيكَهُمْ الدُّبَيْلَةُ ، سَرَّاجٌ مِنَ النَّارِ يَظْهَرُ فِي أَكْتَافِهِمْ حَتَّى يَنْجُمَ مِنْ صُدُورِهِمْ) .

وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ عَطِيَّةٍ فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ عِنْدَ تَفْسِيرِ الْآيَتَيْنِ الْمَشَارِ إِلَيْهِمَا مِنْهَا هُنَا أَنَّهُ قَدْ رَوَى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَيَّنَهُمْ لِحَدِيفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَكَانَتْ الصَّحَابَةُ إِذَا رَأَوْا حَدِيفَةَ تَأَخَّرَ عَنِ الصَّلَاةِ عَلَى جَنَازَةِ رَجُلٍ تَأَخَّرُوا هُمْ عَنْهَا ، وَرَوَى عَنْ حَدِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ يَوْمًا : بَقِيَ مِنَ الْمَنَافِقِينَ كَذَا وَكَذَا ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَنْشِدْكَ اللَّهُ هَلْ أَنَا مِنْهُمْ ؟ فَقَالَ : لَا ، وَوَاللَّهِ لَا أَمَنْتُ مِنْهَا أَحَدًا بَعْدَكَ .

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي الشَّهَادَاتِ وَالْحَيْلِ وَالْأَحْكَامِ ، وَمُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَصَاحِبُ الْمَوْطَأِ فِي الْأَقْصِيَّةِ . وَالتِّرْمِذِيُّ فِي الْأَحْكَامِ ، وَالنَّسَائِيُّ فِي الْقَضَاةِ ، وَأَحْمَدُ فِي مَسْنَدِهِ (٦-٢٠٣ ، ٢٩٠ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨) ، وَلَفْظُهُ كَمَا جَاءَ فِي كِتَابِ الْحَيْلِ فِي الْبُخَارِيِّ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : (إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ ، وَلَعَلَّ بَعْضُكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ وَأَقْضَى لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْ ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ نَارٍ) . وَالْمَعْنَى : لَعَلَّ بَعْضُكُمْ أَنْ يَكُونَ أَذْهَبَ بِحُجَّتِهِ فِي الْجَوَابِ لِقُوَّتِهِ عَلَى تَصْرِيفِ الْكَلَامِ .

وقد يكون هذا اللحن مُتَّفَقاً عليه . أن يقول الإنسان قولاً يفهم السامعون منه معنى ، ويفهم الذي اتَّفَق مع المتكلم منه معنى آخر ، ومنه الحديث الذي قال سعد بن معاذ وابن رواحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم :
عضل والقارة (١) ، ومن هذا المعنى قول الشاعر :

..... وخَيْرُ الْحَدِيثِ مَا كَانَ لَحْنًا (٢)

(١) جاء في لسان العرب مادة (لحن) : « ومنه قوله صلى الله عليه وسلم وقد بعث قوماً ليخبروه خبر قريش : الحنوا لي لحناً ، وهو ما روي أنه بعث رجلين إلى بعض الثغور عينا . فقال لهما : إذا انصرفتما فالحننا لي لحناً ، أي : أشيرا إلي ولا تُفصحا ، وعرضا بما رأيتما ، أمرهما بذلك لأنهما ربما أخيرا عن العدو بأس وقوة ، فأحب ألا يقف عليه المسلمون » ، أما « عضل » والقارة « فقد ذكر أيضاً في اللسان أن عضل قبيلة ، وكذلك قارة » ، قال : « وقارة » : قبيلة . وهم عضل والدیش ابنا الهون بن خزيمه من كنانة ، سُمُوا قارةً لاجتماعهم والتفافهم لما أراد ابن الشداخ أن يفرقهم في بني كنانة ، قال شاعرهم :

دَعُونَا قَارَةً لَا تُنْفِرُونَا — فَتُجْفِلَ مِثْلَ إِجْفَالِ الظَّلِيمِ .

(٢) هذا جزء من بيت قاله مالك بن أسماء بن خازجة الفزاري . والبيت بتمامه مع بيت قبله :

وَحَدِيثُ أَلَدِّهِ هُوَ مِثْلُ — يَنْعَتُ النَّاعِتُونَ يُوْزَنُ وَزْنًا
مَنْطِقُ صَائِبٍ وَتَلَحَّنُ أَحْيَا — نَا وَخَيْرُ الْحَدِيثِ مَا كَانَ لَحْنًا

وهو في اللسان ، والأما لي للقي ، والبيان والتبيين ، والصحيح ، والتاج ، والقرطبي ، ويروي : « منطق رائع » ، وقد اختلف النقاد في معنى اللحن في البيت ، فقال بعضهم : هو التعريض وإزالة الكلام عن جهته ، وهذا من فطنة المرأة التي يصفها ، ومن هذا المعنى قول القتال الكلابي :

وَلَقَدْ لَحَنْتُ لَكُمْ لِكَيْلَا تَفْهَمُوا — وَلَحَنْتُ لَحْنًا لَيْسَ بِالْمُرْتَابِ

وقيل : بل المعنى أنها تصيب مرة وتخطئ أخرى في الإعراب ، وذلك أن اللحن بهذا المعنى يُسْتَمْلَح من الجوّاري إذا كان خفيفاً ، وقيل : بل المعنى أنها تتغنّى أحياناً بالكلام ، فمن معاني اللحن الغناء وترجيع الصوت والتطريب ، وشاهده قول يزيد بن النعمان :

أي ما فهمه عنك صاحبك وخفي على غيرك ، فأخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن أقوالهم المَحَرَّفة التي هي على خلاف عقدهم ستبين له فيعرفهم بها ، واحتج بهذه الآية من جعل الحد في التعريض بالقذف ، وقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ مخاطبة للجميع من مؤمن وكافر .

وقرأ الجمهور : [وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ] بالنون ، وكذلك [نَعْلَمَ] ، وكذلك [نَبَلُوا] ، وقرأ عاصم - في رواية أبي بكر - : [وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ] بالياء ، على معنى : وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ ، وكذلك [يَعْلَمَ] ، وكذلك [يَبْلُوا] ، وروى رويس عن يعقوب : [وَنَبَلُوا] بالرفع على القطع والإعلام بأن ابتلاءه دائم ، وكان الفضل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : اللَّهُمَّ لَا تَبْتَلِنَا فَإِنَّكَ إِن بَلَوْتَنَا فَضَحْتَنَا وَهَتَكْتَ أَسْتَارَنَا . وقوله تعالى :

لَقَدْ تَرَكْتَ فؤادَكَ مُسْتَجَنًّا
بِمِيلٍ بِهَا وَتَرَكْبُهُ يَلْحَنُ
فَلَا يَحْزُنُكَ أَيَّامٌ تَوَلَّى

وقال آخر :

وَهَاتِفَيْنِ بِشَجْوٍ بَعْدَمَا سَجَعَتْ
بَاتًا عَلَى غُصْنٍ بَانَ فِي ذُرَى فَتَنِ
وَرُقُ الْحَمَامِ بِرَجِيْعٍ وَلِإِثْنَانِ
يُرَدَّدَانِ لِحُونًا ذَاتَ أَلْوَانِ

وقيل غير ذلك من المعاني مما لا مجال له هنا .

(حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ) معناه : حتى نعلمهم مجاهدين قد خرج جهادهم إلى الوجود ، وبأن تكسبهم الذي به يتعلق ثوابهم ، وعلم الله تبارك وتعالى بالمجاهدين قديم أزلي ، وإنما المعنى ما ذكرناه .

وقوله تعالى : [وَصَدُّوا] يحتمل أن يكون المعنى : وصدوا غيرهم ، ويحتمل أن يكون غير مُتَعَدٍّ بمعنى : وصدوا هم في أنفسهم ، وقوله تعالى : (وَشَاقُّوا الرَّسُولَ) معناه : خالفوه فكانوا في شق وهو صلى الله عليه وسلم في شق ، وقوله تعالى : (مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى) ، قالت فرقة : نزلت في قوم من بني إسرائيل فعلوا هذه الأفاعيل بعد تَبَيَّنَهُمْ لأمر محمد صلى الله عليه وسلم من التَّوراة ، وقالت فرقة : نزلت في قوم من المنافقين حدث النِّفاق في نفوسهم بعد ما كان الإيمان دَاخِلَهَا ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : نزلت في المطعمين في سفرة بدر ، و «تَبَيَّنَ الْهُدَى» هو وجوده عند الداعي إليه ، وقالت فرقة : بل هي عامة في كل كافر ، وألزمهم أنهم قد تَبَيَّنَ لهم الهدى من حيث كان الهدى بَيِّنًا في نفسه ، وهذا كما تقول لإنسان يخالفك في الاحتجاج على معنى التوبيخ له : أنت مخالف في شيء واضح لا خفاء به عليك ، بمعنى أنه هو هكذا في نفسه . وقوله تعالى : (لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا) تحقير لهم ، وقوله سبحانه : (وَسَيُحِيطُ أَعْمَالُهُمْ)

أما على قول من يرى أن أعمالهم الصالحة من صلة رحم ونحوه -
تُكْتَبُ ، فيجىء هذا الإحباط فيها متمكناً ، وأما على قول من لا يرى
ذلك فمعنى [سَيُحِيطُ] أنها عبارة عن إعدام أعمالهم وإفسادها وأنها
لا توجد شيئاً مُنتَفِعاً به ، فذلك إحباط على تشبيه واستعارة .

قوله عز وجل :

* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا
أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ
فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ
مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرُكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ *

رُوى أن هذه الآية نزلت في بني أسد من العرب ؛ وذلك أنهم
أسلموا وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : نحن قد آثرناك على
كل شيء وجئناك بنفوسنا وأهلينا ، كأنهم منوا بذلك ، فنزل فيهم
(يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا) الآية (١) . ونزلت فيهم هذه الآية ،

(١) من الآية (١٧) من سورة (الحجرات) . وقد أخرج النسائي ، والبراز ، وابن مردويه
هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما .

فإن كان هذا فالإبطال الذي نُهوا عنه ليس بمعنى الإفساد التام ؛ لأن الإفساد التام لا يكون إلا بالكفر ، وإلا فالحسنات لا تُبطلها المعاصي ، وإن كانت الآية عامة على ظاهرها نهي الناس عن إبطال أعمالهم ، فالإبطال هو الإفساد التام .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ ، روي أنها نزلت بسبب أن عدي بن حاتم قال : يا رسول الله ، إن حاتمًا كانت له أفعال برٌ ، فما حاله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (هو في النار) ، فبكى عدي رضي الله عنه وولّى ، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : (أبي وأبوك وأبو إبراهيم خليل الرحمن في النار) ، ونزلت هذه الآية في ذلك (١) ، وظاهر الآية العموم في كل ما تناولته الصفة . وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَهِنُوا ﴾ معناه : فلا تضعفوا ، وهو من « وَهَنَ الرَّجُلُ » إذا ضعف ، وقرأ جمهور الناس : ﴿ وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ ﴾ ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي : ﴿ وَتَدْعُوا ﴾

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ، ذكر ذلك المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ، وفي حديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن عدي بن حاتم أنه قال : قلت : يا رسول الله ، إن أبي كان يصل الرحم ويفعل كذا وكذا ، قال : إن أباك أراد أمراً فأدركه ، يعني الذكر . (المسند ٤-٢٥٨) .

إِلَى السَّلَامِ) بالتشديد في الدال (١)، وقرأ جمهور القراء: [السَّلَامِ] بفتح السين، وقرأ حمزة، وأبو بكر عن عاصم: [السَّلَامِ] بكسر السين، وهي قراءة الحسن، وأبو رجاء، والأعمش، وعيسى، وطلحة، وهو بمعنى المسالمة، وقال الحسن بن أبي الحسن وفرقة ممن قرأ بكسر السين: إنه بمعنى الإسلام، أي: فلا تهنؤا وتكونوا داعين إلى الإسلام فقط غير مقاتلين بسببه، وقال قتادة: معنى الآية: لا تكونوا أول الطائفتين ضرعت للأخرى، وهذا حسنٌ مُلْتَمِثٌ مع قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاِجْنَحْ لَهَا﴾ (٢).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما أن يكون في موضع الحال، والمعنى: لا تهنؤا وأنتم بهذه الحال، والمعنى

(١) قال ابن جني: معنى [تَدْعُوا] هنا بالتشديد: تَنْسُبُوا إلى السَّلَامِ. كقولك: فلانٌ يدعي إلى بني فلان. أو ينتسب إليهم. ويَحْمِلُ نفسه عليهم.

(٢) ذكر الإمام الشوكاني في «فتح القدير» أن أهل العلم اختلفوا في هذه الآية، هل هي محكمة أو منسوخة؟ ف قيل: إنها محكمة، وإنها ناسخة لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاِجْنَحْ لَهَا﴾. وقيل: إنها منسوخة بهذه الآية، ولا يخفأك أنه لا مقتضى للنسخ؛ فإن الله تعالى نهي المسلمين في هذه الآية عن أن يدعوا إلى السَّلَامِ ابتداءً، ولم ينه عن قبول السَّلَامِ إذا جنح إليه المشركون، فالآيتان محكمتان ولم يتواردا على محل واحد حتى يحتاج إلى دعوى النسخ أو التخصيص - وهذا هو الذي يشير إليه ابن عطية بقوله: «وهذا حسنٌ مُلْتَمِثٌ مع قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاِجْنَحْ لَهَا﴾ الآية».

هذا وآية ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاِجْنَحْ لَهَا﴾ هي الآية (٦١) من سورة (الأنفال).

الثاني أن يكون إخباراً مقطوعاً ، أخبرهم فيه بمغيب أبرزه الوجود بعد ذلك ، و [الْأَعْلَوْنَ] معناه : الغالبون والظاهرُونَ ، من الْعُلُوِّ . وقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ معناه : بنصره ومعونته . و [يَتَر] معناه : يُنْقِص ويذهب ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : (من ترك صلاة العصر فكأنما وُتِرَ أهله وماله) (١) ، أي ذهب بجميع ذلك عنه على جهة التغلب والقهر ، والمعنى : لن يَتَرَكم ثواب أعمالكم أو جزاءها ، واللفظة مأخوذة من الوتر الذي هو الذَّحْلُ (٢) ، وذهب قوم إلى أنها من الوتر الذي هو الفردُ (٣) ، والمعنى : لن يُفردكم من ثواب أعمالكم ،

(١) أخرجه البخاري في المواقيت والمناقب ، ومسلم في المساجد والفتن ، وأبو داود في الصلاة . والترمذي في المواقيت . والنسائي في الصلاة والمواقيت ، وابن ماجه والدارمي في الصلاة . والموطأ في الوقوت . وأحمد في مسنده في أكثر من موضع . ولفظه كما جاء في البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (الذي تفوته صلاةُ العصر كأنما وُتِرَ أهله وماله) . قال أبو عبد الله : ﴿يَتَرَكمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ و تَرَّتْ الرَّجُلَ إذا قَتَلَتْهُ قَتِيلًا أو أَخَذَتْ لَهُ مَالًا . اهـ . واستشهد صاحب اللسان بهذا الحديث ثم قال : يُرَوَى بنصب الأهل ورفع . فمن نصب جعنه مفعولاً ثانياً لـ (وُتِرَ) وأضمر فيها مفعولاً لم يُسَمَّ فاعله عائداً إلى الذي فاتته الصلاة . ومن رفع لم يضمر وأقام الأهل مقام ما لم يُسَمَّ فاعله لأنهم المصابون المأخوذون . فمن ردَّ النقص إلى الرجل نصبهما . ومن رده إلى الأهل والمال رفعهما . اهـ . والوتر بفتح الواو وبكسرهما وهما لغتان .

(٢) الذَّحْلُ : الشَّارُ .

(٣) الفرد يعني ضد الشَّقْع . أي الزوج .

والأول أصح ، وفسرها ابن عباس رضي الله عنهما وأصحابه :
يَظْلِمُكُمْ .

قوله عز وجل :

﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ
وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ ۚ ﴿٣٦﴾ إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُخْفِكُمْ تَبَخُلُوا وَيُخْرِجْ
أَضْغَيْنَكُمْ ۚ ﴿٣٧﴾ هَآأَنْتُمْ هَآؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ
وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنْ نَفْسِهِ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ۚ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا
يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ۚ ﴿٣٨﴾ ۝

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ ﴾ تحقير لأمر الدنيا .
أي : فلا تهنوا في الجهاد بسببها ، ووصفها باللعب واللهو هو على أنها
وما فيها مما يختص بها لعب ولهو ، وإلا ففي الدنيا ما ليس لعباً ولا لهواً
وهو الطاعة وأمر الآخرة وما جرى مجراه ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُؤْمِنُوا
وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ ﴾ معناه : هذا هو المطاوب منكم لا غيره ،
لا تسألون أموالكم أن تنفقوها في سبيل الله ، وقال سفيان بن عيينة :
المعنى : لا يسألكم كثيراً من أموالكم إخفاءً ، إنما يسألكم غيضاً
من فيض ، ربع العشر ، فطيبوا أنفسكم ، ثم قال تعالى منبهاً على

خُلِقَ ابن آدم : (إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُخْفِكُمْ تَبَخَّلُوا) ، والإحفاء هو
أشد السؤال ، وهو المُخْجِل الذي يستخرج ما عند المسئول كرهاً ،
ومنه حفاء الرجل والتَّحْفِي من البحث عن الشيء ، وقوله تعالى :
[تَبَخَّلُوا] جزم على جواب الشرط ، وقرأ جمهور القراء : [وَيُخْرِجُ]
جزماً عطفاً على [تَبَخَّلُوا] ، وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو : [وَيُخْرِجُ]
بالرفع على القطع بمعنى : وهو يُخْرِجُ ، وحكاها أبو حاتم عن عيسى ،
وقرأت فرقة : [وَيُخْرِجُ] بالنصب على معنى : يكن بُخْلٌ وإخراج ،
فلما جاءت العبارة بفعل دلَّ على أنَّ « أَنْ » التي مع الفعل بتأويل المصدر
الذي هو الإخراج ، والفاعل في قوله تعالى : [وَيُخْرِجُ] على كل
الاختلافات المذكورة يحتمل أن يكون الله تعالى ، ويحتمل أن يكون
البخل الذي يتضمنه اللفظ ، ويحتمل أن يكون السؤال الذي يتضمنه
اللفظ أيضاً ، وقرأ ابن عباس ، ومجاهد ، وابن سيرين ، وابن محيصن ،
وأيوب : [وَيُخْرِجُ] بفتح الياء [أَضْغَانُكُمْ] رفعاً على أنها فاعلة ،
وروي عنهم [وَتُخْرِجُ] بضم التاء وفتح الراء على ما لم يُسمَّ فاعله ،
وقرأ يعقوب : [وَنُخْرِجُ] بضم النون وكسر الراء [أَضْغَانُكُمْ] نصباً .
و « الأضغان » كما قلنا : معتقدات السوء ، وهذا الذي كان يُخاف
أن يعترى المسلمين هو الذي تقرب به محمد بن مسلمة إلى كعب بن

الأشرف حين قال له : إن هذا الرجل قد أكثر علينا وطلب منا الأموال .

ثم وقف تعالى عباده المؤمنين على جهة التوبيخ لبعضهم : ﴿ هَآئِنتُمْ هَؤُلَاءِ ﴾ ، وكرر هاء التنبيه تذكيراً . وقوله تعالى : ﴿ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ يحتمل معنيين : أحدهما : فإنما يبخل عن شح نفسه ، والآخر أن تكون بمنزلة « على » لأنك تقول : بخلت عليك بكذا وبخلتُ عنك بمعنى أُمسكتُ عنك . وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ معنى مطرد في قليل الأشياء وكثيرها .

وقوله تعالى : ﴿ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ قيل : الخطاب لقريش ، والقوم الغير هم أهل المدينة ، وقال عبد الرحمن بن جبير وشريح ابن عبيد (١) : الخطاب لمن حضر المدينة ، والقوم الغير هم أهل اليمن ، وقالت فرقة : الخطاب لجميع المسلمين والمشركين والعرب حينئذ ، والقوم الغير فارس . وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن هذا وكان سلمان إلى جنبه ، فوضع يده على

(١) أما عبد الرحمن بن جبير — بجيم موحدة — مصغراً — فهو ابن نفيير — بالتصغير أيضاً — الحضرمي الحمصي ، قال عنه الحافظ ابن حجر العسقلاني : « ثقة » ، من الرابعة ، مات سنة ثمان عشرة .
وأما شريح . فهو شريح بن عبيد بن شريح . الحضرمي الحمصي ، ثقة . من الثالثة ، وكان يرسل كثيراً . مات بعد المائة . (تقريب التهذيب) .

فخذه وقال : (قوم هذا ، لو كان الدين في الثريا لئاله رجال من أهل فارس) (١) ، وقوله تعالى : (ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ) معناه : في الخلاف والتولي والبخل بالأموال ونحو هذا ، وحكى الثعلبي قولاً أن القوم الغير (٢) هم الملائكة عليهم السلام .

كامل تفسير سورة محمد والحمد لله رب العالمين

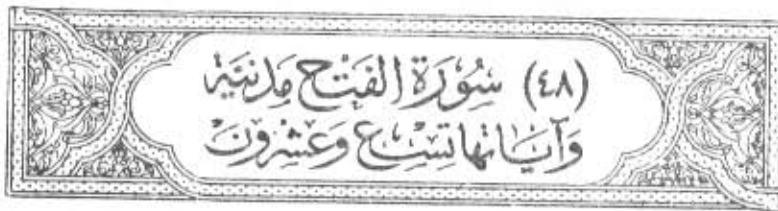
(١) أخرجه سعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وذكره السيوطي في الدر المنثور بلفظ : (هُمُ الْقُرْسُ . هذا وقومه) . واللفظ في تفسير ابن جرير : (هَذَا وَقَوْمُهُ) .

(٢) جاء في الصَّبَّان عند الكلام على ما يُسَمِّيهِ بعض النحاة : « الإضافة شبه المحضة » وما كان منها شديد الإبهام لا يقبل التعريف كغير ومثل وشبه ما نصُّه : « هذه الكلمات كما لا تتعرف بالإضافة إلا فيما استثنى لا تتعرف بـ (أل) أيضاً ، لأن المانع من تعريفها بالإضافة مانع من تعريفها بـ (أل) . ونقل الشنواني عن السيّد أنه صرّح في حواشي الكشاف بأن (غيراً) لا تدخل عليها (أل) إلا في كلام المولدين ، وجاء في المصباح المنير : « يكون وصفاً للنكرة ، تقول : جاءني رجل غيرك ، وقوله تعالى : (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ) إنما وصف بها المعرفة لأنها أشبهت المعرفة بإضافتها إلى المعرفة ، فعوملت معاملةً لها ، ومن هنا اجترأ بعضهم فأدخل عليها (أل) ... ولك أن تمنع الاستدلال وتقول : إن الإضافة هنا ليست للتعريف بل للتخصيص » . وقال البغدادى : « لا تدخل الألف واللام على (غير) لأن المقصود من إدخال (أل) على النكرة تخصيصها بشيء معين ، فإذا قيل : (الغير) اشتملت هذه اللفظة على ما لا يحصى ولم تتعرف بـ (أل) كما أنها لا تتعرف بالإضافة ، فلم يكن لإدخال (أل) عليها فائدة » .

وارتضى مؤتمر المجمع اللغوي المنعقد بالقاهرة في دورته الخامسة والثلاثين في فبراير ١٩٦٩ الرأي الذي يقول : « إن كلمة (غير) الواقعة بين متضادين تكتسب التعريف من المضاف إليه المعرفة ، ويصح في هذه الصورة التي تقع فيها بين متضادين وليست مضافة أن تقرن بـ (أل) فتستفيد التعريف » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



هذه السورة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم مُنْصَرَفَهُ من الحديبية ، وفي ذلك أحاديث كثيرة عن أنس وابن مسعود (١) وغيرهما تقتضي صحته ، وهي بهذا في حكم المدني ، وقال الزهري عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما : إنها نزلت بالمدينة ، والأول أصح ، ويشبه أن منها بعضاً نزل بالمدينة ، وأما صدر السورة ومعظمها فكما قلنا ، ويقضي بذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم

(١) من ذلك ما أخرجه مسلم في صحيحه عن قتادة أن أنس بن مالك حدثهم قال : لما نزلت : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ، لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ إلى قوله : ﴿ فَتَوَزَّأ عَظِيمًا ﴾ مرجعته من الحديبية وهم يخالطهم الحزن والكآبة ، وقد نحر الهدي بالحديبية فقال : (لقد أنزلت علي آية هي أحب إلي من الدنيا جميعاً) . وما أخرجه ابن أبي شيبه ، وأحمد ، والبخاري في تاريخه ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن جرير ، والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، قال : أقبلنا من الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينما نحن نسير إذ أتاه الوحي ، وكان إذا أتاه اشتد عليه ، فسُرِّي عنه وبه من السرور ما شاء الله ، فأخبرنا أنه أنزل عليه ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ .

لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وهما في تلك السفرة : (لقد أنزلت عليّ سورة هي أحب إلي من الدنيا بما فيها) (١) . ذكر مكي هنا أن المعنى : بشرط أن تبقى الدنيا ولا تفنى . وفي هذا نظر . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج في تلك الوجهة ليعتمر بمكة فصده المشركون - والقصة مشهورة - سنة ست من الهجرة .

قوله عز وجل :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۖ ﴾ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ۚ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ۚ وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝

(١) حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما ، وأخرجه أحمد في مسنده ، والترمذي وقال : حديث حسن غريب صحيح ، والنسائي ، وابن حبان ، وابن مردويه ، ولفظه كما جاء في البخاري : عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسير في بعض أسفاره وعمر بن الخطاب يسير معه ليلاً ، فسأله عمر بن الخطاب عن شيء فلم يجبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم سأله فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، فقال عمر بن الخطاب : ثكلت أم عمر ، فنزرت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات . كل ذلك لا يجيبك ، قال عمر : فحركت بعيري ثم تقدمت أمام الناس وخشيت أن ينزل في القرآن ، فما نشبت أن سمعت صارخاً يصرخ بي ، فقلت : لقد خشيت أن يكون نزل في قرآن . فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه ، فقال : لقد أنزلت عليّ الليلة سورة هي أحب إلي مما طلعت عليه الشمس . ثم قرأ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۖ ﴾

قال قوم - فيما حكى الزهراوي - : ﴿ فَتَحْنَا لَكَ ﴾ يريد به فتح مكة ، وحكاه الثعلبي أيضاً ، ونسبه النقاش إلى الكلبي ، وأخبره تعالى به على معنى : قضينا به ، و «الْفَتْاحُ» : القاضي بلغة اليمن ، وقيل : المراد إنا فتحنا لك بأن هديناك إلى الإسلام ليغفر ، وقال جمهور الناس - وهو الصحيح الذي تعضده قصة الحديبية - : إن قوله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ ﴾ إنما معناه : إِنَّ ما يَسِّرُ الله تعالى لك في تلك الخرجة فتحٌ مبين تستقبله ، ونزلت السورة مؤنسة للمؤمنين لأنهم كانوا استوحشوا من ردِّ قريش لهم ، ومن تلك المهادنة التي هادَنَهم النبي صلى الله عليه وسلم ، فنزلت السورة مؤنسة لهم في صدِّهم عن البيت ، ومذهبةً ما كان في قلوبهم ، ومنه حديث عمر رضي الله عنه الشهير ، وما قال للنبي صلى الله عليه وسلم ولأبي بكر رضي الله عنه ، واستقبل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في تلك السفرة أنه هادنَ عدُوَّه ريثما يتقوى هو ، وظهرت على يديه آية الماء في بئر الحديبية حيث وضع فيه سهمه وثاب الماء حتى كفى الجيش ، واتفقتبيعة الرضوان ، وهي الفتح الأعظم ، قاله جابر بن عبد الله ، والبراء بن عازب ، وبلغ هديته محلّه ، قاله الشعبي ، واستقبل فتح خيبر ، وامتلات أيدي المؤمنين خيراً ، ولم يفتتحها إلا أهل الحديبية ، لم يشركهم

فيها أحد ، وفيه نظر ؛ لأن أصحاب السفينة مع جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه شاركوهم في القسم ، فينبغي أن يقال : لم يشركهم أحد من المتخلفين عن الحديبية . واتفقت في ذلك الوقت ملحمة عظيمة بين الروم وفارس ظهرت فيها الروم فكانت من جملة الفتح على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسُرَّ بها هو والمسلمون لظهور أهل الكتاب على المجوس وانخضاد الشوكة العظمى من الكفر .

ثم عظم الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم وشرفه بأن أنبأه بأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فقوله تعالى : [لِيَغْفِرَ] هي لام « كي » ، لكنها تخالفها في المعنى ، والمراد هنا أن الله تعالى فتح لك لكي يجعل لك ذلك أمانة وعلامة لغفرانه لك ، فكانها لام صيرورة ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : (لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة هي أحب إليَّ من الدنيا) (١) ، وقال الطبري وابن كيسان : المعنى :

(١) هذا الحديث سبق تخريجه في صفحة (٤٢٨) ، وقد أخرج البخاري . وابن جرير . وابن مردويه ، عن البراء رضي الله عنه . قال : تعدون أنتم الفتح فتح مكة . وقد كان فتح مكة فتحاً ، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية ... الحديث . كذلك أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس رضي الله تعالى عنه قال : أنزلت على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ...﴾ الآية ، فقال لقد أنزلت عليَّ آية هي أحب إليَّ مما على الأرض... الحديث .

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ، وَبَنِيَا هَذِهِ
الآيَةِ مع قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ (١) السورة ، وهذا
ضعيف من وجهين : أحدهما أَنَّ السُّورَةَ ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ ﴾ إِنَّمَا نَزَلَتْ
فِي آخِرِ مَدَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَاعِيَةً لَهُ نَفْسَهُ حَسْبُ مَا قَالَ
ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عِنْدَمَا سَأَلَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ ذَلِكَ ،
وَالْآخَرُ أَنَّ تَخْصِصَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالتَّشْرِيفِ كَانَ يَذْهَبُ
لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مُخَاطَبٌ بِهَذَا الَّذِي قَالَ الطَّبْرِيُّ ، أَيِ سَبِّحْ
وَاسْتَغْفِرْ لَكَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ ، وَلَا يَقْتَضِي هَذَا أَنَّ الْغُفْرَانَ قَدْ وَقَعَ ،
وَمَا قَدَّمَاهُ أَوَّلًا يَقْتَضِي وَقُوعَ الْغُفْرَانِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،
وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
حِينَ قَامَ حَتَّى تَوَرَّعَتْ قَدَمَاهُ : أَتَفْعَلُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ
لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ؟ قَالَ : (أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا) ؟ (٢)

(١) الآية (١) من سورة (النصر) .

(٢) أخرجه ابن المنذر ، وابن مردويه ، وابن عساكر ، عن عائشة رضي الله تعالى عنها ،
قالت : لما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ الآية ...
اجتهد في العبادة ، فقليل : يا رسول الله ما هذا الاجتهاد . وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك
وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ وأخرج مثله ابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء
والصفات ، وابن عساكر ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وأخرج مثله ابن أبي شيبة وأحمد =

فهذا نص في أن الغفران حكم قد وقع ، وقال مُنذر بن سعيد : المعنى : مجاهدتك في الله تعالى المقترنة بالفتح هي ليغفر ، وحكى الثعلبي عن الحسين بن الفضل أن المعنى : إنا فتحنا لك فاستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ليغفر لك الله ... الآية ، وهذا نحو قول الطبري .

وقوله تعالى : ﴿ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ قال سفيان الثوري : ﴿ مَا تَقَدَّمَ ﴾ يريد به قبل النبوة و ﴿ مَا تَأَخَّرَ ﴾ كل شيء لم يعمله ، وهذا ضعيف ، وإنما المعنى التشريف بهذا الحكم ولو لم تكن له ذنوب البتة ، وأجمع العلماء على عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الكبائر ومن الصغائر التي فيها رذائل ، [وجوز بعضهم الصغائر التي ليست برذائل] (١) ، واختلفوا هل وقع ذلك من محمد صلى الله عليه وسلم أو لم يقع ؟ وحكى الثعلبي عن عطاء الخراساني أنه قال : ﴿ مَا تَقَدَّمَ ﴾ هو ذنب آدم وحواء عليهما السلام ، أي ببركتك ،

= في الزهد عن الحسن رضي الله عنه ، وكذلك أخرج مثله أبو يعلى ، وابن عساكر ، عن أنس رضي الله عنه ، وفي البخاري عن عائشة رضي الله عنها أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه ، فقالت عائشة : لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً ؟ وأخرجه مسلم في الصحيح من رواية عبد الله بن وهب .

(١) سقطت هذه العبارة التي بين العلامتين [....] من بعض النسخ .

و ﴿مَا تَأَخَّرَ﴾ هي ذنوب أُمَّتِكَ ، بدعائك ، قال الثعلبي : الإمامية لا تجوز الصغائر على النبي صلى الله عليه وسلم ولا على الإمام ، والآية تردُّ عليهم ، وقال بعضهم : ﴿مَا تَقَدَّمَ﴾ هو قوله عليه الصلاة والسلام يوم بدر : (اللَّهُمَّ إِن تَهْلِكْ هَذِهِ الْعَصَابَةَ لَمْ تُعْبِدْ) ، و ﴿مَا تَأَخَّرَ﴾ هو قوله عليه الصلاة والسلام يوم حنين : (لَنْ نُغْلِبَ الْيَوْمَ مِنْ قِلَّةٍ) . وهذا كله مُعْتَرَضٌ .

و «إِتِمَامُ النِّعْمَةِ عَلَيْهِ» هو إظهاره وتغليبُه على عدوه والرضوانُ في الآخرة ، وقوله تعالى : ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ معناه : إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، فحذف الجار فتعدى الفعل ، وقد يتعدى هذا بغير حرف جر . و «النصر العزيز» هو الذي معه غلبة العدو والظهورُ عليه ، والنصر غير العزيز هو الذي مُضْمَنُهُ الحماية ودفع العدو فقط . و «إِنْزَالُ السَّكِينَةِ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ» - وهي فعيلة من السكون - هو تسكينُها لتلك الهدنة مع قريش حتى اطمأنت وعلموا أن وعد الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم حق ، فازدادوا بذلك إيماناً إلى إيمانهم الأول وكثر تصديقهم ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : لما آمنوا بالتوحيد زادهم العبادات شيئاً شيئاً ، فكانوا يزيدون إيماناً حتى قال تعالى لهم : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (١) فمُنَحَّمُ أَكْمَلُ

إيمان لأهل السموات والأرض ، لا إله إلا الله ، وفسر ابن عباس رضي الله عنهما السكينة بالرحمة . وقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ إشارة إلى تسكين النفوس أيضاً ، وأن تكون مسالمة ، لأنه ينصر متى شاء وعلى أي صورة شاء ، مما لا يُدبره البشر ، ومن جنده السكينة التي أنزلها في قلوب أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فثبتت بصائرهم ، وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ ﴾ أي : ويكون : فهي دالة على الوجود بهذه الصفة لا مُعَيَّنة وقتاً ماضياً ، و « العلم » و « الإحكام » صفتان مقتضيتان عزة النصر لمن أراد الموصوف بهما نصره .

قوله عز وجل :

﴿ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَكِيمًا ۝ ﴾

قوله تعالى : ﴿ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ معناه : فازدادوا وتلقوا ذلك ، فتمكن - بعد ذلك - قوله تعالى : ﴿ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

أي بتكسبهم القبول لما أنزل الله تعالى عليهم ، ويروى في معنى هذه الآية أنه لما أنزلت ﴿وَمَا أَذْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ (١) تكلم فيها أهل الكتاب ، وقالوا : كيف نتبع من لا يعرف ما يفعل به وبالناس معه ، فبين الله تعالى في هذه السورة ما يفعل به بقوله تعالى : ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ، فلما سمعها المؤمنون قالوا : هنيئاً مريئاً ، هذا لك يا رسول الله فما لنا ؟ فنزلت هذه الآية ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (٢) ، فعرفه الله تعالى ما يفعل به وبالمؤمنين والكافرين ، وذكر النقاش

(١) من الآية (٩) من سورة (الأحقاف) .

(٢) أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ ، يقول : لست بأول الرسل ، وما أدرى ما يفعل بي ولا بكم . فأنزل الله بعد هذا ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ ، وقوله : ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ﴾ الآية ، فأعلم الله سبحانه نبيه ما يفعل به وبالمؤمنين جميعاً .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، ومسلم ، والترمذي ، وابن جرير ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في المعرفة ، عن أنس رضي الله عنه ، قال : أنزلت على النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مرّجعه من الحديثية ، فقال : لقد أنزلت علي آية هي أحب إلي مما على الأرض ، ثم قرأها عليهم ، فقالوا : هنيئاً مريئاً يا رسول الله ، قد بين الله لك ماذا يفعل بك ، فماذا يفعل بنا ؟ فنزلت عليه ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ حتى بلغ ﴿فَوَرَأً عَظِيمًا﴾ .

أَن رَجُلًا مِنْ عَكَ (١) قَالَ : هَذَا لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَا لَنَا ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هِيَ لِي وَلَا تُمَتِّي كَهَاتَيْنِ ، وَجَمَعَ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ فِيهِ تَرْتِيبُ الْجَمَلِ فِي السَّرْدِ لَا تَرْتِيبُ وَقُوعِ مَعَانِيهَا ؛ لِأَنَّ تَكْفِيرَ السَّيِّئَاتِ قَبْلَ إِدْخَالِهِمُ الْجَنَّةَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ قِيلَ مَعْنَاهُ : مَنْ قَوْلُهُمْ : ﴿ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ ﴾ الْآيَةُ (٢) ، فَكَأَنَّهُمْ ظَنُّوا بِاللَّهِ تَعَالَى ظَنَّ سَوْءٍ فِي جِهَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنِينَ ، وَقِيلَ : ظَنُّوا بِاللَّهِ تَعَالَى ظَنَّ سَوْءٍ إِذْ هُمْ يَعْتَقِدُونَهُ بِغَيْرِ صِفَاتِهِ ، فَهِيَ ظُنُونُ سَوْءٍ مِنْ حَيْثُ هِيَ كَاذِبَةٌ مُؤَدِّيَةٌ إِلَى عَذَابِهِمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ كَأَنَّهُ يُقْوَى التَّأْوِيلُ الْآخِرُ ، أَيِ : أَصَابَهُمْ مَا أَرَادُوا بِكُمْ . وَقَرَأَ جَمْهُورُ الْقُرَاءِ : ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ كَالْأَوَّلِ ، وَرَجَحَهَا الْفَرَاءُ وَقَالَ : قَلَّمَا تَضُمُّ الْعَرَبُ السِّينَ ، قَالَ أَبُو عَلِيٍّ : هُمَا مُتَقَارِبَانِ وَالْفَتْحُ أَشَدُّ مِطَابَقَةً فِي اللَّفْظِ ، وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ ، وَأَبُو عَمْرٍو : ﴿ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ بِفَتْحِ السِّينِ ، وَ ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ بِضَمِّ السِّينِ ؛ وَهُوَ اسْمٌ ، أَيِ : دَائِرَةُ السَّوْءِ الَّتِي أَرَادُوهُ بِكُمْ فِي ظَنِّهِمُ السَّوْءَ ، وَقَرَأَ

(١) اسم قبيلة .

(٢) مَنْ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ (١٢) مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ : ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾ .

الحسن بضم السين في الموضعين ، وروي ذلك عن أبي عمرو ومجاهد .
وسمى تعالى المصيبة التي دعا بها عليهم دائرة من حيث يقال في الزمان :
إنه يستدير ، ألا ترى أن السنة والشهر كأنها مستديرات تذهب على
ترتيب وتجيء من حيث هي تقديرات للحركة العظمى ، ومنه قول
النبي صلى الله عليه وسلم : (إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق
الله السموات والأرض) (١) ، فيقال للأقدار والحوادث التي هي في طي
الزمان : دائرة لأنها تدور بدوران الزمان ، كأنك تقول : إن أمر

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة التوبة : وفي بدء الخلق والمغازي والأصاحي والتوحيد ،
وأخرجه مسلم في القسامة . وأبو داود في المناسك . والإمام أحمد في مسنده (٣٧-٥ ، ٧٣) .
ولفظه كما في مسند أحمد عن أبي بكرة أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب في حجة فقال :
(ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً
منها أربعة حُرُم ، ثلاث متواليات : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين
جمادى وشعبان . ثم قال : ألا أيُّ يوم هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا
أنه سيسميه بغير اسمه . قال : أليس يوم النحر ؟ قلنا : بلى . ثم قال ، أي شهر هذا ؟ قلنا :
الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . فقال : أليس ذا الحجة ؟ قلنا :
بلى . ثم قال : أي بلد هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير
اسمه . قال : أليست البكة ؟ قلنا : بلى ، قال : فإن دماءكم وأموالكم — قال : وأحسبه
قال وأعراضكم — عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ، وستلقون
ربكم فيسألکم عن أعمالکم . ألا لا ترجعوا بعدي ضللاً يضرب بعضكم رقاب بعض ،
ألا هل بلغت ؟ ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب ، فعلن من يبلّغه يكون أوعى له من بعض
من يسمعه) قال محمد : وقد كان ذلك . قال : قد كان بعض من بلّغه أوعى من بعض سامعيه .

كذا يكون في يوم كذا من سنة كذا ، فمن حيث يدور ذلك اليوم حتى يبرز إلى الوجود تدور هي أيضاً فيه ، ومن هذا قول الشاعر :

• ودَائِرَاتِ الدَّهْرِ أَنْ تَدُورَا • (١)

ومنه قول الآخر :

وَيَعْلَمُ أَنَّ النَّائِبَاتِ تَدُورُ (٢)

وهذا كثير ، ويحسن أن تسمى المصيبة دائرة من حيث كمالها أن تحيط بصاحبها كما يحيط شكل الدائرة على السواء من النقطة ، وقد أشار النقاش إلى هذا المعنى .

و « غضب الله تعالى » متى ما قصد به الإرادة فهو صفة ذات ، ومتى ما قصد به ما يظهر من الأفعال على المغضوب عليه فهو صفة فعل . و [لَعَنَهُمْ] : أبعدهم ، وقال تعالى في هذه : ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ فذكر

(١) هذا البيت من الرجز ، وقبله يقول الرجز :

تَرَدُّ عَنْكَ الْقَدَرُ الْمَقْدُورَا

والدائرات : جمع دائرة ، وهي ما أحاط بالشئ من كل ناحية ، ودائرات الدهر هي حوادثه التي يخفيها الزمان ، تدور بدوران الزمان ، فمرة تصيب هذا ، ومرة تصيب ذاك ، ولم أقف على اسم القائل .

(٢) النائبات : جمع نائبة ، وهي المصيبة التي تصيب الإنسان ، أو الكارثة التي تنزل به ، ومعنى هذا الشطر من الشعر أن مصائب الدهر تدور على الناس ولا تترك أحداً ، فهي مرة تصيب واحداً ومرة ثانية تصيب غيره . وهكذا . ولم أقف على بقية البيت ولا قائله .

صفة العزة من حيث تقدم الانتقام من الكفار ، وفي التي قبل قرن بالحكمة العلم من حيث وعد بمغيبات ، وقرن باللفظتين ذكر جنود الله تعالى التي منها السكينة ومنها نقمته من المنافقين والمشركين ، فلكل لفظ وجهه من المعنى ، وقال ابن المبارك في كتاب النقاش : جنود الله في السماء الملائكة ، وفي الأرض الغزاة في سبيل الله تعالى .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذا بعض من كل .

قوله عز وجل :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ ۖ اللَّهُ فسيؤتيه أجراً عظيماً ۝ ﴾

من جعل الشاهد محصل الشهادة من يوم يحصلها فقولته تعالى : [شاهداً] حال واقعة ، ومن جعل الشاهد مؤدي الشهادة فهي حال مستقبلة . وهي التي يسميها النحاة : المقدرة . والمعنى : شاهداً على الناس بأعمالهم

وأقوالهم حين بَلَغَتْ إليهم الشَّرْع ، ومبشراً أهل الطاعة برحمة الله تعالى ، ونذيراً لأهل الكفر ينذرهم من عذاب الله عز وجل .

وقرأ جمهور الناس في كل الأمصار: [لِتُؤْمِنُوا] بالتاء على مخاطبة الناس ، على معنى: قُلْ لهم . وكذلك الأفعال الثلاثة بعد ، وقرأ أبو عمرو بن العلاء ، وابن كثير ، وأبو جعفر: [لِيُؤْمِنُوا] بالياء على استمرار خطاب محمد صلى الله عليه وسلم ، وكذلك الأفعال الثلاثة بعد ، وقرأ الجحدري: [وَتَعَزَّوْهُ] بفتح التاء وسكون العين وضم الزاي . وقرأ محمد بن السميع اليماني ، وابن عباس رضي الله عنهما: [وَتَعَزَّوْهُ] بزاءين ، من العزة ، وقرأ جعفر بن محمد: [وَتَعَزَّوْهُ] بفتح التاء وسكون العين وكسر الزاي ، ومعنى [تَعَزَّوْهُ]: تعظّموه وتكبروه ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال قتادة: معناه: تنصروه بالقتال ، وقال بعض المتأولين: الضمائر في قوله تعالى: ﴿وَتَعَزَّوْهُ وَتُوقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ هي كلها لله تعالى ، وقال الجمهور: ﴿وَتَعَزَّوْهُ وَتُوقِّرُوهُ﴾ هما للنبي صلى الله عليه وسلم: و [تُسَبِّحُوهُ] هي لله تعالى ، وهي صلاة البردئين (١) ،

(١) قال في اللسان: البردان والأبردان: الظل والنسيء ، سُمِّيَا بذلك لبردهما ... وقيل: هما الغداة والعشي . وفي الحديث: (من صلى البردتين دخل الجنة) ، وفي حديث ابن الزبير: (كان يسير بنا الأبردتين) ، وفي حديثه الآخر مع فضالة بن شريك: (وسير بها البردتين) .

وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه : «وَتَسَبِّحُوا اللَّهَ» ، وفي بعض ما حكى أبو حاتم : «وَتَسَبِّحُونَ اللَّهَ» بالنون ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما : «وَلْيُسَبِّحُوا اللَّهَ» ، و «البُكْرَةُ» : الغُدُو ، و «الأَصِيلُ» : «العَشِيَّةُ» .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ يريد تعالى : فيبيعة الرضوان ، وهيبيعة الشجرة حين أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الأُهبَة لقتال قريش لما باغوه مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه رسوله إليهم ، وذلك قبل أن ينصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحُدَيْبِيَّة ، وكان في ألف وأربعمائة رجل ، قال النقاش : وقيل : كان في ألف وثمانمائة ، وقيل : وسبعمائة ، وقيل : وستمائة ، وقيل : ومائتين ، وبايعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصبر المتناهي في قتال العدو إلى أقصى الجهد ، حتى قال سلمة بن الأكوع (١) وغيره : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الموت ، وقال عبد الله بن عمر ، وجابر بن عبد الله رضي الله عنهما : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا نَفِرَ ، و «المُبَايَعَة» في هذه الآية مفاعلة من البيع ، لأن الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، وبقي

(١) هو سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي ، أبو مسلم أو أبو إياس ، شهد بيعة الرضوان ، ومات سنة أربع وسبعين . (تقريب التهذيب) .

اسم البيعة بعد على معاودة الخلفاء والملوك ، وعلى هذا سمت الخوارج
أنفسها الشراة ، أي اشتروا بزعمهم الجنة بأنفسهم ، ومعنى ﴿ إِنَّمَا
يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ أن صفقتهم إنما يُمضِيها الله تعالى ويمنح الثمن ، وقرأ
تمام بن العباس بن عبد المطلب (١) : ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ ، قال أبو
الفتح : ذلك على حذف المفعول لدلالة الأول عليه وقربه منه (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ يَدُ اللَّهِ ﴾ ، قال جمهور المتأولين : اليد بمعنى
« النعمة » ، أي نعمة الله تعالى في نفس هذه المبايعة - لما يُستقبل من
محاسنها - فوق أيديهم التي يمدونها لبيعتك ، وقال آخرون : يدُ
الله هنا بمعنى قوة الله تعالى فوق قواهم ، أي في نصرك ونصرهم ،
فالآية - على هذا - تعدد نعمة عليهم مستقبلة مُخْبِرٌ بها ، وعلى التأويل
الأول تعدد نعمة حاصلة يشرف بها الأمر ، قال النقاش : يدُ الله
في الثواب فوق أيديهم . وقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ ﴾ أي نقض هذا

(١) هو تمام بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي ، أمُّه أمٌ ولد . كان العباس يقول :
تَمَّوْا بِتَمَّامٍ فَصَارُوا عَشْرَةً ، قال عنه ابن السكِّن : « كان أصغر إخوته ، وكان أشد قريش
بطشاً » ، وقال ابن حبان : « حديثه عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل ، وإنما رواه عن أبيه » ،
وقد ولي تمام المدينة في زمان علي كرم الله وجهه . (الإصابة) .

(٢) وبقية كلام أبي الفتح كما جاء في المحتسب : « فكأنه قال : إن الذين يبايعونك إنما
يبايعونك لله ، فحذف المفعول الثاني لقربه من الأول ، وأنه أيضاً بلفظه وعلى وضعه . وهذا
المعنى هو راجع إلى معنى القراءة العامة ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ . أي : إنما يفعلون ذلك
لله ، إلا أنها أفخم معنى من قوله : (لله) . أي : إنما المعاملة في ذلك معه ، فهو أعلى لها
وأرجح بها » (المحتسب ٢-١٧٥) .

العهد فإنما يجني على نفسه ، وإياها يُهلك ، فنكثه عليه لا له ، وقرأ جمهور القراء : ﴿ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ ﴾ بالنصب على التعظيم ، وقرأ ابن أبي إسحق : ﴿ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ ﴾ بالرفع على أن الله تعالى هو المعاهد ، وقرأ حفص عن عاصم : [عَلَيْهِ] مضمومة الهاء ، وروي ذلك عن ابن أبي إسحق ، و « الأجر العظيم » : الجنة ، لا يفنى نعيمها ولا ينقضي أمدها . وقرأ عاصم ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، والعامّة : [فَسَيُؤْتِيهِ] بالياء ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر : [فَسَيُؤْتِيهِ] بالنون ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « فَسَوْفَ يُؤْتِيهِ اللَّهُ » .

قوله عز وجل :

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسِّنْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝١١٦ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنًّا سَوْءًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ۝١١٧ ﴾

« المخلفون من الأعراب » قال مجاهد وغيره : هم جُهينة ومُزينة ومن كان حول المدينة من القبائل ، فإنهم في خروج رسول الله صلى الله عليه

وسلم إلى عُمرته عام الحديبية رأوا أنه يستقبل عدواً عظيماً من قريش وثقيف وكنانة والقبائل المجاورة وهم الأحابيش . ولم يكن تمكن إيمان أولئك المجاورين للمدينة ، ففعدوا عن النبي صلى الله عليه وسلم وتخلّفوا ، وقالوا : لن يرجع محمد ولا أصحابه من هذه السفرة . ففضّحهم الله تعالى في هذه الآية وأعلم محمداً صلى الله عليه وسلم بقولهم واعتذارهم قبل أن يصل إليهم . فكان كذلك ، قالوا : شغلنا الأموال والأهلون فاستغفر لنا ، وهذا منهم خُبث وإبطال ، فلذلك قال الله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ ، قال الرُّمَّاني : لا يُقال أعرابيٌّ إلَّا لأهل البوادي خاصة (١) .

ثم قال تعالى لنبيّه صلى الله عليه وسلم : قل لهم : ﴿ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً ﴾ ، أي : من يحمي أموالكم وأهلكم إن أراد بكم فيها سوءاً ؟ وقرأ جمهور القراء : ﴿ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً ﴾ بفتح الضاد ، وقرأ حمزة والكسائي : [ضراً] بالضم ، ورجّحها أبو علي ، وهما لغتان ، وفي مصحف ابن مسعود : ﴿ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً ﴾ . ثم ردّ الله تعالى عليهم

(١) قال في اللسان : « رجل أعرابيٌّ بالألف إذا كان بدويّاً صاحب نجعة وانتواء وارتباد للكأ ، وتتبع لمساقط الغيث ... ويجمع الأعرابيُّ على الأعراب والأعاريب ، والأعرابي إذا قيل له : يا عرّبي ! فرح بذلك وهشّ له ، والعربي إذا قيل له : يا أعرابي ! غضب له » .

بقوله : ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ ، ثم فسر لهم العلة التي تخلّفوا من أجلها بقوله تعالى : ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ﴾ الآية ، وفي قراءة عبد الله : ﴿إِلَى أَهْلِهِمْ﴾ بغير ياء ، و [بُوراً] معناه : فاسدين هلّكي بسبب فسادهم ، والبوار : الهلاك ، و «بارت السلعة» مأخوذ من هذا ، و «بُورٌ» يوصف به الجمع والإفراد ، ومنه قول ابن الزبّعى :

يَا رَسُولَ الْمَلِكِ إِنَّ لِسَانِي رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورٌ (١)

و البُورُ في لغة أزد عمان : الفاسد ، ومنه قول أبي الدرداء : «فأصبح ما جمعوا بوراً» أي فاسداً ذاهباً ، ومنه قول حسان بن ثابت :

لَا يَنْفَعُ الطُّولُ مِنْ نُوكِ الْقُلُوبِ وَقَدْ يَهْدِي الْإِلَهُ سَبِيلَ الْمُعْشَرِ الْبُورِ (٢)

(١) ابن الزبّعى هو عبد الله بن الزبّعى السهمي ، والبيت في اللسان والطبري والقرطبي ، والتاج ، ورواية اللسان : يا رسول الإله ، وهو يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم معتزلاً عن هجائه الذي سبق محاولاً إصلاح ما فسد ، والرتق ضد الفتق ، أو هو إصلاح الفتق ، والبور : الهالك ، والشاهد أن الشاعر استعمل كلمة «بور» للمفرد ، وهي في الآية جاءت للجمع ، فهي مما يوصف به الجمع والمفرد .

(٢) البيت لحسان بن ثابت قاله في هجاء قوم ، يقول : إن طول أجسامهم لا خير فيه ماداموا حمقى ، والبور في البيت بمعنى الفاسدين ، وقد يكون هنا جمع بائر مثل حُولٍ وحائل ، وحكى الفراء عن بعضهم أنه لغة وليس يجمع بائر ، والنوك : الحمق ، والأنوك : الأحمق ، والبيت شاهد على أن البور هو الفاسد .

وقال الطبري في قوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ بِإِسْمِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ : يعني به قولهم : « فَاسْتَغْفِرْ لَنَا » ؛ لأنهم قالوا ذلك مصانعة من غير توبة ولا ندم ، قال : وقوله تعالى : ﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ ﴾ الآية معناه : ولا ينفعكم استغفاري ، وهل أملك لكم شيئاً والله تعالى قد أراد ضرركم بسبب معصيتكم ؟ كما لا أملك إن أراد بكم النفع في أموالكم وأهلكم .

قوله عز وجل :

﴿ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ۝ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِنَاخِذُهَا ذُرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُلْ لَّنْ نَّتَّبِعُونَ ۚ كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ۚ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْنُ مُخْذَوْنًا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ ﴾

أما قال تعالى لهم : ﴿ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ توعدهم بعد ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ الآية ، أي : وأنتم هكذا فأنتم ممن أعدت لهم السعير وهي النار المؤجَّجة . والمسعر : ما تحرك به النار ،

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : (وَيْلٌ أُمَّه مِسْعَرُ حَرْبٍ) (١) .
ثم رَجَّى بقوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية ؛
لأن القوم لم يكونوا مجاهرين بالكفر فلذلك جاز وعيدهم وتوبيخهم
ممزوجاً فيه بعض الإمهال والترجية ؛ لأن الله تعالى كان قد علم منهم
أنهم سيؤمنون .

ثم إن الله تعالى أمر نبيّه صلى الله عليه وسلم - على ما روي -
بغزو خيبر ووعدته بفتحها ، وأعلمه أن المَخْلَفِينَ إذا رأوا مسيره إلى
يهود - وهم عدوٌّ مُستضعف - طلبوا الكون معه رغبة في عرض الدنيا
والغنيمة ، وكان كذلك . وقوله تعالى : ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾
معناه : أَنْ يُغَيِّرُوا وعده لأهل الحديبية بغنيمة خيبر ، وقال عبد الله

(١) الحديث أخرجه البخاري في الشروط ، وأبو داود في الجهاد ، والإمام أحمد في
مسنده (٣٣١-٤) ، وهو حديث طويل ، عن المِسْوَور بن مَخْرَمَةَ ، ومروان ، يصدق كل
واحد منهما حديث صاحبه ، وهو عن غزوة الحديبية ، وفيه أن أبا بصير ، وهو رجل من
قريش جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن عاد إلى المدينة ، وأرسلت قريش رجلين في
طلبه من الرسول صلى الله عليه وسلم ، فدفعه إلى الرجلين تنفيذاً لما تم الاتفاق عليه في عهد
الحديبية ، ولكن أبا بصير احتال حتى قتل أحد الرجلين وفرّ الآخر منه ، وعاد أبو بصير إلى
النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا نبي الله قد أوفى الله ذمتك ، قد رددتني إليهم ثم أنجاني
الله منهم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (وَيْلٌ أُمَّه مِسْعَرُ حَرْبٍ لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ) ،
فالرسول صلى الله عليه وسلم يصفه بالمبالغة في الحرب والنجدة .

ابن زيد بن أسلم : كلام الله تعالى هو قوله : ﴿ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ﴾ (١) ، وهذا قول ضعيف لأن تلك نزلت في رجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك ، وهذا في آخر عمره صلى الله عليه وسلم ، وآية هذه السورة نزلت سنة الحديبية ، وأيضاً فقد غزت جُهيْنَةَ ومُزَيْنَةَ بعد هذه المدة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد فضّلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم - بعد ذلك - على تميم وغطفان وغيرهم من العرب ، الحديث المشهور ، فأخبره الله تعالى أن يقول لهم في هذه الغزوة إلى خيبر : ﴿ لَنْ تَتَّبِعُونَا ﴾ . وخصّ الله تعالى بها أهل الحديبية .

وقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ يريد تعالى وعده قبل باختصاصهم بها ، وقول الأعراب : ﴿ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾ معناه : بل يعزُّ عليكم أن نصيب مغنماً ومالاً ، فردَّ الله تعالى على هذه المقالة بقوله سبحانه : ﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ، أي : لا يفقهون من الأمور مواضع الرُّشد ، وذلك هو الذي خلفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان ذلك سبباً لمنعهم من غزو خيبر ، وقرأ أبو حيوة : [تَحْسُدُونَنَا] بكسر السين ، وقرأ الجمهور من القراء : [كَلَام] .

(١) من الآية (٨٣) من سورة (التوبة) .

قال أبو علي : هذا أخص بما كان مقيداً حديثاً ، وقرأ الكسائي ،
وحمزة ، وابن مسعود وطلحة ، وابن وثاب : [كَلِم] ، والمعنى فيهما
متقارب .

قوله عز وجل :

﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدْعُونَ إِلَى قَوْمِ بَأْسٍ شَدِيدٍ
تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ فَإِنْ تَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ
مَنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (١٦)

أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالتقدمة إلى هؤلاء المُخَلَّفِينَ
بأنهم سيدعون إلى قتال عدو بئيس ، وهذا يدل على أنهم كانوا
يظهرون الإسلام وإلا فلم يكونوا أهلاً لذلك الآخر .

واختلف الناس ، من القوم المشار إليهم في قوله تعالى : ﴿ إِلَى قَوْمٍ
أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ ؟ فقال عكرمة ، وابن جبير ، وقتادة : هم هوازن
ومن حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم في حنين ، ويندرج في هذا
القول عندي من حُورب وغلب في فتح مكة ، وقال كعب : هم الروم
الذين خرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عام تبوك والذين

بعث إليهم في غزوة مؤتة ، وقال الزهري والكلبي : هم أهل الردّة
 وبنو حنيفة باليمامة ، وقال منذر بن سعيد : يتركب على هذا القول
 أن الآية مؤذنة بخلافة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله
 عنهما ، يريد : لما كشف الغيبُ أنهما دَعَوَا إلى قتال أهل الردّة ،
 وحكى الثعلبي عن رافع بن خديج أنه قال : والله لقد كنّا نقرأ هذه
 الآية فيما مضى ولا نعلم من هم حتى دعا أبو بكر رضي الله عنه
 إلى قتال بني حنيفة فعلمنا أنهم هم (١) . وقال ابن عباس ، وابن أبي
 ليلى : هم الفُرس ، وقال الحسن : هم فارس والروم ، وقال أبو هريرة :
 هم قوم لم يأتوا بعد ، والقولان الأوّلان حسنان لأنهما الذي كشف
 الغيب ، وباقيها ضعيف ، وقال منذر بن سعيد : رفع الله في هذه الجزية ،
 وليس إلّا القتال أو الإسلام ، وهذا لا يوجد إلّا في أهل الردّة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وكذا من حُورب في فتح مكة .

وقرأ الجمهور : ﴿ أَوْ يُسْلِمُونَ ﴾ على القطع ، أي : أو هم يُسلمون
 دون حرب ، وقرأ أبي بن كعب - فيما حكى الكسائي - : ﴿ أَوْ يُسْلِمُوا ﴾

(١) في الأصول : « فعلمنا أنهم ارتدوا » وفي بعضها : فعلمنا أنهم أزيد » . والتصويب
 عن كتب التفسير الأخرى .

بنصب الفعل على تقدير : أو يكون أن يُسلموا ، ومثله من الشعر
قول امرئ القيس :

فَقُلْتُ لَهُ لَا تَبْكُ عَيْنُكَ إِنَّمَا نَحَاوِلُ مُلْكَاً أَوْ نَمُوتُ فَنُعْذِرَا (١)

يروى «نموت» بالنصب والرفع ، فالنصب على تقدير : أو يكون
أن نموت ، والرفع على القطع ، أو نحن نموت .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تُطِيعُوا ﴾ معناه : فيما تدعون إليه ، والعذاب
الذي توعدهم به يحتمل أن يريد به عذاب الدنيا ، وأما عذاب
الآخرة فبيّن فيه .

(١) قال امرؤ القيس هذا البيت يخاطب الشاعر عمرو بن قُمَيْثَةَ حين صاحبه في رحلته
إلى بيزنطة ليستعدي قيصر على بني أسد ، وهو في الديوان ، والخصائص ، وابن يعيش ،
والكتاب ، والخزانة ، والأشموني ، وقبله يقول :

بَكَى صَاحِبِي لَمَّا رَأَى الدَّرْبَ دُونَهُ وَأَبْقَنَ أَنَا لَاحِقَانِ بِقَبْصَرَا
يقول لصاحبه : لَا تَبْكُ بسبب الغربة والبعد . فإننا نسعى من أجل الملك . فإمّا نحقق ما نريد
وإمّا أن نموت فيكون لنا العذر ، والشاهد فيه هو نصب « نموت » بإضمار « أن » ، لأنه لم يرد
في البيت معنى العطف ، وسيبويه يقول : « واعلم أن معنى ما انتصب بعد « أو » على « إلا أن » ،
فالغنى هنا : على « إلا أن نموت فنعذراً » . والرفع جائز ، قال سيبويه : « ولو رفعت لكان
عَرَبِيّاً جائزاً على وجهين : على أن تُشرك بين الأول والثاني ، وعلى أن يكون مبتدأً مقطوعاً من
الأول ، يعني : أو نحن ممن نموت » ، وقد ذكر ابن عطية الوجه الثاني للرفع ، ويروى البيت :
فَنُعْذِرَا — بكسر الدال — والمعنى على هذا : نَبْلُغُ العُذْرَ .

قوله عز وجل :

﴿ لَبَسَ عَلَى الْآعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ
وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ
عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٧﴾ * لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ
فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨﴾ وَمَغَانِمَ
كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٩﴾

لما بلغ عز وجل في عتب هؤلاء المتخلفين من القبائل المجاورة
للمدينة « كجهينة ومزينة وغفار وأسلم وأشجع » عقب ذلك بأن عذر
أهل الأعذار من العمى والعرج والمرضى جملة ، ورفع الحرج عنهم
والضيق والمأثم ، وهذا حكم هؤلاء المعاذير في كل جهاد إلى يوم القيامة ،
إلا أن يحزب حازب في حضرة ما ، فالغرض متوجه بحسب الوُسْع
ومع ارتفاع الحرج فجائز لهم الغزو وأجرهم فيه مضاعف ؛ لأن
الأعرج أحقرى الناس بالصبر وألاً يفر ، وقد غزا ابن أم مكتوم
وكان يمسك الراية في بعض حروب القادسية ، وقد خرج النسائي
هذا المعنى وذكر ابن أم مكتوم رضي الله عنه (١) .

(١) وقد روى أبو داود عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
(لقد تركتم بالمدينة أقواماً ما سبرْتُم مسيراً ولا أنقَتم من نفقة ولا قطعتم من وادٍ إلا وهم =

وقرأ الجمهور من القراء : [يُدْخِلُهُ] بالياء ، وقرأ ابن عامر ، ونافع ،
وأبو جعفر ، والأعرج ، والحسن ، وشيبة ، وقتادة : [نُدْخِلُهُ] بالنون .
وكذلك : [يُعَذِّبُهُ] و [نُعَذِّبُهُ] .

وقوله تعالى : ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ
الشَّجَرَةِ﴾ تشریف وإعلام برضاه عنهم حين البيعة ، وبهذا سميت
بيعة الرضوان ، والرضى بمعنى الإرادة ، فهو صفة ذات ، ومن جعل
[إِذْ] مُسَبَّبة ، بمعنى : لأنهم بايعوا تحت الشجرة جاز أن يجعل [رَضِيَ]
بمعنى : أظهر النعمة عليهم ، بسبب بيعتهم ، فالرضى - على هذا -
صفة فعل ، وقد تقدّم القول في المبايعة ومعناها .

وكان سبب هذه المبايعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد
أن يبعث لقريش رجلاً يبين لقريش أن النبي صلى الله عليه وسلم
لا يريد حرباً وإنما جاء معتمراً ، فبعث إليهم خراش بن أمية الخزاعي (١) .

= معكم فيه) . قالوا : يا رسول الله . وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة ؟ قال : (حبسهم العذر) .
والله تعالى يقول : ﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ
مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾ .

(١) هو خراش بن أمية بن ربيعة بن الفضل الخزاعي ، ثم الكلبي ، شهد المريسيع
والحدابية . وحلق رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ . أو في العمرة التي تليها ،
قال ابن السكن : روي عنه حديثاً واحداً . وقيل : إنه شهد خيبر وما بعدها .

وحمله على جمل له يقال له : الثعلب ، فلما كلمهم عقروا الجمل وأرادوا قتل خراش فمنعته الأحابيش ، وبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فأراد بعث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال عمر : يا رسول الله ، إنك قد علمت فظاظتي على قريش ، وهم يبغضونني ، وليس هناك من بني عدي بن كعب من يحميني ، ولكن ابعث عثمان بن عفان ، فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذهب ، فلقيه أبان بن سعيد ابن العاص ، فنزل عن دابته وحمله عليها ، وأجاره حين جاء قريشاً فأخبرهم ، فقالوا له : إن شئت يا عثمان أن تطوف بالبيت فطف ، وأما دخولكم علينا فلا سبيل إليه ، فقال عثمان رضي الله عنه : ما كنت لأطوف به حتى يطوف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم إن بني سعيد بن العاص على جهة المبرّة ، فأبطأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكانت الحديبية من مكة على نحو عشرة أميال ، فصرخ صارخ من عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم : قُتل عثمان ، فحمي رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون وقالوا : لا نبرح إن كان هذا حتى نلقى القوم ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البيعة ، ونادى مناديه : أيها الناس ، البيعة البيعة . نزل روح القدس ، فما تخلّف عن البيعة أحد ممن شهد الحديبية إلا الجد بن قيس المنافق ، وحينئذ

جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على يده ، وقال : هذه يد عثمان ، وهي خير من يد عثمان ، ثم جاء عثمان رضي الله عنه بعد ذلك سالماً ، والشجرة سَمُرَةٌ (١) كانت هنالك ذهبت بعد سنين ، فمرَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالموضع في خلافته فاختلف أصحابه في موضعها ، فقال عمر رضي الله عنه : سيروا هذا التكلف (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ ، قال قوم : معناه : من كراهية البيعة على الموت ونحوه . وهذا ضعيف فيه مذمة للصحابة رضي الله عنهم ، وقال الطبري ، ومنذر بن سعيد : معناه : من الإيمان وصحته والحب في الدين والحرص عليه ، وهذا قول حسن لكنه من كانت هذه حاله فلا يحتاج إلى نزول ما يسكنه ، أما إنه يحتمل أن يجازى بالسكينة والفتح القريب والمغانم ، وقال آخرون : معناه : من الهم بالانصراف عن المشركين والأنفة في ذلك على نحو ما خاطب

(١) السَّمُرَةُ : ضرب من شجر الطلح ، جمعه : أسْمُرٌ ، والطلح : شجر عظام من شجر العضاه ترعاه الإبل .

(٢) الخبر كما رواه ابن جرير كاملاً يقول : « زعموا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرَّ بذلك المكان بعد أن ذهبت الشجرة ، فقال : أين كانت ؟ فجعل بعضهم يقول : هنا ، وبعضهم يقول : ها هنا ، فلما كثر اختلافهم قال : سيروا هذا التكلف ، فذهبت الشجرة وكانت سمراء ، إما ذهب بها سيلٌ وإما شيء سرى ذلك .

فيه عمر رضي الله عنه وغيره (١)، وهذا تأويل حسن يترتب معه نزول السكينة والتعويض بالفتح القريب ، والسكينة هنا تقرير قلوبهم وتذليلها لقبول أمر الله تعالى والصبر له . وقرأ الناس : [وَأَثَابَهُمْ] ، قال هارون : وقد قرئت : «وَأَتَاهُمْ» بالتاء بنقطتين .

و «الْفَتْحُ الْقَرِيبُ» : خبير ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف بالمؤمنين وقد وعده الله بخبير ، وخرج إليها لم يلبث ، قال أبو جعفر النحاس : وقد قيل : الفتح القريب : فتح مكة و «المغانم الكثيرة» : فتح خيبر ، وقرأ يعقوب في رواية رويس : [تَأْخُذُونَهَا] على مخاطبتهم بالتاء من فوق ، وقرأ الجمهور : [يَأْخُذُونَهَا] على الغيبة .

واختلف الناس في عدة التابعين رضي الله عنهم - فقيل : ألف وخمسمائة ، قاله قتادة ، وقيل : وأربعمائة ، قاله جابر بن عبد الله ،

(١) وذلك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعد عقد صلح الحديبية ، وقال : يا رسول الله ، آلسنا على حق وهم على باطل ؟ قال : بلى ، قال : أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ قال : بلى ، قال : فقيم نعطي الدنية في ديننا وترجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟ فقال : يا ابن الخطاب إني رسول الله ولن يضيّعني الله أبداً ، فانطلق عمر فلم يصبر متغيظاً فأتى أبا بكر فقال له مثل ما قال للنبي صلى الله عليه وسلم . وأجابه أبو بكر رضي الله عنه بمثل ما أجاب صلوات الله وسلامه عليه ، فلم يلبث أن نزل القرآن الكريم على النبي صلى الله عليه وسلم بالفتح ، فأرسل إلى عمر فأقرأه إيّاه . فقال : يا رسول الله ، أو فتح هو ؟ قال : نعم ، فطابت نفسه .

وقيل : وخمسمائة وخمسة وعشرون ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما ،
وقيل : وثلاثمائة ، قاله ابن أبي أوفى ، وقيل غير هذا مما ذكرناه
من قبل ، وأول من بايع ذلك اليوم رجل من بني أسد يقال له : أبو سنان
ابن وهب ، قاله الشعبي .

قوله عز وجل :

﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ
النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتُكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ (٢٠) وَأَنزَلْنَا
تَقْدِيرًا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١) وَلَوْ قَتَلَكُمُ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ
خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ
عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤) ﴿

قوله تعالى : ﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ ﴾ الآية - مخاطبة للمؤمنين ووعد
بجميع المغانم التي أخذها المسلمون ، وبأخذونها إلى يوم القيامة ،
قاله مجاهد وغيره ، وقوله تعالى : ﴿ فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ يريد خيبر ،

وقال زيد بن أسلم وابنه : المغانم الكثيرة : خيبر ، و [هذه] إشارة إلى البيعة والتخلُّص من أمر قريش ، وقوله تعالى : ﴿ وَكَفَّ أَيْدِي النَّاسِ عَنْكُمْ ﴾ يريد من ولي عورة المدينة بعد خروج النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين منها ، وذلك أنه كان من أحياء العرب ومن اليهود من يعادي ، وكانت قد أمكنتهم فرصة ، فكفَّهم الله تعالى عن ذراري المسلمين وأموالهم ، وهذه للمؤمنين العلامة على أن الله تعالى ينصرهم ويلطف بهم ، قاله قتادة ، وحكى الثعلبي عنه أنه قال : كفَّ الله تعالى غطفان عن النبي صلى الله عليه وسلم حين جاءوا لنصر أهل خيبر ، وذكره النقاش ، وقال الثعلبي أيضاً عن بعضهم : إنه أراد كفَّ قريش .

قوله تعالى : ﴿ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا ﴾ ، قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : الإشارة إلى بلاد فارس والروم ، وقال الضحاک وابن زيد : الإشارة إلى خيبر ، وقال قتادة والحسن : الإشارة إلى مكة . وهذا هو القول الذي يتسق معه المعنى ويتأيد ، وقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ﴾ معناه : بالقدرة والقهر لأهلها ، أي : قد سبق ذلك في علمه وظهر فيها أنهم لم يقدرُوا عليها .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ ﴾ ، الإشارة إلى قريش ومن والاه في تلك السنة ، قاله قتادة ، وفي هذا تقوية

لنفوس المؤمنين ، وقال بعض المفسرين : أراد الروم وفارس ، وهذا ضعيف ، وإنما الإشارة إلى العدو الأخضر .

وقوله تعالى : ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ إشارة إلى وقعة بدر ، وقيل : إشارة إلى عادة الله تعالى من نصره الأنبياء عليهم السلام قديماً ، ونصب [سُنَّة] على المصدر ، ويجوز الرفع ، ولم يُقرأ به .

قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ﴾ الآية ، روي في سببها أن قريشاً جمعت جماعة من فتيانها ، وجعلوهم مع عكرمة بن أبي جهل ، وخرجوا يطلبون غرة في عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واختلف الناس في عدد هؤلاء اختلافاً متفاوتاً ، فلذلك اختصرته ، فلما أحسن بهم المسلمون وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في أثرهم خالد بن الوليد وسماه حينئذ «سيف الله» في جملة من الناس ، ففروا أمامهم حتى أدخلوهم بيوت مكة ، وأسروا منهم جملة ، فسيقوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمنَّ عليهم وأطلقهم ، فهذا هو كَفَّ الله تعالى أيديهم عن المسلمين بالرعب ، وكَفَّ أيدي المسلمين عنهم بالنهي في بيوت مكة وغيرها ، وذلك هو «بَطْن مكة» ، وقال قتادة : أسر النبي صلى الله عليه وسلم هذه الجملة بالحديبية عند عسكره ومنَّ عليهم ، وذلك هو «بَطْن مكة» ، قال النقاش : الحرم كله

مكة ، والظفر عليهم هو أسر من أسر منهم ، وما في هذه الآية تحريض على العمل الصالح ؛ لأن من استشعر أن الله تعالى يبصر عمله أصلحه .

وقرأ الجمهور من القراء : ﴿ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ بالثناء على الخطاب .
 وقرأ أبو عمرو وحده بالياء على ذكر الكفار وتهديدهم .

قوله عز وجل :

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَىٰ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّيَعْلَمُونَهُمْ أَنْ تَطْأُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُم مَّعْرَةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝٢٦﴾

يريد الله تعالى بقوله : ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أهل مكة الذين تقدم ذكرهم ، وقوله تعالى : ﴿ وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ هو منعهم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من العمرة عام الحديبية ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج من المدينة في ذي القعدة سنة ست

من الهجرة يريد العُمرة وتعظيم البيت ، وخرج معه بمائة بدنة ،
قاله النقاش ، وقيل : بسبعين ، قاله المسود بن مخرمة ، ومروان
ابن الحكم ، فلما دنا من مكة قال أهل مكة : هذا محمد الذي قد
حاربنا وقتل فينا يريد أن يدخل مكة مراغمةً لنا ، والله لا تركناه حتى
يموت دون ذلك ، فأجمعوا لحربه واستنجدوا بقبائل من العرب وهم
الأحباش ، وبعثوا فغوروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم المياه التي
تقرب من مكة ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل على
بئر الحُدَيْبِيَّة ، وحينئذ وضع سهمه في الماء فجرى غمراً حتى كفى
الجيش ، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى مكة عثمان
ابن عفان رضي الله عنه ، وبعث أهل مكة إليه رجالاً منهم عُرْوَةُ بن
مسعود ، وبُدَيْل بن ورقاء ، وتوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم
هنالك أياماً حتى سَفَر سهيل بن عمرو ، وبه انعقد الصلح على أن ينصرف
رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم ويعتمر من العام القابل ، فهذا كان
صَدَّهم إِيَّاه ، وهو مستوعب في كتب السِّير فلذلك اختصرناه .

وقرأ الجمهور : [وَأَلْهَدِي] بسكون الدال ، وقرأ الأعرج ، والحسن
ابن أبي الحسن : [وَأَلْهَدِيَّ] بكسر الدال وشد الياء ، وهما لغتان ،
وهو معطوف على الضمير في قوله تعالى : [وَصَدُّوكُمْ] ، أي : وصدُّوا

الهدى ، و [مَعْكُوفًا] حال ، ومعناه : محبوساً ، تقول : عكفتُ الرجل عن حاجته إذا حبسته ، وقد قال أبو علي : إن «عكف» لا أعرفه متعدياً ، وحكى ابن سيدة وغيره تَعَدَّيْهِ ، وهذا العَكْف الذي وقع للهدى كان من قِبَلِ المشركين بصدِّهم ، ومن قِبَلِ المسلمين لرويتهم وتصرفهم في أمرهم فحبسوا هديهم ، و [أَنْ] في قوله تعالى : ﴿أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ يحتمل أن يعمل فيها الصَّدُّ ، كأنه تعالى قال : وصلُّوا الهدى كراهة أَنْ ، أو عَنْ أَنْ ، ويحتمل أن يعمل فيها العكف ، فيكون [أَنْ] مفعولاً من أَجَلِه ، أي الهدى المحبوس لأجل أن يبلغ مَحِلَّهُ ، وهذا هو حبس المسلمين ، وإلَّا فحبس المشركين ليس لأجل أن يبلغ الهدى مَحِلَّهُ ، و [مَحِلَّهُ] : مكة والبيت .

وذكر الله تعالى العلة في أن صَرَفَ المسلمين ولم يمكنهم من دخول مكة في تلك الوجهة ، وهي أنه كان بمكة مؤمنون ، رجالٌ ونساء ، خفي إيمانهم ، فلو استباح المسلمون بيضتها أهلكوا أولئك المؤمنين ، قال قتادة : فدفع الله تعالى عن المشركين ببركة أولئك المؤمنين ، وقد يدفع الله تعالى بالمؤمنين عن الكفار ، وقوله تعالى : ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ صفة للمذكورين ، وقوله تعالى : ﴿أَنْ تَطَّوَّهُمْ﴾ يحتمل أن تكون بدلاً من [رِجَالٌ] ، كأنه تعالى قال : ولولا قومٌ مؤمنون أن تطَّوَّهُم ،

أي : لَوْلَا وَطْؤُكُمْ قَوْمًا مُؤْمِنِينَ ، فهي على هذا في موضع رفع ،
ويحتمل أن يكون في موضع نصب بدلاً من الضمير في قوله تعالى :
(لَمْ تَعْلَمُوهُمْ) ، كأنه تعالى قال : لم تعلموا وطأهم أنه وطء مؤمنين ،
والوطء هنا : الإهلاك بالسيف وغيره ، على وجه التشبيه ، ومنه
قول الشاعر :

وَوَطِئْتَنَّا وَطَاءً عَلَى حَنْقٍ وَطَاءَ الْمُقَيَّدِ نَابِتَ الْهَرَمِ (١)
ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرٍ) (٢) ،

(١) البيت في اللسان ، وقد نُسب إلى زُهَيْرٍ ، وهو في الحقيقة للحارث بن عَدْلَةَ الشيباني
كما جاء في شرح القصائد السبع الطوال ، ورواية اللسان - هرم - : (يَابِسَ الْهَرَمُ) ، والوطأة :
الأخذة الشديدة ، وفي الحديث الشريف (اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرٍ) ، أي خذْهُمْ
أخذة شديدة ، والحَنْقُ : شدة الاغتيال ، والنَّابِتُ : الغَضُّ الطَّيْرِي ، والمَرَمُ (بسكون الراء) :
ضرب من الحمض فيه ملوحة ، وهو أذلُّه وأشدُّه انبساطاً على الأرض ، واحدته : هَرَمَةٌ ،
وهي التي يقال لها : حَيْهَلَةٌ ، وفي المثل : أَذَلُّ مِنْ هَرَمَةٍ ، يقول : لقد أَخَذْتَنَّا أخذة شديدة
قاسية ، وكنت مغيطاً محتقاً ، وكنتاً ضعافاً أذلَّةً كأننا البقلة الحقيمة التي تدوسها الأقدام على الأرض .
(٢) أخرجه البخاري في الأذان والاستسقاء والجهاد والأنبياء وتفسير سورة النساء وفي
الأدب ، وأخرجه مسلم في المساجد ، وأبو داود في الصلاة ، والنسائي في التطبيق ، وابن ماجه
في الإقامة ، وأحمد في مسنده (٢-٢٣٩ ، ٢٥٥ ، ٢٧١ ، ٤١٨ ، ٤٧٠ ، ٥٠٢ ، ٥٢١) ،
ولفظه في المسند . عن أبي هريرة رضي الله عنه : (لما رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه
من الركعة الآخرة من صلاة الصبح قال : اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ ، وَسَلْمَةَ بْنَ هِشَامٍ ،
وَعِيَّاشَ بْنَ أَبِي رِبْعَةَ ، وَالْمُسْتَضْعِفِينَ بِمَكَّةَ ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ وَطْأَتَكَ عَلَى مُضَرٍ واجعلها عليهم
سنين كسني يوسف) .

ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (إن آخر وطأة الرب يوم وَجَّ بالطائف) (١)؛ لأنها كانت آخر وقعة للنبي صلى الله عليه وسلم ، ذكر هذا المعنى النقاش .

و «المعرة» : السوء والمكروه اللاصق ، مأخوذ من العرَّ والعُرة وهو الجرب الصعب اللازم (٢). واختلف الناس في تفسير هذه المعرة - فقال ابن زيد : هي المائمه ، وقال ابن إسحق : هي الدية ، وهذان ضعيفان لأنه لا إثم ولا دية في قتل مؤمن مستور الإيمان من أهل الحرب ، وقال الطبري - وحكاه الثعلبي - : هي الكفارة ، وقال مُنذر : المعرة : أن يعيبهم الكفار ويقولوا : قتلوا أهل دينهم ، وقال بعض المفسرين :

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤-١٧٢ ، ٦-٤٠٩) ، عن يعلى العامري أنه جاء حسنٌ وحُسَيْنٌ رضي الله عنهما يستبقان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فضمهما إليه وقال : (إن الولد مَبْخَلَةٌ مجنونة ، وإن آخر وطأة وطئها الرحمن عزَّ وجلَّ بَوَجَّ) ، وفي رواية عن خولة بنت حكيم أنه قال : (والله إنكم لتُجَبِّئُونَ وتُبَخِّلُونَ ، وإنكم لمن ربحان الله عزَّ وجلَّ) ، والمعنى : إنكم لتحملون على الجُبْن والبُخْل ، يعني الأولاد ، فإن الأب يَجْبِئُ عن القتال ليعيش لأولاده فيربئهم ، وإنه ليبخل بإنفاق ماله ليخلِّفه لهم ، وربحانُ الله : رزقه وعطاؤه ، ووجَّ : مكان من الطائف ، يعني أن آخر وطأة أو أخذة أخذ الله بها الكفار كانت بَوَجَّ ، وكانت غزوة الطائف هي آخر غزوات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، إذ لم يغز بعدها إلا غزوة تبوك ، ولم يكن فيها قتال .

(٢) ومنه قول الشاعر :

قُلْ لِّلْفَوَارِسِ مِنْ غُزْيَةٍ إِنَّهُمْ عِنْدَ الْقِتَالِ مَعَرَّةُ الْأَبْطَالِ

هي الملام والقول في ذلك وتَأَلَّم النفس منه في باقي الزمان ، وهذه أقوالٌ حسان ، وجواب [لَوْلَا] محذوف تقديره : لمكنّاكم من دخول مكة وأيدناكم عليهم ، وقرأ الأعمش : «فَتَنَالَكُم مِّنْهُمْ مَّعَرَّةً» .

واللام في قوله تعالى : [لِيُدْخِلَ] يحتمل أن تتعلق بمحذوف من القول تقديره : لولا هؤلاء لدخلتم مكة لكن شرفنا هؤلاء المؤمنين بأن رحمتناهم ودفعنا بسببهم عن مكة لِيُدْخِلَ اللهُ تعالى ، أي : ليبين للناظر أن الله يُدْخِلُ في رحمته من يشاء ، أو أي : ليقع دخولهم في رحمة الله تعالى ودفعه عنهم ، ويحتمل أن يتعلق بالإيمان المتقدم الذكر ، فكأنه تعالى قال : ولولا قوم مؤمنون آمنوا لِيُدْخِلَ اللهُ في رحمته ، وهذا مذكور لكنه ضعيف ؛ لأن قوله تعالى : ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ يضعف هذا التأويل .

ثم قال تعالى : ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ أي : لو ذهبوا عن مكة ، تقول : زَيَّلْتُ زيداً عن موضعه إزالةً ، أي أذهبته ، وليس هذا الفعل من «زال يزول» ، وقد قيل : هو منه ، وقرأ أبو حيوة وقتادة : [تَزَايَلُوا] بـألف بعد الزاي ، أي : ذهب هؤلاء عن هؤلاء وهؤلاء عن هؤلاء . وقوله تعالى : [مِنْهُمْ] لبيان الجنس إذا كان ضمير [تَزَيَّلُوا] خاصاً بالمؤمنين أو بالكافرين ، وهي أيضاً لبيان الجنس إذا كان الضمير

في [تَزِيلُوا] للجميع من المؤمنين والكافرين ، قال النحاس : وقد قيل :
 إن قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ ﴾ الآية - يريد تعالى مَنْ في
 أصلاب الكافرين ممن سيؤمن في غابر الدهر ، وحكاة الثعلبي والنقاش
 عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم مرفوعاً .
 والعامل في قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَعَلَ ﴾ قوله تعالى : [لَعَذَّبْنَا] ، ويحتمل
 أن يكون المعنى : واذكر إذ جعل ، و «الْحَمِيَّة» التي جعلوها هي حمية
 أهل مكة في الصّدِّ ، قال الزهري : وحمية سُهَيْل (١) ومن شاهد عقد
 الصلح في أن منعوا أن يُكتب «بسم الله الرحمن الرحيم» ولجؤا حتى
 كتب «باسمك اللهم» ، وكذلك منعوا أن يُكتب «هذا ما قاضى عليه
 محمد رسول الله» ولجؤا حتى قال صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه :
 «امحُ ، واكتب : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله ...» الحديث ،
 وجعلها تعالى حمية الجاهلية لأنها كانت بغير حجة وفي غير موضعها ؛
 لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لو جاءهم محارباً لعذروا في حميتهم ،
 وإنما جاء معظماً للبيت لا يريد حرباً ، فكانت حميتهم جاهلية صرفاً .
 و «السَّكِينَةُ» هي الطمأنينة إلى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
 والثقة بوعده الله تعالى ، والطاعة وزوال الأنفة التي لحقت عمر وغيره ،

(١) هو سُهَيْل بن عمرو الذي أوقدته قريش لعقد صلح الحديبية مع النبي صلى الله عليه وسلم .

و «كَلِمَةُ التَّقْوَى» قال الجمهور : «هي لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» ، وروي ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال عطاء بن أبي رباح : هي «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وحده لَا شريك لَهُ . لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وهو على كل شيء قدير» ، وقال أبو هريرة وعطاء الخراساني : هي «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، محمد رسول الله» ، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : هي «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، والله أكبر» ، وحكاها الثعلبي عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وهذه كلها أقوال متقاربة حسان ؛ لأن هذه الكلمة تقي النار ، فهي كلمة التقوى . وقال الزهري عن المسور . ومروان : كلمة التقوى المشار إليها هي : «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» ، وهي التي أباحها كفار قريش فألزمها الله تعالى للمؤمنين وجعلهم أحق بها ، و «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» أحق باسم «كلمة التقوى» من «بسم الله الرحمن الرحيم» ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : «وكانوا أهلها وأحق بها» ، والمعنى : وكانوا أهلها على الإطلاق في علم الله تعالى وسابق قضائه سبحانه لهم ، وقيل : أحقُّ بها من اليهود والنصارى في الدنيا ، وقيل : أهلها في الآخرة بالثواب ، وقوله تعالى : ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ إشارة إلى علمه تعالى بالمؤمنين الذين دفع عن كفار قريش بسببهم ، وإلى علمه بوجه المصلحة في صلح الحديبية ، فيروى أنه لما انعقد أمن الناس في تلك المدة الحرب والفتنة ، وامتزجوا ، وعلت دعوة الإسلام

وانقاد إليه كل من كان له فهم من العرب ، وزاد عدد المسلمين في تلك المدة أضعاف ما كان قبل ذلك ، ويقتضي ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في عام الحُدَيْبِيَّة في أربع عشرة مائة ، ثم سار إلى مكة بعد ذلك بعامين في عشرة آلاف فارس ، صلى الله عليه وسلم .

قوله عز وجل :

﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ۝ ٢٧ ۚ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ۝ ٢٨ ۚ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۚ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝ ٢٩ ۚ ﴾

رُوي في تفسير هذه الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في منامه عند خروجه إلى العُمرة أنه يطوف بالبيت هو وأصحابه ،

بعضهم محلّقون وبعضهم متقصّرون ، وقال مجاهد : أرى ذلك بالحديبية ، فأخبر الناس بهذه الرؤيا ، ووثق الجميع بأن ذلك يكون في وجهتهم تلك ، وقد كان سبق في علم الله تعالى أن ذلك يكون لكن ليس في تلك الوجهة ، وروي أن رؤياه صلى الله عليه وسلم إنما كانت أن ملكاً جاءه فقال له : ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ ، وأنه بهذا أعلم الناس ، فلما قضى الله تعالى بالصلح في الحديبية ، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصّدْر (١) قال المنافقون : وأين الرؤيا ؟ ووقع في نفوس المسلمين شيء من ذلك ، فأنزل الله تعالى : ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ ، و «صَدَقَ» هذه تتعدّى إلى مفعولين ، تقول : صدقتُ زيداً الحديث ، واللام في [لَتَدْخُلَنَّ] لام القسم الذي تقتضيه [صَدَقَ] ؛ لأنها من قبيل : تَبَيَّنَ وَتَحَقَّقَ ، ونحو هذا مما يعطي القسم .

واختلف الناس في معنى الاستثناء في هذه الآية - فقال بعض المتأولين : هو استثناء من المَلِكِ المُخْبِرِ للنبي صلى الله عليه وسلم في قوله ، فذكر الله تعالى مقالته كما وقعت ، وقال آخرون : هو أخذُ

(١) في بعض النسخ : وأخذ الناس في الصّدْر ، والصّدْرُ هنا : الرجوع والعودة ، يقال : صَدَرَ عن المكان والورود صَدْرًا وَصَدْرًا : رجع وانصرف .

من الله تعالى عباده بأدبه في استعمال الاستثناء في كل فعل يوجب وقوعه ، كان ذلك مما يكون ولا بُدُّ ، أو كان مما قد يكون وقد لا يكون ، وقال بعض العلماء : إنما استثنى من حيث كل واحد من الناس متى ردَّ هذا الوعد إلى نفسه أمكن أن يتم هذا الوعد فيه وألاً يتم ، إذ قد يموت الإنسان أو يمرض أو يغيب ، وكل واحد في ذاته محتاج إلى الاستثناء ، فلذلك استثنى عز وجل في الجملة إذ فيهم ولا بُدُّ من يموت ، وقال آخرون : استثنى لأجل قوله تعالى : [آمِنِينَ] لَا لِأَجْلِ إِعْلَامِهِ بالدخول ، فكأن الاستثناء مؤخر عن موضعه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولا فرق بين الاستثناء من أجل الأمن أو من أجل الدخول ؛ لأن الله تبارك وتعالى قد أخبر بهما ووقعت الثقة بالأميرين ، فلا استثناء من أيهما كان هو استثناء من واجب .

وقال قوم : [إن] بمعنى « إذ » ، فكأنه تعالى قال : « إذ شاء الله » ، وهذا حسن في معناه لكن كون « إن » بمعنى « إذ » غير موجود في لسان العرب ، وللناس بعد في هذا الاستثناء أقوالٌ مخلطة غير هذه لا طائل فيها اختصرتها ، وقرأ ابن مسعود : « إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَا تَخَافُونَ » بدل [آمِنِينَ] .

ولما نزلت هذه الآية علم المسلمون أن تلك الرؤيا ستخرج فيما يستأنفونه من الزمان ، واطمأننت قلوبهم بذلك وسكنت ، فخرجت في العام المقبل ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة في ذي القعدة سنة سبع ، ودخلها ثلاثة أيام هو وأصحابه . وصدقت رؤياه . وقوله تعالى : ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا ﴾ يريد ما قدره من ظهور الإسلام في تلك المدة ودخول الناس فيه . وما كان أيضاً بمكة من المؤمنين الذين دفع الله تعالى بهم (١) ، وقوله تعالى : ﴿ مِنْ دُونِ ذَلِكَ ﴾ أي : من قبل ذلك وفيما يدنو إليكم .

واختلف الناس في الفتح القريب - فقال كثير من الصحابة رضي الله عنهم : هوبيعة الرضوان ، ورؤي عن مجاهد وابن إسحق أنه الصلح مع الكفار بالحديبية ، وقد روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم : أَوْ فَتَحَ هو يا رسول الله ؟ قال : نعم ، وقال عبد الله بن زيد : الفتح القريب هو فتح مكة ، وهذا ضعيف لأن فتح مكة لم يكن من دُون دخول النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه مكة ، بل كان بعد ذلك بعام ، لأن الفتح كان سنة ثمان من الهجرة . ويحسن أن يكون « الفتح » هنا اسم جنس يُعمُّ

(١) يريد أن الله تعالى دفع بهم عن أهل مكة من الكفار . ولم يمكن المسلمين من دخول مكة رحمة بمن فيها من المؤمنين الذين لم يكونوا معروفين .

كل ما وقع للنبي صلى الله عليه وسلم فيه ظهور وفتح عليه ، وقد حكى
مكي في ترتيب أعوام هذه الأخبار عن قطرب قولاً خطأً جعل فيه
الفتح سنة عشر ، وجعل حجّ أبي بكر رضي الله عنه قبل الفتح ،
وذلك كله تخليط وخوض فيما لم يتقنه معرفة .

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ ﴾ الآية ... تعظيمٌ لأمر الرسول
صلى الله عليه وسلم ، وإعلامٌ بأنه يظهر على جميع الأديان ، ورأى
بعض الناس [أن] (١) لفظة [يُظْهِرُهُ] تقتضي محو غيره به فلذلك
قالوا : إن هذا الخبر يظهر للوجود عند نزول عيسى بن مريم عليهما
السلام ، فإنه لا يبقى في وقته دين إلا الإسلام ، وهذا قول الطبري
والثعلبي ، ورأى قوم أن الإظهار هو الإعلاء وإن بقي من الدين الآخر
أجزاء ، وهو موجود الآن في دين الإسلام ، فإنه قد كان عمّ أكثر
الأرض وظهر على كل دين ، وقوله تعالى : ﴿ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً ﴾
معناه : شاهداً ، وذلك يحتمل معنيين : أحدهما : شاهداً عندكم بهذا
الخبر ومُعْلِماً به ، والثاني : شاهداً على هؤلاء الكفار المنكرين أمر
محمد صلى الله عليه وسلم الرّادّين في صدره ، ومعاقباً لهم بحكم الشهادة ،
فالآية - على هذا - وعيد للكفار الذين شاحوا (٢) في أن يكتب « محمد

(١) ما بين العلامتين [....] زيادة لسلامة التعبير .

(٢) المُشَاحَّةُ هي المخاصمة والمماحكة ، وقد ظهر ذلك منهم حين رفضوا أن يكتبوا

« محمد رسول الله » في عقد صلح الحديبية .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فردَّ الله تبارك وتعالى عليهم بهذه الآية كلها .

قوله تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ ، قال جمهور الناس : هو ابتداء وخبر استوفى فيه تعظيم منزلة النبي صلى الله عليه وسلم ، وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ ابتداء وخبره [أَشِدَّاءُ] . و [رُحَمَاءُ] خبر ثانٍ ، وقال قوم من المتأولين : [مُحَمَّدٌ] ابتداء ، و ﴿ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ صفة له ، و [الَّذِينَ] عطف عليه ، و [أَشِدَّاءُ] خبر عن الجميع ، و [رُحَمَاءُ] خبر بعد خبر ، ففي القول الأول اختص النبي صلى الله عليه وسلم بوصفه وهؤلاء بوصفهم ، وفي القول الثاني اشترك الجميع في الشدة والرحمة . والأول عندي أرجح لأنه خبر مضاف لقول الكفار : لَا نَكْتَبُ « محمد رسول الله » ، وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ إشارة إلى جميع الصحابة رضي الله عنهم عند الجمهور ، وحكى الثعلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الإشارة إلى من شهد الحُدَيْبِيَّةَ بـ ﴿ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ ، و [أَشِدَّاءُ] جمع شديد أصله أَشَدُّ ، أدغم لاجتماع المثلين ، وقرأ الجمهور : [أَشِدَّاءُ] و [رُحَمَاءُ] بالرفع ، وروى قرعة عن الحسن [أَشِدَّاءُ] و [رُحَمَاءُ] بنصبيهما ، قال أبو حاتم : ذلك على الحال ، والخبر [تَرَاهُمْ] ، قال أبو الفتح : وإن شئت نصبت [أَشِدَّاءُ] على المدح .

وقوله تعالى : ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ ، أي ترى هاتين الحالتين كثيراً فيهم ، و [يَبْتَغُونَ] معناه : يطلبون ، وقرأ عمرو بن عبيد : [وَرُضْوَانًا] بضم الراء ، وقوله تعالى : [سَيِّمَاهُمْ] معناه : علامتهم ، واختلف الناس في تعيين هذه السِّمَا - فقال مالك بن أنس : كانت جباههم متربة من كثرة السُّجُود في التراب ، كان يبقى على المسح أثره ، وقال عكرمة ، وقال أبو العالية : يسجدون على التراب لا على الأثواب ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما ، وخالد الحنفي ، وعطية : هو وعدٌ بحالهم يوم القيامة من أن الله تبارك وتعالى يجعل لهم نوراً من أثر السجود .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

كما يجعل غُرَّةً من أثر الوضوء ... الحديث (١) ، ويؤيد هذا التأويل اتصال القول بقوله تعالى : ﴿ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ ، كأنه تعالى قال : علامتهم في تحصيل الرضوان يوم القيامة سيماهم في وجوههم

(١) حديث غُرَّة الوضوء أخرجه البخاري في الوضوء ، ومسلم في الطهارة ، وأحمد في مسنده (٢-٣٣٤ ، ٣٦٢) ، ولفظه كما في البخاري . عن نَعَيْمِ الْمُجَمَّرِ قال : رقيت مع أبي هريرة على ظهر المسجد فتوضأ فقال : إني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : (إِنْ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ) .

من أثر السجود . ويحتمل أن تكون السیما بدلاً من قوله : [فَضْلاً] ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : السَّيْمَةُ الحسن هو السَّيْمَا ، وهو خشوع يبدو على الوجه ، وهذه حالة مكثري الصلاة لأنها تنهاهم عن الفحشاء والمنكر ، وتُثَقِّلُ الضَّحْكَ ، وتردُّ النفس بحالة تخشع معها الأعضاء ، وقال الحسن بن أبي الحسن ، وشَمْرُ بن عطية (١) : السَّيْمَا بياض وُصْفَرَةٌ وتهيج يعتري الوجوه من السهر ، وقال منصور : سألت مجاهداً : هل السیما هي الأثر يكون بين عيني الرجل ؟ فقال : لا ، وقد تكون مثل ركة البعير وهو أقصى قلباً من الحجارة ، وقال عطاء بن أبي رباح ، والربيع بن أنس (٢) . السَّيْمَا حُسْنٌ يعتري وجوه المصلين ، وذلك أن الله تعالى يجعل لها في عين الرائي حُسناً تابعاً للإجلال الذي في نفسه ، ومتى أَجَلَ الإنسانَ أمراً حَسُنَ عنده منظره ، ومن هذا الحديث الذي في الشهاب (من كثرت صلاته بالليل حُسِنَ وَجْهُهُ بالنهار) (٣) ، وهو حديث غَلِطَ فيه ثابت بن موسى الزَّاهِدُ ،

(١) هو شَمْرُ - بكسر أوله وسكون الميم - ابن عطية الأسدي . الكاهلي ، الكوفي ، صدوق من السادسة . (تقريب التهذيب) . وهو مضبوط في كل من الطبري والقرطبي بفتح الشين وكسر الميم «شَمِير» .

(٢) هو الربيع بن أنس البكري أو الحنفي . بصري . نزل خراسان ، قال عنه في تقريب التهذيب : «صدوق . له أوهام ، رُمي بالتشيع ، من الخامسة ، مات سنة أربعين أو قبلها» . (٣) أخرجه ابن ماجه في الإقامة (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي) . وقد ذكر

المؤلف رأيه فيه .

سمع شريك بن عبد الله (١) يقول: حدثنا الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن جابر ، ثم نزع (٢) شريك لما رأى ثابتاً الزاهد فقال يعنيه : (من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار) ، فظن ثابت أن هذا الكلام حديث متركب على السند المذكور فحدث به عن شريك . وقرأ الأعرج : (من إثر) بسكون الثاء وكسر الهمزة ، قال أبو حاتم : هما بمعنى . وقرأ قتادة : « (من آثار) » جمعاً .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ ﴾ الآية . المثل هنا : الوصف أو الصفة ، وقال بعض المتأولين : التقدير : الأمر ذلك ، وتم الكلام ، ثم قال تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ ﴾ ، وقال مجاهد : المعنى : ذلك الوصف هو مثلهم في التوراة ، ومثلهم في الإنجيل ، وتم القول ، و [كَزَرْعٍ] ابتداء تمثيل يختص بالقرآن ، وقال الطبري ، وحكاه الضحاك : المعنى : ذلك المعنى هو وصفهم في التوراة ، وتم القول ، ثم ابتداء ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ ﴾ وقال آخرون : المثلان جميعاً في التوراة وفي الإنجيل .

(١) هو شريك - بفتح الشين - ابن عبد الله بن الحارث النخعي الكوفي ، القاضي بواسط ، ثم الكوفة ، أبو عبد الله ، صدوق ، عالم بالحديث ، فقيه ، اشتهر بقوة ذكائه وفطنته وسرعة بديته ، استقضاه المنصور العباسي على الكوفة ثم عزله ، وأعاد المهدي ، وكان عادلاً في قضائه فاضلاً عابداً ، شديداً على أهل البدع ، مات سنة سبع أو ثمان وسبعين .
(٢) أي : كف عن الكلام وسكت .

وقوله تعالى : [كَزَرَ ع] هو على كل الأقوال وفي أي كتاب منزل
فَرَضُ مَثَلٍ للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في أن النبي صلى الله
عليه وسلم بُعِثَ وحده فكان كالزراع حبة واحدة ، ثم كثر المسلمون
فهم كالشَّطْءِ وهم فراخ السُّنبلة التي تنبت حول الأصل ، يقال :
أَشْطَأَتِ الشجرة إذا أخرجت غصونها ، وَأَشْطَأَ الزَّرْعُ إذا أخرج
شَطْأَهُ (١) ، وقرأ ابن كثير ، وابن ذكوان : [شَطْأَهُ] بفتح الطاء
والهمزة دون مدٍّ ، وقرأ الباقر بسكون الطاء ، وقرأ عيسى بن عمر :
[شَطْأَهُ] بفتح الطاء دون همز (٢) ، وقرأ أبو جعفر : [شَطْهُ] ، رمى بالهمزة
وفتح الطاء . ورُوي عن نافع ، وشيبة ، ورؤي عن عيسى [شَطْأَهُ]
بالمدِّ والهمزة ، وقرأ الجحدري : [شَطْوَهُ] بالواو ، وقال أبو الفتح :
هي لغة ، أو بدل من الهمزة ، ولا يكون الشَّطُّ إِلَّا في البرِّ والشعير ،
وهذه كلها لغات ، وحكى النقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما

(١) روت كتب اللغة أن مُعَقَّرَ بن حماد البارقى شامت ابنته برقا - يعني رأت برقا -
فقال : يا أبة ، جاءتك السماء ، فقال لها : كيف تَرَيْنَهَا ؟ فقالت : كأنها عين جمل طريف -
يعني أصابها شيء فدمعت - ، فقال لها : ارعني غُنيَّماتك . فرعت ملكياً ، ثم جاءت فقالت :
يا أبة . جاءتك السماء ، فقال : كيف تَرَيْنَهَا ؟ فقالت : كأنها فرس دهماء تجرُّ جلالها -
تعني أنها حمراء قد اسودَّت ، والجلال ما تُغَطِّي به الدابة لتصان ، والمفرد جل - ، فقال لها :
ارعني غُنيَّماتك . فرعت ملكياً . ثم جاءت فقالت : يا أبة ، جاءتك السماء ، فقال :
كيف تَرَيْنَهَا ؟ فقالت : سَطَّمتُ وابيضَّتُ - تعني : امتد سحابها وانتشر وأنها امتلأت
بالماء - فقال : ادخلي غُنيَّماتك . فجاءت السماء بشيء شَطْأَ له الزرع ، أي أخرج ورقه وسنابله .
(٢) قال في البحر : يحتمل أن يكون مقصوراً وأن يكون أصله الهمز ، فنقل الحركة
وأبدل الهمزة ألفاً ، كما قالوا في المرأة والكماسة : المرأة والكماسة . وهو تخفيف مقيس عند
الكوفيين . وهو عند البصريين شاذ لا يقاس عليه .

أنه قال : « الزرع » النبي صلى الله عليه وسلم ، « فازره » علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، « فاستغلظ » بأبي بكر رضي الله عنه ، « فاستوى » على سوقه « بعمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وقوله تعالى : [فَازَرَهُ] وزنه « أَفْعَلَهُ » ، قاله الحسن ، ورجحه أبو علي ، وقرأ ابن ذكوان وحده : [فَازَرَهُ] على وزن « فَعْلَهُ » دون مدٍّ ، ولذلك كله معنيان : أحدهما ساواه طولاً ، ومنه قول امرئ القيس :
بِمَحْنِيَّةٍ قَدْ آزَرَ الضَّالَ نَبْتُهَا مَجَرَّ جِيُوشٍ غَانِمِينَ وَخِيَبٍ (١)
أي : هو موضع لم يَرْعَ نَبْتُهُ فكمُلَ حتى ساوى شجر الضال ، فالفاعل - على هذا المعنى - الشَّطْءُ ، والمعنى الثاني أن يكون [آزَرَهُ] أو [أزَرَهُ] بمعنى أعانه وقواه ، مأخوذ من الأزر وشده ، فيحتمل أن يكون الفاعل الشَّطْءُ ، ويحتمل أن يكون الفاعل الزَّرْعُ ؛ لأن كل واحد منهما يُقَوِّي صاحبه ، وقال مجاهد (٢) وغيره : [آزَرَهُ] وزنه فاعله ،

(١) هذا البيت من قصيدته المعروفة (خَلِيلِي مُرًّا بِي عَكَي أُمُّ جُنْدَب) ، المَحْنِيَّةُ : حَيْثُ يَنْحِنِي الوادي وعادة يكون هذا المكان خصيباً ، وآزَرَ : ساوَى - وهو الشَّاهد هنا - ، والضَّال : نوع من الشجر المعروف في الصحراء ، مَجَرَّ جِيُوشٍ : أي أن هذه المَحْنِيَّة هي موضع تمر فيه الجيوش وهم ما بين غانمين أو خائبيين ، ولذلك فإن أحداً لا ينزل بها ليرعى عشبها وخضرتها خوفاً من الجيوش ، ولهذا بقيت هذه البقعة خضراء يانعة ، قد ارتفع نبتها حتى ساوى شجر الضال ، والبيت مع أبيات قبله يصف ثوراً وحشياً يعيش في هذا المكان الخصيب الذي لم يرع نباته أحد .

(٢) في بعض النسخ : « وقال ابن مجاهد وغيره : » . وما أثبتناه يوافق ما في البحر المحيط . قال أبو حيان : « وقول مجاهد وغيره : (آزَرَهُ : فاعله) خطأ » ؛ لأنه لم يسمع في مضارعه إلا يُؤزِرُ على وزن يُكْرِمُ .

والأول أصوب ، أن وزنه أفعله ، ويدل على ذلك قول الشاعر :

لَا مَالَ إِلَّا الْعِطَافُ تُؤْزِرُهُ أُمُّ ثَلَاثِينَ وَابْنَةُ الْجَبَلِ (١)

وقرأ ابن كثير : (عَلَى سُوقِهِ) بالهمز ، وهي لغة ضعيفة ، يهمزون الواو قبلها ضمة ، ومنه قول الشاعر :

لَحَبَّ الْمُؤَقِدَانِ إِلَيَّ مُوسَى (٢)

(١) البيت في اللسان - جبل وعطف - وقد ذكره غير منسوب وذكر معه أبياتاً أخرى ، قال : أنشد أبو العباس ثعلب وغيره :

لَا مَالَ إِلَّا الْعِطَافُ تُؤْزِرُهُ أُمُّ ثَلَاثِينَ وَابْنَةُ الْجَبَلِ
لَا يَرْتَقِي النَّزُّ فِي ذِلَالِهِ وَلَا يُعْرِي نَعْلَيْهِ مِنْ بَلَلِ
عَصْرَتُهُ نُطْفَةٌ تَصْنَمْنَهَا لَصْبٌ تَلَقَّى مَوَاقِعَ السَّبَلِ

والأبيات في وصف صعلوك . يقول عنه : إنه لا يملك شيئاً إلا العطاف ، وأم ثلاثين ، وابنة الجبل ، أما العطاف فهو السيف . سمّي بذلك لأنه يُسَمَّى للأنسان رداءً ، والرداء هو العطاف وهو المعطف . وأم الثلاثين هي الكنانة فيها ثلاثون سهماً ، وأما ابنة الجبل فهي قوس من نبتة في جبل ، وهو أصلب لعودها ، وفي البيتين التاليين يقول : انه لا يناله نر من الأرض لأنه يأوي إلى الجبال ، والعصرة : الملجأ ، والنطفة : الماء ، واللصّب : شق الجبل ، فهو يعيش في شق من الجبل .

والشاهد هنا أن قوله : « تُؤْزِرُهُ » في البيت دليل على أن وزن « آزَرَ » أفعَلَ ، إذ « تُؤْزِرُ » هي المضارع ، فالماضي أفعَلَ ، فهي مثل أَكْرَمَ يُكْرِمُ ، ومن هنا يظهر خطأ مجاهد في قوله : إن وزنها فاعلته .

(٢) هذا صدر بيت قاله جرير من قصيدة يمدح بها هشام بن عبد الملك ، والبيت بتمامه :

لَحَبَّ الْمُؤَقِدَانِ إِلَيَّ مُوسَى وَجَعْدَةُ لَوْ أَضَاءَهُمَا الْوُقُودُ

وهو في اللسان والتاج والخصائص وسر الصناعة والمحتسب والطبري ومخطوطة أنساب الأشراف والكشاف ، وقد سبق الاستشهاد به أكثر من مرة على أن الواو قد تقلب همزة لإجراء لضمّة ما قبلها مجرى ضمة نفسها ، وقد روي : أحبُّ المؤقدين ، ورواية الديوان : لَحَبَّ الواقدان ، ولكل رواية تخرجها . وكان موسى وجعدة مشهورين بالسقاء وإيقاد النار للقرى ، =

و (يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ) جملة في موضع الحال ، فإذا أعجب الزُّرَّاعَ فهو أخرى أن يُعْجِبَ غيرهم لأنه لا عيب فيه ؛ إذ قد أعجب العارفين بالعيوب ، ولو كان معيباً لم يُعْجِبَهُمْ ، وهنا تمَّ المثل .

وقوله تعالى : (لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ) ابتداء كلام قبله محذوف تقديره : جعلهم الله تعالى بهذه الصفة ليغيب بهم الكفار ، و «الْكُفَّارُ» هنا : المشركون ، قال الحسن : من غيظ الكفار قول عمر رضي الله عنه بمكة : «لَا عُبْدَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ سِوَا بَعْدِ الْيَوْمِ» ، وقوله تعالى : [مِنْهُمْ] هي لبيان الجنس وليست للتبويض (١) ، لأنه وعْدٌ مُرَجٌّ للجميع .

كامل تفسير سورة الفتح والحمد لله رب العالمين

= وَحَبَّ فعل ماضٍ أصله حَبَّبَ مثل كَرَّمْ ، ومعناه : صار محبوباً ، واللام في «لَحَبَّ» جواب قسم محذوف ، وكان المفروض أن يقول : لقد حَبَّ الواقدان إليَّ إلا أن القاعدة أن يقتصر في أفعال المدح على اللام بدون قد لعدم تصرفها ، وقد أجرى لَحَبَّ مجرى أفعال المدح ، فهو مثل : والله لَنِعْمَ الرَّجُلُ زَيْدٌ ، والمُؤَقَّدَانِ هُمَا مُوسَى وَجَعْدَةُ ، والوقود — بفتح الواو — ما يوقد به من الحطب ، وبضم الواو مصدر بمعنى الإيقاد ، ومعنى البيت : لما أضاء إيقاد النار موسى وجعدة ورأيتهما من ذوي الوضاعة والنور والبهجة صارا محبوبين لي . (١) فهو مثل [مِنْ] في قوله تعالى : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾ ، إذ المعنى : فاجتنبوا الرجس من جنس الأوثان ، وكذلك المعنى هنا : من جنس الصحابة ، وقبل : إن [مِنْ] في الآية هنا للتوكيد ، كقولك : قطعت من الثوب قميصاً ، أي : قطعت الثوب كله قميصاً ، وكقوله تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ ﴾ ، لأن القرآن كله شفاء .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



وهي مدنية بإجماع من أهل التأويل (١) .

قوله عز وجل :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ﴿١﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ ۚ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ۚ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾

(١) قال القرطبي أيضاً: هي مدنية بإجماع ، وأخرج ابن الضريس ، والنحاس ، وابن مردويه ، والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما : نزلت سورة الحجرات بالمدينة ، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير رضي الله عنهما مثله . (ذكر ذلك السيوطي في الدر المنثور ، والشوكاني في فتح القدير) .

كانت عادة العرب - وهي إلى الآن - الاشتراك في الآراء ، وأن يتكلم كلُّ بما شاء ويفعل ما أحبَّ ، فمشى بعض الناس ممن لم تتمرن نفسه مع النبي صلى الله عليه وسلم على بعض ذلك ، قال قتادة : فربما قال قوم : لو نزل كذا وكذا في معنى كذا ، ولو فعل الله كذا ، وينبغي أن يكون كذا ، وأيضاً فإن قوماً ذبحوا ضحاياهم قبل النبي صلى الله عليه وسلم ، حكاه الحسن بن أبي الحسن ، وقوماً فعلوا في بعض حروبه وغزواته شيئاً بآرائهم ، فنزلت هذه الآية ناهية عن جميع ذلك .

وحكى الثعلبي عن مسروق أنه قال : دخلت على عائشة رضي الله عنها في يوم الشك ، فقالت للجارية : اسقه عسلاً ، فقلت : إني صائم ، فقالت : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صيام هذا اليوم ، وفيه نزلت : ﴿ لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ، وقال ابن زيد : معنى ﴿ لَا تُقَدِّمُوا ﴾ : لا تمشوا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك بين يدي العلماء فإنهم ورثة الأنبياء ، وتقول العرب : تَقَدَّمْتُ في كذا وكذا وقَدَّمْتُ فيه إذا قلت فيه .

وقرأ الجمهور من القراء : [تُقَدِّمُوا] بضم التاء وكسر الدال ، وقرأ ابن عباس ، والضحاك ، ويعقوب ، بفتح التاء والدال على

معنى : لا تتقدموا ، وعلى هذا يجيء تأويل ابن زيد في المشي ، والمعنى على ضم التاء : بين يدي قول الله ورسوله .

وروي أن سبب هذه الآية هو أن وفد بني تميم لما قدم قال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله ، لو أمرت الأقرع بن حابس ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا رسول الله ، بل أمر القعقاع ابن معبد ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : ما أردت إلا خلافي ، ويروي : إلى خلافي ، فقال عمر رضي الله عنه : ما أردت خلافاً ، وارتفعت أصواتهما ، فنزلت الآية في ذلك (١) ، وذهب بعض قائل هذه المقالة

(١) روى ذلك البخاري في صحيحه عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ، ورواه أيضاً عن ابن أبي مليكة ، قال : كاد الحيران أن يهليكا ، أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ، رفعاً أصواتهما عند النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم عليه ركب بني تميم ، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع ، وأشار الآخر برجل آخر ، قال نافع : لا أحفظ اسمه ، فقال أبو بكر لعمر : ما أردت إلا خلافي . قال : ما أردت خلافاً ، فارتفعت أصواتهما في ذلك ، فأنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ ﴾ الآية . قال ابن الزبير : فما كان عمر يُسمِع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية حتى يستفهمه ، وذكر الواحد في « أسباب النزول » بسنده دون الجزء الأخير وهو قول ابن الزبير رضي الله عنهما ، وأورد السيوطي الحديث في الدر المنثور وزاد نسبته إلى ابن المنذر ، وابن مردويه ، عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما .

وقد ذكر ابن عطية هنا أن أبا بكر أشار بإمارة الأقرع بن حابس . وأن عمر أشار بإمارة القعقاع بن معبد . ولكن الرواية الثابتة في الدر المنثور ، وفي أسباب النزول أن العكس هو الصحيح ، وأن أبا بكر أشار بالقعقاع ، وعمر أشار بالأقرع ، وما في الطبري يوافق ما ذكره ابن عطية ، ورواية البخاري لم تحدد .

إلى أن قوله تعالى : ﴿لَا تُقَدِّمُوا﴾ معناه : لا تقدموا ولاية ، فهو من تقدم الأُمراء ، وعموم اللفظ أحسن ، أي : اجعلوه مبدأ في الأقوال والأفعال . و [سَمِعُ] معناه : لأقوالكم ، و [عَلِيمٌ] معناه : بأفعالكم ومقتضى أقوالكم .

وقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ الآية هي أيضاً في ذلك الفن المتقدم ، وروى أن سببها كلام أبي بكر وعمر رضي الله عنهما المتقدم في أمر الأقرع والقعقاع ، والصحيح أنها نزلت بسبب عادة الأعراب في الجفاء وعلو الصوت والعنجهية ، وكان ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه ممن في صوته جهارة ، فلما نزلت هذه الآية اهتم وخاف على نفسه وجلس في بيته لم يخرج وهو كئيب حزين ، حتى عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم خبره ، فبعث إليه فأنسه وقال له : (امش في الأرض بسطاً فإنك من أهل الجنة) (١) ، وقال له مرة : (أما ترضى أن تعيش حميداً ،

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما ، رواه البخاري من حديث موسى بن أنس : عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم افتقد ثابت بن قيس ، فقال رجل : يا رسول الله أنا أعلم لك علمه ، فأتاه فوجده جالساً في بيته منكساً رأسه ، فقال له : ما شأنك ؟ فقال : شر ، كان يرفع صوته فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد حبط عمله وهو من أهل النار ، (وهذا التفات من الحاضر إلى الغائب ، والأصل : كنت أرفع صوتي) ، فأتى الرجل النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره أنه قال كذا وكذا ، فقال موسى : فرجع إليه المرة =

وتموت شهيداً) ، فعاش كذلك ثم قُتل رضي الله عنه باليمامة يوم
مسيلمة (١). وفي قراءة ابن مسعود : «لَا تَرْفَعُوا بِأَصْوَاتِكُمْ» بزيادة
باءٍ . وقوله تعالى : (كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ) أي : كحال جهركم

= الأخيرة بشارة عظيمة . فقال : (اذهب إليه فقل له : إنك لست من أهل النار ، ولكنك
من أهل الجنة) ، ورواه مسلم من رواية حماد بن سلمة ، عن ثابت البناني ، عن أنس بن مالك .
وأورده السيوطي في الدر المنثور . وزاد نسبه إلى الإمام أحمد . وأبي يعلى في معجم الصحابة ،
والطبراني ، وابن المنذر ، وابن مردويه . والبيهقي في الدلائل ، عن أنس بن مالك .

(١) هو ثابت بن قيس بن شماس الخزرجي ، يكنى أبا محمد . وقيل : أبا عبد الرحمن ،
قُتل له ثلاثة من أولاده يوم الحرة . وهم : محمد . ويحيى . وعبد الله ، وكان خطيباً بليغاً
معروفاً بذلك . كان يقال له : خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يقال لحسان بن ثابت :
شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد خطب يوم قدم وفد بني تميم على رسول الله صلى الله
عليه وسلم خطبة بليغة جزلة ، كما قال حسان بن ثابت قصيدة ردّها على الأقرع بن حابس
شاعر بني تميم . فقال الرفض : خطيبهم أخطب من خطيبنا ، وشاعرهم أشعر من شاعرنا ،
وفي يوم اليمامة خرج مع خالد بن الوليد إلى مسيلمة . وفي اللقاء انكشف المسلمون فقال ثابت
ومعه سالم مولى أبي حذيفة : ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم حفر كل
واحد منهم حفرة فثبنا وقاتلنا حتى قُتلا ، وعلى ثابت يومئذ درع له نفيسة ، فمرّ به رجل
من المسلمين فأخذها . وبينما رجل من المسلمين نائم أتاه ثابت في منامه فقال له : أوصيك بوصية ،
فإنيك أن تقول : هذا حلّم فتضيّعه ، إني لما قُتلت جاء رجل من المسلمين فأخذ درعي ،
ومنزله في أقصى الناس ، وعند خبائه فرس يستنّ — يعلو إقبالا وإدباراً في طوله — والطول :
الحبل الطويل يشدّ أحد طرفيه في وتد والطرف الآخر في رجل الفرس — وقد كفأ على الدرع
برمة . وفوق البرمة رحل ، فأت خالداً فمرّه أن يبعث إلى درعي فأخذها ، وإذا قدمت المدينة
على خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم — يعني أبا بكر رضي الله عنه — فقل له : إن عليّ
من الدين كذا وكذا . وفلان من رقيقي عتيق وفلان ، فأتى الرجل خالداً فأخبره فبعث إلى
الدرع فأحضرها ، وحدّث أبا بكر رضي الله عنه برؤياه فأجازها الصديق ، قيل : ولا نعلم
أحداً أجزت وصيته بعد موته غير ثابت بن قيس رضي الله عنه . (راجع الاستيعاب : والإصابة
والدر المنثور) .

في جفائه وكونه مخاطبة بالأسماء والألقاب ، وكانوا يدعون النبي صلى الله عليه وسلم : يا محمد ، قاله ابن عباس وغيره ، فأمرهم الله تعالى بتوقيره وأن يدعو بالنبوة والرسالة والكلام اللين ، فتلك حالة الموقر ، وكره العلماء رفع الصوت عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم وبحضرة العالم وفي المساجد ، وفي الجميع آثار .

وقوله تعالى : ﴿ أَنْ تَحْبَطَ ﴾ مفعول من أجله ، أي مخافة أن تحبط ، والحبط : الفساد في العمل بعد تقررره ، يقال : حبط بكسر الباء ، وأحبطه الله ، وهذا الحبط إن كانت الآية معرضة بمن يجهر استخفافاً واحتقاراً وجرأةً فذلك كفر والحبط معه على حقيقته ، وإن كان التعريض للمؤمن الفاضل الذي يفعل ذلك غفلة وجرياً على طبعه فإنما يحبط عمله البر في توقير النبي صلى الله عليه وسلم وغض الصوت عنده إن لو فعل ذلك ، كأنه قال : مخافة أن تحبط الأعمال التي هي معدة أن تعملوها فتؤجروا عليها ، ويحتمل أن يكون المعنى : أن تأثموا ويكون ذلك سبباً إلى الوحشة في نفوسكم ، فلا تزال معتقداتكم تتدرج القهقري حتى يؤول ذلك إلى الكفر فيحبط الأعمال حقيقة ، وظاهر الآية أنها مخاطبة لفضلاء المؤمنين الذين لا يفعلون ذلك احتقاراً ، وذلك أنه لا يقال لمنافق يعمل ذلك جرأة : « وأنت لا تشعر » لأنه ليس له عمل

يعتقده هو عملاً ، وفي قراءة عبد الله بن مسعود : « فَتَحَبَّطَ أَعْمَالُكُمْ » .
ثم مدح تعالى الصنف المخالف لمن تقدّم ذكره وهم الذين يَغْضُونَ
أصواتهم عند النبي صلى الله عليه وسلم ، وَغَضُّ الصَّوْتِ : خَفْضُهُ
وَكَسْرُهُ . وكذلك البصر ، ومنه قول جرير :

فَغَضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ (١)

وَرُوي أَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كَانَا بَعْدَ ذَلِكَ لَا يَكْلِمَانِ رَسُولَ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا كَأَخِي السَّرَّارِ (٢) ، وَأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
كَانَ يَحْتَاجُ مَعَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى اسْتِعَادَةِ اللَّفْظِ ؛ لِأَنَّهُ
كَانَ لَا يَسْمَعُهُ مِنْ إِخْفَائِهِ إِيَّاهُ (٣) .

(١) هذا صدر بيت قاله جرير يهجو الراعي النُمَيْرِي . والبيت بتمامه :

فَغَضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فَلَ كَعْبًا بَلَعْتَ وَلَا كِيلاً
وهو من قصيدته البائية التي بدأها بقوله :

أَقْلِي اللَّوْمَ عَاذِلَ وَالْعِتَابَ وَقُولِي إِنِّي أَصَبْتُ لَقَدْ أَصَابَا

والبيت في الديوان ، والكتاب لسبويه ، والعيني ، وابن يعيش ، والهمع ، والأشموني ، وشرح
شواهد الشافية ، والتصريح ، وفي الكامل للمبرد : (فَغَضَّ) بكسر الضاد ، وفي الخزانة :
فَغَضَّ بالفتح والكسر والضم . والنحويون يستشهدون به على جواز الفتح في (غَضَّ)
المضعف لالتقاء الساكنين ، وقد قيل : هو أهجى بيت قالته العرب .

(٢) ذكره الواحدي في (أسباب النزول) ، وأخرجه البزار ، وابن مردويه من طريق
طارق بن شهاب عن أبي بكر رضي الله عنه ، وأخرجه الحاكم ، والبيهقي في (المدخل)
من حديث أبي هريرة وقال : صحيح على شرط مسلم .

(٣) جاء ذلك في حديث ابن أبي مليكة الذي رواه البخاري وذكرناه قبل ذلك ، وفيه أن =

و [أَمْتَحَنَ] معناه : اختبر وطهر كما يُمتحن الذهب بالنار ،
فيسرها وهيئاًها للتقوى ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : امتحن
للتقوى : أذهب عنها الشهوات .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

من غلب شهوته وغضبه فذلك الذي امتحن الله تعالى قلبه للتقوى ،
وبذلك تكون الاستقامة .

قوله عز وجل :

﴿إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ
صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكَ فَاسِقُ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَلَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى
مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٣﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ
الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ
الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٤﴾ فَضَلَّامِينَ لِلَّهِ
وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥﴾﴾

= ابن الزبير رضي الله عنهما قال : « فما كان عمر يُسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه
الآية حتى يستفهمه » . وفي الخبر أنه لم يذكر ذلك عن جده أبي بكر رضي الله عنهم أجمعين ،
راجع صفحة (٤٨٣) من هذا الجزء .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾
 نزل في وفد بني تميم ، حيث كان الأقرع بن حابس ، والزبرقان
 ابن بدر ، وعمرو بن الأهتم ، وغيرهم ، وذلك أنهم وفدوا على رسول الله
 صلى الله عليه وسلم فدخلوا المسجد ودنوا من حجر أزواج النبي صلى الله
 عليه وسلم وهي تسع ، فعجلوا ونادوا ولم ينتظروا ، ونادوا بجملتهم :
 يا محمد اخرج إلينا ، يا محمد اخرج إلينا ، فكان في فعلهم ذلك
 جفاء وبدأوة وقلة توقير ، فتربص رسول الله صلى الله عليه وسلم
 مدة ثم خرج إليهم ، فقال له الأقرع بن حابس : يا محمد ، إن مدحي
 زين ، وذمي شين ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : (ويلك ذلك
 الله تعالى) ، واجتمع الناس في المسجد ، فقام خطيبهم فخطب وفخر ،
 فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثابت بن قيس بن شماس رضي الله
 عنه فخطب وذكر الله تعالى والإسلام وأرأى على خطيبهم ، ثم قام
 شاعرهم فأنشد مفتخراً ، فقام حسان بن ثابت رضي الله عنه ففخر
 بالله تعالى وبالرسول صلى الله عليه وسلم وبالبسالة فكان أشعر من شاعرهم ،
 فقال بعضهم لبعض : والله إن هذا الرجل لمؤتى له ، لخطيبه أخطب
 من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ثم نزلت فيهم هذه الآية (١).

(١) ذكره الواحدي النيسابوري في (أسباب النزول) . وهو خبر طويل ، وذكره ابن
 إسحق في السيرة ، وقد أورد خطبة ثابت بن قيس في الرد على خطيب بني تميم وهو عطار =

هذا تلخيص ما تظاهرت به الروايات في هذه الآية ، وقد رواه موسى بن عقبة عن أبي سلمة عن الأقرع بن حابس ، وفي مصحف ابن مسعود : « أَكْثَرُهُمْ بَنُو تَمِيمٍ لَا يَعْقِلُونَ » .

و « الْحُجَرَاتِ » جمع حجرة ، وقرأ الجمهور من القراء : [الْحُجَرَاتِ] بضم الحاء والجيم ، وقرأ أبو جعفر القارئ وحده : [الْحُجَرَاتِ] بفتح الحاء والجيم . وقوله تعالى : ﴿ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ يعني في الثواب عند الله تعالى ، وفي انبساط نفس النبي صلى الله عليه وسلم لهم وقضائه لحوائجهم ووُدّه لهم ، وذلك كله خير . ولا محالة أن بعضه انزوى بسبب جفائهم . وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ترجية لهم وإعلام بقبوله توبة التائب ، وغفرانه ورحمته لمن أناب ورجع .

= ابن حجب ، وأورد شعر الزبرقان بن بدر شاعر بني تميم ، وشعر حسان بن ثابت في الرد عليه ، ومن شعر الزبرقان قوله :

نَحْنُ الْكِرَامُ فَلَا حَيَّ يُعَادِلُنَا مِمَّا الْمُلُوكُ وَفِينَا تُنْصَبُ الْبَيْعُ
وَكَمْ قَسَرْنَا مِنَ الْأَحْيَاءِ كُلَّهُم عِنْدَ النَّهَابِ وَقَضَى الْعِزُّ يَتَّبِعُ
ومن شعر حسان قوله :

أَكْرَمُ بِقَوْمِ رَسُولِ اللَّهِ شِعْتُهُمْ إِذَا تَفَاوَتَ الْأَهْلُ سَوَاءً وَالشَّيْعُ
أَهْدَى لَهُمْ مِدْحَتِي قَلْبُ يُؤَاوِرُهُ فِيمَا أَحِبُّ لِيَسَانُ حَائِكُ صَنْعُ
فَلَيْتَهُمْ أَفْضَلُ الْأَحْيَاءِ كُلَّهُم إِنْ جَدَّ بِالنَّاسِ جِدُّ الْقَوْلِ أَوْ شَمِعُوا

والصنع هو الذي يحسن القول ويبيده ، ومعنى « شَمِعُوا » : هزَلُوا ، وأصل الشمع : الطرب واللهو ، أما قول الأقرع بن حابس : إِنْ هَذَا الرَّجُلُ لَمُسُوْتِي لَهُ فَمَعْنَاهُ : لَمَوْقَقٌ لَهُ .

قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ﴾ الآية .
 سببها أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط
 إلى بني المصطلق مُصَدِّقاً (١) ، فرُوي أنه كان معادياً لهم فأراد إذايتهم ،
 فرجع من بعض طريقه وكذب عليهم - قاله الضحاك - وقال للنبي
 صلى الله عليه وسلم : إنهم قد منعوا الصدقة وطرّدوني وارتدوا ،
 فغضب النبي صلى الله عليه وسلم وهمّ بغزوهم ونظر في ذلك ، وبعث
 خالد بن الوليد إليهم ، فورد وفدهم منكبين لذلك (٢) ، وروي عن
 أمّ سلمة وابن عباس رضي الله تعالى عنهم أن الوليد بن عقبة لما
 قرب منهم خرجوا إليه متلقين له . فرآهم على بُعد ففرع منهم وظن
 بهم الشرّ وانصرف فقال ما ذكرناه (٣) ، وروي أنه لما قرب منهم
 بلغه عنهم أنهم قالوا : لا نعطيهِ الصدقة ولا نعطيهِ ، فعمل على صحّة

(١) المُصَدِّقُ : العاملُ الذي يجي الصدقات .

(٢) أخرجه أحمد . وابن أبي حاتم . والطبراني . وابن منده ، وابن مردويه ، بسند
 جيّد عن الحارث بن ضرار الخزاعي ، وأخرج مثله الطبراني ، وابن منده ، وابن مردويه ،
 عن علقمة بن ناجية ، وأخرجه الطبراني في الأوسط عن جابر بن عبد الله ، مع اختلاف في
 الألفاظ .

(٣) أخرجه ابن راهويه ، وابن جرير ، والطبراني ، وابن مردويه ، عن أمّ سلمة
 رضي الله عنها ، وأخرجه ابن جرير ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه ، وابن عساكر ،
 عن ابن عباس رضي الله عنهما . (انظر المنشور) .

هذا الخبر وانصرف فقال ما ذكرناه ، فنزلت الآية بهذا السبب ،
والوليد - على ما ذكر مجاهد وقتادة - هو المشار إليه بالفاسق ، وحكى
الزهراوي : قالت أم سلمة : هو الوليد بن عتبة ثم هي باقية فيمن
اتصف بهذه الصفة غابر الدهر . و « الفسق » : الخروج عن نهج الحق ،
وهو مراتب متباينة كلها مظنة للكذب وموضع تثبت وتبين ، وتأنس
القائون بقبول خبر الواحد بما يقتضيه دليل خطاب هذه الآية ؛
لأنه يقتضي أن غير الفاسق إذا جاء نبياً أن يعمل بحسبه ، وهذا
ليس باستدلال قوي ، وليس هذا موضع الكلام على مسألة خبر
الواحد .

وقرأ الجمهور من القراء : [فَتَبَيَّنُوا] من التبين ، وقرأ حمزة ،
والكسائي ، والحسن ، وابن وثاب ، وطلحة ، والأعمش ، وعيسى :
[فَتَبَيَّنُوا] من التثبت . و [أَنْ] في قوله تعالى : (أَنْ تُصِيبُوا) مفعول
من أجله ، كأنه تعالى قال : مخافة أن تصيبوا ، وقال قتادة : قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما نزلت هذه الآية : (التَّثَبُّتُ من
الله والعجلة من الشيطان) (١) ، قال منذر بن سعيد : هذه الآية ترد

(١) أخرجه عبد بن حميد ، وابن جرير . عن قتادة ، وهو جزء في آخر الحديث الذي
رواه قتادة عن إرسال النبي صلى الله عليه وسلم الوليد بن عتبة إلى بني المصطلق ، والنظ =

على من قال إن المسلمين كلهم عدول حتى تثبت الجرحه لأن الله تعالى أمر بالتبيين قبل القبول (١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقوله يقتضي أن المجهول الحال يخشى أن يكون فاسقاً ، والاحتياط لازم . قال النقاش : وقوله تعالى : [فَتَبَيَّنُوا] أبلغ من [تَثَبَّتُوا] ؛ لأنه قد يَثَبَّتَ من لا يَتَبَيَّن .

وقوله تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ توبيخ للكذبة ووعيد بالفضيحة ، أي : فليفكر الكاذب في أن الله تعالى يفضحه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ ﴾ ، أي لشقيتم وهلكتم ، والعنت : المشقة ، أي : لو يُطِيعُكُمْ أيها المؤمنون في كثير مما ترونه باجتهادكم وتقدمكم بين يديه ،

= المذكور في الدر المنثور : (التأني من الله والعجاة من الشيطان) ، وذكره السيوطي في الجامع الصغير من رواية البيهقي في شعب الإيمان عن أنس رضي الله عنه ، ثم رمز له بأنه ضعيف . (١) إذ لا معنى للتثبت بعد إنفاذ الحكم . فإن حكم الحاكم قبل التثبت فقد أصاب المحكوم عليه بجهالة وهو ما نصت عليه الآية الكريمة ﴿ أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ . ثم إن الله تبارك وتعالى لم يأمر بالتبيين إلا عند مجيء الناسق لا مجيء المسلم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ ﴾ الآية ، كأنه تعالى قال : ولكن أنعم بكذا وكذا ، وفي ذلك كفاية وأمر لا تقومون بشكره ، فلا تتقدموا في الأمور واقنعوا بإنعام الله تعالى عليكم ، وحَبَّبَ الله تبارك وتعالى الإيمان وزينه بأن خلق في قلوب المؤمنين حُبَّه وحسنه ، وكذلك تكريه الكفر والفسوق والعصيان ، وحكى الرُّمَّانِي عن الحسن أنه حَبَّبَ الإيمان بما وصف من الثواب عليه ، وكره الثلاثة المقابلة للإيمان بما وصف من العقاب عليها ، وقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ رجوعٌ من الخطاب إلى ذكر الغيبة ، كأنه تعالى قال : ومن فعل هذا معه وقيلَه وشكر عليه فأُولَئِكَ هم الرُّاشِدُونَ .

وقوله تعالى : ﴿ فَضْلاً مِنْ اللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ مصدر مؤكد بنفسه لأن ما قبله هو بمعناه ؛ إذ التَّحْيِيْب والتَّزْيِين هو نفس الفضل ، وقد يجيء المصدر مؤكداً لما قبله إذا لم يكن هو نفس ما قبله ، كقولك : جاء زيد حقاً ونحوه ، وكان قتادة رحمه الله تعالى يقول : قد قال تعالى لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ ﴾ ، وأنتم والله أسخف رأياً وأطيش أحلاماً ، فليَتَّهِمْ رجلٌ نفسه وليَنَتَّصِح كتابُ الله تبارك وتعالى .

قوله عز وجل :

﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾

[طَائِفَتَانِ] مرفوع بإضمار فعل ، والطائفة : الجماعة ، وقد تقع على الواحد ، واحتج لذلك بقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ (١) ، ورأى بعض الناس أنه يُجزي أن يشهد حد الزنا واحد ، فهذه الآية الحكم فيها في الأفراد وفي الجماعات واحد .

واختلف الناس في سبب هذه الآية - فقال أنس بن مالك والجمهور : سببها ما وقع بين المسلمين وبين المتحزبين منهم أيضاً مع عبد الله بن أبي بن سلول حين مر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متجه لزيارة سعد ابن عبادَةَ رضي الله عنه في مرضه ، فقال عبد الله بن أبي لما غشيته حمار رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تُغبرُوا علينا ، ولقد آذانا نتن حمارك ، فردَّ عليه عبد الله بن رواحة رضي الله عنه الحديث بطوله... فتلاحى الناس حتى وقع بينهم ضربٌ بالجريد ، ويروى بالحديد (٢) .

(١) من الآية (١٢٢) من سورة (التوبة) .

(٢) حديث أنس رضي الله عنه أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما ، وذكره الواحدي في (أسباب النزول) بسنده عن معتمر بن سليمان عن أبيه ، ونقله عنه القرطبي ، وذكره =

وقال أبو مالك : والحسن : سببها أَنَّ فرقتين من الأنصار وقع بينهما قتال فأصلحه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد جهد ونزلت الآية في ذلك .

وقال السُّدي : كانت بالمدينة امرأة من الأنصار يقال لها : أمُّ بَدْرٍ (١) ، وكان لها زوج من غيرهم ، فوقع بينهما شيءٌ أوجب أن يأنف لها قومها وله قومه ، فوقع قتال نزلت الآية بسببه (٢) .

= السيوطي في (الدر المنثور) . وزاد نسبه إلى الإمام أحمد ، وابن جرير الطبري ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه ، وليس فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم مرَّ على ابن سلول وهو ذاهب إلى زيارة سعد بن عباد ، بل فيه أنه قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : لو أتيت عبد الله بن أبي ، فانطلق وركب حماراً ، وانطلق المسلمون يمشون ، وهي أرض سيخة ، فلما انطلق إليهم قال : إليك عني فوالله لقد آذاني ريح حمارك ، فقال رجل من الأنصار : والله لحمار رسول الله صلى الله عليه وسلم أطيب ريحاً منك ، فغضب لعبد الله رجال من قومه ، وغضب لكل منهما أصحابه ، فكان بينهم ضربٌ بالجرید والأيدي والنعال ، فأُنزل فيهم : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ . أما حديث زيارة سعد بن عباد فقد أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أسامة بن زيد رضي الله عنه ، وفيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يعود سعد بن عباد ، فمرَّ بمجلس فيهم عبد الله بن أبي وعبد الله بن رواحة ، فحمرَّ ابن أبي وجهه بردائه ، وقال : لا تُغبرُّوا علينا ... الخ الحديث وهو طويل ، وقد ذكره أبو الفرج البغدادي بطوله في كتابه « المغني » .

(١) في جميع كتب التفسير والحديث « أمُّ زيد » .

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري ، وابن أبي حاتم عن السدي ، قال : كان رجل من الأنصار يقال له عمران ، تحته امرأة يقال لها أمُّ زيد ، وأنها أرادت أن تزور أهلها فحبسها زوجها وجعلها في علية لا يدخل عليها أحد من أهلها . وأن المرأة بعثت إلى أهلها فجاء قومها فأنزلوها =

و [بَغَتْ] معناه : طلبت العلُوَ بغير الحق ، ومدافعةُ الفئةِ الباغيةِ تتوجَّه في كل حال ، وأما التَّهْيِؤُ لِقِتَالِهَا فمع الوُلاَةِ ، وقيل لعليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه : أمُشركون هم أهل صفين والجمل ؟ قال : لا ، من الشُّرك فُرُوا ، قيل : أفمُنافقون ؟ قال : لا ، لأن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً ، قيل : فما حالهم ؟ قال : إخواننا بغوا علينا ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (حكم الله تعالى في الفئة الباغية ألا يُجهز على جريح ، ولا يُطلب هارب ، ولا يُقتل أسير) (١) . و [تَفِيء] معناه : ترجع ، و «الإقساط» : الحكم بالعدل .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ، يريد تعالى أخوة الدين ، وقرأ الجمهور من القراء : ﴿ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ وذلك رعاية لحال أقل

= لينطلقوا بها . وكان الرجل قد خرج ، فاستعان أهل الرجل فجاء بنو عمه ليحولوا بين المرأة وبين أهلها ، فتدافعوا وتجادلوا بالنعال . فترلت فيهم هذه الآية ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ﴾ . فبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصلح بينهم وفاؤوا إلى أمر الله . (الدر المنثور) .

(١) ذكر القرطبي هذا الحديث : قال : « وقال ابن عمر : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (يا عبد الله ، أتدري كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمة) ؟ قال : الله ورسوله أعلم . فقال : (لا يُجهز على جريحها ، ولا يُقتل أسيرها ، ولا يُطلب هاربها ، ولا يُقسم فيئتها) . » .

عدد يقع فيه القتال والتشاجر ، والجماعة متى قصدوا الإصلاح فإنما هو بين رجلين رجلين ، وقرأ ابن عامر ، والحسن - بخلاف عنه - : ﴿ بَيْنَ إِخْوَتِكُمْ ﴾ ، وقرأ ابن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وابن سيرين ، والحسن ، وعاصم الجحدري ، وثابت البناني ، وحمام بن سلمة : ﴿ بَيْنَ إِخْوَانِكُمْ ﴾ ، وهي حسنة لأن الأكثر من جمع الأخ في الدين ونحوه من غير النسب إخوان ، والأكثر من النسب إخوة وآخاء ، قال الشاعر :

وَجَدْتُمْ أَخَاكُمْ بَيْنَنَا إِذْ نُسِبْتُمْ وَأَيُّ بَنِي الْآخَاءِ تَنْبُو مَنَاسِبُهُ ؟ (١)
وقد تتداخل هذه الجموع ، وكلها في كتاب الله تعالى ، فمنه ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ، ومنه ﴿ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ ﴾ (٢) ، فهذا جاء على الأقل في الاستعمال .

(١) البيت في اللسان والتاج غير منسوب . وإنما قالوا : « وأنشد أبو علي » ، قال صاحب اللسان : « ويدلُّ على أن أَخًا فَعَلٌ مفتوحة العين جمعهم إِيَّاهَا على أفعال نحو آخاء » . حكاه سيبويه عن يونس ، وأنشد أبو علي : وجدتم بينكم دوننا ... البيت » ، ففي روايته : « بينكم دوننا » بدلاً من « أخاكم بيننا » . وفي الصحاح أن الأخ أصله أَخَوُ بالتحريك ، قال : « لأنه جمع على آخاء مثل آباء » . والذاهب منه واو لأنك تقول : أخوان » .

(٢) من الآية (٦١) من سورة (النور) .

قوله عز وجل :

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِنْ نِسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (١١) يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

هذه الآية والتي بعدها نزلت في خلق أهل الجاهلية ، وذلك لأنهم كانوا يجرون مع شهوات نفوسهم ، لم يُقَوِّمُهُمْ أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَلَا نَهْيٌ ، فكان الرجل يسخر ويلمز ويهمز وينبز بالألقاب ويظن الظنون فيتكلم بها ويغتاب ويفتخر إلى غير ذلك من أخلاق النفوس الباطلة ، فنزلت هذه الآية تأديباً للأمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وذكر بعض الناس لهذه الآيات أسباباً ، فمِمَّا قِيلَ : إن هذه الآية ﴿ لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ ﴾ نزلت بسبب عكرمة بن أبي جهل ، وذلك أنه كان يمشي بالمدينة مسلحاً ، فقال له قوم : هذا ابن فرعون هذه الأئمة ، فعزَّ عليه ذلك وشكاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

والقويُّ عندي أنَّ هذه الآيات نزلت تقويماً لسائر الخلق ، ولو تتبععت الأسباب لكانت أكثر من أن تُحصى .

و [يَسْخَرُ] معناه : يستهزئ ، والهُزءُ إنما يترتب متى ضعف امرؤٌ إما لصغر وإما لعلَّة حادثة أو لِرَزِيَّة أو لنقيصة يأتيا ، فيُنهى المؤمنون عن الاستهزاء في هذه الأمور وغيرها نهياً عاماً ، فقد يكون ذلك المُستَهْزَأُ به خيراً من الساخر . و « القوم » في كلام العرب واقع على الذُّكران ، وهو من أسماء الجمع كالرَّهْط ، وقول من قال إنه من القيام أو جمع قائم ضعيف ، ومن هذا قول الشاعر وهو زهير :

وَمَا أَذْرِي وَسَوْفَ إِخَالَ أَذْرِي أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءٌ ؟ (١)

وهذه الآية تقتضي اختصاص القوم بالذُّكران ، وقد يكون مع الذُّكران نساءً فيقال لهم : « قَوْمٌ » على تغليب حال الذكور ، ثم نهى الله تعالى النساء عما نهى عنه الرجال من ذلك ، وقرأ أبيُّ بن كعب ، وابن مسعود : « عَسَوْا أَنْ يَكُونُوا » و « عَسَيْنَ أَنْ يَكُنَّ » .

(١) قال زهير هذا البيت من قصيدة يهجو بها بني غُليب ، وهم آل بيت من كلب لأن رجلاً قد شكاهم إليه ، ثم علم أنه ظلمهم فندم على ذلك ، وقد أراد بالقوم هنا الرجال دون النساء . وهذا موضع الاستشهاد بالبيت ، وقوله : « وسوف إخال أدرى » معناه : سأبحث عن حقيقة حالهم ، وهذا هُزءٌ بهم وتوعُّدٌ لهم . وقد استشهد صاحب اللسان بالبيت على أن « القوم » هم الرجال لا النساء .

و [تَلْمِزُوا] معناه : يطعن بعضكم على بعض بذكر النقائص ونحوه ،
وقد يكون « اللَّمَزُ » بالقول وبالإشارة ونحو هذا مما يفهمه الآخر ، و « الْهَمْزُ »
لا يكون إلا باللسان ، وهو مشبه بالهمز بالعود ونحوه مما يقتضي المُماسَّة .
قال الشاعر :

وَمَنْ هَمَزَنَا عِزَّهُ تَبَرُّكَعَا (١)

وقيل لأعرابي : أتهمز الفأرة ؟ فقال : الهَرُّ يهمزها ، وحكى الثعلبي
أن « اللَّمَزَ » ما كان في المشهد ، وأن « الْهَمْزَ » ما كان في المغيب ،
وحكى الزهراوي عن علي بن سليمان عكس ذلك ، فقال : الهمز
أن تعيب بالحضرة واللَّمَز في الغيبة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَبِئْسَ لِكُلِّ
هُمَزَةٍ لُّمَزَةٌ ﴾ (٢) ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي

(١) البيت لرؤبة بن العجاج ، وهو من قصيدة قالها يمدح نيمًا ، وقد ذكره في اللسان
مع بيت بعده باللفظ الذي ذكره ابن عطية هنا ، ولكنه في الديوان مختلف عن ذلك ، أما في
اللسان فالبيتان هما :

وَمَنْ هَمَزَنَا عِزَّهُ تَبَرُّكَعَا عَلَى اسْتِهِ زَوْبَعَةٌ أَوْ زَوْبَعَا

ومعنى تَبَرُّكَع : صُرِعَ فَوْقَ عَلَى اسْتِهِ ، وأما في الديوان فالرواية :

وَمَنْ هَمَزَنَا رَأْسَهُ تَلَعَلَعَا وَمَنْ أَبَحَّنَا عِزَّهُ تَبَرُّكَعَا

عَلَى اسْتِهِ رَوْبَعَةٌ أَوْ رَوْبَعَا

والهمز هو الدفع والضرب - والبيت شاهد على هذا المعنى في اللسان - ، وتَلَعَلَعَ : ضَعُفَ
من المرض أو التعب .

(٢) الآية (١) من سورة (الهُمَزَة) .

الْصَّدَقَاتِ (١) ، وقرأ الجمهور : [تَلْمِزُوا] بكسر الميم ، وقرأ الأعرج والحسن بضمها ، قال أبو عمرو بن العلاء : هي عربية ، وقال أبو حاتم : قراءتنا بالضم وأحياناً بالكسر ، وقوله تعالى : [أَنْفُسُكُمْ] معناه : بعضكم بعضاً ، كما قال تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ (٢) ، كأن المؤمنين كنفس واحدة إذ هم إخوة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كالجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى سائرُه بالسهر والحمى) (٣) ، وهم كما قال أيضاً : (كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضاً) (٤) .

و «التَّنايُزُ» : التَّلَقُّبُ ، والتَّنايُزُ والتَّلَقُّبُ واحد ، إذ اللَّقَبُ هو ما يُعرف به الإنسان من الأسماء التي يكره سماعها ، وروى أن بني سلمة كانوا قد كثرت فيهم الألقاب ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً منهم فقال له : يا فلان ، فقل له : إنه يغضب من هذا

(١) من الآية (٥٨) من سورة (التوبة) .

(٢) من الآية (٢٩) من سورة (النساء) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، والإمام مسلم في صحيحه ، عن النعمان بن بشير ، ورمز له الإمام السيوطي في الجامع الصغير بالصحة ، ولفظه فيه : (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى) .

(٤) أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما ، والترمذي ، والنسائي في صحيحيهما ، عن أبي موسى رضي الله عنه ، وذكره الإمام السيوطي في الجامع الصغير ورمز له بالصحة ، كما أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤-١٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٩) .

الاسم ، ثم دعا آخر كذلك ، فنزلت الآية في هذا (١) ، وليس من هذا قول المحدثين : سليمان الأعمش . وواصل الأحمد (٢) . ونحوه مما تدعو الضرورة إليه وليس فيه قصد استخفاف ولا أذى ، وقد قال عبد الله بن مسعود لِعَلْقَمَةَ : أو تقول أنت ذلك يا أعور (٣) ؟ وأسند النقاشُ إلى عطاء ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كَفُّوا أَوْلَادَكُمْ) ، قال عطاء ، مخافة الألقاب ، وقال ابن زيد : معنى ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ أي : لا يقل أحدٌ لآخر : يا يهودي بعد إسلامه ، ولا « يا فاسق » بعد توبته ، ونحو هذا ، وحكى النقاش أن كعب بن مالك ،

(١) أخرجه أحمد ، وعبد بن حميد ، والبخاري في الأدب ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والبغوي في معجمه ، وابن حبان ، والشيرازي في الألقاب ، والطبري ، وابن السني في عمل اليوم والليلة ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في شعب الإيمان . عن أبي جبيرة بن الضحاك رضي الله عنه : قال : فينا نزلت : في بني سلمة ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ ، قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وليس فيها رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة ، فكان إذا دعا أحدهم باسم من تلك الأسماء قالوا : يا رسول الله ، إنه يكره هذا الاسم ، فأنزل الله ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ . (الدر المنثور) .

(٢) أما الأعمش فهو سليمان بن مهران الأسدي الكاهلي ، أبو محمد ، الكوفي ، الأعمش ، ثقة حافظ ، عارف بالقراءة ، ورع ، قال عنه الحافظ بن حجر : لكنه يَدْهَسُ . مات سنة سبع وأربعين أو ثمان وأربعين . وأما الأحمد فهو واصل بن حيان الأحمد . الأسدي الكوفي ، ثقة ثبت ، مات سنة عشرين ومائة ، قال العلماء : ليس هذا من التنازع بالألقاب لأنه أريد به الصفة ولم يُرد به العيب ، وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن سرجيس قال : رأيت الأضلع يُقبَّل الحجر ، وفي رواية : الأصيلع ، يعني عمر بن الخطاب رضي الله عنه . (٤) في الصحابة عدد كبير ممن اسمه علقمة ، ولا ندري من المقصود منهم .

وابن أبي حذرٍ تَلَا حَيًّا (١) ، فقال له كعب : يا أعرابي ، يريد أن يُبعده من الهجرة ، فقال له الآخر : يا يهودي ؛ لمخالطة الأنصار اليهود في يشرب ، فنزلت الآية .

وقوله تعالى : (بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ) يحتمل معنيين : أحدهما فبئس اسم تكتسبونه بعصيانكم ونبزكم بالألقاب فتكونون فُسَاقًا بالمعصية بعد إيمانكم ، والثاني بئس ما يقول الرجل لأخيه يا فاسق بعد إيمانه . وقال الرُّمَّاني : هذه الآية تدل على أنه لا يجتمع الفسوق والإيمان ، وهذه نزعة اعتزالية ، ثم شدد الله تعالى عليهم النهي بأن حكم بظلم من لم يتب ويُقلع عن هذه الأشياء التي نهى عنها .

ثم أمر تبارك وتعالى المؤمنين باجتناب كثير من الظن ، وألَّا يعملوا ولا يتكلموا بحسبه لما في ذلك وفي التجسس من التقاطع والتدابير ، وحكم على بعضه أنه إثم ؛ إذ بعضه ليس بإثم ولا يلزم اجتنابه ، وهو ظنُّ الخير بالناس ، وحُسْنُهُ بالله تعالى ، والمظنون من شهادات الشهود ، والمظنون به من أهل الشر ، فإن سقوط عدالته وغير ذلك هو من حكم الظنِّ به ، وظنُّ الخير بالمؤمن محمود ، والظنُّ المنهيُّ عنه هو أن يظنَّ سوءًا برجل ظاهره الصلاح ، بل الواجب أن يزيل

(١) أي : تنازعا وتخاصما .

الظنَّ وحكمه ويتأول الخير ، وقال بعض الناس : [إِثْمٌ] معناه : كذب ،
ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ
الْحَدِيثِ) (١). وقال بعض الناس : معنى قوله تعالى : ﴿إِنَّ بَعْضَ
الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ أي إذا تكلَّم الظَّانُّ إِثْمٌ ، وما لم يتكلَّم فهو في فُسْحَةٍ
لأنه لا يقدر على دفع الخواطر التي يُبيحها قول النبي صلى الله عليه
وسلم : (الحَزْمُ سُوءُ الظَّنِّ) (٢). وذكر النقاش عن أنس رضي الله عنه
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (احترسوا من الناس بسوء الظن) (٣).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وما زال أولوا العزم يحترسون من سوء الظنِّ ويسدُّون ذرائعه ،
قال سلمان الفارسي : إِنِّي لَأَعُدُّ عِرَاقَ قِدْرِي (٤) مخافة الظنِّ ، وكان

(١) أخرجه مالك ، وأحمد ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن المنذر ،
وابن مردويه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وهو جزء من حديث ذكره السيوطي في الدر
المشور ، ولفظه كما ذكره : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ
أَكْذَبُ الْحَدِيثِ . وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا تَنَافَسُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَبَاغَضُوا : وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا ،
وَلَا يَخْطُبُ الرَّجُلُ عَلَى خُطْبَةِ أَخِيهِ حَتَّى يَنْكَحَ أَوْ يَتَرَكَ) .

(٢) أخرجه أبو الشيخ في الثواب عن علي ، والقضاعي عن عبد الرحمن بن عائذ ، ورمز
له السيوطي في الجامع الصغير بأنه حديث حسن .

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط ، وابن عدي في الكامل ، عن أنس رضي الله عنه ،
ورمز له السيوطي في الجامع الصغير بأنه ضعيف .

(٤) العِرَاقُ - بضم العين - : العظم أكل لحمه . وفي بعض النسخ « لَا أَعُدُّ » بدلا من
« لَأَعُدُّ » .

أبو العالية يختم على بقية طعامه مخافة سوء الظن بخادمه ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : الأمانة خير من الخاتم ، والخاتم من سوء الظن .

قوله تعالى : ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ ، أي : لا تبحثوا عن مخبات أمور الناس ، وادفعوا بالتي هي أحسن ، وأخبروا بالظواهر الحسنة .
 وقرأ الحسن ، وأبو رجاء ، وابن سيرين ، والهدليون : ﴿وَلَا تَحَسَّسُوا﴾
 بالحاء غير منقوطة ، وقال بعض الناس : التجسس - بالجيم - في الشر ، والتجسس - بالحاء - في الخير ، وهكذا ورد القرآن ولكن قد يتداخلان في الاستعمال ، وقال أبو عمرو بن العلاء : التجسس : ما كان من وراء وراء ، والتجسس : الدخول والاستعلام ، وصح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً) (١). وذكر الثعلبي حديث حراسة عمر بن الخطاب مع ابن عوف رضي الله عنهما ووجودهما الشرب في ربيعة بن أمية بن خلف ، وذكر أيضاً حديثه في نحو ذلك مع أبي محجن الثقفي (٢) ، وقال زيد بن وهب : قيل لابن مسعود :

(١) سبق الاستشهاد بالجزء الأول منه وهو قوله صلى الله عليه وسلم : (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث) ، وقد ذكرنا تخريجه في الهامش (١) صفحة (٥٠٥) من هذا الجزء .
 (٢) حديث حراسة عمر مع عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما أخرجه عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، والخراطي في «مكارم الأخلاق» ، عن زرارة بن مصعب بن عبد الرحمن =

هل لك في الوليد بن عُقبة تقطر لحيته خمرًا؟ فقال : إنا قد نُهينا عن التجسس ، فإن يظهر لنا أمرٌ أخذنا به (١) .

(وَلَا يَغْتَبْ) معناه : ولا يذكر أحدكم من أخيه شيئاً هو فيه ويكره سماعه ، وروي عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت عن امرأة : ما رأيتُ أجمل منها إلا أنها قصيرة ، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : (اغْتَبْتِهَا ، نظرت إلى أسوأ ما فيها فذكرته) (٢) ، وقد قال

= ابن عوف ، عن المسور بن مخرمة ، عن عبد الرحمن بن عوف ، قال : إنه حرس مع عمر ابن الخطاب ليلةً بالمدينة ، فبينما هم يمشون شبَّ لهم سراج في بيت ، فانطلقوا يؤمُّونه ، فلما دَنَوْا منه إذ بابٌ مُجَافٍ على قوم لهم فيه أصواتٌ مرتفعة ولغط ، فقال عمر - وأخذ بيد عبد الرحمن بن عوف - : أتدري بيت من هذا ؟ قال : هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف ، وهم الآن شَرِبُوا فما ترى ؟ قال : أرى أنَّنا قد أتينا ما نهى الله عنه ، قال الله : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ فقد تجسَّسنا ، فانصرف عنهم وتركهم ، والشَّرْبُ : القوم يشربون ويجمعون على الشراب . وأما حديثه مع أبي محجن الثقفي فقد قال أبو قلابة : حَدَّثَ عمر بن الخطاب أن أبا مِحْجَنَ الثَّقَفِيِّ يشرب الخمر مع أصحاب له في بيته ، فانطلق عمر رضي الله عنه حتى دخل عليه ، فإذا ليس عنده إلا رجل ، فقال أبو مِحْجَنَ : إنَّ هذا لا يحلُّ لك ، قد نهاك الله عن التَّجَسُّس ، فخرج عمر وتركه .

(١) أخرجه عبد الرزاق ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وأبو داود ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والبيهقي في « شعب الإيمان » ، عن زيد بن وهب ، وليس في الحديث ذكر لاسم الوليد بن عُقبة ، بل ذكره السيوطي في الدر المنثور بلفظ « هذا فلان تقطر لحيته خمرًا » .

(٢) أخرجه عبد بن حميد عن عكرمة ، قال : إن امرأة دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم ثم خرجت ، فقالت عائشة : يا رسول الله ، ما أجملها وأحسنها لولا أن بها قِصرًا ، =

النبي صلى الله عليه وسلم : (إذا ذكرت ما في أخيك فقد اغتبتك ،
وإذا ذكرت ما ليس فيه فقد بهتته) (١) ، وفي حديث آخر : (الغيبة
أن يذكر المؤمن بما يكره ، قيل : وإن كان حقاً ؟ قال : إذا قلت باطلاً
فذلك هو البهتان) (٢) ، وقال معاوية بن قرة : وأبو إسحق السبيعي (٣) :
إذا مر بك رجل أقطع فقلت : ذلك الأقطع ، كانت غيبة ، وحكى
الزهرائي عن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم
قال : (الغيبة أشد من الزنى ، لأن الزاني يتوب فيتوب الله

= فقال لما النبي صلى الله عليه وسلم : (اغتبتك يا عائشة) ، فقالت : يا رسول الله ، إنما قلت
شيئاً هو بها ، قال : (يا عائشة ، إذا قلت شيئاً بها فهي غيبة ، وإذا قلت ما ليس بها فقد بهتتها) ،
(الدر المنثور) .

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وأبو داود ، والترمذي وصححه ، وابن
جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه . قال : قيل : يا رسول الله ،
ما الغيبة ؟ قال : ذكرت أخاك بما يكره . قال : يا رسول الله ، أرايت إن كان في أخي ما أقول ؟
قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتك ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتته . (الدر المنثور) .
والبهتان هو القذف بالباطل .

(٢) أخرج عبد بن حميد ، والحرثي في « مساوي الأخلاق » عن عبد المطلب بن حنطب
قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الغيبة أن تذكر المرء بما فيه) . قال : إنما
كننا نرى أن نذكره بما ليس فيه ، قال : (ذاك البهتان) .

(٣) معاوية بن قرة بن إياس بن هلال المزني ، أبو إياس البصري ، ثقة ، عالم ، مات
سنة ثلاث عشرة ومائة ، وهو ابن ست وسبعين سنة ، وأبو إسحق السبيعي هو عمر بن عبد الله
الهمداني ، والسبيعي بفتح السين المهملة وكسر الباء ، مكث ، ثقة ، عابد ، مات سنة تسع
وعشرين ومائة ، وقيل قبل ذلك ، (تقريب التهذيب) .

عليه ، والذي يغتاب يتوب فلا يُتاب عليه حتى يَسْتَحِلَّ (١) .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وقد يموت من اغتبت أو يَأْبَى ، ورُوي أن رجلاً قال لابن سيرين :
إني قد اغتبتك فحللني ، فقال : إني لا أحلل ما حرم الله ، والغيبة
مشتقة من « غاب يغيب » ، وهي القول في الغائب ، واستعملت في
المكروه ، ولم يُبح في هذا المعنى إلا ما تدعو الضرورة إليه كتجريح
الشهود ، وفي التعريف لمن استنصح في الخطاب ونحوه لقول النبي
صلى الله عليه وسلم : (أما معاوية فصعلوك لا مال له) (٢) ، وما يقال
في الفسقة أيضاً وفي ولاة الجور ويُقصد به التحذير منهم ، ومنه
قوله عليه الصلاة والسلام : (أعن الفاجر ترعون؟ اذكروا الفاجر بما

(١) أخرجه ابن مردويه ، والبيهقي ، عن أبي سعيد ، وجابر بن عبد الله رضي الله عنهما .
(الدر المنثور) . ومعنى (يَسْتَحِلُّ) : يسأله أن يُحِلَّه من أمره ويصفح عنه .
(٢) أخرجه مسلم في الرضاع والطلاق ، وأبو داود في الطلاق ، والترمذي والنسائي
في النكاح ، ومالك في الطلاق . وأحمد في مسنده (٦-٤١٢) ، ولفظه كما جاء في صحيح
مسلم ، عن أبي بكر بن الجهم بن صُخَيْرٍ العلوي ، قال : سمعتُ فاطمة بنت قيس تقول :
إن زوجها طلقها ثلاثاً ، فلم يجعل لها رسول الله صلى الله عليه وسلم سُكْنَى ولا نفقة ، قالت :
قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا حَلَلْتَ فَأَذْنِي ، فَأَذَنْتُهُ ، فخطبها معاوية وأبو
جهم وأسامه بن زيد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما معاوية فرجل تَرَبُّ لا مال له ،
وأما أبو جههم فرجل ضَرَّاب للنساء . ولكن أسامة بن زيد ، فقالت بيدها هكذا : أسامة أسامة ؟
فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : طاعة الله وطاعة رسوله خير لك ، قالت : فتزوجته
فاغتبطت . ومعنى تَرَبُّ : فقير .

فيه حتى يعرفه الناس إذا لم تذكروه (١) ، ومنه قوله : (بشس ابن
العشيرة) (٢) .

ثم مثل تعالى الغيبة بأكل لحم ابن آدم الميت ، والعرب تشبه
الغيبة بأكل اللحم ، فمنه قول سويد بن أبي كاهل :

فَإِذَا لَاقَيْتُهُ عَظَّمَنِي وَإِذَا يَخْلُو لَهُ لَحْمِي رَتَعَ (٣)

ومنه قول الآخر :

إِذَا أَكَلُوا لَحْمِي وَفَرَّتْ لُحُومُهُمْ وَإِنْ هَدَمُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدًا (٤)

(١) أخرجه البيهقي - وضعفه - من طريق بهز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده .
(ذكر ذلك السيوطي في الدر المنثور) .

(٢) أخرجه البخاري وأبو داود في الأدب ، ومسلم في البر ، ومالك في حسن الخلق ،
وأحمد في المسند (٦-٣٨ ، ٨٠ ، ١٥٨ ، ١٧٣) ولفظه كما جاء في مسند أحمد ، عن عروة
ابن الزبير أن عائشة رضي الله عنها أخبرته أن رجلا استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم فقال :
اثنوا له ، فبشس ابن العشيرة أو بشس أخو العشيرة . وقال مرة رجل ، فلما دخل عليه ألان
له القول ، فلما خرج قالت له عائشة : قلت له الذي قلت ثم ألتيت له القول ؟ فقال : (أي
عائشة ، شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من ودعه الناس أو تركه الناس اتقاء فحشه) .

(٣) الشاعر هو سويد بن أبي كاهل ، من بني يشكر ، شاعر مخضرم ، عاش في الجاهلية
طويلا ، وعمر في الإسلام ستين سنة ، وبيته هذا من قصيدة له تعتبر من أغلى الشعر وأنفسه ،
وهي المفضلية رقم ٤٠ ، قال الأصمعي عنها : « كانت العرب تفضلها وتقدمها وتعلدها من
حكيمها ، وكانت في الجاهلية تسميها البيعة لما اشتملت عليه من الأمثال ، قال في مطلعها :

بَسَطْتُ رَابِعَةَ الْحَبَلِ لَنَا فَوَصَلْنَا الْحَبْلَ مِنْهَا مَا اتَّسَعَ

ورواية البيت في المفضليات ، وفي الشعر والشعراء ، « وَيُحْيِيْنِي إِذَا لَاقَيْتُهُ » وفي اللسان :
« وَحَبِيبٌ لِي إِذَا لَاقَيْتُهُ » ، وكان الحجاج قد تمثل يوم رُستَقَبَاذَ على المنبر بأبيات من قصيدة
سويد هذه ، منها هذا البيت ، ومعنى رتَعَ : أكل ، والرتع في الأصل هو الأكل في الحصب .

(٤) هذا البيت للمقتنع الكندي ، واسمه محمد بن عُمَيْر ، كان من أجمل الناس
وجهاً ، وأمدَّهم قامَةً ، فكان إذا كشف عن وجهه أصيب بالعين ، فكان يتقنَعُ دهره ، -

فوقفهم الله تعالى - على جهة التوبيخ - بقوله : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾ ، فالجواب عن هذا : لا ، وهم في حكم من يقولها ، فخطبوا على أنهم قالوا : لا ، فقليل لهم : [فَكَّرُهُمْوهُ] ، وبعد هذا مُقَدَّرٌ تقديره : فكذلك فاكرهوا الغيبة التي هي نظير ذلك ، وعلى هذا المقدر يعطف قوله : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ ، قاله أبو علي الفارسي ، وقال الرُّمَّانِي : كراهية هذا اللحم يدعو إليها الطبع ، وكراهية الغيبة يدعو إليها العقل ، وهو أحق أن يجاب لأنه بصيرٌ عالمٌ ، والطَّبُّعُ أعمى جاهل ، وقرأ الجمهور : [مَيْتًا] بسكون الياء خفيفة ، وقرأ نافع ، وابن القعقاع ، وشيبة ، ومجاهد بكسرها مشددة ، وقرأ أبو حيوة : [فَكَّرُهُمْوهُ] بضم الكاف وشدِّ الراء ، ورواها أبو سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم . ثم أعلمهم الله تعالى بأنه تَوَّابٌ رحيمٌ إِبْقَاءً منه تعالى وإِمْهَالًا وتمكيناً من التوبة .

= فَسُمِّيَ بِالْمُقَنَّعِ ، والبيت ضمن أبيات يقولها في قومه ، منها :

لَا أَحْمِلُ الْحِقْدَ الْقَدِيمَ عَلَيْهِمْ وَلَيْسَ رَئِيسَ الْقَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الْحِقْدَ
وَلَيْسُوا إِلَى نَصْرِي سِرَاعًا وَإِنْ هُمْ دَعَوْنِي إِلَى نَصْرٍ أَتَيْتُهُمْ شِدَا
إِذَا أَكَلُوا لَحْمِي وَقَرَّتْ لَحُومُهُمْ وَإِنْ هَدَمُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدًا

والبيت هنا شاهد على أن العرب تستعمل أكل اللحم في مكان الغيبة . فالمعنى هنا : إذا هم اغتابوني وذكروني في غيبي بما أكره فلست أفعل مثلهم ، بل أصون أعراضهم ، ولا أتناول حداً منهم بسوء .

قوله عز وجل :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ * قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ ﴾ يحتمل أن يريد آدم وحواء عليهما السلام ، فكأنه تعالى قال : إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ جَمِيعًا مِنْ آدَمَ وَحَوَّاءَ ، ويحتمل أن يريد بالذكر والأنثى اسم الجنس ، وكأنه تعالى قال : إِنَّا خَلَقْنَا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مِنْ مَاءِ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وقصد هذه الآية التسوية بين الناس ، ثم قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ ، أي : لئلا تفاخروا ويريد بعضكم أن يكون أكرم من بعض ، فإن الطريق إلى الكرم غير هذا ، ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ ، وروى أبو بكرة : قيل : يا رسول الله ، من خير الناس ؟ قال : (من طال عُمره ، وحسن عمله) (١) ، وفي حديث آخر : مَنْ خَيْرُ النَّاسِ ؟ قال :

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ، والدارمي في الرقاق ، وأحمد في مسنده (٤-١٨٨ ، ٤٠-٤٣ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠) ، ولفظه كما جاء في المسند ، عن عبد الله بن =

(آمرهم بمعروف ، وأنهاهم عن منكر ، وأوصلهم للرحم ، وأتقاهم) (١).

وحكى الزهراوي أن سبب نزول هذه الآية غضب الحارث بن هشام ، وعتاب بن أسيد حين أذن بلال يوم فتح مكة على الكعبة (٢) ، وحكى الثعلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن سببها قول ثابت بن قيس لرجل لم يفسح له عند النبي صلى الله عليه وسلم : يا بن فلانة ،

= بُسُر قال : أتى النبي صلى الله عليه وسلم أعرابيان . فقال أحدهما : من خير الرجال يا محمد ؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم : (من طالَ عمرُهُ ، وحَسُنَ عَمَلُهُ) ، وقال الآخر : إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا . فبابُ نتمسك به جامع ؟ قال : (لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله) .

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦-٤٣٢) . عن دُرَّة بنت أبي هُب قالت : قام رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر فقال : يا رسول الله ، أي الناس خير ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : (خير الناس أقرؤهم وأتقاهم . وأمرهم بالمعروف . وأنهاهم عن المنكر ، وأوصلهم للرحم) . وأورده السيوطي في « الدر المنثور » وزاد نسبه إلى ابن أبي شيبة .
(٢) أخرجه ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في « الدلائل » عن ابن أبي مليكة ، قال ذلك في « الدر المنثور » . وذكره الواحدي في « أسباب النزول » بدون سند عن مقاتل ، قال : لما كان يوم فتح مكة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالا حتى أذن على ظهر الكعبة ، فقال عتاب بن أسيد بن أبي العيص : الحمد لله الذي قبض أبي حتى لم ير هذا اليوم . وقال الحارث بن هشام : أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنا ؟ وقال سهيل بن عمرو : إن بُرد الله شيئا يُغيّره . وقال أبو سفيان : إني لا أقول شيئا أخاف أن يخبر به رب السماء ، فأتى جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره بما قالوا ، فدعاهم وسألهم عما قالوا فأقرؤا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . وزجرهم عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال ، والازدراء بالفقراء .

فوبَّخه النبي صلى الله عليه وسلم . وقال له : إِنَّكَ لَا تَفْضُلُ أَحَدًا إِلَّا فِي الدِّينِ وَالتَّقْوَى (١) ، فنزلت هذه الآية ، ونزل الأمر بالتَّفْسُحِ في ذلك أيضاً .

و «الشُّعُوبُ» جمع شَعْب ، وهو أعظم ما يوجد من جماعات الناس مرتباً بنسب واحد ، وتتلوه القبيلة ثم العماراة ثم البطن ثم الفخذ ثم الأسرة والفصيلة ، وهما قرابة الرجل الأدنُون ، فمُضَر وربيعة وحمير شعوب ، وقيس وتميم ومَذْحِج ومراد قبائل ، مُشَبَّهَةٌ بقبائل الرأس لأنها قطع تقابلت ، وقريش وسليم عمارات ، وبنو قُصَي وبنو مخزوم بطون ، وبنو هاشم وبنو أمية ونحوهما أفخاذ ، وبنو عبد المطلب أسرة وفصيلة . وقال ابن جبير : الشُّعُوب : الأفخاذ .

(١) ذَكَرَهُ الْوَاحِدِيُّ فِي «أَسْبَابِ النَّزُولِ» بِغَيْرِ سَنَدٍ . وَلَمْ يَعْرِضْهُ لِأَحَدٍ ، وَذَكَرَهُ الْخَازَنُ وَالْبَغَوِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بِدُونِ سَنَدٍ أَيْضًا ، وَقَالَ الْخَافِظُ بْنُ حَجَرٍ فِي «تَخْرِيجِ الْكَشَافِ» : إِنَّ الثَّعْلَبِيَّ ذَكَرَهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ بِغَيْرِ سَنَدٍ ، وَأَوْرَدَهُ الْقُرْطُبِيُّ مَسْبُوقًا بِكَلِمَةِ «وَقِيلَ» وَبِدُونِ سَنَدٍ أَيْضًا . قَالُوا جَمِيعًا : إِنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شِمَاسٍ حِينَ أَرَادَ أَنْ يَجْلِسَ قَرِيبًا مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَطَلَبَ إِلَى رَجُلٍ أَنْ يُفْسَحَ لَهُ فِي الْمَجْلِسِ فَلَمْ يُفْسَحْ لَهُ ، فَقَالَ ثَابِتٌ لِلرَّجُلِ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : أَنَا فُلَانٌ ، فَقَالَ ثَابِتٌ : أَنْتَ ابْنُ فُلَانَةٍ ! فَذَكَرَ أَمَّا لَهُ كَانَ يُعَيِّرُ بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَأَغْضَى الرَّجُلُ وَتَكَسَّرَ رَأْسُهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَنْ الذَّاكِرُ فُلَانَةٌ ؟ فَقَالَ ثَابِتٌ : أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : انْظُرْ فِي وَجْهِ الْقَوْمِ ، فَتَنْظُرْ ، فَقَالَ : مَا رَأَيْتُ ؟ قَالَ : رَأَيْتُ أَيْضًا وَأَسْوَدَ وَأَحْمَرَ ، فَقَالَ : فَإِنَّكَ لَا تَفْضُلُهُمْ إِلَّا بِالتَّقْوَى ، فَتَزَلَتْ فِي ثَابِتٍ هَذِهِ الْآيَةُ ، وَنَزَلَتْ فِي الرَّجُلِ الَّذِي لَمْ يَفْسَحْ لَهُ : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا) الْآيَةُ .

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما : الشعوب : البطون ، وهذا غير ما تَمَالاً (١) عليه اللغويون . وقال الثعلبي : وقيل : الشعوب في العجم والقبائل في العرب والأسباط في بني إسرائيل ، وأما الشعب الذي في همدان الذي يُنسب إليه الشعبي فهو بطن يُقال له : الشعب ، وقيل للأُمم التي ليست بعرب : «شعوبية» نسبة إلى الشعوب ، وذلك أن تفصيل أنسابها خفي فلم يُعرف أحدٌ منهم إلا بأن يُقال : فارسي ، تركي ، رومي ، فكانهم عرفوا بشعوبهم وهي أعمُّ ما يُعبر به عن جماعتهم ، ويقال لهم الشعوبية بفتح الشين ، وهذا من تعيين النسب ، وقد قيل فيهم غير ما ذكرت ، وهذا أولى عندي .

وقرأ الأعمش : [لِتَتَعَارَفُوا] ، وقرأ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : (لِتَعْرِفُوا أَنَّ) على وزن «تَفْعَلُوا» بكسر العين وبفتح الألف من [أَنَّ] وإعمال [تَعْرِفُوا] فيها ، ويحتمل - على هذه القراءة - أن تكون اللام في قوله تعالى : [لِتَعْرِفُوا] لام «كَيَّ» . ويضطرب معنى الآية مع ذلك ، ويحتمل أن تكون لام الأمر ، وهو أجود في المعنى ، ويحتمل أن يكون المفعول مخذوفاً تقديره : «الحَقَّ» ، وإذا كانت لام «كَيَّ» فكانه تعالى قال : يأيها الناس أنتم سواء من حيث أنتم مخلوقون ،

(١) بمعنى : اجتمعوا وافقوا .

وإنما جعلتم قبائل لأن تتعارفوا ولأن تعرفوا الحقائق ، وأما الشرف ، والكرم فهو بتقوى الله تعالى وسلامة القلوب ، وقرأ ابن مسعود : «لِتَعَارَفُوا بَيْنَكُمْ» ، وخيركم عند الله أتقاكم ، وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من سره أن يكون أكرم الناس فليتق الله ربّه) (١) . ثم نبّه تعالى على الحذر بقوله سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي بالمتقي الذي يستحق رتبة الكرم .

قوله تعالى : ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ ، قال مجاهد : نزلت في بني أسد بن خزيمة ، وهي قبيلة كانت تجاور المدينة ، وكانوا قد أظهروا الإسلام ، وكانت نفوسهم - مع ذلك - دَخِلَةً (٢) ، إنما يُحِبُّونَ المغانم وعرض الدنيا ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : وذهبوا مرة إلى أن يتسموا بالمهاجرين ، فنزلت هذه الآية مُسَمِّيةً لهم بالأعراب ، مُعْرِفةً لهم بذلك أقدارهم ، ومُخْرِجةً ما في صدورهم من صورة معتقدتهم ، وهم أعرابٌ مخصوصون كما ذكرنا ، قال أبو حاتم عن ابن الزبير : سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يقرأ : ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ﴾ بغير همز ، فردّ عليه بهمّز وقطع . وقد أخبر الله تعالى أن في الأعراب على

(١) ذكره القرطبي بقوله : «وقد جاء منصوباً عنه عليه الصلاة والسلام : (من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله) ، وفي البخاري عن أبي هريرة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي الناس أكرم ؟ قال : (أكرمهم عند الله أتقاهم) . والأحاديث في ذلك كثيرة وصحيحة .

(٢) أصابها الفساد والغيب من الداخل . وفي بعض النسخ «دغلة» بالغين ، والداغل هو الذي ينبغي الشر لأصحابه ويحسبونه هم خيراً .

الجملة من يؤمن بالله واليوم الآخر : فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لهؤلاء المدَّعين في الإيمان : ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ ، أي : لم تصدِّقوا بقلوبكم ، ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ .

والإسلام يقال بمعنىين : أحدهما الذي يعُمُّ الإيمان والأعمال ، وهو الذي في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (١) ، والذي في قوله صلى الله عليه وسلم : ﴿بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ﴾ (٢) ، والذي في تعليم النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام حين قال : ما الإسلام ؟ قال : (أن تعبد الله وحده لا تُشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً) (٣) ، والذي في قوله صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص

(١) من الآية (١٩) من سورة (آل عمران) .

(٢) أخرجه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي في الإيمان ، ولفظه كما جاء في صحيح البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان﴾ .

(٣) رواه البخاري في كتاب الإيمان عن أبي هريرة قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم بارزاً يوماً للناس ، فأتاه رجل فقال : ما الإيمان ؟ قال : الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبقائه ورسوله ، وتؤمن بالبعث ، قال : ما الإسلام ؟ قال : الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به ، وتقيم الصلاة ، وتؤدي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان ، قال : ما الإحسان ؟ قال : أن =

رضي الله عنه : (أَوْ مُسْلِمًا . إِنِّي لَا أُعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ) (١)
 الحديث ، فهذا الإسلام ليس هو في قوله تعالى : ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ .
 والمعنى الثاني لِلْفِظِ الإسلام هو الاستسلام والإظهار الذي يُسْتَعَصَمُ
 به وَيُحَقَّنُ الدَّمُ ، وهذا هو الإسلام في قوله تعالى : ﴿وَلَكِنْ قُولُوا
 أَسْلَمْنَا﴾ ، والإيمان الذي هو التصديق أَخْصُ من الأول .

ثُمَّ صَرَّحَ تعالى لَهُمْ بِأَنَّ الإِيمَانَ لَمْ يَدْخُلْ قُلُوبَهُمْ ، ثُمَّ فَتَحَ تعالى
 لَهُمْ بَابَ التَّوْبَةِ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : ﴿وَإِنْ تَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ، الآية .

= تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، قال : متى الساعة ؟ قال : ما المسئول بأعلم
 من السائل ، وسأخبرك عن أشراطها ، إذا ولدت الأمة ربها ، وإذا تطاول رعاة الإبل البهائم
 في البنيان في خمس لا يعلمهن إلا الله ، ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ
 عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ ، ثم أدبر ، فقال : ردوه فلم يروا شيئا ، فقال : هذا جبريل جاء يعلم
 الناس دينهم . اهـ . وكذلك رواه مسلم والترمذي في كتاب الإيمان ، وأبو داود في السنن ،
 وابن ماجه في المقدمة ، وأحمد في المسند (١-٢٧ ، ٥١ ، ٥٣ - ٢-١٠٧ - ٤-١٢٩)
 واللفظ هنا للبخاري .

(١) أخرجه الشيخان في صحيحيهما في كتاب الإيمان وفي كتاب الزكاة ، عن سعد رضي
 الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى رهطاً وسعداً جالساً ، فترك رسول الله صلى الله
 عليه وسلم رجلاً هو أعجبهم إليّ . فقلت : يا رسول الله ، مالك عن فلان ، فوالله إني لأراه
 مؤمناً ، فقال : (أَوْ مُسْلِمًا) ، فسكت قليلاً ، ثم غلبي ما أعلم منه فعدت لمقاتلي ، فقلت :
 مالك عن فلان فوالله إني لأراه مؤمناً ، فقال : (أَوْ مُسْلِمًا) ، فسكت قليلاً ، ثم غلبي ما أعلم
 منه فعدت لمقاتلي وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : (يا سعد ، إِنِّي لَأُعْطِي
 الرَّجُلَ وَغَيْرَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ خَشْيَةً أَنْ يَكُوبَهُ اللَّهُ فِي النَّارِ) . قال الإمام البخاري : ورواه يونس ،
 وصالح . ومعمّر ، وابن أخي الزهري عن الزهري .

وطاعة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم في ضمنها الإيمان والأعمال .
 وقرأ الجمهور من القراء : ﴿ لَا يَلْتَكُمُ ﴾ ، من (لَاتَ يَلِيتُ)
 إذا نقص ، يقال : «لَاتَهُ حَقُّهُ» إذا نقصه منه ، وقرأ أبو عمر ،
 والأعرج ، والحسن ، وعمر بن الخطاب : ﴿ لَا يَالْتَكُمُ ﴾ من (أَلَتَ يَالِيتُ) ،
 وهو بمعنى (لات) ، وكذلك يقال : (أَلِيتَ) بكسر اللام (يَالِيتُ) .
 ويقال أيضاً في معنى (لات) : (أَلَتَ يُولِيتُ) ، ولم يُقرأ بهذه اللغة .
 وباقى الآية بين في الترجية .

قوله عز وجل :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا
 بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ١٥ ﴾ قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ
 بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١٦
 يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تُؤْمِنُوا عَلَيَّ إِلَّا سَلَمْتُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ
 أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ١٧ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ١٨ ﴾

[إِنَّمَا] في هذه الآية حاصرة تُعطي ذلك المعنى . وقوله تعالى :

﴿ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ أي لم يشكوا في إيمانهم ، ولم يُدْخِلْهم ريب ،

وهم الصادقون إذ جاء فعلهم مُصدقاً لقولهم . ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بتوبيخهم بقوله : ﴿ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ ﴾ أي بقولكم : «آمنّا» ، وهو يعلم منكم خلاف ذلك لأنه العليم بكل شيء . وقوله تعالى : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ﴾ نزل في بني أسد أيضاً ، وذلك أنهم قالوا في بعض الأوقات للنبي صلى الله عليه وسلم : إِنَّا آمَنَّا بِكَ وَاتَّبَعْنَاكَ وَلَمْ نَحَارِبْكَ كَمَا فَعَلْتَ مُحَارِبَ وَحَصْفَةَ وَهَوَازِنَ وَغُظْفَانَ وَغَيْرَهُمْ ، فنزلت هذه الآية ، حكاه الطبري وغيره . وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه : «يَمُنُّونَ عَلَيْكَ إِسْلَامَهُمْ» .

وقوله تعالى : [أَنْ] يحتمل أن يكون مفعولاً صريحاً ، ويحتمل أن يكون مفعولاً من أجله ، وقوله تعالى : ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ أي بزعمكم إذ تقولون آمنا ، فقد لزمكم أن الله تعالى مانٌّ عليكم ، ويدلك على هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ، فعلق عليهم الحكمين : هم ممنونٌ عليهم على الصدق ، وأهلٌ أن يقولوا أسلمنا من حيث هم كذبة ، وقرأ ابن مسعود : «إِذْ هَدَاكُمْ» .

وقوله تعالى : ﴿ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ ﴾ يحتمل أن يكون بمعنى : يُنعم ، كما تقول : مَنْ الله عليك ، ويحتمل أن يكون بمعنى : يذكُرُ إحسانه

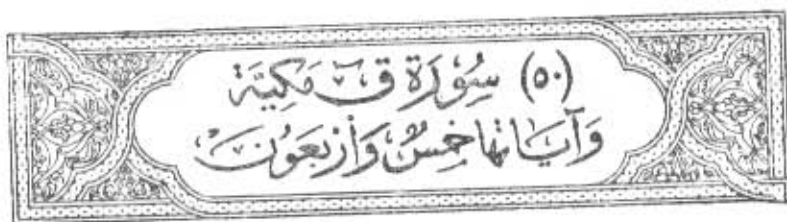
فيجزي معادلاً لـ ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ﴾ ، وقال الناس قديماً : إذا كُفرت
النَّعمة حَسُنَتِ المِنَّةُ ، وإنَّما المِنَّةُ المُبْطَلَةُ لِلصَّدَقَةِ المَكْرُوهَةِ ما وقع
دون كُفر نعمة .

وقرأ أبو جعفر ، ونافع ، وشيبة ، وقتادة ، وابن وثاب : ﴿بِمَا
تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء على الخطاب ، وقرأ ابن كثير ، وعاصم - في رواية
أبي بكر- : ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ بالياء من تحت على ذكر الغائب .

كمل تفسير سورة الحجرات والحمد لله رب العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



هي مكية بإجماع من المتأولين (١)، وروى أبي بن كعب رضي الله

(١) وحكي عن ابن عباس رضي الله عنهما - وعن قتادة أن فيها آية مدنية ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ ، وهي رقم (٣٨) ، وسورة (ق) هي أول المفصل ، قال ابن كثير في تفسيره : والدليل على ذلك ما رواه أبو داود في سننه عن أوس ابن حذيفة قال : قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفد ثقيف ، قال : فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبه رضي الله عنه ، وأنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بني مالك في قبة له ، قال مسدد (وكان في الوفد الذين قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثقيف) ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا ، قال أبو سعيد : قائماً على رجله حتى يراوح بين رجله من طول القيام ، فأكثر ما يحدثنا صلى الله عليه وسلم ما لقي من قومه قریش ، ثم يقول صلى الله عليه وسلم : « لا سواء : وكنا مُسْتَضَعِّفِينَ مُسْتَذِلِينَ ، (قال مسدد : بمكة) ، فلما خرجنا إلى المدينة كانت الحرب سجالاتاً بيننا وبينهم : نُدال عليهم ويُدالون علينا » ، فلما كانت ليلة أبطأ عنا صلى الله عليه وسلم عن الوقت الذي كان يأتينا فيه ، =

عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (من قرأ سورة ق هون الله عليه الموت وسكراته) (١) .

= فقلنا : لقد أبطأت علينا الليلة ، قال صلى الله عليه وسلم : « إنه طرأ عليّ حزبي من القرآن فكرهت أن أجيء حتى أتممه » ، قال أوس : سألت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف يُحزَّبون القرآن ؟ فقالوا : ثلاث ، وخمس ، وسبع ، وتسع ، وإحدى عشرة ، وثلاث عشرة ، وحزب المفصل وحده .

وهذا الحديث رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عبد الرحمن ، ورواه ابن ماجه عن أبي خالد الأحمر ، ونحن إذا جمعنا الأرقام التي وردت في الحديث عن سور القرآن حتى المفصل نجدتها ثمانياً وأربعين سورة ، والتي تبدأ بعدهن هي سورة (ق) ، أما الثلاث فهي : البقرة ، وآل عمران والنساء ، وأما الخمس فهي : المائدة والأنعام والأعراف والأنفال والتوبة ، وأما السبع فهي : يونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر والنحل ، وأما التسع فهي : الإسراء والكهف ومريم وطه والأنبياء والحج والمؤمنون والنور والفرقان ، وأما الإحدى عشرة فهي : الشعراء والنمل والقصص والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة والأحزاب وسبأ وفاطر ويسن ، وأما الثلاث عشرة فهي : الصافات وص والزمر وغافر وفصلت والشورى والزخرف والدخان والحائثية والأحقاف ومحمد والفتح والحجرات ، وبهذا استدلل ابن كثير على أن سورة (ق) هي أول المفصل من القرآن الكريم .

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ ، والذي رواه الإمام أحمد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل أبا واقد الليثي : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في العيد ؟ قال : بقاف واقتربت ، وذكر ابن كثير في تفسيره أن مسلماً رواه وكذلك أهل السنن الأربعة من حديث مالك به ، كذلك روى الإمام أحمد عن أم هشام بنت حارثة قالت : « ما أخذتُ (ق) وألْقُرْآنَ الْمَجِيدِ » إلا على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يقرأها كل يوم الجمعة على المنبر إذا خطب الناس ، ورواه مسلم من حديث ابن إسحق ، قال ابن كثير : (والقصد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ بهذه السورة بالمجامع الكبار كالعيد والجمع لاشتمالها على ابتداء الخلق ، والبعث والنشور والمعاد والقيام والحساب ، والجنة والنار ، والثواب والعقاب ... » .

قوله عز وجل :

﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَوَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِیْظٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِیْجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَالْقِيَامَ فِيهَا رَوْسِیْ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَیْجٍ ﴿٧﴾ تَبَصَّرْهُ وَذِكْرَى لِكُلِّ عَمْدٍ مُنِیْبٍ ﴿٨﴾ ﴾

قال ابن عباس رضي الله عنهما : [ق] اسمٌ من أسماء القرآن ، وقال أيضاً : اسمٌ من أسماء الله تبارك وتعالى ، وقال قتادة والشعبي : هو اسم السورة ، وقال ابن زيد ، وعكرمة ، ومجاهد ، والضحاك : هو اسم الجبل المحيط بالدنيا ، وهو فيما يزعمون من زمردة خضراء ، منها خضرة السماء وخضرة البحر . و [الْمَجِيدِ] : الكريم في أوصافه الذي جمع كلَّ عليٍّ ، و [ق] - على هذه الأقوال - مُقَسَّمٌ به وبالقرآن المجيد ، وجواب القسم مُنتَظَرٌ ، واختلف الناس فيه - فقال ابن كيسان : جوابه ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ ﴾ (١) ، وقيل : الجواب ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى ﴾ (٢) ،

(١) من الآية (١٨) من السورة .

(٢) من الآية (٣٧) من السورة .

وقال الزهراوي ، عن سعيد الأخفش : الجواب ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ ، وضعفه النحاس (١) ، وقال الكوفيون من النحاة : الجواب ﴿ بَلْ عَجِبُوا ﴾ ، والمعنى : قد عَجِبُوا ، قال منذر بن سعيد : وقد قيل : إن جواب القسم في قوله تعالى : ﴿ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ﴾ (٢) ، وفي هذه الأقوال تكلف وتحكم على اللسان ، وقال الزجاج ، والمبرد ، والأخفش : الجواب مُقَدَّرٌ . تقديره : « ق وَالْقُرْآنُ الْمَجِيدُ لَتُبْعَنَّ » ، وهذا قول حسن ، وأحسن منه أن يكون الجواب هو الذي يقع عنه الإضراب بـ [بَلْ] ، كأنه تعالى قال : وَالْقُرْآنُ الْمَجِيدُ مَا رَدُّوا أَمْرَكَ بِحُجَّةٍ ، أو ما كذَّبوك بِبُرْهَانٍ ، أو نحو هذا مما لا بد لك من تقديره بعد الذي قدّر الزجاج ؛ لأنك إذا قلت « الجواب « لَتُبْعَنَّ » فلا بُدَّ بعد ذلك أن تقدّر خبراً عنه يقع الإضرابُ ، وهو الذي جعلناه جواباً وجاء في المقدر أخصر .

وقال جماعة من المفسرين في قوله تعالى [ق] : إنه حرف دالٌّ

على كلمة ، نحو قول الشاعر :

قُلْتُ لَهَا قَفِي فَقَالَتْ قَاف (٣)

(١) قالوا : لأنه لا يُعرف في أجوبة الأيمان قد ، وإنما تُجاب الأيمان إذا أُجيبَت بأحد الحروف الأربعة « اللام ، وإن ، وما ، ولا » ، أو بترك جوابها فيكون ساقطاً .

(٢) من الآية (٢٩) من السورة .

(٣) هذا صدر بيت للوليد بن عقبة بن أبي مُعَيْط ، كان أخاً لعثمان بن عفان رضي الله =

واختلفوا بعد : فقال القرطبي : هو دال على أسماء الله تعالى هي :
 قادر وقاهر وقريب وقاض وقابض ، وقيل : المعنى : قضي الأمر من
 رسالتك ونحوه «والقرآن المجيد» ، فجواب القسم في الكلام الذي
 يدل عليه [ق] ، وقال قوم : المعنى : قف عند أمرنا . وقيل : المعنى :
 قهر هؤلاء الكفرة ، وهذا أيضاً وقع عليه القسم ، ويحتمل أن يكون
 المعنى : قيامهم من القبور حق «والقرآن المجيد» ، فيكون أول السورة

= عنه لأمره ، وقد تولى الكوفة فاتهم بشرب الخمر ، فكتب إليه الخليفة يأمره بالشخص إليه ،
 فخرج في جماعة ، ونزل الوليد يسوق بهم ، فقال :

قُلْتُ لَهَا : قِفِي ، فَقَالَتْ : قَافٌ لَا تَحْسَبِينَ قَدْ نَسِينَا الْإِيجَافَ
 وَالنَّشَوَاتِ مِنْ مُعَتَّقٍ صَافٍ وَعَزَفَ قَيْنَاتِ عَلَيْنَا عَزَافٌ

والإيجاف : العدو ، وهو أيضاً الحمل عليه ، وانظر الخصائص لابن جني . والأغاني ٥-١٣١ ،
 وشواهد الشافية ، والمحاسب في وجوه شواذ القراءات لابن جني ، ومعاني القرآن للفراء ،
 واللسان والتاج - مادة وقف - ، والشعر في اللسان غير منسوب ، قال : «إنما أراد : (قَدْ
 وَقَفْتُ) فاكتفى بذكر القاف ، قال ابن جني : ولو نقل هذا الشاعر إلينا شيئاً من جملة الحال
 فقال - مع قوله قالت قاف - : وَأَمْسَكَتْ زَمَامَ بَعِيرِهَا أَوْ عَاجَتَهُ عَلَيْنَا ، لكان أبين
 لما كانوا عليه وأدل على أنها أرادت : قِفِي لَنَا قِفِي لَنَا ، أي : تقول لي : قِفِي لَنَا متعجبة
 منه ، وهو إذا شاهدها وقد وقفت علم أن قولها (قَافٌ) إجابة له لا رد لقوله وتعجب منه » .
 قال ابن كثير في تفسيره : «وفي هذا التفسير نظر ، لأن الحذف في الكلام إنما يكون إذا دل
 عليه دليل ، ومن أين يفهم هذا من ذكر هذا الحرف ؟ » ، كذلك قال ابن جني تعليقا على
 كلام الفراء واستشهاده بهذا الشعر : «وفي هذا ضعف ، ألا ترى إلى الفتح والكسر فيه ؟ »
 يعني أنه لو كان حرفاً من كلمة لما جاءت فيه القراءة بفتح الفاء وبكسرها .

من المعنى الذي اطرّد بعدُ ، وعلى هذه الأقوال فثمّ كلام مضمّر وقع عنه الإضرابُ ، وهو خبرٌ عنهم ، كأنّه تعالى قال : ما كذّبوك ببرهان ، أو نحو هذا مما يليق مظهراً .

وقرأ الجمهور من القراء : « قاف » بسكون الفاء ، قال أبو حاتم : ولا يجوز غيرها إلّا جواز سوء .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

وهذه القراءة تحسّن مع أن تكون [ق] حرفاً دائماً على كلمة .
 وقرأ الثقفى ، وعيسى : « قاف » بفتح الفاء ، وهذه تحسّن مع القول بأنّها اسمٌ للقرآن أو لله تعالى ، وكذلك قرأ الحسن ، وابن أبي إسحق : « قاف » بكسر الفاء ، وهي في رتبة التي قبلها في أن الحركة للالتقاء ، وفي أنّها اسم للقرآن ، و « المجيد » الكريم الأوصاف الكثير الخير (١) .
 واختلف الناس في الضمير في [عَجَبُوا] ، لمن هو ؟ فقال جمهور المتأولين : هو لجميع الناس ، مؤمنهم وكافرهم ، لأن كل مفطور

(١) قال ابن جني : « يحتمل (قاف) بالفتح أمرين : أحدهما أن تكون حركته للالتقاء الساكنين ، كما أن من يقرأ بالكسر كذلك : غير أن من فتح أتبع الفتحة صوت الألف لأنها منها ، ومن كسر فعلى أصل التقاء الساكنين ، والآخر أن (قاف) منصوبة الموضع بفعل مضمّر ، ولم تُصرف لاجتماع التعريف والتأنيث في معنى السورة » .

عَجِبَ من بعثة بشر رسولاً لله (١) ، لكن : المؤمنون نظروا واهتدوا ،
والكافرون بقوا على عمايتهم وصمّوا وحاجّوا بذلك العجب ، ولذلك
قال تعالى : ﴿ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ ، وقال آخرون :
بل الضمير في [عَجِبُوا] للكافرين ، وكرّر الكلام تأكيداً ومبالغةً ،
والإشارة بـ [هذا] يحتمل أن تكون إلى نفس مجيء البشر ، ويحتمل
أن تكون إلى القول الذي يتضمنه الإنذار وهو الخبر بالبعث ، ويؤيد
هذا القول ما يأتي بعده .

وقرأ الجمهور : [أَيْذَا] ، وقرأ الأعرج ، وشيبة ، وأبو جعفر :
[إِذَا] على الخبر دون استفهام (٢) ، والعامل في [إِذَا] فعل مضمر ،
كأنه تعالى قال : أنبعثُ إذا ؟ وإلى هذا الفعل وقعت الإشارة بقولهم :
﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ ، قال ابن جنّي : ويحتمل أن يكون المعنى : إذا
متنا بعد رجعنا ، فيدل ﴿ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ على هذا الفعل الذي هو (بَعْدُ)
ويحلُّ محلَّ الجواب لقولهم : [إِذَا] .

و «الرَّجْعُ» مصدر رجعتُهُ ، وقولهم : [بَعِيدٌ] معناه : بعيد في
الأفهام والفكر كونه ، فأخبر الله تعالى - ردّاً على قولهم - بأنّه تعالى

(١) في بعض النسخ « من بعثة بشر رسول لله » .

(٢) يرى أبو حيان الأندلسي أنه يجوز أن يكون استفهاماً حذف منه الهمزة ، ويجوز

أن يكونوا عدلوا إلى الخبر وجواب [إِذَا] مضمر .

يعلم ما تأكل الأرض من ابن آدم وما تُبقي منه ، وأن ذلك في كتاب ، وكذلك يعود في الحشر معلوماً ذلك كله ، و « الحفيظ » : الجامع الذي لم يفته شيء ، وقال الرُّمَّاني : حفيظٌ : منيع من أن يذهب ببلى ودُروس ، وروي في الخبر الثابت أن الأرض تأكل ابن آدم إلا عَجَبَ الذَّنَبِ (١) وهو عظم كالخردلة فمنه يُرَكَّبُ ابن آدم ، وحَفِظُ ما تنقص الأرض إنما هو ليعود بعينه يوم القيامة ، وهذا هو الحق ، وذهب بعض الأصوليين إلى أن الأجساد المبعوثة يجوز أن تكون غير هذه ، وهذا عندي خلاف لظاهر كتاب الله تعالى ، ولو كانت غيرها فكيف كانت تشهد الجلود والأيدي والأرجل على الكفرة إلى غير ذلك مما يقتضي أن أجساد الدنيا هي التي تعود ؟ وقال ابن عباس ، ومجاهد ، والجمهور : المعنى : ما تنقص من لحومهم وأبشارهم وعظامهم ، وقال السُّدِّي : معنى قوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ﴾ أي ما يحصل في بطن الأرض من موتاهم ، وهذا قول

(١) روى مسلم في صحيحه . وأبو داود ، والنسائي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (كل ابن آدم يأكله التراب إلا عَجَبَ الذَّنَبِ . منه خلق . ومنه يُرَكَّبُ) ، وهو عن أبي هريرة رضي الله عنه . وقد أورده الإمام السيوطي في (الجامع الصغير) ، ورمز له بأنه صحيح . والعَجَبُ - بسكون الجيم - : العظم الذي في أسفل الصُّلْبِ عند العَجْزِ ، وفي اللسان أنه ما انضم عليه الوَرَكُان من أصل الذَّنَبِ المغروز في مؤخر العَجْزِ .

حسنٌ مُضْمَنُهُ الوعيد . وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً - فيما حكى الثعلبي - : معناه : قد علمنا ما تنقص الأرض بالإيمان من الكفرة الذين يدخلون في الإيمان ، وهذا قول أجنبي من المعنى الذي قبل وبعد .

وقبل قوله تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا ﴾ مُضْمَرٌ عَنْهُ وَقَعَ الْإِضْرَابُ ، تقديره : ما أجادوا النظر ، أو نحو هذا ، والذي يقع عنه الإضراب بـ (بَلْ) الأغلب فيه أنه منفي تقضي (بَلْ) بفساده ، وقد يكون أمراً مُوجِباً تقضي (بَلْ) بترك القول فيه لا بفساده ، وقرأ الجمهور : [لَمَّا] بفتح اللام وشد الميم ، وقرأ الجحدري : [لِمَا] بكسر اللام وتخفيف الميم ، قال أبو الفتح : هي كقولهم : « أعطيته لِمَا سَأَلَ » ، وكما في التارikh « لِحَمْسٍ خَلَوْنَ » ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ﴾ (١) ، ومنه قول الشاعر :

إِذَا هَبَّتْ لِقَارِيهَا الرِّيحُ (٢)

(١) من الآية (١٨٧) من سورة الأعراف . والمعنى في هذه الآية : لا يُجَلِّيهَا عند وقتها إلا الله تعالى . وكذلك المعنى في قولهم : « أعطيته لِمَا سَأَلَ » : أعطيته لسؤاله ، والمثال الذي ذكره أبو الفتح في المحتسب : « أعطيته ما سأل لطلبه » ، أي عند طلبه ، أو مع طلبه ، وليس كما ذكر هنا إذ نُقِلَ محرفاً ، ومعنى « لِحَمْسٍ خَلَوْنَ » : عِنْدَ خَمْسٍ خَلَوْنَ ، أو مَعَ خَمْسٍ خَلَوْنَ . وعلى هذا يرجع المعنى في قراءة [لِمَا] بكسر اللام وفتح الميم خفيفة لمعنى القراءة العامة [لَمَّا] بفتح اللام وشد الميم .

(٢) هذا عجز بيت ذكره في اللسان (عقر) شاهداً على أن العقر موضع معين . والبيت بتمامه :

و «المَرِيحُ» معناه : المختلط . قاله ابن زيد ، أي بعضهم يقول ساحر ،
وبعضهم يقول كاهن ، وبعضهم يقول شاعر (١) ، إلى غير ذلك من
تخليطهم ، وكذلك عادت فكرة كل واحد منهم مختلطة في نفسها ،
وقال ابن عباس رضي الله عنهما : المريح : المنكر ، وقال مجاهد :
المُلتبس ، والمريح : المضطرب أيضاً ، وهو قريب من الأول ، ومنه
في الحديث (مَرَجَتْ عهودُهم) (٢) ، ومن الأول : (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ) (٣) ،

= كَرِهَتْ الْعَقْرَ عَقْرَ بَنِي شَلِيلٍ إِذَا هَبَّتْ لِقَارِيهَا الرِّيحُ
والبيت في المحتسب لابن جني ، والرواية فيه : «شَنِئْتُ الْعَقْرَ» ، ومعنى شئت : كرهت ،
وضُبطت (شليل) في اللسان بفتح الشين وكسر اللام الأولى ، وضبطت في المحتسب بضم الشين
وفتح اللام ، ومعنى «إِذَا هَبَّتْ لِقَارِيهَا» : إذا هبت عند وقتها الرياح . وهو موضع
الاستشهاد هنا .

(١) في الأصول : «وبعضهم كاهن . وبعضهم شاعر» ، والزيادة للتوضيح .
(٢) أخرجه أبو داود في الملاحم ، وابن ماجه في الفتن ، وأحمد في مسنده (٢-١٦٢) ،
٢١٢ . ٢٢٠ . ٢٢١) ، ولفظه كما جاء في المسند : حدثنا عبد الله . حدثني أبي . ثنا إسماعيل ،
عن يونس . عن الحسن ، أن عبد الله بن عمرو قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(كيف أنت إذا بقيت في حُثالة من الناس) ؟ قال : قلت : يا رسول الله ، كيف ذلك ؟ قال :
(إذا مَرَجَتْ عهودُهم وأماناتُهم وكانوا هكذا) . وشبك يونس بين أصابعه يصف ذلك ،
قال : قلت : ما أصنع عند ذلك يا رسول الله ؟ قال : (اتَّقِ الله عزَّ وجلَّ) . وخُذْ ما تعرف
ودَعْ ما تُنكر . عليك بخاصتك . وإيَّاك وعوامهم) . ومثل هذا الحديث ما رواه الإمام
أحمد أيضاً في مسنده عن ميمونة . قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم :
(كيف أنتم إذا مَرَجَ الدينُ) . وظهرت الرغبة . واختلفت الإخوان . وحرَّق البيت العتيق) ،
والشاهد في الحديثين (مرج) بمعنى اختلط .

(٣) من الآية (١٩) من سورة (الرحمن) .

وقال الشاعر :

مَرَجَ الدِّينُ فَأَعْدَدْتُ لَهُ مُشْرِفَ الْحَارِكِ مَحْبُوكَ الْكَتَدِ (١)

ثم دلّ تعالى على العبرة بقوله : ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا ﴾ الآية . و [زَيْنَاهَا] معناه : بالنجوم ، و «الفُرُوجُ» : الفطور خلالها وأثناءها ، قاله مجاهد وغيره ، وحكى النقاش أن هذه الآية تعطي أن السماء مستديرة ، وليس الأمر كما حكى إذا تُدْبِرَ اللفظ وما يقتضي . و «الرَّوَّاسِي» : الجبال ، و «الزَّوْجُ» : النَّوْعُ ، و «الْبَهِيْجُ» قال ابن عباس ، وقتادة ، وابن زيد : هو الحسن المنظر .

وقوله تعالى وجلّ : ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى ﴾ منصوب على المصدر بفعل مضمر ، و «الْمُنِيبُ» : الراجع إلى الحق عن فكرة ونظر ، وقال قتادة : هو المقبل بقلبه إلى الله تعالى ، وخصّ تعالى هذه الصنيفة بالذكر

(١) البيت لأبي دؤاد الإيادي - جارية بن الحجاج - ، وهو في اللسان (مَرَجَ) ، قال : «ومَرَجَ العهد والأمانة والدين : فَسَدَ» ، قال أبو دؤاد : مَرَجَ الدِّينُ ... البيت . والحارك : الكاهل ، والكتد : مجتمع الكتفين وهو الكاهل ، ويقال كَتَدَ - بفتح التاء وكسرها - وفي الحديث (كنا يوم الخندق ننقل التراب على أكتادنا) . يقول : إنه عندما اختلط الدين أعد للجهاد فرساً عالي الكاهل محكم الكتفين متين البناء ، ومثل هذا البيت قول الداخل الهذلي يصف بقرة رماها بسهم :

فَجَالَتْ فَالْتَمَسَتْ بِهِ حَشَاهَا فَخَرَّ كَأَنَّهُ خُوطٌ مَرِيحُ

تشريفاً من حيث هي المنتفعة بالتبصرة والذكرى ، وإلا فهذه المخلوقات هي تبصرة وذكرى لكل بشر ، وقال بعض النحويين : ﴿ تَبْصِرَةٌ وَذِكْرَى ﴾ مفعولان من أجلهما ، وهذا محتمل . والأول أرجح .

قوله عز وجل :

﴿ وَزَلَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ①
وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ② رَزَقْنَا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَّيْتَةً
كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ③ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ④ وَعَادُ
وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطَ ⑤ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ
حَقَّ وَعِيدِ ⑥ أَفَعَيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ⑦ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَزَلَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا ﴾ ، قيل : يعني جميع المطر ، كله يتصف بالبركة ، وإن ضرَّ بعضه أحياناً ففيه مع ذلك الضرُّ الخاص بالبركة العامة ، وقال أبو هريرة رضي الله عنه : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا جاء المطر فسالت الميازيب قال : (لا محل عليكم العام) ، وقال بعض المفسرين : ﴿ مَاءً مُّبَارَكًا ﴾ يريد به ماء مخصوصاً خالصاً للبركة ينزله الله تعالى كل سنة ، وليس كل المطر

يتصف بذلك . وَحَبُّ الْحَصِيدِ هُوَ الْبُرُّ وَالشَّعِيرُ وَنَحْوُهُ مِمَّا هُوَ نَبَاتٌ
مُحِبٌّ يُحْصَدُ ، وَ [الْحَصِيدِ] صِفَةٌ لِمُحْدَوْفٍ (١) ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ :
حَبُّ الْحَصِيدِ : الْحَنْظَةُ .

و [بَاسِقَاتٍ] مَعْنَاهُ : طَوِيلَاتٌ ذَاهِبَاتٌ فِي السَّمَاءِ ، وَمِنْهُ قَوْلُ
أَبِي (٢) نُوْفَلٍ فِي ابْنِ هُبَيْرَةَ :

يَا بَنَ الَّذِينَ بَجَدَهُمْ بَسَقَتْ عَلَى قَيْسٍ فَرَارَةٌ (٣)

وَرَوَى قُطَيْبَةُ بْنُ مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَرَأَ :

(١) التَّقْدِيرُ : « وَحَبُّ النَّبْتِ الْحَصِيدِ » ، وَهَذَا قَوْلُ الْبَصْرِيِّينَ ، أَمَّا الْكُوفِيُّونَ فَيَقُولُونَ :
هَذَا مِنْ إِضَافَةِ الشَّيْءِ إِلَى نَفْسِهِ ، كَمَا يُقَالُ : مَسْجِدُ الْجَامِعِ ، وَرَبِيعُ الْأَوَّلِ ، إِذِ الْمُرَادُ : الْمَسْجِدُ
الْجَامِعُ ، وَالرَّبِيعُ الْأَوَّلُ ، وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى : فِي سُورَةِ الْوَاقِعَةِ : ﴿ لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾ ،
وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ : ﴿ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ . وَإِنَّمَا تَضَافُ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ إِلَى أَنْفُسِهَا
لَاخْتِلَافِ لَفْظِ اسْمِهَا ، وَهَذَا هُوَ قَوْلُ الْفَرَّاءِ ، ذَكَرَهُ فِي « مَعَانِي الْقُرْآنِ » ، وَهُوَ أَيْضاً قَوْلُ
ابْنِ قُتَيْبَةَ .

(٢) فِي الْأَصُولِ : « ابْنُ نُوْفَلٍ » .

(٣) هَذَا الْبَيْتُ مِنْ شَوَاهِدِ أَبِي عُبَيْدَةَ فِي « مَجَازِ الْقُرْآنِ » ، قَالَ : « ﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ ﴾
طَوَالٌ ، يُقَالُ : جَبَلٌ بَاسِقٌ ، وَحَسَبَ بَاسِقٌ ، قَالَ أَبُو نُوفَلٍ لِابْنِ هُبَيْرَةَ : « يَا بَنَ الَّذِينَ ...
الْبَيْتِ » . وَذَكَرَ صَاحِبُ اللِّسَانِ هَذَا الْبَيْتَ شَاهِداً عَلَى أَنَّ الْبُسُوقَ هُوَ الِارْتِفَاعُ فِي الْفَضْلِ ،
قَالَ : « وَبَسَقَ عَلَى قَوْمِهِ : عَلَاهُمْ فِي الْفَضْلِ » ، وَأَنشَدَ ابْنُ بَرِّي لِأَبِي نُوفَلٍ : يَا بَنَ الَّذِينَ ...
الْبَيْتِ » ، وَالرَّوَايَةُ فِي مَجَازِ الْقُرْآنِ وَفِي اللِّسَانِ : « بِفَضْلِهِمْ » بَدَلًا مِنْ « بِجَدِّهِمْ » ، وَفِي
حَدِيثِ ابْنِ الْحَنْفِيَّةِ : كَيْفَ بَسَقَ أَبُو بَكْرٍ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ أَيْ : كَيْفَ
ارْتَفَعَ ذِكْرُهُ دُونَهُمْ ؟

[بَاصِقَاتٍ] بالصاد (١) ، قال أبو الفتح : الأصل السين ، وإنما الصاد بدل منها لاستعلاء القاف . و « الطَّلْعُ » أول ظهور التمر في الكُفْرَى (٢) وهو أبيض منضد كحب الرمان ، فما دام ملتصقاً بعضه ببعض فهو نضيد ، وإذا خرج من الكفري وتفرق فليس بنضيد . و [رِزْقاً] نصب على المصدر ، والضمير في [به] عائد على المطر ، ووصف البلدة بـ « مَيْت » على تقدير القطر والبلد . وقرأ الناس : [مَيْتاً] مخففاً ، وقرأ أبو جعفر ، وخالد : [مَيْتاً] بالثقل ، ثم بين تبارك تعالى موضع الشبه فقال : ﴿ كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ ، وهذه الآيات كلها إنما هي أمثلة وأدلة على البعث ، و « الخروج » يريد به الخروج من القبور .

و ﴿ أَصْحَابُ الرُّسِّ ﴾ قوم كان لهم بشر عظيمة وهي الرُّسُّ ، وكل ما لم يُطَوَّ من بشر أو معدن أو نحوه فهو رسٌّ ، وأنشد أبو عبيدة

(١) ذكر ذلك الثعلبي ، ونقله القرطبي ، ثم قال : « قلت : الذي في صحيح مسلم عن قطبة بن مالك قال : صَلَّيْتُ وُصِّلِي بِنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَرَأَ ﴿ ق- وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ ، حَتَّى قَرَأَ : ﴿ وَالنَّخْلَ بَاصِقَاتٍ ﴾ ، قَالَ : فَجَعَلْتُ أَرُدُّهَا وَلَا أُدْرِ مَا قَالَ ، إِلَّا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ إِبْدَالُ الصَّادِ مِنَ السَّيْنِ لِأَجْلِ الْقَافِ » . اهـ .

(٢) وعاء طلع النخل هو الكُفْرُ ، ويقال فيه : الكُفْرَى والكِفْرَى والكُفْرَى ، والكُفْرَى . (انظر اللسان) .

للنابغة الجعدي :

سَبَقَتْ إِلَى فَرَطٍ نَاهِلٍ تَنَابِلَةٍ يَحْفُرُونَ الرَّسَّاسَا (١)

وجاءهم نبيٌّ يسمَّى حنظلة بن سفيان فيما رُوي ، فجعلوه في الرَّسِّ وردموا عليه وأهلكهم الله تعالى ، وقال كعب الأحبار في كتاب الزهراوي : أصحاب الرَّسِّ هم أصحاب الأُخدود ، وهذا ضعيف ؛ لأنَّ أصحاب الأُخدود لم يكذبوا نبياً . إنما هو ملكٌ أُحرق قوماً ، وقال الضحاك : الرَّسُّ بئرٌ قتل فيها صاحب يسن ، قال منذر : رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم قومٌ عاد .

و «الْأَيْكَةُ» شجر ملتف ، وهم قوم شعيب عليه السلام ، والألف واللام من «الْأَيْكَةُ» غير معرفتين لأنَّ «أَيْكَةُ» اسم علم كطلحة ،

(١) البيت في اللسان ، والفَرَطُ - بفتح الفاء والراء - : القوم يتقدمون إلى الماء قبل الوارد فيهيئون لهم الدلاء والأرسان ويملئون الحياض ويستقون لهم ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : (أنا فَرَطُكُمْ على الخوض) بمعنى : أنا المتقدم منكم إليه يوم القيامة ، والناهل هو الشارب وإن شئت العطشان ، (انظر اللسان) ، ويروى «باهل» بالباء ، وهكذا هي في الطبري ، ومعناها المتردد بلا عمل ، والناهل أنسب للمعنى هنا ، والتنايلة جمع تنبّل على وزن جعفر ، وهو الرجل القصير ، ولعلَّ ذلك يشير إلى كسل أو عجز عن العمل ، والرَّسَّاسُ جمع رَسٍّ ، والرَّسُّ : البئر القديمة ، أو هي المعدن ، أي المنجم الذي يستخرج منه المعادن ، وابن عطية يستشهد بالبيت هنا على أن كل ما حُفِرَ من بئر أو قبر أو منجم يُسمَّى رَسّاً ، فإذا عرشت البئر بالحجارة فهي طويٌّ .

يقال : أَيُّكَة وَلَيُّكَة ، فهي كالآلف واللام في الشمس والقمر وفي الصفات الغالبة ، وفي هذا نظر ، وقرأ : [الأيُّكَة] بالهمز أبو جعفر ، ونافع ، وشيبة ، وطلحة .

و (قَوْمُ تَبَعٍ) هم حَمِير ، و « تَبَعٌ » اسم الملك فيهم ، يذهب تَبَعٌ ويحيى تَبَعٌ ، مثل كسرى في الفرس وقيصر في الروم ، وكان أسعد أبو كرب أحد التبابعة رجلاً صالحاً صاحب حَبْرَيْن فتعلَّم منهما دين موسى عليه السلام ، ثم إن قومه أنكروا عليه ذلك ، فندبهم إلى محاجة الحَبْرَيْن فوقعت بينهم مجادلة عظيمة ، واتفقوا على أن يدخل جميعهم النار التي في القربان فمن أكلته النار فهو المبطل ، فدخلوا فاحترق قوم تَبَعٌ وخرج الحَبْرَان تعرق جباههما ، فهلك القوم المخالفون وآمن سائر قوم تَبَعٌ بدين الحَبْرَيْن ، وفي الحديث اختلاف كثير أثبتُ أصحُّ ذلك على ما في سير ابن هشام . وذكر الطبري عن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لَا تَلْعَنُوا تَبَعًا فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ أَسْلَمَ) (١) ، وذكر الثعلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّ تَبَعًا كَانَ نَبِيًّا .

(١) أخرجه ابن جرير الطبري ، عن يونس ، عن ابن وهب ، عن ابن لُهيعة ، عن عمرو بن جابر الحضرمي ، عن سهل بن سعد الساعدي .

قوله تعالى : [كُلُّ] ، قال سيبويه : التقدير : كُلُّهُمْ ، وحذف
لدلالة « كُلُّ » عليه إيجازاً ، والوعيد الذي حقَّ هو ما سبق به القضاء
من تعذيب الكفرة وإهلاك الأمم المكذبة ، وفي هذا تخويف من كذب
محمداً صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَعَيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ﴾ توقيف للكفار وتوبيخ
وإقامة للحجة الواضحة عليهم . وذلك أن جوابهم على هذا التوقيف
هو : لم يقع عَيٌّ ، ثم هم مع ذلك في لبس من الإعادة ، وهذا تناقض ،
يقال : عَيِيَ يَعْيًا إذا عجز عن الأمر ، ويدغم هذا الفعل الماضي من
هذا الفعل ، ولا يدغم المستقبل منه ، فيقال : عَيٌّ ، ومنه قول الشاعر :

عَيُّو بِأَمْرِهِمْ كَمَا عَيَّتْ بِيَضَّتِهَا الْحَمَامَةُ (١)

و « الخلق الأول » إنشاء الإنسان من نطفة على التدرج المعلوم ، وقال
الحسن : الخَلْقُ الأولُ آدم عليه السلام ، وحكاه الرُّمَّاني ، و « اللَّبْسُ » :

(١) هذا البيت لعبيد بن الأبرص الأسدي . وهو من قصيدة أنشدتها أمام حُجْرٍ يصف
حال قومه بعد أن أذلهم حُجْرٌ وجعلهم عبيد العصا ، وهو في اللسان ، و يروى :

بَرِمَتْ بَنُو أَسَدٍ كَمَا بَرِمَتْ بِيَضَّتِهَا الْحَمَامَةُ

والبيت هنا كما في اللسان شاهد على أن الإدغام أكثر من التخفيف في (عَيِّي) ، يقال : عَيَّ
بَأَمْرِهِ وَعَيَّيَ إذا لم يهتد إلى الصواب .

الشَّكُّ والريبُ واختلاط النظر ، و «الْخَلْقُ الْجَدِيدُ» : البعث من القبور

قوله عز وجل :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ١٦ ﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ١٧ ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَنِدٌ ١٨ ﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ١٩ ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ٢٠ ﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ٢١ ﴾

هذه آيات فيها إقامة حُجج على الكفار في إنكارهم البعث والجزاء ، و «الْخَلْقُ» إنشاء الشيء على تقدير وترتيب حكمي ، و «الإنسان» : اسم الجنس ، وقال بعض المفسرين : الإنسان هنا آدم عليه السلام ، و [تُوَسْوِسُ] معناه : تتحدث في فكرتها ، و سُمِّي صوت الحُلِيِّ وسوسة لخفائه ، والوسوسة إنما تستعمل في غير الخير .

وقوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ عبارة عن قدرة الله تعالى على العبد ، وكون العبد في قبضة القدرة والعلم ، قد

أُحِيطَ بِهِ ، فَالْقُرْبُ هُوَ بِالْقُدْرَةِ وَالسُّلْطَانِ ؛ إِذْ لَا يَنْحَجِبُ عَنْ عِلْمِ
 اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَاطِنٌ وَلَا ظَاهِرٌ ، وَكُلُّ قَرِيبٍ مِنَ الْأَجْرَامِ فَبَيْنَهُ وَبَيْنَ
 قَلْبِ الْإِنْسَانِ حَجَبٌ ، وَ « الْوَرِيدُ » عَرَقٌ كَبِيرٌ فِي الْعُنُقِ ، يُقَالُ :
 إِنَّهُمَا وَرِيدَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ، قَالَ الْفَرَاءُ : هُوَ مَا بَيْنَ الْحَلْقُومِ
 وَالْعَلْبَاوِينَ ، وَقَالَ الْحَسَنُ : الْوَرِيدُ : الْوَتِينَ ، قَالَ الْأَشْرَمُ : هُوَ نَهْرُ
 الْجَسَدِ ، هُوَ فِي الْقَلْبِ الْوَتِينَ ، وَفِي الظَّهْرِ الْأَبْهَرُ ، وَفِي الذَّرَاعِ وَالْفَخْذِ :
 الْأَكْحَلُ وَالنَّسَا ، وَفِي الْخَنْصَرِ : الْأُسَيْلِمُ ، وَ « الْحَبْلُ » اسْمٌ مُشْتَرَكٌ
 فَخَصَّصَهُ بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْوَرِيدِ ، وَلَيْسَ هَذَا بِإِضَافَةِ الشَّيْءِ إِلَى نَفْسِهِ ،
 بَلْ هِيَ كِإِضَافَةِ الْجِنْسِ إِلَى نَوْعِهِ ، كَمَا تَقُولُ : لَا يَجُوزُ حِيَ الطَّيْرِ بِلَحْمِهِ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ ﴾ فَقَالَ الْمَفْسَّرُونَ : الْعَامِلُ
 فِي [إِذْ] هُوَ [أَقْرَبُ] ، وَيَحْتَمِلُ عِنْدِي أَنْ يَكُونَ الْعَامِلُ فِيهِ فِعْلاً مُضْمَرًا
 تَقْدِيرُهُ : إِذْكَرَ إِذْ يَتَلَقَّى ، وَيَحْسَنُ هَذَا الْمَعْنَى لِأَنَّهُ أَخْبَرَ خَبْرًا مُجَرَّدًا
 بِالْخَلْقِ ، وَالْعِلْمَ بِخَطَرَاتِ الْأَنْفُسِ ، وَالْقُرْبَ بِالْقُدْرَةِ وَالْمَلِكِ ،
 فَلَمَّا تَمَّ الْإِخْبَارُ أَخْبَرَ بِذِكْرِ الْأَحْوَالِ الَّتِي تُصَدِّقُ هَذَا الْخَبَرَ وَتُبَيِّنُ
 وَرُودَهُ عِنْدَ السَّامِعِ ، فَمِنْهَا : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ ﴾ ، وَمِنْهَا مَجِيءُ
 سَكْرَةِ الْمَوْتِ ، وَمِنْهَا النَّفْخُ فِي الصُّورِ ، وَمِنْهَا مَجِيءُ كُلِّ نَفْسٍ .
 وَ « الْمُتَلَقِّيَانِ » : الْمَلَكَانِ الْمُوَكَّلَانِ بِكُلِّ إِنْسَانٍ ، مَلِكُ الْيَمِينِ الَّذِي

يكتب الحسنات ، وملك الشمال الذي يكتب السيئات ، قال الحسن :
الحفظة أربعة : اثنان بالنهار واثنان بالليل .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ويؤيد ذلك الحديث (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار) ... الحديث بكماله (١). ويروى أن ملك اليمين أمير على ملك الشمال ، وأن العبد إذا أذنب يقول ملك اليمين للآخر: تثبت لعله يتوب ، ورواه إبراهيم التيمي وسفيان الثوري ، و [قعيد] معناه : قاعد ، وقال قوم هو بمنزلة «أكيل» فهو بمعنى مُقَاعِد ، وقال الكوفيون : أراد «قُعوداً» فجعل الواحد موضع الجنس ، والأول أصوب لأن المُقَاعِد إنما يكون عند قعود الإنسان ، والقاعد يكون قاعداً على كل هيئات الإنسان ، وقال مجاهد : قعيدٌ رصد ، ومذهب سيبويه أن التقدير : عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد ، فاكتفى بذكر الآخر

(١) أخرجه البخاري في المواقيت والتوحيد ، ومسلم في المساجد ، والنسائي في الصلاة ، ومالك في السفر ، وأحمد في مسنده (٢-٢٥٧) ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون) . واللفظ للبخاري .

عن ذكر الأول ، ومثله عنده :

وَعَزَّةٌ مَمْطُولٌ مُعْنَى غَرِيمُهَا (١)

ومثله قول الفرزدق :

إِنِّي ضَمَنْتُ لِمَنْ أَتَانِي مَا جَنَى وَأَبِي فَكَانَ وَكُنْتُ غَيْرَ غَدُورٍ (٢)

(١) هذا عجز بيت قاله كثير من قصيدة له ، والبيت بتمامه :

قَضَى كُلُّ ذِي دَيْنٍ فَوْقَى غَرِيمَهُ وَعَزَّةٌ مَمْطُولٌ مُعْنَى غَرِيمُهَا

وقضى : أدّى ما عليه من الدين لصاحبه ، ووفى : أعطاه حقه كاملاً وافياً تاماً ، والغريم : الدائن ، وممطول : لم يأخذ حقه بل تأجل موعد الوفاء به مرة بعد أخرى ، والمعنى : المتعبد الذي كُلف ما يشق عليه أو الأسير ، يقول : إن صاحب كل دين أخذ حقه كاملاً إلا غريم عزة وهو أنا ، فلم أزل محروماً متعباً لا أنال إلا الوعود بعد الوعود ، والشاهد الذي يقصده ابن عطية هو قول كثير : « غريمها » فقد تنازع فيه كل من (ممطول) و (معنّى) ، وهو يريد هنا أن الثاني وهو (معنّى) هو الذي عمل في (غريمها) . واكتفى بذكره عن ذكره مع الأول وهو (ممطول) ، على أن بين النحويين خلاف طويل هنا ، ويمكن الرجوع إليه في كتب النحو ، وفي البيت شاهد آخر في الموضوع ذاته ، وهو في الشطر الأول لأن (قضى) تطلب (غريمه) مفعولاً . وكذلك (وفى) تطلبه ، والخلاف بين النحويين في أيهما أحق بالعمل المذكور في كتب النحو .

(٢) بيت الفرزدق هذا من شواهد النحويين أيضاً في باب التنازع ، فإن (كان) و (كنت)

كل منهما تطلب الخبر وهو « غير غدور » ، وأصل الكلام : فكان غير غدور ، وكنت غير غدور ، فحذف أحد الخبرين اكتفاءً بدلالة الآخر عليه . وعند البصريين - وابن عطية على مذهبيهم - أن الخبر الموجود هو خبر الثاني ، أما خبر الأول فقد حذف لدلالة الثاني عليه . وقد استشهد بهذا البيت الطبري والقرطبي ، وهو مذكور في (معاني القرآن) للفراء ، والكتاب لسيبويه ، ومع كل هذا فهو غير موجود في الديوان .

وهذه الأمثلة كثيرة ، ومذهب المبرد أن التقدير : عن اليمين قعيد وعن الشمال ، فَأَخَّرَ [قَعِيدٌ] عن مكانه ، ومذهب الفراء أن لفظ «قعيد» يدل على الاثنين والجميع فلا يحتاج إلى تقدير غير الظاهر .

قوله تعالى : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ ﴾ ، قال الحسن بن أبي الحسن ، وقتادة : يكتب الملكان جميع الكلام ، فيثبت الله من ذلك الحسنات والسيئات ويمحو غير ذلك ، وهذا ظاهر الآية . وقال أبو الجوزاء ، ومجاهد : يكتبان عليه كل شيء حتى أنينه في مرضه ، وقال عكرمة : المعنى : ما يلفظ من قولٍ خيرٍ أو شرٍّ ، وأما ما خرج عن هذا فإنه لا يكتب ، والأول أصوب ، ورُوي أن رجلاً قال لجملة : «حَلٌّ» (١) ، فقال ملك اليمين : لا أكتبها ، وقال ملك الشمال : لا أكتبها ، فأوحى الله تعالى إلى ملك الشمال أن اكتب ما ترك صاحب اليمين ، ورُوي نحوه عن هشام الحمصي . وهذه اللفظة إذا اعتبرت فهي بحسب مشيئته ببعيره ، فإن كان في طاعة فإن «حَلٌّ» حسنة ، وإن كان في معصية فهي سيئة ، والمتوسط بين هذين عسر الوجود ، ولا بد أن يقترن بكل

(١) في اللسان : « يقال للناقة إذا زجرتها : حَلٌّ جزمٌ » ، وحَلٌّ مُنَوَّنٌ ، ... وقال ابن سيدة : ومن خفيف هذا الاسم : حَلٌّ وحَلٌّ لإناث الإبل خاصة . فهو صوت لزجر الناقة أو الحمل . وقال الجوهري في الصحاح : حَلٌّ : زجر للناقة ، وحَوَّبٌ : زجر للبعير .

أحوال المرء قرائن تخلصها للخير أو لخلافه ، وحكى الثعلبي عن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : إن مقعد الملكين على الثنيتين ، فقامهما اللسان ومدادهما الريق (١) ، وقال الضحاك ، والحسن : مقعدهما تحت الشعر ، وكان الحسن يحب أن ينظف عنقه (٢) لذلك ، قال الحسن : حتى إذا مات المرء طويت صحيفته ، وقيل له يوم القيامة : ﴿ أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ (٣) ، عدل والله من جعله حسيب نفسه . و « الرقيب » : المراقب ، و « العتيد » : الحاضر .

وقوله تعالى : [وَجَاءَتْ] عطف - عندي - على قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ﴾ ، فالتقدير : وإذ تجيء سكرة الموت ، وجعل الماضي في موضع المستقبل تحقيقاً وتبييناً (٤) للأمر ، وهو أحثُّ على الاستعداد واستشعار القرب ،

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور عن علي رضي الله تعالى عنه موقوفاً ، قال : أخرج ابن أبي الدنيا في الصمت ، عن علي رضي الله عنه ، قال : (لسان الإنسان قلم الملك وريقه مداده) ، وذكره مرفوعاً من رواية أبي نعيم ، والديلمي ، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، قال : « إن الله لطيف الملكين الحافظين حتى أجلسهما على الناجذين ، وجعل لسانه قلمهما ، وريقه مدادهما » . والناجذ : الضرس .

(٢) العنقة شعيرات بين الشفة السفلى والذقن .

(٣) من الآية (١٤) من سورة (الإسراء) .

(٤) في بعض النسخ : « وتثبينا للأمر » .

وهذه طريقة العرب في ذلك ، وتبيين هذا في قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ ، ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ فإنها صيرورة بمعنى الاستقبال .
 وقرأ أبو عمرو : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةٌ ﴾ بإدغام التاء في السين ، وسكرة الموت : ما يعتري الإنسان عند نزعه ، والناس فيها مختلفة أحوالهم ، لكن لكل أحد سكرة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
 (إِنَّ لِلْمَوْتِ لَسَكْرَاتٍ) (١). وقوله تعالى : [بِالْحَقِّ] معناه : بقاء الله تبارك وتعالى وفقد الحياة الدنيا ، وفي مصحف ابن مسعود : « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ » ، وقرأها ابن جبير ، وطلحة ، ويروى أن أبا بكر الصديق قالها لابنته عائشة رضي الله عنهما ، وذلك أنها قعدت عند رأسه تبكي وهو ينازع فقالت :

لَعَمْرُكَ مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الْفَتَى إِذَا حَشَرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ (٢)
 ففتح أبو بكر رضي الله عنه عينيه وقال : لا تقولي هكذا وقولي :

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ، والبخاري ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، عن عائشة رضي الله عنها ، ولفظه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت بين يديه ركوة أو علة فيها ماء ، فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه ويقول : لا إله إلا الله . إن للموت سكرات .
 (٢) هذا البيت لحاتم الطائي ، وهو من قصيدة أكثر فيها من الحكم ، والرواية في الديوان : « أَمَاوِيَّ » ، ما يغني الثراء . والبيت في اللسان ، والحشرجة : صوت النفس ، وهو الغرغرة في الصدر . أَمَا « مَأْوِيَّة » فهي امرأة حاتم ، وهو هنا يناديها ويوجه لها الحديث في هذا البيت وفي ستة أبيات أخرى من القصيدة نفسها ، يقول في مطلع كل بيت : أَمَاوِيَّة .

«وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ ذَلِكَ مَا كُنْتُ مِنْهُ تَحِيدُ»، وقد روي هذا الحديث عن مشاهير القراء : ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ (١) فقال أبو الفتح : إن شئت علقت الباء بـ [جاءت] كما تقول : «جئت بزيد» ، أي : سقته ، وإن شئت كانت بتقدير : ومعها الموت (٢).
واختلف المتأولون في معنى «وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ» - فقال الطبري - وحكاه الثعلبي - الحق : الله تعالى ، وفي إضافة السكره

(١) أخرجه أحمد ، وابن جرير ، عن عبد الله بن اليماني مولى الزبير بن العوام ، قال : لما حضر أبو بكر تمثلت عائشة بهذا البيت :
أَعَاذِلْ مَا يُغْنِي الْحِذَارُ عَنِ الْفَتَى إِذَا حَشَرَجَتْ يَوْمًا وَصَاقَ بِهَا الصَّدْرُ
فقال أبو بكر رضي الله عنه : ليس كذلك يا بُنَيَّةَ ، ولكن قل : ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتُ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ . أما ما نقله ابن عطية هنا وهو ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْمَوْتِ﴾ فقليل إنها قراءة قرأ بها أبو بكر رضي الله عنه ، وقال القرطبي : «إن أبا بكر رضي الله عنه رويت عنه روايتان : إحداهما موافقة للمصحف فعلها العمل ، والأخرى مرفوضة تجري مجرى النسيان منه إن كان قالها ، أو الغلط من بعض من نقل الحديث » .

(٢) فهي متعلقة بمحذوف ، وتقع حالا ، كقولك : خرج بثيابه ، أي : وثيابه عليه . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ أي : وزينته عليه . أما على قول من قال إن قراءة أبي بكر رضي الله عنه : ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ﴾ قراءة فقد قال أبو الفتح بعد أن نسبها إلى طلحة وسعيد بن جبير : «كيف يجوز أن تقول : (جاءت سكرة الحق بالموت) وأنت تريد به (جاءت سكرة الموت بالحق) ؟ فيأليت شعري أينها الجائفة بصاحبها ؟ قيل : إنهما اشتركتا في الحال ، وكل منهما قريبة من صاحبها حتى كأن كل واحدة منهما جاءت بالأخرى » . ١ هـ . بتصرف .

إلى اسم الله تعالى بُعْدٌ . وإن كان ذلك سائغاً من حيث هي خلق له ، ولكن فصاحة القرآن ورصفه لا يأتي فيه هذا ، وقال بعض المتأولين : المعنى : وجاءت سكرة فراق الحياة بالموت ، وفراق الحياة حقٌ يعرفه الإنسان ويحيد منه بأمله ، ومعنى هذا الحيد أنه يقول : أعيش كذا وكذا ، فمتى فكرت في قرب الموت حاد بذهنه وأمله إلى مسافة بعيدة من الزمان ، وأيضاً فحذر المرء وتحرزاته ونحو هذا حيد كله . وقد تقدم القول في النفخ في الصور مراراً ، و «يَوْمُ الْوَعِيدِ» هو يوم القيامة ، وأضافه إلى الوعيد تخويفاً .

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ ، قرأ طلحة ابن مصرف : [مَحَا] بالحاء مثقلة (١) ، و «السائق» : الحاث على السير ، واختلف الناس في السائق والشهيد - فقال عثمان بن عفان ، ومجاهد ، وغيرهما : مَلَكَانِ مُوَكَّلَانِ بكل إنسان ، أحدهما يسوقه ، والآخر من حفظته يشهد عليه ، وقال أبو هريرة رضي الله عنه : السائق مَلَكٌ ، والشهيد العمل ، وقال منذر بن سعيد : السائق مَلَكٌ ، والشهيد النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : وقيل : الشهيد الكتاب الذي يلقاه منشوراً ،

(١) مع إدغام العين في الهاء فانقلبنا حاء ، كما قالوا : ذهب «مَحْمٌ» يريدون «مَعَهُم» ، انظر البحر المحيط ٨-١٢٤ .

وقال بعض النظار : [سائق] اسم جنس . و [شَهِيدٌ] كذلك ، فالساقية للناس ملائكةٌ يوكلون بذلك ، والشهداء الحفظة في الدنيا وكلُّ ما يشهد ، وقال ابن عباس ، والضحاك : السائق مَلَكٌ ، والشَّهيد جوارح الإنسان ، وهذا يبعد على ابن عباس رضي الله عنهما لأن الجوارح إنما تشهد بالمعاصي ، وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ يعم الصالحين ، فإنما معناه : شهيد بخيره وشره . ويقوى في [شَهِيدٌ] اسم الجنس ، فتشهد بالخير الملائكة والبقاع ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : (لا يسمع صدى صوت المؤذن إنسٌ ولا جان ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة) (١) . وكذلك تشهد بالشر الملائكة والبقاع والجوارح ، وقال أبو هريرة رضي الله عنه : السائق مَلَكٌ والشَّهيد العمل . وقال ابن مسلم : السائق شيطان ، حكاه عنه الثعلبي . والقول في كتاب منذر بن سعيد ، وهو قول ضعيف .

(١) رواه البخاري في كتاب الأذان . باب رفع الصوت بالنداء ، عن عبد الرحمن بن عبد الله الأنصاري ثم المازني . عن أبيه . أنه أخبره أن أبا سعيد الخدري قال له : إنني أراك تحب الغنم والبادية . فإذا كنت في غنمك أو باديته فأذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء . فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة . قال أبو سعيد : سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ورواه البخاري أيضاً في (بدء الخلق) ، كما أخرجه انسائي في الأذان ، ومالك في النداء ، وأحمد في مسنده (٣ - ٣٥ . ٤٣ . ٦٠) .

قوله عز وجل :

﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ
 حَدِيدٌ ﴾ (٢٦) وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي ﴿٢٧﴾ أَتَقْبَلُ فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ
 ﴿٢٨﴾ مِّنَاجٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مِّرِيبٍ ﴿٢٩﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي
 الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٣٠﴾ * قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ
 بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴿٣٢﴾ *

قرأ الجحدري : ﴿لَقَدْ كُنْتَ﴾ بكسر التاء على مخاطبة النفس ،
 وكذلك كسر الكافات بعد ، وقال صالح بن كيسان ، والضحاك ،
 وابن عباس : معنى قوله تعالى : ﴿لَقَدْ كُنْتَ﴾ الآية أن يقال للكافر
 العاقل من ذوي التي معها السائق والشهيد إذا حصل بين يدي الرحمن
 عز وجل ، وعاین الحقائق التي كان لا يُصدق بها في الدنيا ويتغافل
 عنها وعن النظر فيها : لقد كنت في غفلة من هذا ، فلما كشف الغطاء
 عنك الآن احتد بصرك ، أي بصيرتك ، وهذا كما تقول : «فلان
 حديد الذهن والفؤاد» ونحوه ، وقال مجاهد : هو بصر العين ، أي :
 اشتد التفاته إلى ميزانه وغير ذلك من أهوال القيامة ، وقال زيد بن
 أسلم : قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ ، وقوله تعالى :

(لَقَدْ كُنْتَ) الآية مخاطبة للنبي محمد صلى الله عليه وسلم ، والمعنى أنه خطب بها في الدنيا ، أي : لقد كنت يا محمد في غفلة عن معرفة هذا القصص والغيب حتى أرسلناك وأنعمنا عليك وعلمناك فبصرك اليوم حديد .

وهذا التأويل يضعف من وجوه : أحدها أن «الْغَفْلَةَ» إنما تنسب أبداً إلى مُقَصِّر ، ومحمد صلى الله عليه وسلم لا تقصير له قبل بعثه ولا بعده ، وثانيها أن قوله تعالى - بعد هذا - (وَقَالَ قَرِينُهُ) يقتضي أن الضمير إنما يعود على أقرب مذكور ، وهذا الذي يقال له : (فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) - وإن جعلناه عائداً على ذي النفس في الآية المتقدمة - جاء هذا الاعتراض لمحمد صلى الله عليه وسلم بين الكلامين غير متمكن ، فتأمله ، وثالثها أن معنى توقيف الكافر وتوبيخه على حاله في الدنيا يسقط . وهو أجرى في الآية وأولى بالوصف ، والوجه عندي ما قاله الحسن ، وسالم بن عبد الله أنها مخاطبة للإنسان ذي النفس المذكورة من مؤمن وكافر . و (فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ) قال ابن عباس رضي الله عنهما : هي الحياة بعد الموت .

قوله تعالى : (وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ) ، قال جماعة من المفسرين : قرينه من زبانية جهنم ، أي قال : هذا العذاب الذي لهذا الإنسان الكافر حاضر عتيد .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ففي هذا تحريض على الكافر واستعجال به .

وقال قتادة ، وابن زيد : بل قرينه الملك الموكَّل بسوقه ، فكأنه قال : هذا الكافر الذي جعل إليَّ سوقه ، فهو لديَّ حاضِرٌ ، وقال الزهراوي : ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ ﴾ : شيطانه ، وهذا ضعيف ، وإنما أوقع فيه أن القرين في قوله : ﴿ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ هو شيطانه في الدنيا ومُغْوِيه بلا خلاف ، ولفظة القرين اسم جنس ، فسائقه قرين ، وصاحبه من الزبانية قرين ، وكاتب سيئاته في الدنيا قرين ، وتحتمله هذه الآية ، أي : هذا الذي أحصيته عليه عتيد لديّ ، وموجبٌ عذابه . ومُماشِي الإنسان في طريقه قرين ، ومنه قول الشاعر :

عن الْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارِنِ يَقْتَدِي (١)
والقرين الذي في هذه الآية غير القرين الذي في قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ إذ المقارنة تكون على أنواع ، وقال بعض العلماء : قرينه في هذه الآية عمله قلباً وجوارحاً .

(١) هذا البيت شاهد على أن القرين يقال لمن يمشي مع إنسان في طريقه ، وأن كلمة القرين تطلق على كل من يقترن بالمرء في عمله أو في حياته ، قال في اللسان : « والقرين : صاحبك الذي يقارنك ، وقرينك : الذي يُقَارَنُكَ ، والجمع قرناء » .

وقوله تعالى : ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ﴾ معناه : يقال : أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ ،
واختلف الناس ، لمن يقال ذلك ؟ فقالت جماعة من المفسرين : هو
قول لِمَلَكَئِن من ملائكة العذاب ، وقال عبد الرحمن بن زيد في كتاب
الزهرائي : هو قول للسائق والشهيد ، وحكى الزهرائي أن المأمور
بإلقاء الكافر في النار اثنان . وعلى هذين القولين لا نظر في قوله تعالى :
[أَلْقِيَا] ، وقال مجاهد وجماعة من المتأولين : هو قول المقرين ، إما
السائق وإما الذي هو من الزبانية حسب ما تقدم ، واختلف أهل هذه
المقالة في معنى قوله تعالى : [أَلْقِيَا] وهي مخاطبة لواحد - فقال المبرد :
معناه : أَلْقِ أَلْقِ ، فإنما أراد تشنية الأمر مبالغة وتأكيذاً فردّ التشنية
إلى الضمير اختصاراً ، كما قال :

لَفَتَكَ لِأَمِينٍ عَلَى نَابِلٍ (١)

(١) هذا عجز بيت قاله امرؤ القيس من أبيات له قالها بعد أن انتصر على بني أسد ، والبيت

بتمامه :

نَطَعْنَهُمْ سُلُكِي وَمَخْلُوجَةٌ لَفَتَكَ لِأَمِينٍ عَلَى نَابِلٍ

وهو في الديوان واللسان ، والرواية في الديوان : « كَرَّكَ » بدلا من « لَفَتَكَ » ، وسُلُكِي :
طعنا مستويا أو أمام الوجه ، ومخلوجة : معوجة عن يمين وشمال ، يريد أنهم يطعنونهم من
أمام ومن يمين وشمال ، وكَرَّكَ : ردك ، وكذلك لَفَتَكَ ، واللأم : السهم ، والنايل :
من يرمي بالنبل ، والمعنى : إننا نطعنهم ونعيد الطعن بسرعة كما نردّ سهمين على صاحب نبل =

يريد : ارم ، ارم . وقال بعض المتأولين : المراد : « الْقَيْن » ، فعوض
من النون ألفاً كما نُعَوِّضُ من التنوين ، وقال جماعة من أهل العلم
بكلام العرب : هذا جرى على عادة العرب ، وذلك أنها كان الغالب
عندها أن يترافق في الأسفار ونحوها ثلاثة ، فكل واحد منهم يخاطب
اثنين ، فكثر ذلك في كلامها وأشعارها حتى صار عُرفاً في المخاطبة ،
فاستعمل في الواحد ، ومن هذا قولهم في الأشعار : خيلي ، وصاحبي ،
وقفاً نَبَكِ (١) ، ونحوه ، وقد جرى المحدثون على هذا الرسم ، فيقول
الواحد : حدثنا - وإن كان قد سمع وحده - ، ونظير هذه الآية في

= يرمي بسهمين ثم يعادان عليه بسرعة . وقد روى صاحب اللسان أن بعض أهل العلم سأل رؤية
عن هذا البيت فقال : حدثني أبي عن أبيه ، قال : حدثني عمي وكانت في بني دارم أنها سألت
امراً القيس وهو يشرب طلاء مع علقمة بن عبدة عن معناه فقال : مررت بنابل وصاحبه
يناوله الريش لؤاماً وظُهاراً فما رأيت أسرع منه فشبهت به .

(١) أما (خيلي) فمثاله قول امرئ القيس :

خَلِيلِي مُرَّابِي عَلَى أُمِّ جُنْدَبٍ نَقَضِي لُبَانَاتِ الْفُؤَادِ الْمُعَذَّبِ

وأما (صاحبي) فمثاله قول أبي تمام :

يَا صَاحِبِي تَقْصِيًا نَظَرِيكُمَا تَرِيًا وَجُوهَ الْأَرْضِ كَيْفَ تَصَوَّرُ

تَرِيًا نَهَاراً مُشْمِيساً قَدْ شَابَهُ زَهْرُ الرَّبِيِّ فَكَأَنَّمَا هُوَ مُقْمِرُ

وأما (قفاً نبك) ، فهو في مطلع معلقة امرئ القيس :

قِفَا نَبَكِ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بِسِقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمِلِ

هذا القول قولُ الحجاج : يا حَرَسِيَّ اضْرِبْ عُنُقَهُ ، وهو دليل على عادة العرب ، ومنه قول الشاعر :

فَإِنْ تَزْجُرَانِي يَا بَنَ عَفَّانَ أَنْزَجِرْ وَإِنْ تَدْعَانِي أَحْمَرَ عَرَضاً مُمَنِّعاً (١)
وقرأ الحسن بن أبي الحسن : [أَلْقِيَا] بتنوين [أَلْقِيَا] . و [كَفَّارٍ] بناءً مبالغة ، و [عَنِيدٍ] معناه : عاند عن الحق ، أي مُنحرفٌ عنه .

(١) هذا البيت من شواهد الفراء التي ذكرها في (معاني القرآن) . قال : « العرب تأمر الواحد بما يؤمر به الاثنان ، فيقولون للرجل : قوما عنا » وروى في ذلك مثالا ثم قال : « وأنشدني أبو ثروان : وإنْ تَزْجُرَانِي ... البيت ، ونرى أن ذلك منهم أن الرجل أدنى أعوانه في إبله وغنمه اثنان ، وكذلك الرفقة أدنى ما يكونون ثلاثة ، فجرى كلام الواحد على صاحبيه » . والزجر : المنع والنهي والانتهاز ، يقال : زجره يزجره فانزجر وازدجر ، والحماية : المنع والصيانة ، والعرض : ما يمدح ويذم من الإنسان سواء كان في نفسه أو سلفه أو من يلزمه أمره ، ومعنى البيت : إن تركتني حميت عرضي ممن يؤذيني ، وإن زجرتني انزجرت وصبرت . هذا البيت لسويد بن كراع العُكْلِيّ ، وكان قد هجا بني عبد الله بن دارم فاستعذوا عليه سعيد بن عثمان ، فأراد ضربه ، فقال سويد قصيدةً بدأها بقوله :

تَقُولُ ابْنَةُ الْعَوْفِيِّ لَيْلَى : أَلَا تَرَى إِلَى ابْنِ كُرَاعٍ لَا يَزَالُ مُقَرَّعًا ؟
مَخَافَةُ هَذَيْنِ الْأَمِيرَيْنِ سَهَّدَتْ رُقَادِي وَغَشَّتْنِي بَيَاضًا مُقَرَّعًا
فَإِنْ أَنْتُمَا أَحْكَمْتُمَانِي فَازْجُرَا أَرَاهِطُ تُؤْذِينِي مِنَ النَّاسِ رُضْعًا
وإنْ تَزْجُرَانِي يَا بَنَ عَفَّانَ أَنْزَجِرْ وَإِنْ تَدْعَانِي أَحْمَرَ عَرَضاً مُمَنِّعًا

وهذا يدل على أن العرب تخاطب الواحد بلفظ الاثنين ، فقد خاطب سعيد بن عفان بقوله : (وإنْ تَزْجُرَانِي) ، ولعله أراد سعيد بن عفان هذا ومن ينوب عنه أو يحضر معه . كذلك نلاحظ أنه قال أيضاً (أحكمتماني) وهو خطاب للواحد بلفظ الاثنين .

وقوله تعالى : ﴿مَنَّاغٍ لِلْخَيْرِ﴾ لفظ عامٌ للمال والكلام الحسن والتعاون على الأشياء ، وقال قتادة ، ومجاهد ، وعكرمة : معناه : الزكاة المفروضة ، وهذا التخصيص ضعيف ، و [مُعْتَدٍ] معناه : بلسانه ويده ، و [مُرِيبٍ] معناه : مُتَلَبَّسٌ بما يُرتاب به ، أَرَابَ الرجلُ إذا أتى بريبة ودخل فيها . قال الثعلبي : قيل : نزلت في الوليد بن المغيرة ، وقال الحسن : [مُرِيبٍ] : شاك في الله تعالى ودينه .

قوله تعالى : ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ﴾ الآية ، يحتمل أن يكون [الَّذِي] بدلاً من [كَفَّارٍ] ، ويحتمل أن يكون صفة له من حيث تَخَصَّص [كَفَّارٍ] بالأوصاف المذكورة فجاز وصفه بعد بالمعرفة ، ويحتمل أن يكون [الَّذِي] ابتداءً وخبره في قوله تعالى : [فَالْقِيَاهُ] ، ودخلت الفاء للإبهام الذي في [الَّذِي] فحصل الشبه بالشرط ، وفي هذا نظر ، وَيَقْوَى عندي أن يكون [الَّذِي] ابتداءً ، ويتضمن القول حينئذ بني آدم والشياطين الْمُغْوِينَ لهم في الدنيا ، ولذلك تحرك القرين الشيطان الْمُغْوِي في الدنيا فرام أن يُبْرِئ نفسه ويخلصها بقوله لربه : ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ ، وقوله : ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ ليست بحجة لأنه كذب في نفي الإطغاء عن نفسه جملة ، والحقيقة أنه أظفاه بالوسوسة والتزيين ، وأظفاه الله تعالى بالخلق والاختراع حسب سابق قضائه الذي هو عدل منه لا ربَّ غيره ، ويوصف بالضلال البعيد مبالغة ، أي لَتَعْدُر رجوعه إلى الهدى .

وقوله تعالى : ﴿ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ ﴾ معناه : قال الله تعالى لا تختصموا لديّ بهذا النوع من المناقشة التي لا تفيد شيئاً إذ قد استوجب جميعكم النار . وقد أخبر تعالى بأنه تقع الخصومات لديه في الظلمات ونحوها مما فيه اقتصاص واقتضاء ، فأيدته تعالى بقوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ (١) ، وجمع الخصمير في قوله تعالى : ﴿ لَا تَخْتَصِمُوا ﴾ يريد تعالى بذلك مخاطبة جميع القرناء ؛ إذ هو أمر شائع لا يقف على اثنين فقط ، وهذا كما يقول الحاكم لخصمين : لا تغلظوا علي ، يريد الخصمين ومن هو في حكمهما ، وتقدمته تعالى إلى الناس بالوعيد هو ما جاءت به الرسل عليهم السلام والكتب من تعذيب الكفرة .

قوله عز وجل :

﴿ مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ ۝٢٩ يَوْمَ نَقُولُ لِلْجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ۝٣٠ وَأَزْلَفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ ۝٣٢ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ۝٣٣ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ۝٣٤ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝٣٥ ﴾

(١) الآية (٣١) من سورة (الزمر) .

المعنى : قد قَدَّمْتُ بالوعيد أَنِّي أُعَذِّبُ الكفَّارَ في نارِي فلا يُبَدَّلُ القول لديَّ وَلَا يُنْقَضُ ما أَبرمه كلامي ، ثم أزال موضع الاعتراض بقوله : ﴿ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ . أي : هذا عدلٌ فيهم ؛ لأنِّي أعذرت وأمهلته وأنعمت بالإدراكات وهديت السبيل والنَّجدين وبعثت الرُّسل . وقال القراء : معنى قوله تعالى : ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ﴾ أي ما يكذب لديَّ لعلمي بجميع الأُمور ، فتكون الإشارة - على هذا - إلى كذب الذي قال : ﴿ مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ ﴾ ، يجوز أن يعمل في الظرف قوله تعالى : ﴿ بِظُلَامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ ، ويجوز أن يعمل فيه فعل مضمر ، وقرأ الجمهور من القراء وحفص عن عاصم : [نَقُولُ] بالنون ، وهي قراءة الحسن ، وأبي رجاء ، وأبي جعفر ، والأعمش ، ورجحها أبو عليُّ بما تقدَّم من قوله تعالى : [قَدَّمْتُ] وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا أَنَا ﴾ ، وقرأ نافع ، وعاصم - في رواية أبي بكر - [يَقُولُ] ، على معنى : يقول الله ، وهي قراءة الأعرج ، وشيبة ، وأهل المدينة ، وقرأ الحسن ، وابن مسعود ، والأعمش أيضاً : [يُقَالُ] على بناء الفعل للمفعول .

وقوله : ﴿ هَلْ أَمْتَلَأْتُ ﴾ تقرير وتوقيف ، واختلف الناس ، هل وقع هذا التقرير فامتَلَأْتُ أو هي لم تمتلئ ؟ فقال بكل وجه جماعة

من التأولين ، وبحسب ذلك تأولوا قولها : ﴿ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ ، فمن قال إنها امتلأت جعل قولها : ﴿ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ على معنى التقرير ونفي المزيد ، أي : وهل عندي موضع يُزاد فيه شيء ؟ ونحو هذا التأويل قول النبي صلى الله عليه وسلم : (وهل ترك لنا عقيل منزلاً) (١) ، وهو تأويل الحسن ، وعمرو ، وواصل . ومن قال إنها كانت غير مَلَأَى جعل قولها : ﴿ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ على معنى السؤال والرغبة في الزيادة ، قال الرُّمَّانِي : وقيل : المعنى وتقول خزنتها ، والقول إنها لقائلة أظهر .

(١) هذا جزء من حديث أخرجه البخاري ، ومسلم ، وأحمد ، وأبو داود ، عن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه ، قال : أصبتُ شارفاً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في المغنم يوم بدر ، وأعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم شارفاً أخرى ، فأختها يوماً عند باب رجل من الأنصار وأنا أريد أن أحمل عليها إذ خيراً لأبيعه ، ومعني صائغٌ من بني قَيْنُقَاعٍ لآسْتَعِين به علي وليمة فاطمة ، وحمزة بن عبد المطلب يشرب في ذلك البيت ، فثار إليهما حمزة بالسيف ، فجبَّ أسنمتهما وبقر خواصرهما ثم أخذ من أكبادهما ، قلت لابن شهاب : وَمِنْ السَّامِ ؟ — وابن شهاب أحد الرواة — قال : جبَّ أسنمتهما فذهب بهما ، قال : فنظرت إلى منظر أفظعني ، فأثبت نبي الله صلى الله عليه وسلم وعنده زيد بن حارثة فأخبرته الخبر . فخرج ومعه زيد ، فانطلق معه ، فدخل على حمزة فتغيَّظ عليه ، فرجع حمزة بصره فقال : هل أنتم إلا عبيد لأبي ؟ فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقهِّقِرُ حتى خرج عنهم ، وذلك قبل تحريم الخمر . اهـ . وفي رواية لمسلم أن حمزة كان يشرب ومعه قَيْنَةٌ تغنيه ، والشارف : الناقة المُسِنَّة ، وجمعها : شُرُفٌ — بضم الشين وسكون الراء ، والإذخر : حشيش طيب الريح ، وله ثمرة تُطحن فتدخل في الطيب ، وجبَّ : قطع ، وبقر : شقَّ ، وتغيَّظ : أظهر الغيظ والغضب .

واختلف الناس في قول جهنم - هل هو حقيقة أو مجاز ؟ أي :
حالتها حال من لو نطق لقال كذا وكذا ، فيجري هذا مجرى :

شَكَآ إِلَيَّ جَمَلِي طُولَ السَّرَى (١)

ومجرى قول ذي الرمة :

تُكَلِّمُنِي أَخْجَارُهُ وَمَلَأَعْبُهُ (٢)

والذي يترجح في قول جهنم : (هل من مزيد) أنها حقيقة ، وأنها
قالت ذلك وهي غير ملأى ، وهو قول أنس بن مالك رضي الله عنه ،
ويبين ذلك الحديث الصحيح المتواتر ، قول النبي صلى الله عليه وسلم :
(يقول الله لجهنم : هل امتلأت ؟ فتقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع

(١) هذا البيت من الرجز في اللسان غير منسوب ، وذكر معه بيتاً آخر ، قال : يقال للبعير
إذا أتعبه السير فمدَّ عنقه وكثر أنينه : قد شكَا . ومنه قول الراجز :

شَكَآ إِلَيَّ جَمَلِي طُولَ السَّرَى صَبْرًا جُمَيْلِي فِكِلَانَا مُبْتَلَى

والسرى : السير ليلاً ، والابتلاء : المحنة تنزل بالمرء ليختبر بها ، أو الغم والحزن والجهد
الشديد في الأمر .

(٢) هذا عجز بيت قاله ذو الرمة ، وهو مع بيت قبله :

وَقَفْتُ عَلَى رَسْمٍ لِمَيَّةَ نَاقَتِي فَمَا زِلْتُ أَبْكِي عِنْدَهُ وَأَخَاطِيهُ

وَأَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا أَبْثُهُ تَكَلَّمُنِي أَخْجَارُهُ وَمَلَأَعْبُهُ

ومعنى أسقيه : أدعو له بالسقيا ، وأبثه : أشكو إليه ، والبيت كالشاهد السابق يدل على أن العرب
قد تنسب القول إلى الحيوان والجماد تجوزاً .

الجبار فيها قدمه فتقول : قَطُّ ، قَطُّ ، وينزوي بعضها إلى بعض (١) ، وقد اضطرب الناس في معنى هذا الحديث ، وذهب جماعة من المتكلمين إلى أن « الجبار » اسم جنس ، وأنه يريد المتجبرين من بني آدم . ورووا أن الله تعالى يُعِدُّ من الجبابرة طائفة يملأُ بهم جهنم آخراً ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن جلدة الكافر يصير غِلْظُهَا أربعين ذراعاً ، وَيَعْظُمُ بدنُهُ على هذه النسبة (٢) ، وهذا كله من ملء جهنم ، وذهب الجمهور إلى أن الجبار اسم الله تبارك وتعالى ، وهذا هو الصحيح ، فإن في الحديث الصحيح (فيضع ربُّ العالمين فيها قدمَهُ) (٣) ، وتأويل هذا أن « القَدَم » ما قَدَّمَ لها من خلقه وجعلهم في علمه من ساكنيها ،

(١) هذا جزء من حديث أخرجه أحمد ، والبخاري ، ومسلم . والترمذي . والنسائي ، وابن جرير ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تزال جهنم يُلْقَى فيها وتقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع ربُّ العزة فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول : قَطُّ قَطُّ بعزتك وكرمك ، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً فيسكنهم فضل الجنة) ، واللفظ لمسلم .

(٢) رواه مسلم في « الجنة » ، والترمذي في « جهنم » ، وأحمد في مسنده (٢-٢٦) ، عن مجاهد ، عن ابن عمر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (يعظم أهل النار في النار حتى إن بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام ، وإن غِلِظَ جلده سبعون ذراعاً ، وإن ضرسه مثل أحد) .

(٣) جاء التعبير بـ « رب العالمين » في رواية لمسلم في الحديث الذي خرجناه في الهامش قبل السابق على هذا .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ (١) ،
فالقَدَمُ ما قُدِّمَ من شيءٍ ، ومنه قول الشاعر :

صَلِّ لِرَبِّكَ وَاتَّخِذْ قَدَمًا يُنَجِّيكَ يَوْمَ الْعِشَارِ وَالزَّلَّلِ (٢)
ومنه قول العجاج :

وَيُنْشِئُ الْمُلُوكَ لِمَلِكٍ ذِي قَدَمٍ (٣)

أي ذي شرف متقدم ، وهذا التأويل مروى عن ابن المبارك (٤) ، وعن

(١) من الآية (٢) من سورة (يونس) ، وقد اختلف المفسرون في معنى قوله تعالى :
﴿ قَدَمٌ صِدْقٍ ﴾ وذكر أقوالهم ابن عطية في الجزء السابع ص ٩٦ وما بعدها ، والمختار
أن « قدم الصدق » هو ما قدموه من أعمال . وهو الذي اختاره الطبري .

(٢) قال هذا البيت الوضاح (جديمة بن مالك بن فهم التنوخي) ، والرواية في القرطبي
« صَلِّ لِدِي الْعَرْشِ » . والشاهد أن « قَدَمًا » هنا بمعنى ما يُقَدِّمه الإنسان من عمل ،
يقول : اعبد الله واعمل الأعمال الصالحة فتنجو يوم القيامة . وروى عن أحمد بن يحيى أن
القدم هي كل ما قدمت من خير . ذكر ذلك صاحب اللسان .

(٣) هذا عجز بيت . وقد ورد البيت كاملاً في القرطبي مع اختلاف في الألفاظ ، قال :
زَلَّ بَنُو الْعَوَّامِ عَنْ آلِ الْحَكَمِ وَتَرَكُوا الْمُلُوكَ لِمَلِكٍ ذِي قَدَمٍ
والشاهد هنا أن قوله : « ذي قدم » معناه : ذو سابقة في الأفعال . أو ذي شرف متقدم كما قال
ابن عطية .

(٤) هو عبد الله بن المبارك المروزي ، مولى بني حنظلة . ثقة . ثبت ، فقيه عالم . جواد
مجاهد . جمعت فيه خصال الخير ، مات سنة إحدى وثمانين ، وله ثلاث وستون سنة .
(تقريب التهذيب) .

النَّضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ (١) ، وهو قول الأُصُولِيِّينَ ، وفي كتاب مسلم بن الحجاج : (فيضع الجبارُ فيها رجله) (٢) . ومعناه الجمع الذي أُعِدَّ لها ، يقال للجمع الكثير من الناس : « رَجُلٌ » تشبيهاً برجل الجراد ، قال الشاعر :

فَمَرَّ بِهَا رَجُلٌ مِّنَ النَّاسِ وَانْزَوَىٰ إِلَيْهِمْ مِّنَ الْحَيِّ الْيَمَانِيِّ أَرْجُلُ (٣)
وملاك النظر في هذا الحديث أن الجارحة والتشبيه وما جرى مجراه منتف كل ذلك ، فلم يبق إلا إخراج الألفاظ على هذه الوجوه السائغة في كلام العرب .

(١) هو النضر بن شُمَيْل المازني ، أبو الحسن النَّحْوِيُّ ، نزيل مَرَوْ ، ثقة ثبت ، مات سنة أربع ومائتين ، وله اثنان وثمانون سنة ، (تقريب التهذيب) .
(٢) جاء ذلك في إحدى الروايات التي رواها مسلم رحمه الله .
(٣) هذا البيت شاهد على أن (الرَّجُلَ) بكسر الراء وسكون الجيم هو الطائفة من الشيء ، أو الجمع من الشيء ، وقد استشهد به القرطبي ، وذكره مع بيت آخر غير منسوين ، قال :
يقال رأيت رجلاً من الناس ورجلاً من الجراد ، قال الشاعر :

فَمَرَّ بِنَا رَجُلٌ مِّنَ النَّاسِ وَانْزَوَىٰ إِلَيْهِمْ مِّنَ الْحَيِّ الْيَمَانِيِّ أَرْجُلُ
قَبَائِلُ مِّنْ لَّخْمٍ وَعُكْلٍ وَحِمِيرٍ عَلَى ابْنِي نِزَارٍ بِالْعَدَاوَةِ أَحْفَلُ
وفي اللسان : « والرَّجُلُ » : الطائفة من الشيء ، أنثى ، وخصَّ بعضهم به القطعة العظيمة من الجراد ، والجمع أرجال ... ومنه حديث ابن عباس رضي الله عنهما : أنه دخل مكة رجلاً من جراد ، فجعل غلمان مكة يأخذون منه ، فقال : أما إنهم لو علموا لم يأخذوا منه ، كره ذلك في الحرم لأنه صيد .

و «أُزْلِفَتْ» معناه : قُرِّبَتْ ، وقوله تعالى : ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ تأكيد
وبيان أن هذا التقريب هو في المسافة ، لأن «قُرِّبَتْ» كان يحتمل أن
يكون المعنى : بالوعد والإخبار ، فرفع الاحتمال بقوله : ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿هَذَا مَا تُوْعَدُونَ﴾ الآية يحتمل أن يكون معناه :
يقال لهم في الآخرة عند إزلاف الجنة : هذا هو الذي كنتم توعدون
به في الدنيا ، ويحتمل أن يكون المعنى أنه خطاب لأئمة محمد صلى الله
عليه وسلم ، أي : هذا هو الذي توعدون به أيها الناس لكل أبواب
حفيظ ، و «الأبوابُ» : الرجّاع إلى الطاعة وإلى مرشد نفسه ، وقال
ابن عباس ، وعطاء : الأبوابُ المُسَبِّح ، من قوله تعالى : ﴿يَا جِبَالُ
أُوبِي مَعَهُ﴾ (١) ، وقال الشعبي ، ومجاهد ، هو الذي يذكر ذنوبه
فيستغفر ، وقال المحاسبي : هو الرّاجع بقلبه إلى الله تعالى ، وقال عبيد
ابن عمير : كنّا نتحدث أن الذي إذا قام من مجلسه استغفر الله تعالى
مما جرى في ذلك المجلس ، وكذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم
يفعل . و «الحفيظ» معناه : لأوامر الله تعالى فيمّثلها ، ولنواهيه
فيتركها ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : حفيظ لذنوبه حتى
يرجع عنها .

(١) من الآية (١٠) من سورة (سبا) .

وقوله تعالى : ﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ يحتمل أن يكون من نَعَتْ «الأَوَّاب» أو بدلاً من [كُلُّ] (١) . ويحتمل أن يكون رفعاً بالابتداء ، والخبر : يقال لهم : ﴿ أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ﴾ ، ويحتمل أن تكون شرطية فيكون الجواب : يقال لهم : ﴿ أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ﴾ ، وقوله تعالى : [بِالْغَيْبِ] معناه : غير مشاهد له ، إنما يصدقُ رسوله ويسمع كتابه ، وجاء أن معناه : يوم القيامة ، و «الْمُنِيبُ» : الرَّاجِعُ إلى الخير والمائل إليه ، وقوله تعالى : [أَدْخُلُوهَا] تقرير يقال لهم ، أو : فيقال لهم ، على ما تقدّم . و «سلام» معناه : بأمن وسلامة من جميع الآفات ، وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾ مقابلٌ لقوله تعالى قبلُ في أمر الكفار : ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ خبرٌ بأنهم يُعطون آمالهم أجمع ، ثم أبهم تعالى الزيادة التي عنده للمؤمنين المنعمين ، وكذلك هي مُبْهَمَةٌ في قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ (٢) ، وقد فسر ذلك الحديثُ الصحيح في قوله صلى الله عليه وسلم : (يقول الله تعالى : أعددت لعبادي الصالحين

(١) في قوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيزٌ ﴾ .

(٢) من الآية (١٧) من سورة (السجدة) .

ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، بَلَّهَ ما اطلعتم عليه (١) ، وقد ذكر الطبري وغيره في تعيين هذا المزيد أحاديث مطولة وأشياء ضعيفة : لأن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ ﴾ وهم يُعَيِّنُونَهَا تَكْلُفًا وَتَعَشُّقًا ، وروى عن جابر بن عبد الله ، وأنس رضي الله عنهما أن المزيد : النَّظَرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى بِلا كيف .

قوله عز وجل :

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴾ (٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿ ٣٧ ﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿ ٣٨ ﴾ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿ ٣٩ ﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ ﴿ ٤٠ ﴾

(١) أخرجه البخاري في التوحيد وبدء الخلق وتفسير سورة السجدة ، ومسلم في الإيمان ، والبخاري ، والترمذي في الجنة وتفسير سورة السجدة وتفسير سورة الواقعة ، وابن ماجه في الزهد ، والدارمي في الرقاق ، وأحمد في مسنده (٢-٣١٣ ، ٣٧٠ ، ٤٧٠ ، ٥-٣٣٤) ، ولفظه كما جاء في البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (قال الله تبارك وتعالى : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر) ، قال أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ ، وفي رواية مسلم زيادة هي : (دُخْرًا ، بَلَّهَ ما اطلعتم عليه) ، ومعنى دُخْرًا : مُعَدَّةً . وأما (بَلَّهَ) فهو اسم فعل بمعنى (دَعَى) .

[كَمْ] للتكثير ، وهي خبرية ، والمعنى : كثيراً أهلكنا قبلهم .
و «القرن» : الأئمة من الناس الذين يمر عليهم قدر من الزمان ، واختلف
الناس في ذلك القدر - فقال الجمهور : مائة سنة ، وقيل غير هذا ،
وقد تقدم القول فيه غير مرة ، و «شِدَّةُ الْبَطْشِ» هي بكثرة القوة
والأموال والمُلْك والصحة والأذهان إلى غير ذلك . وقرأ الجمهور من
الناس : [فَنَقَّبُوا] بشد القاف المفتوحة على إسناد الفعل إلى القرون
الماضية ، والمعنى : وَلَجُوا البلاد من أنقابها ، وفي الحديث : (إِنَّ عَلَى
أَنْقَابِ الْمَدِينَةِ مَلَائِكَةً لَا يَدْخُلُهَا الطَّاعُونَ وَلَا الدَّجَالُ) (١) ، والمراد :
تطوَّفُوا ومشَوْا طماعية في النجاة من الهلكة ، ومنه قول الشاعر :
وَقَدْ نَقَّبْتُ فِي الْآفَاقِ حَتَّى رَضِيتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ (٢)

(١) أخرجه البخاري في فضائل المدينة وفي الفتن ، ومسلم في الحج ، ومالك في المدينة ،
وأحمد في مسنده (٢-٢٣٧ ، ٣٧٥ ، ٣٧٨) ، عن نعيم بن عبد الله أنه سمع أبا هريرة يقول :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الدجال ولا الطاعون) ،
والنَّقَب : الخرق في الجدار ، وجمعه أنقاب .

(٢) هذا البيت لامرئ القيس ، وهو في الديوان ، واللسان ، ومجاز القرآن ، والطبري ،
والقرطبي ، والبحر ، ورواية الديوان : (وقد طَوَّقْتُ في الآفاق) ، والتنقيب : الذهاب في
الأرض والتطواف ، وهو موضع الاستشهاد هنا ، والشاعر يفخر بنفسه في هذا البيت وفي
القصيدة كلها ، ويقول : إنه قاد الجيوش في سبيل تحقيق مآربه الكبيرة ، لكنه بعد أن تعب
رضي بالعودة سالماً .

وقول الحارث بن حِزَّة اليَشْكُريّ:

نَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ مِنْ حَذَرِ أَلَمَوْ
تِ وَجَالُوا فِي الْأَرْضِ كُلِّ مَجَالٍ (١)

وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما ، وابن يَعْمَر ، ونَصَّار بن يسار ،
وأبو العالية : [فَنَقَّبُوا] بشد القاف المكسورة على الأمر لهؤلاء الحاضرين ،
و (هَلْ مِنْ مَحِيصٍ) توقيف وتقرير ، أي : لا محيص ، و «المحيص»
موضع المحيص وهو الروغان والحياد ، قال قتادة : حاص الكفرة
فوجدوا أمر الله مُتَّبِعاً مُدْرِكاً ، وفي صدر البخاري : (فحاصوا حَيْصَةَ
حُمُرِ الوحش إلى الأبواب) (٢) وقال ابن عبد شمس في وصف ناقته :

(١) هو شاهد على أن معنى «نَقَّبُوا في البلاد ...» هو : طَوَّفُوا في البلاد . وذهبوا
فيها مذاهب متعددة يلتمسون الهروب من الموت . والمجال : موضع الجولان ، يقول : جالوا
في الأرض وطوفوا في كل مكان .

(٢) أخرجه البخاري في بدء الوحي وفي تفسير سورة النساء ، وكل من أبي داود والترمذي
في الجهاد ، وأحمد في المسند (٢-٧٠ . ١٠٠) ، وهو حديث طويل ، رواه ابن عباس
رضي الله عنهما . عن أبي سفيان حين كان في تجارة بالشام في المدة التي كان رسول الله صلى الله
عليه وسلم ماداً فيها أبا سفيان وكفار قريش ، قال : إن هرقل أرسل إليه مع صحبه وسأله عن
النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟ فقال أبو
سفيان : قلت : أنا أقربهم نسباً . فلما سأله هرقل قال أبو سفيان : فوالله لولا الحياء من أن
يأثروا علي كذباً لكذبت عنه . وفي آخر الحديث أن هرقل أتى برجل أرسل به ملك غسان
يخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما استخبره هرقل قال : اذهبوا فانظروا أمُحْشَتَيْنِ
هو أم لا ، فنظروا إليه فحدثوه أنه مُحْشَتَيْنِ . وسأله عن العرب . فقال : هم يَحْتَنُونَ ، فقال =

إِذَا حَاصَ الدَّلِيلُ رَأَيْتَ مِنْهَا جُنُوحاً لِطَرِيقٍ عَلَى اتِّسَاقٍ (١)
 وقرأ أبو عمرو - في رواية عُبيد عنه - : [فَنَقَبُوا] بفتح القاف
 وتخفيفها ، وهي بمعنى التشديد ، واللفظة أيضاً قد تقال بمعنى البحث
 والطلب ، تقول : نقب عن كذا إذا استقصى عنه ، ومنه «نقيب القوم»
 لأنه الذي يبحث عن أمورهم ويبحث عنها ، وهذا عندي تشبيه
 بالدخول من الأنقاب .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى﴾ يعني إهلاك من مضى ،
 و «الذِّكْرَى» : التذكرة ، و «الْقَلْبُ» عبارة عن العقل إذ هو محله ،

= هرقل : هذا ملك هذه الأمة قد ظهر ، ثم كتب هرقل إلى صاحب له يرومية ، وكان نظيره
 في العلم ، وسار هرقل إلى حمص . فلم يرم حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه
 يوافق رأي هرقل على خروج النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه نبي ، فأذن هرقل لعظماء الروم
 في دسكرة له بحمص ، ثم أمر بأبوابها فغلقت ، ثم اطلع فقال : يا معشر الروم ، هل لكم
 في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي ؟ فحاصوا حيضة حُمِرَ الوحش
 إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت ، فلما رأى هرقل نفرهم وأيس من الإيمان قال : ردوهم علي ،
 وقال : إني قلت مقالتي آنفاً اخترت بها شدتكم على دينكم ، فقد رأيت ، فسجدوا له ، ورضوا
 عنه ، فكان ذلك آخر شأن هرقل . اهـ .

(١) يستشهد المؤلف بهذا البيت على أن الحيص هو الحيد والروعان ، قال في اللسان :
 «الحَيْصُ» : الحيد عن الشيء ، حاص عنه يحيص حيصاً : رجع ، ويقال : ما عنه محيص ،
 أي محيد ومهرب ، والدليل : المرشد ، والجُنُوحُ : الميل ، والاتِّسَاقُ : الانتظام والاستواء .
 يقول الشاعر : إذا حاد الدليل عن الطريق فإن ناقلته تميل بحسها وخبرتها إلى الطريق الصحيح
 فتمضي فيه على اتساق .

والمعنى : لمن كان له قلبٌ واع ينتفع به ، وقال السبلي : معناه : قلب حاضر مع الله تعالى لا يغفل عنه طرفة عين ، وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ معناه : صرف سمعه إلى هذه الأنبياء الواعظة ، وانتبه في سماعها ، فذلك إلقاء له عليها ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ﴾ (١) ، أي : أثبتتها عليك ، وقال بعض الناس : قوله تعالى : ﴿ أَلْقَى السَّمْعَ ﴾ وقوله : ﴿ فَضَرْبَنَا عَلَى أَذَانِهِمْ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾ (٣) ، هي مما قلَّ استعماله الآن وبعدت معانيه ، وقول هذا القائل ضعيف ، بل هي بينة المعاني ، وقد مضت في مواضعها ، وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ قال بعض المتأولين : معناه : وهو مُشاهد مُقبل على الأمر غير مُعرض ولا متفكر في غير ما يسمع ، وقال قتادة : هي إشارة إلى أهل الكتاب ، فكأنه تعالى قال : إن هذه العبر لتذكيرة لمن له فهم فيتدبر الأمر ، أو لمن سمعها من أهل الكتاب فشهد بصحتها لعلمه بها من كتاب التوراة وسائر كتب بني إسرائيل ، فـ [شَهِيدٌ] على التأويل الأول من المشاهدة ، وعلى التأويل الثاني من

(١) من الآية (٣٩) من سورة (طه) .

(٢) من الآية (١١) من سورة (الكهف) .

(٣) من الآية (١٤٩) من سورة (الأعراف) .

الشهادة ، وقرأ السدي : ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعُ ﴾ (١) ، قال ابن جني :
 أَيُّ أَلْقَى السَّمْعُ منه ، حكى أبو عمرو الداني أَنَّ قراءة السُّدِّي ذكرت
 لعاصم فمقت السدي وقال : أليس الله تعالى يقول : ﴿ يُلْقُونَ
 السَّمْعَ ﴾ (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ الآية ... خبر
 مُضْمَنُهُ الرَّدُّ على اليهود الذين قالوا : إِنَّ الله خلق الأشياء كلها في ستة
 أيام ثم استراح يوم السبت ، فنزلت ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ ،
 واللغوب : الإعياء والنصب والسأم ، يقال : لَغَبَ الرجل يَلْغُبُ

(١) جاءت القراءة في الأصول بدون ضبط ، وقد ضبطها ابن جني في المحتسب ، وأبو
 شيحان في البحر ، وهي بضم الهمزة وكسر القاف من [أَلْقَى] ورفع العين من [السَّمْعُ] ،
 فالفعل مبني للمفعول ، و [السَّمْعُ] نائب فاعل . قال أبو الفتح : « أي : أَلْقَى منه ، وهذا
 كأنه أُنْدى معنى إلى النفس من القراءة العامة ، وذلك أن قوله تعالى : ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعُ ﴾
 وَهُوَ شَهِيدٌ » معناه : أَلْقَى سمعه نحو كتاب الله تعالى ، وهو شهيد ، أي : قلبه حاضر معه ،
 وليس غرضه أن يُصغى كما أمر بالأصغاء نحو القرآن ، ولا يجعل قلبه إليه . إلا أن ظاهر الأمر
 وأكثره أنه إذا أَلْقَى سمعه أيضاً فقلبه أيضاً نحوه معه ، وهذه القراءة المنفردة كأنها أشدُّ تشابهاً
 لفظاً ، لأن ظاهرها أن قلبه أَلْقَى إليه ، وليس في اللفظ أنه هو أَلْقَاه ، فاتصل بعض ببعض ،
 فكأنه أَلْقَى إليه سمعه وقلبه ، حتى كأن مُلقياً غيره أَلْقَى سمعه إلى القرآن ، وليس عجيباً
 أن يقال : إن قلبه عند ذلك معه ، لأنه إذا كان هو الذي أَلْقَاه نحوه فالعُرف أن يكون قلبه معه ،
 وهو شاهد لا غائب » ، قارن هذا بما ذكر عن عاصم .

(٢) من الآية (٢٢٣) من سورة (الشعراء) .

إذا أعيانا (١) ، وقرأ السلمي ، وطلحة : [لُغُوبٍ] بفتح السلام .
وتظاهرت الأحاديث بأن بدء خلق الأشياء كان يوم الأحد ،
وفي كتاب مسلم ، وفي الدلائل لثابت حديث مضمنه أن ذلك كان
يوم السبت ، وعلى كل قول فأجمعوا على أن آدم عليه السلام خلق
يوم الجمعة ، فمن قال إن البداية يوم السبت جعل خلق آدم عليه السلام
كخلق بنيه لا يُعد من الجملة الأولى ، وجعل اليوم الذي كملت
المخلوقات عنده يوم الجمعة .

قوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ ، قال بعض المفسرين :
المراد أهل الكتاب لقولهم : ثم استراح يوم السبت ، وهذه المقالة
من أهل الكتاب كانت بمكة قبل الهجرة ، وقال النظار من المفسرين :
قوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ يراد به أهل الكتاب وغيرهم
من الكفرة ، وعم بذلك جميع الأقوال الزائفة من قريش وغيرهم ،
وعلى هذا التأويل يجيء قول من قال إن الآية منسوخة بآية السيف ،
و [سَبَّحَ] معناه : صَلَّ بِإِجْمَاعٍ مِنَ الْمُتَأَوِّلِينَ . وقوله تعالى : ﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾

(١) في اللسان : لَغَبٌ يَلُغِبُ - بفتح الغين في الماضي وضمها في المضارع ، وَلَغِبَ -

بكسر الغين - لغة ضعيفة .

الباء للاقتران ، أي : سَبَّحْ سُبْحَةً (١) يكون معها حمدٌ ، ومثله : (تَنَبَّأْتُ
بِالدُّهْنِ) (٢) على بعض الأقوال فيها ، و (قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ) هي الصُّبْحُ ،
(وَقَبْلَ الْغُرُوبِ) هي العصر ، قاله قتادة ، وابن زيد ،
والناس ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : (قَبْلَ الْغُرُوبِ) الظهر
والعصر ، (وَمِنْ اللَّيْلِ) هي صلاة العشاءين ، وقال ابن زيد : هي
العشاء فقط ، وقال مجاهد : هي صلاة الليل ، وقوله تعالى : (وَأَذْبَارَ
السُّجُودِ) ، قال عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وأبو هريرة ،
والحسن ، والشعي ، وإبراهيم ، ومجاهد ، والأوزاعي : هي الركعتان
بعد المغرب ، وأسنده الطبري ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ،
عن النبي صلى الله عليه وسلم (٣) ، كأنه رُوعي أدبار صلاة النهار
كما رُوعي أدبار النجوم في صلاة الليل فقليل : هي الركعتان مع الفجر ،

(١) في اللسان : « السُّبْحَةُ : الدعاء ، وصلاة التطوع والنافلة ، يقال : فرغ من سُبْحَتِهِ ،
أي من صلاته النافلة ، قال ابن الأثير : وإنما خُصَّتْ النافلة بالسُّبْحَةِ وإن شاركتها الفريضة
في معنى التسبيح لأن التسبيحات في الفرائض نوافل ، فقليل لصلاة النافلة سُبْحَةً » .

(٢) من الآية (٢٠) من سورة (المؤمنون) .

(٣) قال الطبري : حدثنا أبو كُرَيْبٍ ، قال : ثنا أبو فضيل ، عن رشيد بن كُرَيْبٍ ،
عن أبيه ، عن ابن عباس ، قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يا ابن عباس ،
ركعتان بعد المغرب أدبار السجود) .

وروي عن ابن عباس أن «أدبار السجود» الوتر ، حكاه الثعلبي ،
وقال ابن زيد ، وابن عباس أيضاً ، ومجاهد : هي النوافل إثر الصلوات ،
وهذا جار مع لفظ الآية ، وقال بعض العارفين : هي صلاة الليل ،
وقال الثعلبي : وقال بعض العلماء في قوله تعالى : ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾
ركعتا الفجر ، ﴿وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ الركعتان قبل المغرب ، وقال بعض
التابعين : رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يهْبُونَ إليها كما
يهْبُونَ إلى المكتوبة ، وقال قتادة : ما أدركت أحداً يصلي الركعتين
قبل المغرب إلا أنساً وأبا ברزة . وقرأ ابن عباس ، وابن كثير ، ونافع ،
وحمزة ، وأبو جعفر ، وشيبة ، وعيسى ، وشبل ، وطلحة ، والأعمش :
[وَأَدْبَارَ] بكسر الألف ، وهو مصدر أضيف إليه وقت ثم حذف الوقت ،
كما قالوا : جئتكَ مَقْدِمَ الحج وخُفُوقَ النّجم ونحوه ، وقرأ الباقون ،
والحسن ، والأعرج : [وَأَدْبَارَ] بفتح الهمزة ، وهو جمع دُبُر كطُنْبٍ
وأطناب ، أي : وفي أدبار السجود ، أي في أعقابها ، قال أوس
ابن حجر :

عَلَى دُبُرِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ فَأَرْضُنَا وَمَا حَوْلَهَا جَدْبٌ سَنِينٌ تَلَمَعُ (١)

(١) لم أجد هذا البيت في الديوان (دار صادر - تحقيق د. محمد يوسف نجم) ، ودُبُر
الشَّهر : آخره ، يقال : جئتكَ دُبُرَ الشهر وفي دُبُرِهِ وعلى دُبُرِهِ ، والجمع من كل ذلك
أَدْبَار . وأَرْضٌ "جَدْبٌ" وجدة بمعنى مجلبة ، والجمع جنوب ، وسُنَّتِ الأَرْضُ فهي =

قوله عز وجل :

﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۖ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ۚ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ۖ ﴾ ٤٢ ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ ۖ وَإِنَّا الْمَصِيرُ ۖ ﴾ ٤٣
يَوْمَ تَشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرُ عَلَيْنَا أَيْسَرَ ۖ ﴿ ٤٤ ﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا
يَقُولُونَ ۖ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ۖ ﴾ ٤٥

قوله تعالى : [وَاسْتَمِعْ] هو بمنزلة « وانتظر » ، وذلك أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بأن يستمع في يوم النداء لأن كل من فيه يستمع ، وإنما الآية في معنى الوعيد للكفار ، وقيل لمحمد صلى الله عليه وسلم : تحسس وتسمع هذا اليوم وارتقبه فإن فيه تبين صحة ما قاته ، وهذا كما تقول لمن تعدّه بورود فتح : استمع كذا وكذا ، أي كن منتظراً له مستمعاً ، فعلى هذا فنصب [يَوْمَ] إنما هو على المفعول الصريح . وقرأ ابن كثير [الْمُنَادِي] بالياء وصلاً ووقفاً على الأصل الذي هو ثبوتها ؛ إذ الكلام غير تام ، وإنما الحذف أبداً في الفواصل

= مسنونة وسنين إذا أكل نباتها ، ويقال : هذه بلاد سنين أي جديدة ، (راجع اللسان)
فقد ذكر ذلك ، واستشهد عليه بقول الطرمّاح :

بِمُنْخَرَقٍ رَقٍ نَحْنُ الرِّبْعُ فِيهِ حَنِينُ الْجُلُبِ فِي الْبَلَدِ السَّنِينِ

يعني : في البلد المحل .

وفي الكلام التَّام تشبيهاً بالقواصل ، وقرأ أبو عمرو ، ونافع في الوقف بغير ياء لأن الوقف موضع تغيير ، ألا ترى أنها تُبدل من التاء فيه الهاء في نحو « طلحة » و « حمزة » ، وتبدل من التنوين الألف ، ويضعف فيه الحرف كقولك : هذا فوجٌ ، ويحذف فيه الحرف في القوافي . وقرأ الباقون ، وطلحة ، والأعمش ، وعيسى بحذف الياء وصلًا ووقفًا اتباعاً لخط المصحف ، وأيضاً فإن الياء تحذف مع التنوين فوجب أن تحذف مع معاقب التنوين ، وهما الألف واللام .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ ، قيل : وصفه بالقرب من حيث يسمع جميع الخلائق ، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن ملكاً ينادي من السماء : أيتها الأجساد الهامدة ، والعظام البالية ، والرمم الواهية ، هلم إلى الحشر والوقوف بين يدي الله تعالى (١) ، وقال كعب الأحبار ، وقتادة ، وغيرهما : المكان صخرة بيت المقدس ، واختلفوا في معنى صفتها بالقرب - فقال قوم : وصفها بذلك لقربها من النبي صلى الله عليه وسلم ، أي من مكة ، وقال كعب الأحبار : وصفها بالقرب من السماء ، وروي أنها أقرب الأرض إلى السماء بثمانية

(١) أخرجه ابن عساكر ، والواسطي في (فضائل بيت المقدس) . عن يزيد بن جابر ، في قوله تعالى : ﴿ وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِي ﴾ ، وفيه أن الملك هو إسرافيل ، وأخرج مثله ابن جرير عن كعب . (الدر المنثور) .

عشر ميلاً ، وهذا الخبر إن كان بوحى وإلاً فلا سبيل إلى الوقوف على صحته .

و «الصَّيْحَةُ» هي صيحة المنادي ، و «الخروج» هو من القبور ، و «يومُهُ» هو يوم القيامة ، و «يوم الخروج» في الدنيا هو يوم العيد ، وقال حسَّان بن ثابت :

وَلَأَنْتِ أَحْسَنُ إِذْ بَرَزْتِ لَنَا يَوْمَ الْخُرُوجِ بِسَاحَةِ الْقَصْرِ
مِنْ دُرَّةٍ أَغْلَى بِهَا مَلِكٌ مِمَّا تَرْبَّبَ حَائِرُ الْبَحْرِ (١)

قوله تعالى : (يَوْمَ تَشَقُّقُ) ، العامل في [يَوْمَ] هو [الْمَصِيرُ] ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر بتشديد الشين ، والباقون خففوها ، و [سِرَاعاً] حال ، قال بعض النحويين : هي من الضمير في قوله تعالى : [عَنْهُمْ] ، والعامل في الحال [تَشَقُّقُ] ، وقال بعضهم : التقدير : يوم تشقق الأرض عنهم يخرجون سراعاً ، فالحال من الضمير في

(١) هذان البيتان من قصيدة قالها حسَّان ومطلعها :

حَيَّ النَّصِيرَةَ رَبَّةَ الْحِيدِ أَسْرَتْ لَيْكَ وَلَمْ تَكُنْ تَسْرِي

وهما في الديوان ، وفي اللسان - حير - والرواية فيه «بِسَاحَةِ الْعَقْرِ» ، ورؤي البيت الثاني «مِنْ دُرَّةٍ أَغْلَى الْمُلُوكِ بِهَا» ، والحائر : المكان المظمن يجتمع فيه الماء فيتحير لا يخرج منه ، وهو يُريدُ الدُّرَّةَ التي تَتَرَبَّى في الصدف في قاع البحر . والشاهد أن «يوم الخروج» هو يوم العيد ، يشبه حسَّان هذه المرأة بالدرة التي يعتز بها ملك وقد نمت وتكونت في أعماق البحر .

«يخرجون» ، والعامل «يخرجون» ، وقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ معادل لقول الكفرة : ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ (١) .
 وقوله تعالى : ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ وعيدٌ محض للكفرة ،
 واختلف الناس في قوله تعالى : ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ - فقال قتادة :
 نهى الله تعالى عن التجبر ، وتقدم فيه ، فمعناه : وما أنت عليهم
 بمُتَعَزِّمٍ ، من الجبروت ، وقال الطبري وغيره : معناه : وما أنت عليهم
 بِمُسْلِطٍ تَجْبِرُهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ ، ويقال : جَبَرْتُهُ عَلَى كَذَا ، أَي قَسَرْتُهُ ،
 فـ «جَبَّارٌ» مبالغة من جَبَرَ ، وأنشد المفضل :
 عَصَيْنَا عَزْمَةَ الْجَبَّارِ حَتَّى صَحَبْنَا الْخَوْفَ إِلْفًا مُعْلَمِينَا (٢)
 قال : أراد بالجبَّار النعمان بن المنذر لولايته ، ويحتمل أن نصب

(١) من الآية (٣) من هذه السورة (ق) .

(٢) هذا البيت من شواهد الفراء في (معاني القرآن) ، ذكره مع بيت آخر فقال : «لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُسْلِطٍ ، جَعَلَ الْجَبَّارُ فِي مَوْضِعِ السُّلْطَانِ مِنَ الْجَبَرِيَّةِ ، وَأَنْشَدَنِي الْمُفَضَّلُ :

وَيَوْمَ الْحَزَنِ إِذْ حَشَدْتُ مَعَدًّا وَكَانَ النَّاسُ إِلَّا نَحْنُ دِينًا
 عَصَيْنَا عَزْمَةَ الْجَبَّارِ حَتَّى صَحَبْنَا الْخَوْفَ إِلْفًا مُعْلَمِينَا

وقد استشهد صاحب اللسان بالشرط الثاني من البيت الأول على أن (دين) بمعنى (دائن) ،
 قال : «قومٌ دينٌ أي دائنون» قال : وذكر النصف الثاني من البيت .

وروي الشرط الثاني من البيت الثاني في (معاني القرآن) : «صَحَبْنَا الْخَوْفَ إِلْفًا مُعْلَمِينَا» ،
 ثم ذكر أن المراد بالجبَّار هو النعمان بن المنذر لأنه كان والياً عليهم . والإلف : المألوف الذي
 اعتاده الناس .

«عَزَمَةً» على المصدر وأراد : عصينا مقدمين عزمة جبار ، فمدح نفسه وقومه بالعتو والاستعلاء ، أخلاق الجاهلية والحياة الدنيا ، وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المؤمنين قالوا : يا رسول الله ، لو خوفتَنَا ، فنزلت : ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :

ولو لم يكن هذا سبباً فإنه لَمَّا أَعْلَمَهُ أَنَّهُ ليس بِمُسَلِّطٍ على جبرهم أمره بالاختصار على تذكير الخائفين من المؤمنين (١) .

كمل تفسير سورة ق ، وبها كمل تفسير الجزء الثالث عشر
والحمد لله رب العالمين

مقرون الطبع لهذا التفسير محفوظاً لاسمققين
فضيلة الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري
والأستاذ السيد عبد العال السيد إبراهيم

(١) في بعض النسخ «الخائفين من الناس» : والأولى ما أثبتناه لأن الذكرى تنفع المؤمنين ، ومن لا يخاف الوعيد من الناس لا يتذكر فلا تنفع فيه الذكرى .

انتهى الجزء الثالث عشر بعون الله وتوفيقه ،
والحمد لله رب العالمين ، ويليه الجزء الرابع عشر بمشيئة الله
تعالى ويبدأ بقوله تبارك وتعالى :
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا ،
فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ، فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ .



فهرس الآيات

الآية	رقم الصفحة
تفسير سورة (غافر)	١
قوله عز وجل : (لَحْمٌ . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنوب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير) إلى آخر الآية ٥	٣
قوله عز وجل : (وكذلك حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ) إلى آخر الآية ٩	٩
قوله عز وجل : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ) إلى آخر الآية ١٢	١٢
قوله عز وجل : (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلْ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ) إلى آخر الآية ١٧	١٦
قوله عز وجل : (وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَرْفَةِ إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطِمِينَ) إلى آخر الآية ٢١	٢١
قوله عز وجل : (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ) إلى آخر الآية ٢٥	٢٧
قوله عز وجل : (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ) إلى آخر الآية ٢٨	٢٩
قوله عز وجل : (يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا) إلى آخر الآية ٣٣	٣٥

الآية	رقم الصفحة
قوله عز وجل : (ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به) إلى آخر الآية ٣٥ ٤١	٤١
قوله عز وجل : (وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب) إلى آخر الآية ٤٠ ٤٣	٤٣
قوله عز وجل : (ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار) إلى آخر الآية ٤٥ ٤٦	٤٦
قوله عز وجل : (النار يُعرضون عليها غدُوًّا وَعَشِيًّا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدَّ العذاب) إلى آخر الآية ٥٠ ٤٩	٤٩
قوله عز وجل : (إِنَّا لَنَنْصُرَ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) إلى آخر الآية ٥٦ ٥٣	٥٣
قوله عز وجل : (لَخَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) إلى آخر الآية ٦٠ ٥٧	٥٧
قوله عز وجل : (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا) إلى آخر الآية ٦٤ ٦٠	٦٠
قوله عز وجل : (هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) إلى آخر الآية ٦٧ ٦٣	٦٣
قوله عز وجل : (هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قُضِيَ أَمْرٌ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) إلى آخر الآية ٧٤ ٦٥	٦٥
قوله عز وجل : (ذَلِكَ كُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ) إلى آخر الآية ٧٨ ٦٨	٦٨

الآية	رقم الصفحة
قوله عز وجل : (الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون) إلى آخر الآية ٨٢ ٧١	
قوله عز وجل : (فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) إلى آخر الآية ٨٥ ٧٣	
تفسير سورة (فصلت) ٧٥	
قوله عز وجل : (لحم : تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون) إلى آخر الآية ٧ ٧٦	
قوله عز وجل : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون) إلى آخر الآية ١٠ ٨١	
قوله عز وجل : (ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين) إلى آخر الآية ١٢ ٨٥	
قوله عز وجل : (فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) إلى آخر الآية ١٥ ٨٨	
قوله عز وجل : (فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات لينذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا) إلى آخر الآية ١٨ ٩١	
قوله عز وجل : (ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون) إلى آخر الآية ٢٢ ٩٦	
قوله عز وجل : (وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين) إلى آخر الآية ٢٦ ١٠١	

الآية	رقم الصفحة
قوله عز وجل : (فَلَنُذِيقَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ) إلى آخر الآية ٣٠ ١٠٥	
قوله عز وجل : (نَحْنُ أَوْلَىٰ بِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ) إلى آخر الآية ٣٥ ١١١	
قوله عز وجل : (وَإِنَّمَا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) إلى آخر الآية ٣٩ ١١٥	
قوله عز وجل : (إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا) إلى آخر الآية ٤٣ ١٢٠	
قوله عز وجل : (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ؕ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ) إلى آخر الآية ٤٦ ١٢٤	
قوله عز وجل : (إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ) إلى آخر الآية ٥٠ ... ١٢٧	
قوله عز وجل : (وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَغَلَبَ) إلى آخر الآية ٥٤ ١٣٢	
تفسير سورة (الشورى) ١٣٧	
قوله عز وجل : (احْمِمْ ، غَسَّقْ ، كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) إلى آخر الآية ٥ ١٣٨	
قوله عز وجل : (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ) إلى آخر الآية ٩ ١٤٣	

رقم الصفحة	الآية
١٤٥	قوله عز وجل : (وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب) إلى آخر الآية ١٢ ١٤٥
١٤٩	قوله عز وجل : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه) إلى آخر الآية ١٤ ١٤٩
١٥٢	قوله عز وجل : (فلذلك فادعُ واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم) إلى آخر الآية ١٦ ١٥٢
١٥٥	قوله عز وجل : (الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يُدريك لعل الساعة قريب) إلى آخر الآية ٢٠ ١٥٥
١٥٨	قوله عز وجل : (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) إلى آخر الآية ٢٣ ١٥٨
١٦٥	قوله عز وجل : (أم يقولون افترى على الله كذباً) إلى آخر الآية ٢٧ ١٦٥
١٧٠	قوله عز وجل : (وهو الذي يُنزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته) إلى آخر الآية ٣٣ ١٧٠
١٧٦	قوله عز وجل : (أو يؤيقهن بما كسبنه ويعف عن كثير) إلى آخر الآية ٣٨ ١٧٦
١٨٠	قوله عز وجل : (والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون) إلى آخر الآية ٤١ ١٨٠
١٨٣	قوله عز وجل : (إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويغيون في الأرض بغير الحق) إلى آخر الآية ٤٥ ١٨٣

الآية	رقم الصفحة
قوله عز وجل : (وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ومن يضل الله	...
فما له من سبيل) إلى آخر الآية ٤٨	١٨٨
قوله عز وجل : (لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء) إلى آخر	...
الآية ٥٣	١٩٠
تفسير سورة (الزخرف)	١٩٦
قوله عز وجل : (احم ، والكتاب المبين ، إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون)	...
إلى آخر الآية ٩	١٩٦
قوله عز وجل : (الذي جعل لكم الأرض مهدياً وجعل لكم فيها سُبُلًا لعلكم	...
تهتدون) إلى آخر الآية ١٤	٢٠١
قوله عز وجل : (وجعلوا له من عباده جزءاً إنَّ الإنسان لَكفور مبین) إلى آخر	...
الآية ١٩	٢٠٥
قوله عز وجل : (وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم	...
إن هم إلاَّ يخترصون) إلى آخر الآية ٢٥	٢١٠
قوله عز وجل : (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون) إلى آخر	...
الآية ٣٠	٢١٣
قوله عز وجل : (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم)	...
إلى آخر الآية ٣٥	٢١٦
قوله عز وجل : (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين)	...
إلى آخر الآية ٣٩	٢٢٢

- قوله عز وجل : (أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)
إلى آخر الآية ٤٥ ٢٢٦
- قوله عز وجل : (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ
رَبِّ الْعَالَمِينَ) إلى آخر الآية ٥٠ ٢٣٢
- قوله عز وجل : (وَنَادَى فِرْعَوْنَ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ
الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي) إلى آخر الآية ٥٦ ٢٣٥
- قوله عز وجل : (وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ) إلى آخر
الآية ٦٢ ٢٤٠
- قوله عز وجل : (وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ
لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا) إلى آخر
الآية ٦٨ ٢٤٥
- قوله عز وجل : (الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ) إلى آخر الآية ٧٣ ٢٤٩
- قوله عز وجل : (إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ خَالِدُونَ) إلى آخر
الآية ٨١ ٢٥٠
- قوله عز وجل : (سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ)
إلى آخر الآية ٨٥ ٢٥٦
- قوله عز وجل : (وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ) إلى آخر الآية ٨٩ ٢٥٨

رقم الصفحة	الآية
٢٦١	تفسير سورة (الدخان)
٢٦١	قوله عز وجل : (لحم ، والكتاب المبين . إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا مُنذِرِينَ) إلى آخر الآية ١٠
٢٦٧	قوله عز وجل : (يغشى الناس هذا عذاب أليم) إلى آخر الآية ١٨
٢٧٠	قوله عز وجل : (وأن لا تعلوا على الله إني آتيكم بسُلطان مبین) إلى آخر الآية ٢٨
٢٧٦	قوله عز وجل : (فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا مُنظرِينَ) إلى آخر الآية ٣٦
٢٨٢	قوله عز وجل : (أ هم خير أم قوم تُبّع والذين من قبلهم أَهلكتهم إناهم كانوا مجرمين) إلى آخر الآية ٤٤
٢٨٥	قوله عز وجل : (كالمهل يغلي في البطن ، كغلي الحميم) إلى آخر الآية ٥٩
٢٩٢	تفسير سورة (الحاثية)
٢٩٢	قوله عز وجل : (لحم ، تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ، إن في السموات والأرض لايات للمؤمنين) إلى آخر الآية ٦
٢٩٨	قوله عز وجل : (ويل لكل أفاك أثيم : يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم) إلى آخر الآية ١١

الآية	رقم الصفحة
قوله عز وجل : (اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لَتَجْرِي أَلْفُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) إلى آخر الآية ١٤	٣٠١
قوله عز وجل : (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) إلى آخر الآية ١٧	٣٠٦
قوله عز وجل : (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) إلى آخر الآية ٢١	٣٠٧
قوله عز وجل : (وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) إلى آخر الآية ٢٤	٣١٣
قوله عز وجل : (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبِعُوا آبَاءَنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) إلى آخر الآية ٢٩	٣١٨
قوله عز وجل : (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ) إلى آخر الآية ٣٣	٣٢٣
قوله عز وجل : (وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) إلى آخر الآية ٣٧	٣٢٦
تفسير سورة (الأحقاف)	٣٢٨
قوله عز وجل : (لَحْمٌ ، تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ، مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ) إلى آخر الآية ٦	٣٢٨
قوله عز وجل : (وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ) إلى آخر الآية ٩	٣٣٤

الآية	رقم الصفحة
قوله عز وجل : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدَ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنَ وَآمَنَ كُفَرْتُمْ) إِلَى آخِرِ	...
الآية ١١	٣٣٩
قوله عز وجل : (وَمِنْ قَبْلِهِ كُتِبَ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ) إِلَى آخِرِ	...
الآية ١٥	٣٤١
قوله عز وجل : (أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصَّدَقُ الَّذِي كَانُوا يُوْعَدُونَ) إِلَى آخِرِ	...
الآية ١٩	٣٥٠
قوله عز وجل : (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا) إِلَى آخِرِ	...
الآية ٢٢	٣٥٦
قوله عز وجل : (قَالَ إِنَّمَا أَلِمْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبْلِغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ) إِلَى آخِرِ	...
الآية ٢٦	٣٥٩
قوله عز وجل : (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَرَلَكُمْ مِنْ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) إِلَى آخِرِ	...
الآية ٢٩	٣٦٥
قوله عز وجل : (قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْخَلْقِ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ) إِلَى آخِرِ	...
الآية ٣٣	٣٧٢
قوله عز وجل : (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْخَلْقِ قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا) إِلَى آخِرِ	...
الآية ٣٥	٣٧٥

رقم
الصفحة

الآية

تفسير سورة (محمد) ... ٣٨١

قوله عز وجل : (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ) إلى آخر

الآية ٣ ... ٣٨٢

قوله عز وجل : (فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ

فَشُدُّوا أَلْوَتَاكُ) إلى آخر الآية ٩ ... ٣٨٤

قوله عز وجل : (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا) إلى آخر

الآية ١٣ ... ٣٩٢

قوله عز وجل : (أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ كُنْزٌ لَهُ سُوءٌ عَمَلِهِ) إلى آخر

الآية ١٦ ... ٣٩٤

قوله عز وجل : (وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ) إلى آخر

الآية ١٩ ... ٣٩٩

قوله عز وجل : (وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ) إلى آخر

الآية ٢٣ ... ٤٠٤

قوله عز وجل : (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) إلى آخر

الآية ٢٨ ... ٤٠٩

قوله عز وجل : (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ)

إلى آخر الآية ٣٢ ... ٤١٣

قوله عز وجل : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا

أَعْمَالَكُمْ) إلى آخر الآية ٣٥ ... ٤١٩

الآية	رقم الصفحة
قوله عز وجل : (إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِيبٌ وَلَهُمْ وَلَهُمْ وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ) إلى آخر الآية ٣٨ ٤٢٣	
تفسير سورة (الفتح) ٤٢٧	
قوله عز وجل : (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ، لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا) إلى آخر الآية ٤ ٤٢٨	
قوله عز وجل : (لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ) إلى آخر الآية ٧ ٤٣٤	
قوله عز وجل : (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) إلى آخر الآية ١٠ ٤٣٩	
قوله عز وجل : (سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا) إلى آخر الآية ١٢ ٤٤٣	
قوله عز وجل : (وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا) إلى آخر الآية ١٥ ٤٤٦	
قوله عز وجل : (قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّ عَوْنٍ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ) إلى آخر الآية ١٦ ٤٤٩	
قوله عز وجل : (لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ) إلى آخر الآية ١٩ ٤٥٢	
قوله عز وجل : (وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ) إلى آخر الآية ٢٤ ٤٥٧	

رقم
الصفحة

الآية

قوله عز وجل : (هم الذين كفروا وصدّوكم عن المسجد الحرام وأهلدي
معكوفاً أن يبلغ محله) إلى آخر الآية ٢٦ ٤٦٠

قوله عز وجل : (قد صدّق الله رسوله الرّؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام
إن شاء الله آمنين) إلى آخر الآية ٢٩ ٤٦٨

تفسير سورة (الحجرات) ٤٨١

قوله عز وجل : (يأيّها الذين آمنوا لا تُقدّموا بين يديّ الله ورسوله وأتقوا الله
إن الله سميع عليم) إلى آخر الآية ٣ ٤٨١

قوله عز وجل : (إن الذين يُنادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون)
إلى آخر الآية ٨ ٤٨٨

قوله عز وجل : (وإن طائفتان من المؤمنين أقتلتا فأصلحا بينهما) إلى آخر
الآية ١٠ ٤٩٥

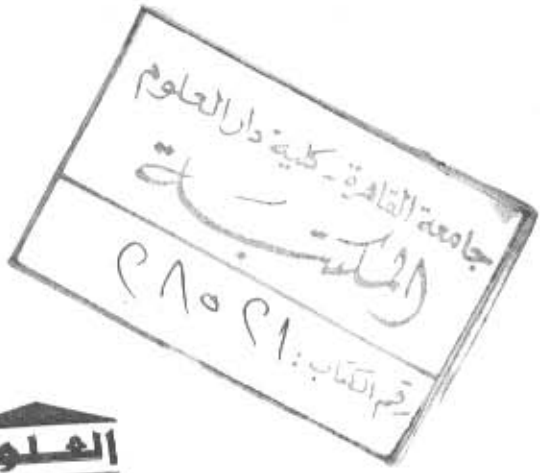
قوله عز وجل : (يأيّها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا
خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهن)
إلى آخر الآية ١٢ ٤٩٩

قوله عز وجل : (يأيّها الناس إنّنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً
وقبائل ليتعارفوا) إلى آخر الآية ١٤ ٥١٢

قوله عز وجل : (إنّما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهلوا
بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله) إلى آخر الآية ١٨ ٥١٩

الآية	رقم الصفحة
تفسير سورة (ق) ٥٢٣	
قوله عز وجل : (ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ ، بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ) إلى آخر الآية ٨ ٥٢٤	
قوله عز وجل : (وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ) إلى آخر الآية ١٥ ٥٣٣	
قوله عز وجل : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) إلى آخر الآية ٢١ ٥٣٩	
قوله عز وجل : (لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) إلى آخر الآية ٢٨ ٥٤٩	
قوله عز وجل : (مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدِيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) إلى آخر الآية ٣٥ ٥٥٦	
قوله عز وجل : (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ) إلى آخر الآية ٤٠ ٥٦٥	
قوله عز وجل : (وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ، يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ) إلى آخر الآية ٤٥ ٥٧٤	





مكتبة دار العلوم
الطباعة والنشر والتوزيع
ص. ب. ١٦٧١ - النجعة - قطر